

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

"سورة طه"

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

2	الفهرس
3	الفهرس(2)
11	مقدمة سورة طه
12	طه 1-8
55	طه 9-23
58	بيان ان قولهم ان الكلام قديم مخالف لصريح المعقول والمنقول
93	طه 24-46
121	طه 46-79
163	طه 80-98
177	طه 99-114
210	طه 115-129
282	طه 130-135

القهرس (2)

- 3 _____ القهرس (2)
- 11 _____ مقدمة سورة طه
- 11 _____ سورة طه هي سورة كتبه
- 11 _____ طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى

طه 1-8

- 12 _____ أسماء الحروف (فواتح السور)
- 13 _____ أسماء الله تبارك وتعالى متعددة كثيرة
- 14 _____ الخشية في القرآن مطلقة
- 14 _____ القرآن منزل من الله عز وجل وأنه كلامه
- 15 _____ من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه
- 16 _____ " الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة "
- 18 _____ المعاني التي تضاف إلى الخالق تارة وإلى المخلوق أخرى تذكر على ثلاثة أوجه
- 19 _____ إذا قيدت الأسماء والصفات بالخالق لم تدل على شيء من خصائص المخلوقين
- 22 _____ الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز
- 24 _____ مذهب السلف إثبات الصفات ونفي الكيفية عنها
- 26 _____ الأفعال اللازمة الأصل فيها الخبر لا العقل
- 36 _____ الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى
- 37 _____ الذى ليس له مثل فانه لا يعلم كيف هو الا هو
- 38 _____ الله على العرش لا يشك في هذه المقالة الا جهمي هالك مرتاب
- 40 _____ الخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين
- 40 _____ النسخ لا يجوز في الأخبار
- 41 _____ وصف الله تعالى نفسه بالعلو والاستواء على العرش والفوقية
- 43 _____ السلف كلهم انكروا على الجهمية النفاة وقالوا بالاثبات
- 46 _____ المبطل لتأويل من تول استوى بمعنى استولى وجوه
- 48 _____ بيان ما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله على العرش
- 50 _____ اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة
- 51 _____ أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك
- 53 _____ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }

طه 9-23

- 55 _____ الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع
- 56 _____ الذي كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين
- 57 _____ ليس في القرآن تكرار
- 58 _____ بيان ان قولهم ان الكلام قديم مخالف لصريح المعقول والمنقول
- 58 _____ 1-المؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا
- 60 _____ 2-الكلام أقسام وأنواع والله موصوف بها كلها
- 60 _____ 3- الذي نادى موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية
- 62 _____ 4-أخبر سبحانه عن نفسه بالنداء في أكثر من عشرة مواضع
- 63 _____ 5-التكليم الخاص الكامل لا يدخل فيه الوحي الخاص الخفى
- 65 _____ 6-كلام الله وما يدخل في كلامه من نداءه وغير ذلك ليس بمخلوق بانن منه بل هو منه
- 65 _____ 7-لم يزل الله متكلمًا إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته
- 66 _____ 8-بين الامام أحمد ما أنكرت الجهمية من أن يكون الله كلم موسى
- 67 _____ " خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم "
- 68 _____ يؤجر على الإستماع الذى يقصد
- 69 _____ موسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة
- 70 _____ " أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له "
- 72 _____ محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس
- 73 _____ الكمال الذى لا نقص فيه للممكن الوجود هو كمال مطلق لكل ما يتصف به
- 74 _____ كلام الله صفة من صفات ذاته ليس شىء من كلام الله خلق ولا مخلوق
- 75 _____ من قال ان كلام الله مخلوق خلقه فى الشجرة فيكون جعل الشجرة إليها أعظم كفرا من جعل
- 80 _____ أول من ابتدع الاقوال الجهمية المحضة النفاة الذين لا يثبتون الأسماء والصفات
- 82 _____ الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا
- 82 _____ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
- 83 _____ ذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة
- 84 _____ الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال
- 85 _____ الله سبحانه وتعالى أمر بإقامة الصلاة
- 86 _____ " من حفظ الصلاة وحافظ عليها حفظ دينه "
- 88 _____ المحبة التي لم توزن بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشرك وإتباع الأهواء
- 90 _____ ضعف إدراك القلب وقوته
- 91 _____ إذا حصل الخبر بما يوجب زوال الحزن والخوف زال
- 91 _____ لطائف لغوية

- 93 _____ اخبر الله تعالى عن عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول
- 94 _____ الرد على استدلال الرافضي بقوله تعالى { وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي } على إمامة علي
- 95 _____ الأمر بتسبيحه يقتضي إثبات صفات الكمال له
- 95 _____ الله تعالى خص موسى بمزية فوق الرضا
- 96 _____ الله سبحانه لا سمي له لا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى
- 99 _____ الحزن لم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بامر الدين
- 102 _____ " ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شانته "
- 105 _____ قال تعالى { لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } جعل ذلك نوعين لما في ذلك من الفوائد
- 107 _____ إذا قوى العلم والتذكر دفع الهوى وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم
- 110 _____ الداعي يجب أن يكون أمره لله
- 111 _____ من الايمان بالله الإيْمَانُ بما وصف به نفسه
- 111 _____ دل الكتاب والسنة ودلائل العقل على ان الله سميع بصير
- 113 _____ لفظ مع جاءت في القرآن عامة وخاصة
- 115 _____ الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور
- 117 _____ لفظ المعية ليست يراد بها اختلاط احدي الذاتين بالأخرى
- 118 _____ الصفات الاختيارية
- 119 _____ لطائف لغوية

- 122 _____ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
- 122 _____ الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة
- 123 _____ الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلة
- 124 _____ طريقة الانبياء الاستدلال على الرب تعالى بذكر آياته
- 126 _____ الهدى أربعة أقسام
- 128 _____ الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات
- 129 _____ خلق الله تعالى الأشياء بأسباب
- 130 _____ مدح الله وأثنى على من كان له عقل
- 130 _____ الاعادة المذكورة في قوله تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } ليست هي النشأة الثانية
- 131 _____ " كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء "
- 135 _____ القرآن لم يخبر بفناء العالم في المستقبل قط
- 135 _____ كل موطن في هذه الدار وفي البرزخ والقيامة له حكم يخصه

- الذين إستشكلوا فى قوله تعالى { إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَٰنِ } إنما إستشكلوه من جهة القياس لا من جهة السماع
- 136 _____
- 141 _____ معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية
- 142 _____ الخوف يحصل بغير اختيار العبد إذا لم يكن له ما يوجب الأمن
- 142 _____ السحرة واهل النجوم لا يفلحون لا فى الدنيا ولا فى الآخرة
- 143 _____ السحر مبناه على الشرك والكذب والظلم
- 144 _____ " من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد "
- 145 _____ دعوى المدعي ان السحر هي قوى نفسانية من أبطل الباطل
- 145 _____ السنة فى أسباب الخير والشر
- 146 _____ معالجة المصروع بالرقى والتعوذات فهذا على وجهين
- 148 _____ الحصر فى إنما هو من جنس الحصر بالنفى والإستثناء
- 149 _____ لو رأى الكفار آية من آيات الإيمان فسجدوا لله مؤمنين ب الله ورسوله لنفعمهم ذلك
- 150 _____ سنة الكفار فى الأنبياء
- 150 _____ لفظ الايمان ليس مرادفا للفظ التصديق من وجوه
- 153 _____ { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } _____
- 154 _____ اسم الخاطيء لم يجيء فى القرآن الا للاثم بمعنى الخطيئة
- 155 _____ المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه
- 156 _____ لما كان فى الدنيا ليس بحي الحياة النافعة ولا ميتا عديم الإحساس كان فى الآخرة كذلك
- 157 _____ هما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين
- 158 _____ اشترط الله للأعمال الصالحة الايمان واشترط للايمان الأعمال الصالحة
- 159 _____ يغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يركيه
- 160 _____ ما كان لموسى من الآيات ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح
- 161 _____ لطائف لغوية

163 طه 80-98

- 163 _____ ليس هذا التخصص لليهود منافيا التعميم للرسالة
- 164 _____ الاحلال والاعطاء قد يكون سعة وقد يكون عقوبة وفتنة
- 164 _____ لا طريق الى الله طريق المفرطين وطريق المعتدين
- 165 _____ قرن الصلاح والاصلاح بالايمان
- 166 _____ التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح
- 166 _____ المسارعة إلى الخيرات مأمور بها
- 168 _____ لم يلزم من اتفاق الاسمين اتفاقهما ولا تماثل المسمى
- 168 _____ صفات النقص تنافى الألوهية

- 169 لفظ الجسد في القرآن
- 170 عاب الله من يعبد إلهها لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر
- 171 بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره
- 173 العكوف عند قبر أو مقام هو من جنس دين المشركين
- 173 عبادة الله وحده هو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء
- 175 هذه الصيغة للواحد العظيم
- 175 لطائف لغوية

177 طه 99-114

- 177 القرآن أفضل الذكر
- 177 لم يقل الله تعالى ليتقون ويحدث لهم ذكرا
- 180 الجبال آية من آيات الله
- 180 { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا }
- 181 { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا }
- 190 الله سبحانه وتعالى نفى الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك
- 193 وصف الله نفسه بالعلم والقوة والرحمة
- 194 { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا }
- 195 الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه لا يفعله لعدله
- 199 الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك المأمور أو فعل المحظور
- 201 العبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر وذنب منه يحتاج فيه الى الاستغفار
- 202 من اتقى الله في عمل تقبله منه وان كان عاصيا في غيره
- 202 ليس على أحد من وزر غيره شيء
- 203 العمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له
- 204 اللسان العربي أكمل الألسنة
- 204 بين الله أنه أنزله عربيا لأن يتقوا والتقوى لا يكون الا مع العلم بمعانيه
- 206 تعاليه عن الشركاء يقتضي إختصاصه بالإلهية
- 206 الله سبحانه لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال
- 207 الواجب على كل مؤمن إن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده
- 207 الله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقيا وحفظه في قلبه
- 209 لطائف لغوية

210 طه 115-129

- 210 _____ جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهى عنه
- 211 _____ جميع الملائكة سجدوا لآدم
- 212 _____ يعرض لخاصة أهل العلم والدين من الوسواس أكثر مما يعرض للعامة
- 213 _____ علم الله من لوازم نفسه
- 214 _____ الوسواس في النفس يكون من الشيطان تارة ومن النفس
- 218 _____ من ظن ان القدر حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين
- 219 _____ من تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس
- 228 _____ إن لم يجد العريان للصلاة ألا حشيشا أو ورقا يربطه عليه لزمه الستر به
- 228 _____ الغي هو ضد الرشده
- 229 _____ ذكر الله هو الذكر الذي أنزله
- 230 _____ الناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي
- 232 _____ ستكون فتنة والمخرج منها كتاب الله
- 233 _____ ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا
- 235 _____ لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعا من قيام حجة الله تعالى عليهم
- 236 _____ من خرج عن النبوات وقع في الشرك وغيره
- 237 _____ أعلم الناس من كان رأيه وقياسه موافقا للنصوص
- 240 _____ تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة
- 243 _____ النعيم التام هو في الدين الحق
- 245 _____ من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل
- 246 _____ أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول
- 246 _____ ان الهدى ضد الضلال والفلاح ضد الشقاء
- 247 _____ من اتبع الهدى فلا يضل ولا يشقى
- 250 _____ أهل الهدى و الفلاح هم المتبعون للأنبياء
- 251 _____ اصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله
- 252 _____ المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض عنه ضال شقى
- 253 _____ ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها
- 255 _____ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
- 256 _____ كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا
- 257 _____ الانسان ان لم يعتصم بالذكر المنزل والا اقترب به الشيطان
- 257 _____ التوحيد رأس الأمر
- 258 _____ ذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله
- 259 _____ القرآن أفضل الذكر

- 260 الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر الله وفي شرعه
- 260 الكافر يضيق عليه قبره الى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك
- 262 اصل السعادة واصل النجاة من العذاب هو توحيد الله والعمل الصالح
- 264 أصول الاسلام أربعة دال ودليل ومبين ومستدل
- 274 لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم
- 274 نسيان آيات الله هو ترك الإيمان والعمل بها وإن حفظ حروفها
- 275 الكفر اذا ذكر مفردا في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون
- 275 العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه
- 276 مدح الله وأثنى على من كان له عقل
- 276 آثار القوم المعذبين للمشاهدة ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم
- 277 القرآن و السنة تثبت القدر
- 278 الحق الذي على الله هو أحقه على نفسه
- 279 لطائف لغوية

282 طه 135-130

- 282 الصبر واجب على أداء الواجبات وترك المحظورات
- 283 أعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة
- 284 النصر والعاقبة بالصبر والتقوى
- 284 العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب فيها
- 286 سبحان الله وبحمده اثبات تنزيهه وتعظيمه والهيته وحمده
- " انكم سترون ربكم فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا "
- 288
- 290 فعل الصلاة في الوقت المضروب لها ففرض و تأخيرها عنه عمدا من الكبائر
- 293 أكثر آيات القرآن بدأت بالفجر
- 293 جمع الله بين الصلاة والصبر
- 293 الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوعان
- 294 " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "
- 296 الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها
- 296 النظر إلى زينة الحياة فتنة
- 298 " فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه "
- 299 من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين
- وسئل رحمه الله عن له زوجة لا تصلي هل يجب عليه أن يأمرها بالصلاة وإذا لم تفعل هل يجب عليه أن يفارقها أم لا
- 302

- 302 _____ العاقبة للمتقين وأما غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة
- 302 _____ قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى
- 303 _____ أن الشارع لم ينقل الأسماء لم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة
- 304 _____ إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته
- 304 _____ إذا جادل القران يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية
- 305 _____ أصل العلم الإلهي ومبدأه
- 306 _____ أحكام الكفر و التآديب لا تثبت إلا بعد بلوغ الرسالة
- 307 _____ خص الله طريقه باسم الصراط
- 307 _____ لطائف لغوية

مقدمة سورة طه

سورة طه هي سورة كتبه

سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه فهي سورة كتبه كما أن مريم سورة عباده ورسله إفتحها بقوله {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} {2} إِلَّا تَذَكْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى} {3} تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى} {4} طه 2-4 ثم ذكر قصة موسى ونداء الله له ومناجاته إياه وتكليمه له وقصته من أبلغ أمر الرسل فهذا تثبت في القرآن لأنه حصل له الخطاب والكتاب وأرسل إلى فرعون الجاحد المرتاب المكذب للربوبية والرسالة وهذا أعظم الكافرين عنادا وإستوفى القصة في هذه السورة إلى قوله {رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} طه 114 ثم ذكر قصة آدم لأنها أول النبوات وتضمنت السورة ذكر موسى وادم لما بينهما من المناسبة مما يقتضي ذكرهما ولما بينهما من المناظرة فإن موسى نظير آدم في الأمر الذي صار لكل منهما كما أن المسيح نظير آدم في الخلق وقوله {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى} طه 123 الآيات وهذا يشابه ما في القرآن في غير موضع من ذكر نبوة آدم ثم نبوة موسى بعده وأمر بني إسرائيل ثم أمر نبيه بالصلاة التي في القرآن كما جمع بين الأمرين بالقراءة والسجود في أول سورة أنزلت وختمها بالرسول المبلغ لكل ما أمر به كما إفتحها بذكر التنزيل عليه¹

طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى

وأما **سورة طه** و سورة الشعراء مما بسط فيه قصة موسى فالمقصود الأعظم بقصة موسى إثبات الصانع ورسالته إذ كان فرعون منكرًا ولهذا عظم ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره فإن فيها الرد على المشركين المقرين بالصانع ومن جعل له ولدا من المشركين وأهل الكتاب ومذهب الفلاسفة الملحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الإيجاب الذاتي فإنه أحد أنواع الولادة وهم ينكرون معاد الأبدان وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أُنَدَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا} {66} أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} {67} مريم 66-67 إلى قوله {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} مريم 88 وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصارى ومشركي العرب لأن الفلاسفة داخلون فيهم فإن اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فاما شتمه إياي فقول له إني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد وأما تكذيبه إياي فقول له لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته رواه البخاري عن ابن عباس ولما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولدا كان تنزيهه عنه أكثر وكلاهما يقتضي إثبات مثل وند من بعض الوجوه فإن الولد من جنس الوالد ونظير له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقير فيمتنع وجود قادر بنفسه فالذي

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 237

جعل الله شريكا لو فرض مكافئا لزم إفتقار كل منهما وهو ممتنع وإن كان غير مكافئ فهو مقهور والولد يتخذ المتخذ لحاجته إلى معاونته له كما يتخذ المال فان الولد إذا اشتد أعان والده¹

~ §§ طه (مكية) 135 §§ ~

طه 1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

{1} طه {1} مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى {2} إِلَّا تَذَكْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى {3} تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى {4} الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {5} لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى {6} وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى {7} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى {8}

أسماء الحروف (فواتح السور)

قال تعالى { طه {1} مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى {2} إِلَّا تَذَكْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى {3} طه 1-3 ليس في القرآن من حروف الهجاء التي هي أسماء الحروف إلا نصفها وهي أربعة عشر حرفا وهي نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء أو الأفعال أو حروف المعاني التي ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن لكن نفس حروف المعجم التي هي أبعاض الكلام موجودة في القرآن بل قد اجتمعت في آيتين إحداهما في آل عمران والثانية في سورة الفتح {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً مَّا كَانَ يُرِيدُ أَن يُخَافَكُمْ فَكَرِهْنَا بِاللِّسَانِ} الآية 29 الفتح الآية 2

أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الإسمية و الفعلية و انما هي أسماء موقوفة و لهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا ز ا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهي

¹ النبوات ج: 1 ص: 20

² - مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 448-449

في اللفظ أسماء و في الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي صلى الله عليه و سلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسما و فعلا و حرفا و لهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الإسم حرف و الفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل و هذه حروف المعاني التي يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة و لا يقال فيها معرب و لا مبنى لأن ذلك إنما يقال في المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا و هي المتشابهة كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب و أيضا فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابهة و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء¹

أسماء الله تبارك وتعالى متعددة كثيرة

قال تعالى { طه } {1} مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى {2} إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى {3} تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى {4} الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {5} لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى {6} وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى {7} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى {8} طه 1-8 أن أسماء الله تبارك وتعالى متعددة كثيرة وفي الصحيحين عن النبي أنه قال إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة وهذا معناه في أشهر قولي العلماء وأصحهما أن من أسمائه تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة وإلا فأسماؤه تبارك وتعالى أكثر من ذلك كما في الحديث الآخر الذي رواه أحمد في مسنده وأبو حاتم في صحيحه عن ابن مسعود عن النبي أنه قال ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن وقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدل مكانه فرحا قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن²

¹ - مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 420-421 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 411 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص:

الخشية فى القرآن مطلقة

قال تعالى { طه } 1 { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } 2 { إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى } 3 { تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى } 4 طه 1-4 و الخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة

القرآن منزل من الله عز وجل وأنه كلامه¹

قال تعالى { طه } 1 { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } 2 { إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى } 3 { تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى } 4 طه 1-4 ونفاة الصفات يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء لوجهين أحدهما أن الإنزال إنما يكون من علو و الله تعالى عندهم ليس فى العلو فلم ينزل منه شيء و قد قال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } الأنعام 114 { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الأحقاف 2 إلى غير ذلك و قولهم أنه خلقه فى مخلوق و نزل منه باطل لأنه قال { أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } الأنعام 114 ولم يجيء هذا فى غير القرآن و الحديد ذكر أنه أنزله مطلقا و لم يقل منه وهو منزل من الجبال و المطر أنزل من السماء و المراد أنه أنزله من السحاب وهو المزن كما ذكر ذلك فى قوله { أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ } الواقعة 69 و الثانى أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له و كلاما له فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل و لأن الله لا يتصف بالمخلوقات و لو إتصف بذلك لاتصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات و متحرك إذا خلق الحركات فى غيره إلى غير ذلك إلى أن قال فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره و أنهم داخلون فى هذه الآية و أنهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل ولا على الكلام بمشيئته ولا على نزوله و على إنزاله منه شيئا فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدره الله وأنه إلى كل شيء قدير و إذا لم يكن قديرا لم يكن قويا و يلزمهم أنه لم يخلق شيئا فيلزمهم الدخول فى قوله { ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } 73 { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحج 73-74 فهم ينفون حقيقة قدرته فى الأزل و حقيقة قولهم أنه صار قادرا بعد أن لم يكن و القدرة التى يثبتونها لاحقيقة لها وهذا أصل مهم من تصوره عرف حقيقة الأقوال الباطلة و ما يلزمها من اللوازم و عرف الحق الذى دل عليه صحيح المنقول و صريح المعقول لاسيما فى هذه الأصول التى هي أصول كل الأصول و الضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرما الوصول و قد تبين أنه كلما تحققت الحقائق و أعطى النظر و الاستدلال حقه من التمام كان ما دل عليه القرآن هو الحق وهو الموافق للمعقول الصريح الذى لم يشتبهه بغيره مما يسمى معقولا وهو مشتبه مختلط كما قال مجاهد فى قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا } الأنعام 159 قال هم أهل البدع و الشبهات فهم فى أمور مبتدعة فى الشرع مشتبهة فى العقل و الصواب هو ما كان موافقا للشرع مبينا فى العقل فإن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه و أنه تنزيل منه وأنه كلامه وأنه قوله و أنه كفر من قال أنه قول البشر و أخبر أنه

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 175

قول رسول كريم من الملائكة و رسول كريمى من البشر و الرسول يتضمن المرسل فبين أن كلا من الرسولين بلغه لم يحدث هو منه شيئاً و أخبر أنه جعله قرآنا عربيا¹

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

قال تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه⁵ فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت والايمن بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثل شىء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {182} الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه²⁵

فان الكتاب والسنة مع العقل دلت على أن الله لا تماثله المخلوقات فى شىء من الاشياء ودلت على أن الله غنى عن كل شىء ودلت على أن الله مباين للمخلوقات عال عليها وان كان يعتقد أن الخالق تعالى بائن عن المخلوقات وانه فوق سمواته على عرشه بائن من مخلوقاته ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته وان الله غنى عن العرش وعن كل ما سواه لا يفتقر الى شىء من المخلوقات بل هو مع استوائه على عرشه يحمل العرش وحملة العرش بقدرته ولا يمثل استواء الله باستواء المخلوقين بل يثبت لله ما اثبتة لنفسه من الأسماء والصفات وينفى عنه مماثلة المخلوقات ويعلم أن الله ليس كمثل شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا أفعاله فهذا مصيب فى اعتقاده موافق لسلف الأمة وأئمتها فان مذهبهم أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل فيعلمون أن الله بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير وأنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كلم موسى تكليما وتجلى للجبل فجعله دكا هشيما ويعلمون أن الله ليس كمثل شىء فى جميع ما وصف به نفسه وينزهون الله عن صفات النقص والعيب ويثبتون له صفات الكمال ويعلمون أنه ليس له كفو

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 26- 28

²العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 14 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 131

أحد في شيء من صفات الكمال قال نعيم بن حماد الخزاعي من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها والله أعلم¹

فانه قد روى من غير وجه أن سائلا سأل مالكا عن قوله **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** طه5 كيف استوى فأطرق مالك حتى علاه الرخصاء ثم قال الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا رجل سوء ثم أمر به فأخرج ومثل هذا الجواب ثابت عن رببعة شيخ مالك وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا ولكن ليس اسناده مما يعتمد عليه وهكذا سائر الأئمة قولهم يوافق قول مالك في أنا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته ولكن نعلم المعنى الذي دل عليه الخطاب فنعلم معنى الاستواء ولا نعلم كيفيته وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة ولا نعلم كيفية ذلك ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك²

" الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة "

قال تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** طه5 فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به في الجنة من اللحم واللبن والعسل والماء والحريير والذهب فإن بين هذا وبين ما في الدنيا تشابه في اللفظ والمعنى ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا وقد قال الله تعالى **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** السجدة17 وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهذا الذي وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله وأشراتها وكذلك كيفية ما يكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب لا يعلم كيفيته إلا الله فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك فإن كيفية ذلك لا يعلمها إلا الله كما قال رببعة بن أبي عبدالرحمن ومالك بن أنس وسائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** طه5 كيف استوى فقال الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة هذا لفظ مالك فأخبر أن الإستواء معلوم وهذا تفسير اللفظ وأخبر أن الكيف مجهول وهذا هو الكيفية التي استأثر الله بعلمها وكذلك سائر السلف كابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما يبينون أن العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فالكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله وأما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فإنهم يفهمون معنى السمع ومعنى البصر وأن مفهوم هذا ليس هو مفهوم هذا ويعرفون الفرق بينهما وبين العليم والقدير وإن كانوا لا يعرفون كيفية سمعه وبصره بل الروح التي فيهم يعرفونها من حيث الجملة ولا يعرفون كيفيتها كذلك يعلمون معنى الإستواء على

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 263

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 365

العرش وأنه يتضمن علو الرب على عرشه وإرتفاعه عليه كما فسره بذلك السلف قبلهم و هذا معنى معروف من اللفظ لا يحتمل في اللغة غيره كما قد بسط في موضعه و لهذا قال مالك الإستواء معلوم ومن قال الإستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فإنهم يقولون إستوى فقط ولا يصلونه بحرف وهذا له معنى و يقولون إستوى على كذا وله معنى وإستوى الى كذا و له معنى و إستوى مع كذا و له معنى فتنوع معانيه بحسب صلاته وأما إستوى على كذا فليس في القرآن ولغة العرب المعروفة إلا بمعنى واحد قال تعالى { فَازْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ } {الفتح 29} وقال { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } {هود 44} وقال { لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ } {الزخرف 13} وقال { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ } {المؤمنون 28} وقد أتى النبي صلى الله عليه و سلم بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الغرز قال بسم الله فلما إستوى على ظهرها قال الحمد لله و قال ابن عمر أهل رسول الله صلى الله عليه و سلم بالحج لما إستوى على بغيره و هذا المعنى يتضمن شيئين علوه على ما إستوى عليه و إعتداله أيضا فلا يسمون المائل على الشيء مستويا عليه و منه حديث الخليل بن أحمد لما قال إستواوا و قوله ثم استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق هو من هذا الباب فإن المراد به بشر بن مروان و إستواؤه عليها أي على كرسي ملكها لم يرد بذلك مجرد الإستيلاء بل إستواء منه عليها إذ لو كان كذلك لكان عبدالملك الذي هو الخليفة قد إستوى أيضا على العراق و على سائر مملكة الإسلام و لكان عمر بن الخطاب قد إستوى على العراق و خراسان و الشام و مصر و سائر ما فتحه و لكان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد إستوى على اليمن و غيرها مما فتحه و معلوم أنه لم يوجد في كلامهم إستعمال الإستواء في شيء من هذا و إنما قيل فيمن إستوى بنفسه على بلد فإنه مستو على سرير ملكه كما يقال جلس فلان على السرير و قعد على التخت و منه قوله { وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا } {يوسف 100} وقوله { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } {النمل 23} وقول الزمخشري و غيره إستوى على كذا بمعنى مالك دعوى مجردة فليس لها شاهد في كلام العرب و لو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلا في إستواء الله على العرش لأنه أخبر أنه خلق السموات و الأرض في ستة أيام ثم إستوى على العرش و قد أخبر أن العرش كان موجودا قبل خلق السموات و الأرض كما دل على ذلك الكتاب و السنة و حينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه فكيف يكون الإستواء عليه مؤخرا عن خلق السموات و الأرض وأيضا فهو مالك لكل شيء مستول عليه فلا يخص العرش بالإستواء و ليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله { رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } {التوبة 129} فإنه قد يخص لعظمته و لكن يجوز ذلك في سائر المخلوقات فيقال { رَبُّ الْعَرْشِ } {التوبة 129} و { رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } {الأنعام 164} و أما الإستواء فمختص بالعرش فلا يقال إستوى على العرش و على كل شيء و لا إستعمل ذلك أحد من المسلمين في كل شيء و لا يوجد في كتاب و لا سنة كما إستعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة و في كل شيء عامة و كذلك لفظ الخلق و نحوه من الألفاظ التي تخص و تعم كقوله تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } {1} { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } {2} {العلق 1-2} فالإستواء من الألفاظ المختصة بالعرش لا تضاف الى غيره لا خصوصا و لا عموما و هذا مبسوط في موضع آخر¹

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 373-375 و مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 398-400

المعاني التي تضاف إلى الخالق تارة وإلى المخلوق أخرى تذكر على ثلاثة

أوجه

أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عباده وصفاته بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه رؤوفاً رحيمًا بقوله { وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } آل عمران 30 وسمى بعض عباده رؤوفاً رحيمًا بقوله { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } التوبة 128 وليس الرؤوف كالرؤف وهذه المعاني التي تضاف إلى الخالق تارة وإلى المخلوق أخرى تذكر على ثلاثة أوجه تارة تقيد بالإضافة إلى الخالق أو بإضافته إليها كقوله تعالى { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ } البقرة 255 وتارة تتقيد بالمخلوق كقوله { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ } آل عمران 18 وتارة تطلق مجردة فإذا قيدت بالخالق لم تدل على شيء من خصائص المخلوقين فإذا قيل علم الله وقدرته واستواؤه ومجيئه ويده ونحو ذلك كانت هذه الإضافة توجب ما يختص به الرب الخالق وتمنع أن يدخل فيها ما يختص به المخلوق وكذلك إذا قيل { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } المؤمنون 28 كانت هذه الإضافة توجب ما يختص بالعباد وتمنع أن يدخل في ذلك ما يختص بالرب عز وجل وإذا جرد اللفظ عن القيود فذكر بوصف العموم والإطلاق تناول الأمرين كسائر الألفاظ التي تطلق على الخالق والمخلوق وهذه للناس فيها أقوال قيل إنها حقيقة في الخالق مجاز في المخلوق كقول أبي العباس الناشيء وقيل بالعكس كقوله غلاة الجهمية والباطنية والفلاسفة وقيل حقيقة فيهما وهو قول الجمهور ثم قيل هي مشتركة اشتراكاً لفظياً وقيل متواطئة وهو قول الجمهور ثم من جعل المشككة نوعاً من المتواطئة لم يمتنع عنده إذا قيل مشككة أن تكون متواطئة ومن جعل ذلك نوعاً آخر جعلها مشككة لا متواطئة وهذا نزاع لفظي فإن المتواطئة التواطؤ العام يدخل فيها المشككة إذ المراد بالمشككة ما يتفاضل معانيها في مواردها كلفظ الأبيض الذي يقال على البياض الشديد كبياض الثلج والخفيف كبياض العاج والشديد أولى به ومعلوم أن مسمى البياض في اللغة لا يختص بالشديد دون الخفيف فكان اللفظ دالاً على ما به الاشتراك وهو المعنى العام الكلي وهو متواطئ بهذا الاعتبار وهو اعتبار التفاضل يسمى مشككا وأما إذا أريد بالواطئ ما تستوي معانيه كانت المشككة نوعاً آخر لكن تخصيص لفظ المتواطئة بهذا عرف حادث وهو خطأ أيضاً فإن عامة المعاني العامة تتفاضل والتمائل فيها في جميع مواردها بحيث لا تتفاضل في شيء من مواردها إما قليل وإما معدوم فلو لم تكن هذه الأسماء متواطئة بل مشككة كان عامة الأسماء الكلية غير متواطئة وهذا مبسوط في موضع آخر والمقصود هنا أن الله سبحانه وتعالى إذا أضاف إلى نفسه ما أضافه إضافة يختص بها وتمنع أن يدخل فيها شيء من خصائص المخلوقين وقد قال مع ذلك إنه ليس كمثله شيء وإنه لم يكن له كفواً أحد وأنكر أن يكون له سمي كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق قد أتى من سوء فهمه ونقص عقله لا من قصور في بيان الله ورسوله ولا فرق في ذلك بين صفة وصفة فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عرض محدث باضطرار أو اكتساب فمن نفسه أتى وليس في قولنا علم الله ما يدل على ذلك والمقصود هنا أن الله سبحانه وتعالى إذا أضاف إلى نفسه ما أضافه إضافة يختص بها وتمنع أن يدخل فيها شيء من خصائص المخلوقين وقد قال مع ذلك إنه ليس كمثله شيء وإنه لم يكن له كفواً أحد وأنكر أن يكون له سمي كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق قد أتى من سوء فهمه ونقص عقله لا من قصور في بيان الله ورسوله ولا فرق في ذلك بين صفة وصفة فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عرض محدث باضطرار أو اكتساب فمن نفسه أتى وليس في قولنا علم الله ما يدل على ذلك

وكذلك من فهم من قوله { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } المائدة 64 الآية { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ } ص 75 ما يختص به المخلوق من جوارحه وأعضائه فمن نفسه أوتي فليس في ظاهر هذا اللفظ ما يدل على ما يختص به المخلوق كما في سائر الصفات وكذلك إذا قال { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 من فهم من ذلك ما يختص بالمخلوق كما يفهم من قوله { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } المؤمنون 28 فمن نفسه أتي فإن ظاهر اللفظ يدل على استواء يضاف إلى الله عز وجل كما يدل في تلك الآية على استواء يضاف إلى العبد وإذا كان المستوي ليس مماثلاً للمستوي لم يكن الاستواء مماثلاً للاستواء فإذا كان العبد فقيراً إلى ما استوى عليه يحتاج إلى حمله وكان الرب عز وجل غنياً عن كل ما سواه والعرش وما سواه فقيراً إليه وهو الذي يحمل العرش وحملة العرش لم يلزم إذا كان الفقير محتاجاً إلى ما استوى عليه أن يكون الغني عن كل شيء وكل شيء محتاج إليه محتاجاً إلى ما استوى عليه وليس في ظاهر كلام الله عز وجل ما يدل على ما يختص به المخلوق من حاجة إلى حامل وغير ذلك بل توهم هذا من سوء الفهم لا من دلالة اللفظ لكن إذا تخيل المتخيل في نفسه أن الله مثله تخيل أن يكون استواءه كاستوائه وإذا عرف أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله علم أن استواءه ليس كاستوائه ولا مجيئه كمجيئه كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه وما بين الأسماء من المعنى العام الكلي كما بين قولنا حي وحي وعالم وعالم وهذا المعنى العام الكلي المشترك لا يوجد عاماً كلياً مشتركاً إلا في العلم والذهن وإلا فالذي في الخارج أمر يختص بالموصوف فصفات الرب عز وجل مختصة به وصفات المخلوق مختصة به ليس بينهما اشتراك ولا بين مخلوق ومخلوق¹ يكون استواءه كاستوائه وإذا عرف أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله علم أن استواءه ليس كاستوائه ولا مجيئه كمجيئه كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه وما بين الأسماء من المعنى العام الكلي كما بين قولنا حي وحي وعالم وعالم وهذا المعنى العام الكلي المشترك لا يوجد عاماً كلياً مشتركاً إلا في العلم والذهن وإلا فالذي في الخارج أمر يختص بالموصوف فصفات الرب عز وجل مختصة به وصفات المخلوق مختصة به ليس بينهما اشتراك ولا بين مخلوق ومخلوق¹

إذا قيدت الأسماء والصفات بالخالق لم تدل على شيء من خصائص المخلوقين

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به إذا اضيفت إليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء إذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تمائل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلاً عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حياً فقال { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة 255 وسمى بعض عباده حياً فقال { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } البقرة 255

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 426

الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ { الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} { الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بأنه استوى على عرشه فذكر ذلك في سبع مواضع من كتابه أنه استوى على العرش فقال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} { طه 5} ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره في مثل قوله {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} { المؤمنون 28} وليس الاستواء كالإستواء

وقوله وقوله {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} { هود 44} وليس الاستواء كالإستواء¹

ان كثيرا من الناس يتوهم في بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير أحدها كونه مثل ما ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل الثاني أنه اذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من اثبات الصفات اللائقة بالله فيبقى مع جنابته على النصوص وظنه السيء الذي ظنه بالله ورسوله حيث ظن ان الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل قد عطل ما اودع الله ورسوله في كلامهما من اثبات الصفات لله والمعاني الالهية اللائقة بجلال الله تعالى الثالث أنه ينفي تلك الصفات عن الله عز وجل بغير علم فيكون معطلا لما يستحقه الرب الرابع أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الاموات والجمادات أو صفات المعدومات فيكون قد عطل به صفات الكمال التي يستحقها الرب ومثله بالمنقوصات والمعدومات وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات فيجمع في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل فيكون ملحدا في أسماء الله وآياته مثال ذلك ان النصوص كلها دلت على وصف الإله بالعلو والوقية على المخلوقات استوائه على العرش فأما علوه ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل الموافق للسمع واما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع وليس في الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا مداخله فيظن المتوهم أنه اذا وصف بالإستواء على العرش كان استوائه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام كقوله { وَجَعَلْ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ } {12} { لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ } {13} { الزخرف 12-13} فيتخيل له انه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه كحاجة المستوى على الفلك والأنعام فلو غرقت السفينة لسقط المستوى عليها ولو عثرت الدابة لخر لمستوى عليها فقياس هذا انه لو عدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى ثم يريد بزعمه ان ينفي هذا فيقول ليس استوائه بقعود ولا إستقرار ولا يعلم ان مسمى القعود والاستقرار يقال فيه ما يقال في مسمى الاستواء فان كانت الحاجة داخلة في ذلك فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار وليس هو بهذا المعنى مستويا ولا مستقرا ولا قاعدا وإن لم يدخل في مسمى ذلك إلا ما يدخل في مسمى الإستواء فاثبات أحدهما ونفي الآخر تحكم وقد علم أن بين مسمى الإستواء والاستقرار والقعود

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 15

فروقا معروفة ولكن المقصود هنا أن يعلم خطأ من ينفي الشيء مع اثبات نظيره وكان هذا الخطأ من خطئه في مفهوم إستوائه على العرش حيث ظن انه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك وليس في هذا اللفظ ما يدل على ذلك لأنه أضاف الإستواء الى نفسه الكريمة كما اضاف اليه سائر أفعاله وصفاته فذكر انه خلق ثم استوى كما ذكر انه قدر فهدى وانه بنى السماء بأيد وكما ذكر أنه مع موسى وهرون يسمع ويرى وأمثال ذلك فلم يذكر إستواء مطلقا يصلح للمخلوق ولا عاما يتناول المخلوق كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته وإنما ذكر إستواء أضافه الى نفسه الكريمة فلو قدر على وجه الفرض الممتنع انه هو مثل خلقه تعالى عن ذلك لكان استوائه مثل استواء خلقه أما اذا كان هو ليس ممثلا لخلق بل قد علم انه الغنى عن الخلق وأنه الخالق للعرش ولغيره وان كل ما سواه مفتقر اليه وهو الغنى عن كل ما سواه وهم لم يذكر الا استواءا يخصه لم يذكر استواءا يتناول غيره ولا يصلح له كما لم يذكر في علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختص به فكيف يجوز ان يتوهم أنه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه وانه لو سقط العرش لخر من عليه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا هل هذا الا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله أو جوز ذلك على رب العالمين الغنى عن الخلق بل لو قدر أن جاهلا فهم مثل هذا وتوهمه لبين له ان هذا لا يجوز وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلا كما لم يدل على نظائره في سائر ما وصف به الرب نفسه فلما قال سبحانه وتعالى {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ {الذاريات47} فهل يتوهم متوهم ان بناءه مثل بناء الأدمى المحتاج الذي يحتاج الى زنبيل ومجارف وضرب لبن وجبل طين وأعوان ثم قد علم ان الله تعالى خلق العالم بعضه فوق بعض ولم يجعل عاليه مفتقرا الى سافله فالهواء فوق الارض وليس مفتقرا الى ان تحمله الارض والسحاب أيضا فوق الأرض وليس مفتقرا الى ان تحمله والسموات فوق الارض وليست مفتقرة الى حمل الأرض لها فالعلى الأعلى رب كل شيء ومليكه إذا كان فوق جميع خلقه كيف يجب ان يكون محتاجا الى خلقه أو عرشه أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزم في المخلوقات وقد علم أن ما ثبت لمخلوق من الغنى عن غيره فالخالق سبحانه وتعالى أحق به وأولى وكذلك قوله {أَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} {الملك16} من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السموات فهو جاهل ضال بالإتفاق وإن كنا إذا قلنا إن الشمس والقمر في السماء يقتضى ذلك فان حرف في متعلق بما قبله وبما بعده فهو بحسب المضاف اليه ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان وكون الجسم في الحيز وكون العرض في الجسم وكون الوجه في المرأة وكون الكلام في الورق فان كل نوع من هذه الانواع خاصة يتميز بها عن غيره وان كان حرف في مستعملا في ذلك فلو قال قائل العرش في السماء أو في الارض لقليل في السماء ولو قيل الجنة في السماء أم في الأرض لقليل الجنة في السماء ولا يلزم من ذلك ان يكون العرش داخل السموات بل ولا الجنة فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفها عرش الرحمن فهذه الجنة سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك مع ان الجنة في السماء يراد به العلو سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها قال تعالى {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ} {الحج15} وقال تعالى {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} {الفرقان48} ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلى الأعلى وأنه فوق كل شيء كان المفهوم من قوله إنه في السماء أنه في العلو وأنه فوق كل شيء وكذلك الجارية لما قال لها أين الله قالت في السماء إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها واذا قيل العلو فانه يتناول ما فوق المخلوقات كلها فما فوقها كلها هو في السماء ولا يقتضى هذا ان يكون هناك ظرف وجودى يحيط به اذ ليس فوق العالم شيء موجود الا الله

كما لو قيل العرش في السماء فإنه لا يقتضى أن يكون العرش في شيء آخر موجود مخلوق وان قدر ان السماء المراد بها الافلاك كان المراد انه عليها كما قال {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ طه 71} وكما قال {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} آل عمران 137 وكما قال {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ} التوبة 2 ويقال فلان في الجبل وفي السطح وإن كان على أعلى شيء فيه¹

الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز

قال أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره ثنا عصام بن الرواد ثنا آدم ثنا ابو جعفر عن الربيع عن أبي العالية {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} فصلت 11 يقول ارتفع قال وروى عن الحسن يعني البصرى والربيع بن أنس مثله كذلك وذكر البخارى في صحيحه في كتاب التوحيد قال قال أبو العالية {اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} فصلت 11 ارتفع فسوى خلقهن وقال مجاهد {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الأعراف 54 علا على العرش وكذلك ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره في قوله {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الأعراف 54 وروى بهذا الاسناد عن أبي العالية وعن الحسن وعن الربيع مثل قول أبي العالية وروى باسناده {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الأعراف 54 قال في اليوم السابع وقال أبو عمرو الطلمنكى أحد أئمة المالكية قبل ابن عبد البر والباجى وطبقتهما في كتاب الوصول الى معرفة الأصول وأجمعوا يعني أهل السنة والجماعة على ان الله عرشا وعلى أنه مستو على عرشه وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه قال فأجمع المسلمون من اهل السنة على أن معنى {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} الحديد 4 ونحو ذلك في القرآن ان ذلك علمه وان الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء قال وقال أهل السنة في قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز واستدلوا بقول الله {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} المؤمنون 28 وبقوله {لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} الزخرف 13 وبقوله {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} هود 44 الا أن المتكلمين من اهل الاثبات في هذا على أقوال فقال مالك رحمه الله ان الاستواء معقول والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وقال عبدالله بن المبارك ومن تابعه من اهل العلم وهم كثير ان معنى استوى على العرش استقر وهو قول القتيبي وقال غير هؤلاء استوى أى ظهر²

وقال ابن عبد البر في التمهيد شرح الموطأ وهو أشرف كتاب صنف في فنه لما تكلم على حديث النزول قال هذا حديث ثابت لا يختلف أهل الحديث في صحته وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة وهو من حجتهم على المعتزلة في قولهم انه في كل مكان وليس على العرش قال والدليل على صحة ما قاله أهل الحق قول الله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وقال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر 10 وقال {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} المعارج 4 وقال {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمُ خذْ الكتابَ بِرَأْسِكَ وَارْفَعْكَ إِلَيْنَا} آل عمران 55 وذكر آيات الى أن قال وهذا أشهر عند العامة والخاصة من أن يحتاج الى

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 49-52

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 519

أكثر من حكايته لانه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ولا خالفهم فيه مسلم وهذا مثل ما ذكر محمد بن طاهر عن ابي جعفر الهمداني أنه حضر مجلس بعض المتكلمين فقال كان الله ولا عرش فقال يا أستاذ دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورات التي نجدها في قلوبنا ما قال عارف قط يا الله الا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو لا تلتفت يمينا ولا يسرة فضرب بيده على رأسه وقال حيرني الهمداني حيرني الهمداني أراد الشيخ أن إقرار الفطر بأن معبودها ومدعوها فوق هو أمر ضروري عقلي فطري لم تستفده من مجرد السمع بخلاف الاستواء على العرش بعد خلق السموات والارض في ستة أيام فان هذا علم من جهة السمع ولهذا لا تعرف أيام الاسبوع الا من جهة المقربين بالنبوات فاما من لا يعرف ذلك كالترك المشركين فليس في لغتهم أسماء أيام الاسبوع وهذا من حكمة اجتماع أهل كل ملة في يوم واحد في الاسبوع كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى وقال أيضا الذي عليه أهل السنة وأئمة الفقه والأثر في هذه المسألة وما أشبهها الإيمان بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم والتصديق بذلك وترك التحديد والكيفية في شيء منه¹

قال ابن تيمية ولما اجتمعنا بدمشق وأحضر فيمن أحضر كتب أبي الحسن الأشعري مثل المقالات و الابانة وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر وابن فورك والبيهقي وغيرهم واحضر كتاب الابانة وما ذكر ابن عساكر في كتاب تبين كذب المفترى فيما نسب الى الأشعري وقد نقله بخطه أبو زكريا النووي وقال فيه فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون قيل له قولنا التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته واجزل مثوبته قائلون ولما خالف قول مجانبون لأنه الامام الفاضل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيع الزائغين وشك الشاكين وذكر الاعتقاد الذي ذكره في المقالات عن أهل السنة ثم احتج على أبواب الأصول مثل مسألة القرآن والرؤية والصفات ثم قال باب ذكر الإستواء فإن قال قائل ما تقولون في الاستواء قيل بأن الله مستو على عرشه كما قال سبحانه {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه5 وقال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر10 وقال سبحانه {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} النساء158 وقال فرعون {يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} 36 {أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً} 37 {غافر 36-37} كذب موسى في قوله إن الله فوق السموات وقال {أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ} {الملك 16} والسموات فوقها العرش وإنما أراد العرش الذي هو على السموات ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً} {نوح 16} لم يرد أن القمر يملأهن جميعا وأنه فيهن جميعا ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم اذا دعوا نحو العرش قال وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إنم معنى قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه5 أى استولى وملك وقهر والله في كل مكان وجدوا أن يكون الله على عرشه كما قاله أهل الحق قال ولو كان كما قالوا كان لافرق بين العرش وبين الأرض السابعة السفلى لأن الله قادر على كل شيء وقد ذلك وساق الكلام الى أن قال ومما يؤكد لكم أن الله مستو على عرشه دون الأشياء كلها ما نقله أهل الرواية عن

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 220

رسول الله من قوله ينزل الله الى سماء الدنيا كل ليلة فيقول هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فاغفر له حتى يطلع الفجر ثم ذكر الأحاديث وقال تعالى {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خذْ بِذاتِ يَدَيْكَ وَارْفَعْكُمُ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} آل عمران 55 قال وأجمعت الأمة على أن الله رفع عيسى الى السماء وذكر دلائل الى أن قال كل ذلك يدل على أن الله ليس في خلقه ولا خلقه فيه وانه عز وجل مستو على عرشه جل وعز وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا جل عما يقول الذين لم يثبتوا له في وصفهم له حقيقة ولا أوجبوا له بذكرهم إياه وحدانية إذ كان كلامهم يؤل الى التعطيل وجميع أوصافهم على النفي في التأويل يريدون بذلك فيما زعموا التنزيه ونفى التشبيه فنعود بالله من تنزيهه يوجب النفي والتعطيل وهذا باب واسع لا يحصر فيه كلام العلماء من جميع الطوائف وما في ذلك من الدلائل العقلية والنقلية¹

وقال الشيخ العارف أبو محمد عبدالقادر بن أبي صالح الكيلاني في كتاب الغنية له أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الإختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد واحد إلى أن قال وهو بجهة العلو مستو على العرش محتو على الملك محيط علمه بالأشياء قال ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان بل يقال إنه في السماء على العرش كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وذكر الآيات والأحاديث إلى أن قال وينبغي اطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش قال وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على نبي أرسل بلا كيف وذكر كلاما طويلا²

وقال الشيخ أبو عثمان النيسابوري الصابوني الملقب بشيخ الاسلام في رسالته في السنة قال ويعتقد اهل الحديث ويشهدون أن الله سبحانه وتعالى فوق سبع سمواته على عرشه كما نطق به كتابه في قوله {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} يونس 3 وذكر عدة آيات من ذلك فان هذا ذكره الله في سبعة مواضع من القرآن قال وأهل الحديث يثبتون في ذلك ما اثبتته الله تعالى ويؤمنون به ويصدقون الرب جل جلاله في خبره ويطلقون ما أطلقه الله سبحانه من استوائه على عرشه ويمرون ذلك على ظاهره ويكلون علمه الى الله تعالى و {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} آل عمران 7 وروى بإسناده من طريقين أن مالك بن أنس سئل عن قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 كيف استوى فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك الا ضالا وأمر أن يخرج من المجلس وروى بإسناده الثابت عن عبدالله بن المبارك أنه قال نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته بائن من خلقه ولا نقول كما قالت الجهمية بأنه هاهنا وأشار بيده الى الأرض³

مذهب السلف إثبات الصفات ونفى الكيفية عنها

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 226

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 264-265

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 390

قال تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 عن إسحاق بن راهويه حدثنا بشر بن عمر قال سمعت غير واحد من المفسرين يقول الرحمن على العرش استوى أي ارتفع وقال البخاري في صحيحه قال أبو العالية استوى إلى السماء ارتفع وقال مجاهد استوى علا على العرش وقال البغوي في تفسيره قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف استوى إلى السماء ارتفع إلى السماء وكذلك قال الخليل بن أحمد وروى البيهقي عن الفراء استوى أي صعد وهو كقول الرجل كان قاعدا فاستوى قائما وروى الشافعي في مسنده عن أنس بن مالك أنه قال عن يوم الجمعة وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش وروى أبو بكر الأثرم عن الفضيل بن عياض قال ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف لأن الله وصف فأبلغ فقال قل هو الله أحمد الله الصمد فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه ومثل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يضحك فليس لنا أن نتوهم أن ينزل عن مكانه كيف وكيف وإذا لك الجهمي أنا كفرت برب ينزل فقل أنت أنا أو من برب يفعل ما يشاء وقال البخاري في كتاب خلق الأفعال والفضيل بن عياض إذا قال لك الجهمي أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل أنا أو من برب يفعل ما يشاء قال البخاري وحدث يزيد بن هارون عن الجهمية فقال من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما تقرر في قلوب العامة فهو جهمي¹

ولما سئل مالك بن أنس رحمه الله تعالى فقيل له يا أبا عبد الله { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 كيف استوى فأطرق مالك وعلاه الرخصاء يعني العرق وانتظر القوم ما يجيء منه فيه فرفع رأسه إلى السائل وقال الإستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأحسبك رجل سوء وأمر به فأخرج ومن أول الإستواء بالإستيلاء فقد أجاب بغير ما أجاب به مالك وسلك غير سبيله وهذا الجواب من مالك رحمه الله في الإستواء شاف كاف في جميع الصفات مثل النزول والمجيء واليد والوجه وغيره فيقال في مثل النزول معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وهكذا يقال في سائر الصفات إذ هي بمثابة الإستواء الوارد به الكتاب والسنة وثبت عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أنه قال اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي وفارق الجماعة فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة انتهى وقال سعيد بن جبيرة ما لم يعرفه البديون فليس من الدين وثبت عن الربيع بن سليمان أنه قال سألت الشافعي رحمه الله تعالى عن صفات الله تعالى فقال حرام على العقول أن تمثل الله تعالى وعلى الأوهام أن تحده وعلى الظنون أن تقطع وعلى النفوس أن تفكر وعلى الضمائر أن تعمق وعلى الخواطر أن تحيط وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام وثبت عن الحسن البصري أنه قال لقد تكلم مطرف على هذه الأعواد بكلام ما قيل قبله ولا يقال بعده قالوا وما هو يا أبا سعيد قال الحمد لله الذي من الإيمان به الجهل بغير ما وصف به نفسه وقال سحنون من العلم بالله السكوت عن غير ما وصف به نفسه وثبت عن الحميدي أبي بكر عبد الله بن الزبير أنه قال أصول السنة فذكر أشياء ثم قال وما نطق به القرآن والحديث مثل { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 49

{المائدة 64 ومثل {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} {الزمر 67 وما أشبه هذا من القرآن والحديث لا نزيد فيه ولا نفسره ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة ونقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 ومن زعم غير هذا فهو جهمي فمذهب السلف رضوان الله عليهم إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفى الكيفية عنها لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذاك إثبات الصفات وعلى هذا مضى السلف كلهم¹

الأفعال اللازمة الأصل فيها الخبر لا العقل

لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وكذلك قال ربعة شيخ مالك قبله الاستواء معلوم والكيف مجهول ومن الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا الإيمان فبين ان الاستواء معلوم وان كيفية ذلك مجهول ومثل هذا يوجد كثيرا في كلام السلف والأئمة ينفون علم العباد بكيفية صفات الله وأنه لا يعلم كيف الله إلا الله فلا يعلم ما هو إلا هو وقد قال النبي لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وهذا في صحيح مسلم وغيره وقال في الحديث الآخر اللهم انى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وهذا الحديث في المسند وصحيح أبي حاتم وقد اخبر فيه ان الله من الاسماء ما استأثر به في علم الغيب عنده فمعانى هذه الاسماء التى استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها غيره²

وأما الأفعال اللازمة كالإستواء و المجيء فالناس متنازعون في نفس إثباتها لأن هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق و إنما عرفت بالخبر فالأصل فيها الخبر لا العقل و لهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها ممن يقول الخلق غير المخلوق و ممن يقول الخلق هو المخلوق و من يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها و الذين أثبتوا الصفات الخبرية لهم في هذه قولان منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدى بجعلها أمورا حادثة في غيرها و هذا قول الأشعري و أئمة أصحابه و من وافقهم كالقاضي أبي يعلى و ابن الزاغوني و ابن عقيل في كثير من أقواله فالأشعري يقول الإستواء فعل فعله في العرش فصار به مستويا على العرش و كذلك يقول في الإتيان و النزول و يقول هذه الأفعال ليست من خصائص الأجسام بل توصف بها الأجسام و الأعراض فيقال جاءت الحمى و جاء البرد و جاء الحر و نحو ذلك و هذا أيضا قول القاضي أبي بكر و القاضي أبي يعلى و غيرهما و حملوا ما روى عن السلف كالأوزاعي و غيره أنهم قالوا في النزول يفعل الله فوق العرش بذاته كما حكاه القاضي عبدالوهاب عن القاضي أبي بكر و كما حكوه عن الأشعري و غيره و كما ذكر في

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 4-6

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 58-59

غير موضع من كتبه و لكن عندهم هذا من الصفات الخبرية و هذا قول البيهقي و طائفة و هو أول قول القاضي أبي يعلى و كل من قال إن الرب لا تقوم به الصفات الإختيارية فإنه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سواء كان لازما أو متعديا لكن من أثبت من هؤلاء فعلا قديما كمن يقول بالتكويين و بهذا فإنه يقول ذلك القديم قام به بغير مشيئته كما يقولون في إرادته القديمة و القول الثاني أنها كما دلت عليه أفعال تقوم بذاته بمشيئته و إختياره كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية و هذا قول أئمة السنة و الحديث و الفقه و التصوف و كثير من أصناف أهل الكلام كما تقدم و على هذا ينبغي نزاعهم في تفسير قوله { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } البقرة 29 و قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ } البقرة 210 و قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } يونس 3 و نحو ذلك فمن نفى هذه الأفعال يتأول إتيانه بإتيان أمره أو بأسه و الإستواء على العرش بجعله القدرة و الإستيلاء أو بجعله علو القدر فإن الإستواء للناس فيه قولان هل هو من صفات الفعل أو الذات على قولين و القائلون بأنه صفة ذات يتأولونه بأنه قدر على العرش و هو ما زال قادرا و ما زال عالي القدر فلهذا ظهر ضعف هذا القول من وجوه منها قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } يونس 3 فأخبر أنه استوى بحرف ثم ومنها أنه عطف فعلا على فعل فقال { خَلَقَ } يونس 3 ثم { اسْتَوَى } يونس 3 و منها أن ما ذكره لا فرق فيه بين العرش و غيره و إذا قيل إن العرش أعظم المخلوقات فهذا لا ينفي ثبوت ذلك لغيره كما في قوله { رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } التوبة 129 لما ذكر ربوبيته للعرش لعظمته و الربوبية عامة جاز أن يقال رب السموات و الأرض و ما بينهما و رب العرش العظيم و يقال { أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } 47 { رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ } 48 { الشعراء 47-48 و الإستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع أنه مستول مقتدر على كل شيء من السماء و الأرض و ما بينهما فلو كان إستواؤه على العرش هو قدرته عليه جاز أن يقال على السماء و الأرض و ما بينهما و هذا مما احتج به طوائف منهم الأشعري قال في إجماع المسلمين على أن الإستواء مختص بالعرش دليل على فساد هذا القول و أيضا فإنه ما زال مقتدرا عليه من حين خلقه و منها كون لفظ الإستواء في لغة العرب يقال على القدرة أو علو القدر ممنوع عندهم و الإستعمال الموجود في الكتاب و السنة و كلام العرب يمنع هذا كما قد بسط في موضعه و تكلم على البيت الذي يحتجون به ثم إستوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهران و أنه لو كان صحيحا لم يكن فيه حجة فإنهم لم يقولوا إستوى عمر على العراق لما فتحها و لا إستوى عثمان على خراسان و لا إستوى رسول الله صلى الله عليه و سلم على اليمن و إنما قيل هذا البيت إن صح في بشر بن مروان لما دخل العراق و إستوى على كرسي ملكها فقيل هذا كما يقال جلس على سرير الملك أو تحت الملك و يقال قعد على الملك و المراد هذا و أيضا فالآيات الكثيرة و الأحاديث الكثيرة و إجماع السلف يدل على أن الله فوق العرش كما قد بسط في مواضع و أما الذين قالوا الإستواء صفة فعل فهؤلاء لهم قولان هنا على ما تقدم هل هو فعل بائن عنه لأن الفعل بمعنى المفعول أم فعل قائم به يحصل بمشيئته و قدرته الأول قول ابن كلاب و من اتبعه كالأشعري و غيره و هو قول القاضي و ابن عقيل و ابن الزاغوني و غيرهم و الثاني قول أئمة أهل الحديث و السنة و كثير من طوائف الكلام كما تقدم و لهذا صار للناس فيما ذكر الله في القرآن من الإستواء و المجيء و نحو ذلك ستة أقوال طائفة يقولون تجرى على ظاهرها و يجعلون إتيانه من جنس إتيان المخلوق و نزوله من جنس نزولهم و هؤلاء المشبهة الممثلة و من هؤلاء من يقول إذا نزل خلا منه العرش فلم يبق فوق العرش و طائفة يقولون بل النصوص على ظاهرها اللائق به كما في سائر ما وصف به في نفسه و هو { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 لا في ذاته و لا في صفاته و لا في أفعاله و يقولون نزل نزولا يليق بجلاله و كذلك يأتي إتيانا يليق

بجلاله و هو عندهم ينزل و يأتي و لم يزل عاليا و هو فوق العرش كما قال حماد بن زيد هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء و قال إسحاق بن راهويه ينزل و لا يخلو منه العرش و نقل ذلك عن أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد و تفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث و هو الذي حكاه أبو عمر بن عبد البر عنهم و هو قول عامة القدماء من أصحاب أحمد و قد صرح به ابن حامد و غيره و الأول نفي قيام الأمور الإختيارية هو قول التميمي موافقة منه لإبن كلاب و هو قول القاضي أبي يعلى و أتباعه و طائفتان يقولان بل لا ينزل و لا يأتي كما تقدم ثم منهم من يتأول ذلك و منهم من يفوض معناه و طائفتان واقفتان منهم من يقول ما ندري ما أراد الله بهذا و منهم من لا يزيد على تلاوة القرآن و عامة المنتسبين إلى السنة و أتباع السلف يبطلون تأويل من تأول ذلك بما ينفي أن يكون هو المستوى الآتي لكن كثير منهم يرد التأويل الباطل و يقول ما أعرف مراد الله بهذا و منهم من يقول هذا مما نهى عن تفسيره أو مما يكتم تفسيره و منهم من يقرره كما جاءت به الأحاديث الصحيحة و الآثار الكثيرة عن السلف من الصحابة و التابعين قال أبو محمد البغوي الحسين بن مسعود الفراء الملقب ب محيي السنة في تفسيره { ثم استنوى إلى السماء } البقرة 29 قال ابن عباس و أكثر مفسري السلف أي ارتفع إلى السماء و قال الفراء و ابن كيسان و جماعة من النحويين أي أقبل على خلق السماء و قيل قصد و هذا هو الذي ذكره ابن الجوزي في تفسيره قال { ثم استنوى إلى السماء } البقرة 29 أي عمد إلى خلقها و كذلك هو يرجح قول من يفسر الإتيان بإتيان أمره و قول من يتأول الإستواء و قد ذكر ذلك في كتب أخرى و وافق بعض أقوال ابن عقيل قال ابن عقيل له في هذا الباب أقوال مختلفة و تصانيف يختلف فيها رأيه و إجهاده و قال البغوي في تفسير قوله { ثم استنوى على العرش } يونس 3 قال الكلبي و مقاتل إستقر و قال أبو عبيدة سعد و أولت المعتزلة الإستواء بالإستيلاء و أما أهل السنة فيقولون الإستواء على العرش صفة لله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به و بكل العلم فيه إلى الله و سأل رجل مالك بن أنس عن قوله { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 كيف استوى فأطرق مالك رأسه مليا و علاه الرخصاء ثم قال الإستواء غير مجهول و الكيف غير معقول و الإيمان به واجب و السؤال عنه بدعة و ما أراك إلا ضالا ثم أمر به فأخرج قال روى عن سفيان الثوري و الأوزاعي و الليث بن سعد و سفيان بن عيينة و عبدالله بن المبارك و غيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة أمرها كما جاءت بلا كيف و قال في قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ } البقرة 210 الأولى في هذه الآية و فيما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاها و بكل علمها إلى الله و يعتقد أن الله منزه عن سمات الحدث على ذلك مضت أئمة السلف و علماء السنة قال الكلبي هذا من المكتوم الذي لا يفسر قلت و قد حكى عنه أنه قال في تفسير قوله { ثم استنوى } إستقر ففسر ذلك و جعل هذا من المكتوم الذي لا يفسر لأن ذلك فيه و صفه بأنه فوق العرش و هذا فيه إتيانه في ظلل من الغمام قال البغوي و كان مكحول و الزهري و الأوزاعي و مالك و عبدالله بن المبارك و سفيان الثوري و الليث بن سعد و أحمد و إسحاق يقولون فيه و في أمثاله أمرها كما جاءت بلا كيف قال سفيان بن عيينة كلما و صف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته و السكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله و رسوله و هذه الآية أغمض من آية الإستواء و لهذا كان أبو الفرج يميل إلى تأويل هذا و ينكر قول من تأول الإستواء بالإستيلاء قال في تفسيره قال الخليل بن أحمد العرش السرير و كل سرير للملك يسمى عرشا و قلما يجمع العرش إلا في الإضطراب قلت و قد روى ابن أبي حاتم عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال يسمى عرشا لارتفاعه قلت و الإشتقاق يشهد لهذا كقوله { وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } الأعراف 137 و قوله { مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } الأنعام 141 و قول سعد و هذا كافر بالعرش و مقعد الملك

يكون أعلى من غيره فهذا بالنسبة إلى غيره عال عليه و بالنسبة إلى ما فوقه هو دونه و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة و أوسط الجنة و سقفه عرش الرحمن فدل على أن العرش أعلى المخلوقات كما بسط في مواضع أخر قال أبو الفرج و اعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية و الإسلام قال أمية بن أبي الصلت مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً بالبناء الأعلى الذي سبق الناس و سوى فوق السماء سريراً شرحاً لا يناله بصر العيون ترى دونه الملائك صوراً قلت يريد أنه ذكره من العرب من لم يكن مسلماً أخذته عن أهل الكتاب فإن أمية و نحوه إنما أخذ هذا عن أهل الكتاب و إلا فالمشركون لم يكونوا يعرفون هذا قال أبو الفرج ابن الجوزي و قال كعب إن السموات في العرش كقنديل معلق بين السماء و الأرض قال و إجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية و قد شذ قوم فقالوا العرش بمعنى الملك و هو عدول عن الحقيقة إلى التجوز مع مخالفة الأثر ألم يسمعوا قوله {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} {هود7} أفتراه كان الملك على الماء قال و بعضهم يقول إستوى بمعنى إستولى و يستدل بقول الشاعر حتى إستوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق و قال الشاعر أيضاً قد قلما إستويا بفضلها جميعاً على عرش الملوك بغير زور قال و هو منكر عند اللغويين قال ابن الأعرابي إن العرب لا تعلم إستوى بمعنى إستولى و من قال ذلك فقد أعظم قال و إنما يقال إستولى فلان على كذا إذا كان بعيداً عنه غير متمكن ثم تمكن منه و الله سبحانه و تعالى لم يزل مستولياً على الأشياء و البيتان لا يعرف قائلهما كذا قال ابن فارس اللغوي و لو صح لم يكن حجة فيهما لما بينا من إستيلاء من لم يكن مستولياً نعوذ بالله من تعطيل الملحدة و تشبيهه المجسمة قلت فقد تأول قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} {البقرة29} و أنكر تأويل {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} {الأعراف54} وهو في لفظ الإتيان قد ذكر القولين فقال قوله {أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ} {البقرة210} كان جماعة من السلف يمسكون عن مثل هذا و قد ذكر القاضي أبو يعلى عن أحمد أنه قال المراد به قدرته و أمره قال و قد بينه في قوله {أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ} {النحل33} قلت هذا الذي ذكره القاضي و غيره أن حنبلاً نقله عن أحمد في كتاب المحنة أنه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله تجيء البقرة و آل عمران قالوا و المجيء لا يكون إلا لمخلوق فعارضهم أحمد بقوله {وَجَاءَ رَبُّكَ} {الفجر22} {أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ} {الأنعام158} و قال المراد بقوله تجيء البقرة و آل عمران ثوابهما كما في قوله {وَجَاءَ رَبُّكَ} {الفجر22} أمره و قدرته و قد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبلاً فإنه لا ريب أنه خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا و تأويل النزول و الإستواء و نحو ذلك من الأفعال و لهم ثلاثة أقوال قيل هذا غلط من حنبلاً إنفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة مثل صالح و عبدالله و المروذي و غيرهم فإنهم لم يذكروا هذا و حنبلاً ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة كالخلال و صاحبه قال أبو إسحاق ابن شاقلاً هذا غلط من حنبلاً لا شك فيه و كذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول ينزل إلى السماء الدنيا أنه ينزل أمره لكن هذا من رواية حبيب كاتبه و هو كذاب باتفاقهم و قد رويت من وجه أخر لكن الإسناد مجهول و القول الثاني قال طائفة من أصحاب أحمد هذا قاله إلزاماً للخصم على مذهبه لأنهم في يوم المحنة لما إحتجوا عليه بقوله تأتي البقرة و آل عمران أجابهم بأن معناه يأتي ثواب البقرة و آل عمران كقوله {أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ} {البقرة210} أي أمره و قدرته على تأويلهم لا أنه يقول بذلك فإن مذهبه ترك التأويل و القول الثالث أنهم جعلوا هذا رواية عن أحمد و قد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل و قد ذكر الروائين ابن الزاغوني و غيره و ذكر أن ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا و رواية التأويل فسر ذلك بالعمد و القصد لم يفسره بالأمر و

القدرة كما فسروا { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ } البقرة 29 فعلى هذا في تأويل ذلك إذا قيل به و جهان و ابن الزاغوني و القاضي أبو يعلى و نحوهما و إن كانوا يقولون بإمرار المجيء و الإتيان على ظاهره فقولهم في ذلك من جنس قول ابن كلاب و الأشعري فإنه أيضا يمنع تأويل النزول و الإتيان و المجيء و يجعله من الصفات الخبرية و يقول إن هذه الأفعال لا تستلزم الأجسام بل يوصف بها غير الأجسام و كلام ابن الزاغوني في هذا النوع و في استواء الرب على العرش هو موافق لقول أبي الحسن نفسه هذا قولهم في الصفات الخبرية الواردة في هذه الأفعال و أما علو الرب نفسه فوق العالم فعند ابن كلاب أنه معلوم بالعقل كقول أكثر المثبتة كما ذكر ذلك الخطابي و ابن عبد البر و غيرهما و هو قول ابن الزاغوني و هو آخر قولي القاضي أبي يعلى و كان القاضي أولا يقول بقول الأشعري أنه من الصفات الخبرية و هذا قول القاضي أبي بكر و البيهقي و نحوهما و أما أبو المعالي الجويني و أتباعه فهو لاء خالفوا الأشعري و قدماء أصحابه في الصفات الخبرية فلم يثبتوها لكن منهم من نفاها فتأول الاستواء بالإستيلاء و هذا أول قولي أبي المعالي و منهم من توقف في إثباتها و نفيها كالرازي و الأمدى و آخر قولي أبي المعالي المنع من تأويل الصفات الخبرية و ذكر أن هذا إجماع السلف و أن التأويل لو كان مسوغا أو محتوما لكان إهتمامهم به أعظم من إهتمامهم بغيره فاستدل بإجماعهم على أنه لا يجوز التأويل و جعل الوقف التام على قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7 ذكر ذلك في النظامية في الأركان الإسلامية و هذه طريقة عامة المنتسبين إلى السنة يرون التأويل مخالفا لطريقة السلف و قد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضوع و ذكر لفظ التأويل و ما فيه من الإجمال و الكلام على قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7 و أن كلا القولين حق فمن قال لا يعلم تأويله إلا الله فأراد به ما يؤول إليه الكلام من الحقائق التي لا يعلمها إلا الله و من قال إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فالمراد به تفسير القرآن الذي بينه الرسول و الصحابة و إنما الخلاف في لفظ التأويل على المعنى المرجوح و أنه حمل اللفظ على الإحتمال المرجوح دون الراجح لدليل يقتضيه بهذا إصطلاح متأخر و هو التأويل الذي أنكره السلف و الأئمة تأويلات أهل البدع و كذلك يقول أحمد في رده على الجهمية الذين تأولوا القرآن على غير تأويله و قد تكلم أحمد على متشابه القرآن و فسره كله و منه تفسير متفق عليه عند السلف و منه تفسير مختلف فيه و قد ذكر الجد أبو عبدالله في تفسيره من جنس ما ذكره البغوي لا من جنس ما ذكره ابن الجوزي فقال أما الإتيان المنسوب إلى الله فلا يختلف قول أئمة السلف كمكحول و الزهري و الأوزاعي و ابن المبارك و سفيان الثوري و الليث بن سعد و مالك بن أنس و الشافعي و أحمد و أتباعهم أنه يمر كما جاء و كذلك ما شاكل ذلك مما جاء في القرآن أو وردت به السنة كأحاديث النزول و نحوها و هي طريقة السلامة و منهج أهل السنة و الجماعة يؤمنون بظواهرها و يكلون علمها إلى الله و يعتقدون أن الله منزه عن سمات الحدث على ذلك مضت الأئمة خلفا بعد سلف كما قال تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } آل عمران 7 و قال ابن السائب في قوله { أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ } البقرة 210 هذا من المكتوم الذي لا يفسر و ذكر ما يشبه كلام الخطابي في هذا فإن قيل كيف يقع الإيمان بما لا يحيط من يدعى الإيمان به علما بحقيقته فالجواب كما يصح الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و النار و الجنة و معلوم أنا لا نحيط علما بكل شيء من ذلك على جهة التفصيل و إنما كلفنا الإيمان بذلك في الجملة ألا ترى أنا لا نعرف عدة من الأنبياء و كثيرا من الملائكة و لا نحيط بصفاتهم ثم لا يقدح ذلك في إيماننا بهم و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم في صفة الجنة يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر قلت لا ريب أنه يجب الإيمان بكل ما أخبر به الرسول و تصديقه فيما أخبر به و إن كان الشخص لم يفقه

بالعربية ما قال ولا فهم من الكلام شيئا فضلا عن العرب فلا يشترط في الإيمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به هذا لا ريب فيه فكل من اشتبه عليه آية من القرآن ولم يعرف معناها و جب عليه الإيمان بها وأن يكل علمها إلى الله فيقول الله أعلم وهذا متفق عليه بين السلف والخلف فما زال كثير من الصحابة يمر بآية و لفظ لا يفهمه فيؤمن به وإن لم يفهم معناه لكن هل يكون في القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس بل و لا الرسول عند من يجعل التأويل هو معنى الآية و يقول إنه لا يعلمه إلا الله فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول و لا أحد من الأمة بل و لا جبريل هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معاني هذه الآيات لا يفهمه أحد من الناس وليس هذا بمنزلة ما ذكر في الملائكة و النبيين و الجنة فإننا قد فهمنا الكلام الذي خوطبنا به و أنه يدل على أن هناك نعما لا نعلمه و هذا خطاب مفهوم و فيه إخبارنا أن من المخلوقات ما لا نعلمه و هذا حق كقوله { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } {المدثر} 31 و قوله لما سأله عن الروح { وَمَا أوتيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } {الإسراء} 85 فهذا فيه إخبارنا بأن الله مخلوقات لا نعلمها أو نعلم جنسهم و لا نعلم قدرهم أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض و كل هذا حق لكن ليس فيه أن الخطاب المنزل الذي أمرنا بتدبره لا يفقه و لا يفهم معناه لا الرسول و لا المؤمنون فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء فإن الله قال { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } {الزخرف} 3 و قال { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ } {القرآن} أم عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } {محمد} 24 و قال { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } {المؤمنون} 68 و قال { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } {محمد} 16 و فرق بين ما لم يخبر به أو أخبرنا ببعض صفاته دون بعض فما لم يخبر به لا يضرنا أن لا نعلمه و بين ما أخبرنا به وهو الكلام العربي الذي جعل هدى و شفاء للناس و قال الحسن ما أنزل الله آية إلا و هو يحب أن يعلم فيما أنزلت و ما عنى بها فكيف يكون في مثل هذا الكلام ما لا يفهمه أحد قط و فرق بين أن يقال الرب هو الذي يأتي إتيانا يليق بجلاله أو يقال ما ندري هل هو الذي يأتي أو أمره فكثير من لا يجزم بأحدهما بل يقول إسكت فإلسكوت أسلم و لا ريب أنه من لم يعلم فإلسكوت له أسلم كما قال النبي صلى الله عليه و سلم من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت لكن هو يقول إن الرسول و جميع الأمة كانوا كذلك لا يدرون هل المراد به هذا أو هذا و لا الرسول كان يعرف ذلك فقاتل هذا مبطل متكلم بما لا علم له به و كان يسعه أن يسكت عن هذا لا يجزم بأن الرسول و الأئمة كلهم جهال يجب عليهم السكوت كما يجب عليه ثم إن هذا خلاف الواقع فأحاديث النبي صلى الله عليه و سلم و كلام السلف في معنى هذه الآية و نظائرها كثير مشهور لكن قال علي رضي الله عنه حدثوا الناس بما يعرفون و دعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله و رسوله و قال ابن مسعود ما من رجل يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتننة لبعضهم و إذا قال بل كان من السلف من يجزم بأن المراد هو إتيانه نفسه فهذا جزم بأنهم عرفوا معناها و بطلان القول الآخر لم يكونوا ساكتين حيارى و لا ريب أن مقدوره و مأموره مما يأتي أيضا و لكن هو يأتي كما أخبر عن نفسه إتيانا يليق بجلاله فإذا قيل لا نعلم كيفية الإستواء كان هذا صحيحا و إذا كان الخطاب و الكلام مما لا يفهم أحد معناه لا الرسول و لا جبريل و لا المؤمنون لم يكن مما يتدبر و يعقل بل مثل هذا عبث و الله منزه عن العبث ثم هذا يلزمهم في الأحاديث مثل قوله ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء أفكان الرسول يقول هذا الحديث و نحوه و هو لا يفقه ما يقول و لا يفهم له معنى سبحان الله هذا بهتان عظيم و قدح في الرسول و تسليط للملحدين إذا قيل إن نفس الكلام الذي جاء به قد كان لا يفهم معناه قالوا فغيره من العلوم العقلية أولى أن لا يفهم معناه و الكلام إنما هو في صفات الرب فإذا قيل إن ما أنزل عليه من صفات الرب لم يكن هو و لا غيره يفهمه و هو كلام أمي عربي ينزل عليه قيل فالمعاني المعقولة في الأمور الإلهية أولى أن لا

يكون يفهمها و حينئذ فهذا الباب لم يكن موجودا في رسالته و لا يؤخذ من جهته لا من جهة السمع و لا من جهة العقل قالت الملاحدة فيؤخذ من طريق غيره فإذا قال لهم هؤلاء هذا غير ممكن لأحد منعوا ذلك و قالوا إنما في القرآن أن ذلك الخطاب لا يعلم معناه إلا الله لكن من أين لكم أن الأمور الإلهية لا تعلم بالأدلة العقلية التي يقصر عنها البيان بمجرد الخطاب و الخبر و الملاحدة يقولون إن الرسل خاطبت بالتخييل و أهل الكلام يقولون بالتأويل و هؤلاء الظاهرية يقولون بالتجهيل و قد بسط الكلام على خطأ الطوائف الثلاث و بين أن الرسول قد أتى بغاية العلم و البيان الذي لا يمكن أحدا من البشر أن يأتي بأكمل مما جاء به صلى الله عليه و سلم تسليما فأكمل ما جاء به القرآن و الناس متفاوتون في فهم القرآن تفاوتاً عظيماً و قول ابن السائب إن هذا من المكتوم الذي لا يفسر يقتضي أن له تفسيراً يعلمه العلماء و يكتمونونه و هذا على و جهين إما أن يريد أنه يكتم شيء مما بينه الرسول صلى الله عليه و سلم عن جميع الناس فهذا من الكتمان المجرد الذي ذم الله عليه و هذه حال أهل الكتاب و عاب الذين يكتمون ما بينه للناس من البيئات و الهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب و قال { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } البقرة 140 و هذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم و يجعلها بعضهم متشابهة و هي دلائل على نبوة محمد صلى الله عليه و سلم و غير ذلك فإن ألفاظ التوراة و الإنجيل و سائر كتب الأنبياء و هي بضع و عشرون كتاباً عند أهل الكتاب لا يمكنهم جحد ألفاظها لكن يحرفونها بالتأويل الباطل و يكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم كما قال تعالى { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي } البقرة 78 فمن جعل أهل القرآن كذلك و أمرهم أن يكونوا فيه أميين لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة فقد أمرهم بنظير ما ذم الله عليه أهل الكتاب و صبيغ بن عسل التميمي إنما ضربه عمر لأنه قصد باتباع المتشابهة إبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله و هؤلاء الذين عابهم الله في كتابه لأنهم جمعوا شيين سوء القصد و الجهل فهم لا يفهمون معناه و يريدون أن يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ليقعوا بذلك الشبهة و الشك و في الصحيح عن عائشة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم فهذا فعل من يعارض النصوص بعضها ببعض ليقع الفتنة و هي الشك و الريب في القلوب كما روى أنه خرج على القوم و هم يتجادلون في القدر هؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا و هؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا فكأنما فقىء في وجهه حب الرمان ثم قال أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض أنظروا ما أمرتم به فافعلوه فكل من اتبع المتشابهة على هذا الوجه فهو مذموم و هو حال من يريد أن يشكك الناس فيما علموه لكونه و إياهم لم يفهموا ماتوهموا أنه يعارضه هذا أصل الفتنة أن يترك المعلوم لغير معلوم كالفسفة التي تورث شبهة يقدر بها فيما علم و تيقن فهذه حال من يفسد قلوب الناس و عقولهم بإفساد ما فيها من العلم و العمل أصل الهدى فإذا شككهم فيما علموه بقوا حيارى و الرسول صلى الله عليه و سلم قد أتى بالآيات البيئات الدالة على صدقه و القرآن فيه الآيات المحكمات اللاتي هي أم الكتاب قد علم معناها و علم أنها حق و بذلك يهندي الخلق و ينتفعون فمن اتبع المتشابهة ابتغى الفتنة و ابتغى تأويله و الأول قصدهم فيه فاسد و الثاني ليسوا من أهله بل يتكلمون في تأويله بما يفسد معناه إذ كانوا ليسوا من الراسخين في العلم و إنما الراسخ في العلم الذي رسخ في العلم بمعنى المحكم و صار ثابتاً فيه لا يشك و لا يرتاب فيه بما يعارضه من المتشابهة بل هو مؤمن به قد يعلمون تأويل المتشابهة و أما من لم يرسخ في ذلك بل إذا عارضه المتشابهة شك فيه فهذا يجوز أن يراد بالمتشابهة ما يناقض المحكم فلا يعلم معنى المتشابهة إذ لم يرسخ في العلم بالمحكم و هو يبتغي الفتنة في هذا و هذا فهذا يعاقب عقوبة تردعه كما فعل عمر بصبيغ و أما من قصد الهدى و الحق فليس من هؤلاء و قد كان عمر يسأل و يسأل عن معاني الآيات الدقيقة و قد سأل أصحابه عن قوله { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } النصر 1 فذكروا ظاهر

لفظها و لما فسرها ابن عباس بأنها إعلام النبي صلى الله عليه و سلم بقرب و فاته قال ما أعلم منها إلا ما تعلم و هذا باطن الآية الموافق لظاهرها فإنه لما أمر بالإستغفار عند ظهور الدين و الإستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال و بظهور الدين حصل مقصود الرسالة علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور أخر و فوق كل ذي علم عليم و الإستدلال على الشيء بملزوماته و الشيء قد يكون له لازم و للآزمه لازم و هلم جرا فمن الناس من يكون أفطن بمعرفة اللوازم من غيره يستدل بالملزوم على اللازم و من الناس من لا يتصور اللازم و لو تصور لم يعرف الملزوم بل يقول يجوز أن يلزم و يجوز أن لا يلزم و يحتمل و يحتمل و تردد الإحتمل هو من عدم العلم و إلا فالواقع هو أحد أمرين فحيث كان إحتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع و خفاء دليله و غيره قد يعلم ذلك و يعلم دليله و من ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله فلا ينفي عن الناس إلا ما علم إنتفاؤه عنهم و فوق كل ذي علم عليم أعلم منه حتى ينتهي الأمر إلى الله تعالى و هذا قد بسط في مواضع ثم أنهم يقولون المأثور عن السلف هو السكوت عن الخوض في تأويل ذلك و المصير إلى الإيمان بظاهره و الوقوف عن تفسيره لأننا قد نهينا أن نقول في كتاب الله برأينا و لم ينبهنا الله و رسوله على حقيقة معنى ذلك فيقال أما كون الرجل يسكت عما لا يعلم فهذا مما يؤمر به كل أحد لكن هذا الكلام يقتضى أنهم لم يعلموا معنى الآية و تفسيرها و تأويلها و إذا كان لم يتبين لهم فمضمونه عدم علمهم بذلك و هو كلام شاك لا يعلم ما أريد بالآية ثم إذا ذكر لهم بعض التأويلات كتأويل من يفسره بإتيان أمره و قدرته أبطلوا ذلك بأن هذا يسقط فائدة التخصيص و هذا نفي للتأويل و إبطال له فإذا قالوا مع ذلك و لا يعلم تأويله إلا الله أثبتوا تأويلا لا يعلمه إلا الله و هم ينفون جنس التأويل و نقول ما الحامل على هذا التأويل البعيد و قد أمكن بدونه أن تثبت إتيانا و مجيئا لا يعقل كما يليق به كما أثبتنا ذاتا لها حقيقة لا تعقل و صفات من سمع و بصر و غير ذلك لا تعقل ولأنه إذا جاز تأويل هذا و أن نقدر مضمرا محذوفا من قدرة أو عذاب و نحو ذلك فما منعكم من تأويل قوله ترون ربكم كذلك و هذا كلام في إبطال التأويل و حمل للفظ على ما دل عليه ظاهره على ما يليق بجلال الله فإذا قيل مع هذا إن له تأويلا لا يعلمه إلا الله و أريد بالتأويل هذا الجنس كان تناقضا كيف ينفي جنس التأويل و يثبت له تأويل لا يعلمه إلا الله فعلم أن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله لا يناقض حمله على ما دل عليه اللفظ بل هو أمر آخر يحقق هذا و يوافق لا يناقضه و يخالفه كما قال مالك الإستواء معلوم و الكيف مجهول و إذا كان كذلك أمكن أن من العلماء من يعلم من معنى الآية ما يوافق القرآن لم يعلمه غيره و يكون ذلك من تفسيرها و هو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم كمن يعلم أن المراد بالآية مجيء الله قطعاً لا شك في ذلك لكثرة ما دل عنده على ذلك و يعلم مع ذلك أنه العلى الأعلى يأتي إتيانا تكون المخلوقات محيطة به و هو تحتها فإن هذا مناقض لكونه العلى الأعلى و الجد الأعلى أبو عبد الله رحمه الله قد جرى في تفسيره على ما ذكر من الطريقة و هذه عاداته و عادات غيره و ذكر كلام ابن الزاغوني فقال قال الشيخ علي بن عبيد الله الزاغوني و قد اختلفت كلام إمامنا أحمد في هذا المجيء هل يحمل على ظاهره و هل يدخل التأويل على روايتين إحداهما أنه يحمل على ظاهره من مجيء ذاته فعلى هذا يقول لا يدخل التأويل إلا أنه لا يجب أن يحمل مجيئه بذاته إلا على ما يليق به و قد ثبت أنه لا يحمل إثبات مجيء هو زوال و انتقال يوجب فراغ مكان و شغل آخر من جهة أن هذا يعرف بالجنس في حق المحدث الذي يقصر عن إستيعاب المواضع و المواطن لأنها أكبر منه و أعظم يفتقر مجيئه إليها إلى الانتقال عما قرب إلى ما بعد و ذلك ممتنع في حق البارئ تعالى لأنه لا شيء أعظم منه و لا يحتاج في مجيئه إلى إنتقال و زوال لأن داعى ذلك و موجب لا يوجد في حقه فأثبتنا المجيء صفة له و منعنا ما يتوهم في حقه ما يلزم في حق المخلوقين لإختلافهما في الحاجة إلى ذلك و مثله قوله {وَجَاءَ رَبُّكَ

وَأَمَّا كَ صَفًا صَفًا { الفجر 22 } ومثله الحديث المشهور الذي رواه عامة الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فنحن نثبت و صفة بالنزول إلى سماء الدنيا بالحديث و لا نتأول ما ذكروه و لا نلحقه بنزول الأدميين الذي هو زوال و انتقال من علو إلى أسفل بل نسلم للنقل كما ورد و ندفع التشبيه لعدم موجبه و نمنع من التأويل لارتفاع نسبته قال و هذه الرواية هي المشهورة و المعمول عليها عند عامة المشائخ من أصحابنا قلت أما كون إتيانه و مجيئه و نزوله ليس مثل إتيان المخلوق و مجيئه و نزوله فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة و من له عقل فإن الصفات و الأفعال تتبع الذات المتصفة الفاعلة فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة أن تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها و نسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته و لا ريب أنه العلي الأعلى العظيم فهو أعلى من كل شيء و أعظم من كل شيء فلا يكون نزوله و إتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به أو تكون أعظم منه و أكبر هذا ممتنع و أما لفظ الزوال و الانتقال فهذا اللفظ مجمل و لهذا كان أهل الحديث و السنة فيه على أقوال فعثمان بن سعيد الدارمي و غيره أنكروا على الجهمية قولهم إنه لا يتحرك و ذكروا أثرا أنه لا يزول و فسروا الزوال بالحركة فبين عثمان بن سعيد أن ذلك الأثر إن كان صحيحا لم يكن حجة لهم لأنه في تفسير قوله { الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة 255 ذكروا عن ثابت دائم باق لا يزول عما يستحقه كما قال ابن إسحق لا يزول عن مكانته قلت و الكلبى بنفسه الذي روى هذا الحديث هو يقول { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } يونس 3 استقر و يقول { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } البقرة 29 صعد إلى السماء و أما الانتقال فابن حامد و طائفة يقولون ينزل بحركة و إنتقال و آخرون من أهل السنة كالتيمي من أصحاب أحمد أنكروا هذا و قالوا بل ينزل بلا حركة و إنتقال و طائفة ثالثة كابن بطه و غيره يقفون في هذا و قد ذكر الأقوال الثلاثة القاضي أبو يعلى في كتاب إختلاف الروايتين و الوجهين و نفي اللفظ بمجمله و الأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص فيثبت ما أثبت الله و رسوله باللفظ الذي أثبتته و ينفي ما نفاه الله و رسوله كما نفاه و هو أن يثبت النزول و الإتيان و المجيء و ينفي المثل و السمي و الكفو و الند و بهذا يحتج البخاري و غيره على نفي المثل يقال ينزل نزولا ليس كمثله شيء نزل نزولا لا يماثل نزول المخلوقين نزولا يختص به كما أنه في ذلك و فى سائر ما و صف به نفسه ليس كمثله شيء فى ذلك و هو منزله أن يكون نزوله كنزول المخلوقين و حركتهم و إنتقالهم و زوالهم مطلقا لا نزول الأدميين و لا غيرهم فالمخلوق إذا نزل من علو إلى سفلى زال و صفة بالعلو و تبدل إلى و صفة بالسفول و صار غيره أعلى منه و الرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط بل هو العلي الأعلى و لا يزال هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده و يدنو منهم و ينزل إلى حيث شاء و يأتي كما شاء و هو فى ذلك العلي الأعلى الكبير المتعالى علي فى دنوه قريب فى علوه فهذا و إن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا و هذا كما يعجز أن يكون هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و لهذا قيل لأبي سعيد الخراز بم عرفت الله قال بالجمع بين النقيضين و أراد أنه يجتمع له ما يتناقض فى حق الخلق كما إجتمع له أنه خالق كل شيء من أفعال العباد و غيرها من الأعيان و الأفعال مع ما فيها من الخبث و أنه عدل حكيم رحيم و أنه يمكن من مكنه من عباده من المعاصى مع قدرته على منعمهم و هو فى ذلك حكيم عادل فإنه أعلم الأعلمين و أحكم الحاكمين و خير الفاتحين يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم فإن لا يحيطوا علما بما هو أعظم فى ذلك أولى و أحرى و قد سألوا عن الروح فقيل لهم { الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 85 و فى الصحيحين أن الخضر قال لموسى لما نقر عصفور فى البحر ما نقص علمي و علمك من علم الله

إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر فالذي ينفي عنه و ينزه عنه إما أن يكون مناقضا لما علم من صفاته الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه كما قال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ {البقرة 255} وقال {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ {الفرقان 58} فجنس السنة و النوم و الموت ممتنع عليه لا يجوز أن يقال في شيء من هذا إنه يجوز عليه كما يليق بشأنه لأن هذا الجنس يوجب نقصا في كماله وكذلك لا يجوز أن يقال هو يكون في السفلى لا في العلو و هو سفول يليق بجلاله فإنه سبحانه العلي الأعلى لا يكون قط إلا عاليا و السفول نقص هو منزله عنه و قوله و أنت الباطن فليس دونك شيء لا يقتضي السفول إلا عند جاهل لا يعلم حقيقة العلو و السفول فيظن أن السموات و ما فيها قد تكون تحت الأرض إما بالليل و إما بالنهار و هذا غلط كمن يظن أن ما في السماء من المشرق يكون تحت ما فيها مما في المغرب فهذا أيضا غلط بل السماء لا تكون قط إلا عالية على الأرض و إن كان الفلك مستديرا محيطا بالأرض فهو العالي على الأرض علوا حقيقيا من كل جهة و هذا مبسوط في مواضع و النوع الثاني أنه منزله عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته فالألفاظ التي جاء بها الكتاب و السنة في الإثبات تثبت و التي جاءت بالنفي تنفي و الألفاظ المجملة كلفظ الحركة و النزول و الإنتقال يجب أن يقال فيها إنه منزله عن مماثلة المخلوقين من كل وجه لا يماثل المخلوق لا في نزول و لا في حركة و لا إنتقال و لا زوال و لا غير ذلك و أما إثبات هذا الجنس كلفظ النزول أو نفيه علامات الحدث أو كل ما أوجب نقصا و حدوثا فالرب منزله عنه فهذا كلام حق معلوم متفق عليه لكن الشأن فيما تقول النافية إنه من سمات الحدث و آخرون ينازعونهم لا سيما و الكتاب و السنة تناقض قولهم قالت الجهمية إن قيام الصفات به أو قيام الصفات الاختيارية هو من سمات الحدث و هذا باطل عند السلف و أئمة السنة بل و جمهور العقلاء بل ما ذكروه يقتضى حدوث كل شيء فإنه ما من موجود إلا وله صفات تقوم به و تقوم به أحوال تحصل بالمشيئة و القدرة فإن كان هذا مستلزما للحدوث لزم حدوث كل شيء و أن لا يكون في العالم شيء قديم و هذا قد بسط في مواضع أيضا و سمات الحدث التي تستلزم الحدوث مثل إفتقار إلى الغير فكل ما إفتقر إلى غيره فإنه محدث كائن بعد أن لم يكن و الرب منزله عن الحاجة إلى ما سواه بكل وجه و من ظن أنه محتاج إلى العرش أو حملة العرش فهو جاهل ضال بل هو الغني بنفسه و كل ما سواه فقير إليه من كل وجه و هو الصمد الغنى عن كل شيء و كل ما سواه يصمد إليه محتاجا إليه {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ {الرحمن 29} و من سمات الحدث النقائص كالجهل و العمى و الصمم و البكم فإن كل ما كان كذلك لم يكن إلا محدثا لأن القديم الأزلي منزله عن ذلك لأن القديم الأزلي متصف بنقيض هذه الصفات و صفات الكمال لازمة له و اللازم يمتنع زواله إلا بزوال الملزوم و الذات قديمة أزلية و اجبة بنفسها غنية عما سواها يستحيل عليها العدم و الفناء بوجه من الوجوه فيستحيل عدم لوازمها فيستحيل إتصافها بنقيض تلك اللوازم فلا يوصف بنقيضها إلا المحدث فهي من سمات الحدث المستلزمة لحدوث ما إتصف بها و هذا يدخل في قول القائل كل ما إستلزم حدوثا أو نقصا فالرب منزله عنه و النقص المناقض لصفات كماله مستلزم لحدوث المتصف به و الحدوث مستلزم للنقص اللازم للمخلوق فإن كل مخلوق فهو يفتقر إلى غيره كائن بعد أن لم يكن لا يعلم إلا ما علم و لا يقدر إلا ما أقدر و هو محاط به مقدور عليه فهذه النقائص اللازمة لكل مخلوق هي ملزومة للحدوث حيث كان حدوث كانت و الحدوث أيضا ملزوم لها فحيث كان محدث كانت هذه النقائص فقولنا ما إستلزم نقصا أو حدوثا فالرب منزله عنه حق و الحدوث و النقص اللازم للمخلوق متلازمان و الرب منزله عن كل منهما من جهتين من جهة إمتناعه في نفسه و من جهة أنه مستلزم للآخر وهو ممتنع في نفسه فكل منهما دليل و مدلول عليه بإعتبارين على أن الرب منزله عنه و عن مدلوله الذي

هو لازمه و الحاجة إلى الغير و الفقر إليه مما يستلزم الحدوث و النقص اللازم للمخلوق و قولي اللازم ليعم جميع المخلوقين و إلا فمن النقائص ما يتصف بها بعض المخلوقين دون بعض فتلك ليست لازمة لكل مخلوق و الرب منزه عنها أيضا لكن إذا نزه عن النقص اللازم لكل مخلوق فعن ما يختص به بعض المخلوقين أولى و أخرى فإنه إذا كان مخلوق ينزه عن نقص فالخالق أولى بتنزيهه عنه و هذه طريقة الأولى كما دل عليها القرآن في غير موضع وقد ذكرنا في جواب المسائل التدمرية الملقب ب تحقيق الإثبات للأسماء و الصفات و بيان حقيقة الجمع بين القدر و الشرع أنه لا يجوز الإكتفاء فيما ينزه الرب عنه على عدم و رود السمع و الخبر به فيقال كل ما ورد به الخبر أثبتناه و ما لم يرد به لم نثبت بل نفيه و تكون عمدتنا في النفي على عدم الخبر بل هذا غلط لوجهين أحدهما أن عدم الخبر هو عدم دليل معين و الدليل لا ينعكس فلا يلزم إذا لم يخبر هو بالشيء أن يكون منتفيا في نفس الأمر و لله أسماء سمي بها نفسه و استأثر بها في علم الغيب عنده فكما لا يجوز الإثبات إلا بدليل لا يجوز النفي إلا بدليل و لكن إذا لم يرد به الخبر و لم يعلم ثبوته يسكت عنه فلا يتكلم في الله بلا علم الثاني أن أشياء لم يرد الخبر بتنزيهه عنها و لا بأنه منزه عنها لكن دل الخبر على إتصافه بنقائضها فعلم إنتفاؤها فالأصل أنه منزه عن كل ما يناقض صفات كماله و هذا مما دل عليه السمع و العقل و ما لم يرد به الخبر إن علم إنتفاؤه نفيناه و إلا سكتنا عنه فلا نثبت إلا بعلم و لا ننفي إلا بعلم و نفي الشيء من الصفات و غيرها كفي دليله طريقة طائفة من أهل النظر و الخبر وهي غلط إلا إذا كان الدليل لازما له فإذا عدم اللازم عدم الملزوم و أما جنس الدليل فيجب فيه الطرد لا العكس فيلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه ولا ينعكس فالأقسام ثلاثة ما علم ثبوته أثبت وما علم إنتفاؤه نفي و ما لم يعلم نفيه و لا إثباته سكت عنه هذا هو الواجب و السكوت عن الشيء غير الجزم بنفيه أو ثبوته و من لم يثبت ما أثبتته إلا بالألفاظ الشرعية التي أثبتتها و إذا تكلم بغيرها إستفسر و إستفصل فإن وافق المعنى الذي أثبتته الشرع أثبتته باللفظ الشرعي فقد إعتصم بالشرع لفظا و معنى و هذه سبيل من إعتصم بالعرفوة الوثقى¹

الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى

فهذا كتاب الله من أوله الى آخره وسنة رسوله من أولها الى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو اما نص واما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى وهو فوق كل شيء وهو على كل شيء وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء مثل قوله تعالى {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر 10 {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} آل عمران 55 {أَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} 16 {أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} 17 {الملك 16- 17} {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} النساء 158 {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} المعارج 4 {يُدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} السجدة 5 {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ} النحل 50 {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الأعراف 54 في ستة مواضع {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 {يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لِّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} 36 {أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} 37 {غافر 36- 37}

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 393- 428

تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ {فصلت 42} {وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ} {الرعد 1} الى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى الا بكلفة وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى الا بالكلفة مثل قصة معراج الرسول الى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها اليه وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم الى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم وفي الصحيح في حديث الخوارج الا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء وفي حديث الرقية الذي رواه ابو داود وغيره ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع قال رسول الله إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ له فليقل ربنا الله الذي في السماء¹

الذي ليس له مثل فانه لا يعلم كيف هو الا هو

وروى الخلال باسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة قال سئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن عن قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 كيف استوى قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ المبين وعلينا التصديق وهذا الكلام مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبدالرحمن من غير وجه منها ما رواه أبو الشيخ الاصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى ابن يحيى قال كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبدالله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 كيف استوى فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرخصاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما اراك الا مبتدعا ثم أمر به أن يخرج فقول ربيعة ومالك الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب موافق لقول الباقرين امروها كما جاءت بلا كيف فانما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ولما قالوا امروها كما جاءت بلا كيف فان الاستواء حينئذ لا يكون معلوما بل مجهولا بمنزلة حروف المعجم وأيضا فانه لا يحتاج الى نفي علم الكيفية اذا لم يفهم عن اللفظ معنى وانما يحتاج الى نفي علم الكيفية اذا أثبتت الصفات وأيضا فان من ينفي الصفات الخبرية أو الصفات مطلقا لا يحتاج الى أن يقول بلا كيف فمن قال ان الله ليس على العرش لا يحتاج أن يقول بلا كيف فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا بلا كيف وأيضا فقولهم امروها كما جاءت يقتضى ابقاء دلالتها على ما هي عليه فانها جاءت الفاظ دالة على معانى فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال أمروا لفظها مع إعتقاد أن المفهوم منها غير مراد أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة وحينئذ فلا تكون قد أمرت كما جاءت ولا يقال حينئذ بلا كيف اذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول وروى الأثرم في السنة وأبو عبدالله بن بطة في الابانة وأبو عمرو الطلمنكى وغيرهم باسناد صحيح عن عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم مالك بن أنس وابن الماجشون وابن أبي ذئب وقد سئل عما جحدت به الجهمية أما بعد فقد فهمت ما

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 13

سألت فيما تتابعت الجهمية ومن خلفها في صفة الرب العظيم الذي فاقت عظمتها الوصف والتدبير وكلت الألسن عن تفسير صفته وانحصرت العقول دون معرفة قدرته ورددت عظمتها العقول فلم تجد مساعدا فرجعت خاسئة وهي حسيرة وانما أمروا بالنظر والتفكير فيما خلق بالتقدير وانما يقال كيف لمن لم يكن مرة ثم كان فأما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فإنه لا يعلم كيف هو الا هو وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ومن لا يموت ولا يبلى وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهى يعرفه عارف أو يحد قدره واصف على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شيء أبين منه الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه لا تكاد تراه صغرا يجول ويزول ولا يرى له سمع ولا بصر لما يتقلب به ويحتال من عقله أعضل بك واخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين وخالقهم وسيد السادة وربهم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير اعرف رحمك الله غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها اذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف هل تستدل بذلك على شيء من طاعته أو تزجر به عن شيء من معصيته¹

الله على العرش لا يشك في هذه المقالة الا جهمي هالك مراتب

قال أبو حنيفة الفقه الأكبر في الدين خير من الفقه في العلم ولأن يفقه الرجل كيف يعبد ربه خير له من أن يجمع العلم الكثير قال أبو مطيع قال أبو حنيفة عمن قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر لأن الله يقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وعرشه فوق سبع سموات قلت فان قال أنه على العرش استوى ولكنه يقول لا أدري العرش في السماء أم في الأرض قال هو كافر لأنه أنكر أن يكون في السماء لأنه تعالى في أعلى عليين وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وفي لفظ سألت أبا حنيفة عمن يقول لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض قال قد كفر قال لأن الله يقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وعرشه فوق سبع سموات قال فإنه يقول على العرش استوى ولكن لا يدري العرش في الأرض أو في السماء قال اذا أنكر أنه في السماء فقد كفر في هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة عند اصحابه أنه كفر الواقف الذي يقول لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول ليس في السماء أو ليس في السماء ولا في الأرض واحتج على كفره بقوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 قال وعرشه فوق سبع سموات وبين بهذا أن قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 يبين أن الله فوق السماوات فوق العرش وان الاستواء على العرش دل على أن الله بنفسه فوق العرش ثم أنه اردف ذلك بتكفير من قال انه على العرش استوى ولكن توقف في كون العرش في السماء أم في الأرض قال لأنه أنكر أنه في السماء لأن الله في أعلى عليين وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وهذا تصريح من أبي حنيفة بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية فان القلوب مفطورة على الاقرار بأن الله في العلو وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل وقد جاء اللفظ الآخر صريحا عند ذلك فقال اذا أنكر أنه في السماء فقد كفر وروى هذا اللفظ باسناد عنه شيخ الإسلام أبو اسماعيل الانصاري الهروي في كتاب الفاروق وروى أيضا ابن أبي حاتم ان هشام بن عبيدالله

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 40

الرازي صاحب محمد بن الحسن قاضي الري حبس رجلا في التجهم فتاب فجيء به الى هشام ليطلقه فقال الحمد لله على التوبة فامتحنه هشام فقال أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه فقال أشهد أن الله على عرشه ولا أدري ما بائن من خلقه فقال ردوه الى الحبس فإنه لم يتب وروى ايضا عن يحيى بن معاذ الرازي أنه قال ان الله على العرش بائن من الخلق وقد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا لا يشك في هذه المقالة الا جهمي ردىء ضليل وهالك مراتب يمزج الله بخلقه ويخلط منه الذات بالأقدار والأنتان وروى أيضا عن ابن المديني لما سئل ما قول أهل الجماعة قال يؤمنون بالرؤية والكلام وان الله فوق السموات على العرش¹

وقال أبو عبدالله محمد بن أبي زمنين الامام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في أصول السنة قال فيه ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {طه5}** وقوله **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {الحديد4}** فسبحان من بعد وقرب بعلمه فسمع النجوى وذكر حديث ابى رزين العقيلي قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض قال فى عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء قال محمد العماء السحاب الكثيف المطبق فيما ذكره الخليل وذكر أثارا آخر²

وقال أبو نعيم الأصبهاني صاحب الحلية فى عقيدة له قال فى أولها طريقتنا طريقة المتبعين الكتاب والسنة واجماع الأمة قال فمما اعتقدوه أن الأحاديث التى ثبتت عن النبى فى العرش واستواء الله يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه وان الله بائن من خلقه والخلق باننون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم وهو مستو على عرشه فى سمائه دون أرضه وخلقته وقال الحافظ أبو نعيم فى كتابه محجة الواثقين ومدرجة الواثقين تأليفه وأجمعوا أن الله فوق سمواته عال على عرشه مستو عليه لا مستول عليه كما تقول الجهمية أنه بكل مكان خلافا لما نزل فى كتابه **{أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ {الملك16}** **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ {فاطر10}** **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {طه5}** له العرش المستوى عليه والكرسى الذى وسع السموات والأرض وهو قوله **{ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ {البقرة255}** وكرسيه جسم والأرضون السبع والسموات السبع عند الكرسى كحلقة فى أرض فلاة وليس كرسية علمه كما قالت الجهمية بل يوضع كرسية يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كما قاله النبى وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفا صفا كما قال تعالى **{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا {الفجر22}**³

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 47-49

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 54-55

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 60

الخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين

أن القرآن اشتمل على أصول الدين التي تستحق هذا الاسم وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية بخلاف ما أحدثه المبتدعون والملحدون كما قال الرازي في آخر عمره في كتابه اقسام اللذات مع خبرته بطرق هؤلاء لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفة فما وجدتتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} فاطر 10 {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وقرأ في النفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى 11 {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} طه 110 قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي والخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين في العلم النافع والعمل الصالح وقد بعث الله محمدا بافضل ذلك وهو الهدى ودين الحق كما قال {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} الفتح 28¹

النسخ لا يجوز في الأخبار

وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبي في كتابه المسمى فهم القرآن قال في كلامه على النسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز في الأخبار قال لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شيء إلى أن قال وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنة عليا أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب وأنه لا يبصر ما قد كان ولا يسمع الاصوات ولا قدره له ولا يتكلم ولا كلام كان منه وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك فإذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز فان تلوت آية في ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض اخباره وكذلك قوله تعالى {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} الأنعام 18 وقوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وقوله {أَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ} الملك 16 وقوله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر 10 وقال {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} السجدة 5 وقال {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} المعارج 4 وقال لعيسى {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} آل عمران 55 الآية وقال {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} النساء 158 وقال {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} الأعراف 206 وذكر الألوهة أن لو كان آلهة لابتغوا الى ذى العرش سبيلا حيث هو فقال {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} الإسراء 42 أى طلبه وقال {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} الأعلى 1 قال أبو عبدالله فلن ينسخ ذلك لهذا أبدا كذلك قوله {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} الزخرف 84 وقوله {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} ق 16 وقوله {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 346 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 321 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص:

سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} الأنعام 3 وقوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } {المجادلة 7 الآية فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذلك وأعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون في أسفل الأشياء أو ينتقل فيها لانتقالها ويتبعض فيها على أقدارها ويزول عنها عند فنائها جل وعز عن ذلك وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال فزعموا أن الله تعالى في كل مكان بنفسه كائنا كما هو على العرش لا فرقان بين ذلك ثم أحالوا في النفي بعد تثبيت ما يجوز عليه في قولهم ما نفوه لأن كل من يثبت شيئاً في المعنى ثم نفاه بالقول لم يغن عنه نفيه بلسانه واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى في كل شيء بنفسه كائنا ثم نفوا معنى ما أثبتوه فقالوا لا كالشيء في الشيء قال ابو عبدالله لنا قوله { حَتَّى نَعْلَمَ } محمد 31 { وَسَيَرَى اللَّهُ } التوبة 94 { إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } الشعراء 15 فانما معناه حتى يكون الموجود فيعلمه موجودا ويسمعه مسموعا ويبصره مبصرا لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر وأما قوله { إِذَا أَرَدْنَا } النحل 40 اذا جاء وقت كون المراد فيه وان قوله { عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } الأنعام 18 الآية { أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 { إِذَا لَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 فهذا وغيره مثل قوله { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر 10 هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها منزه عن الدخول في خلقه لا يخفى عليه منهم خافية لأنه أبان في هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده لأنه قال { أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ } الملك 16 يعني فوق العرش والعرش على السماء لأن من قد كان فوق كل شيء على السماء في السماء وقد قال مثل ذلك في قوله { فَسَيُخَوِّأ فِي الْأَرْضِ } التوبة 2 يعني على الأرض لا يريد الدخول في جوفها وكذلك قوله { يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ } المائدة 26 يعني على الأرض لا يريد الدخول في جوفها وكذلك قوله { وَلَا صَلَّابَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } طه 71 يعني فوقها عليها وقال { أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 ثم فصل فقال { أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ } الملك 16 ولم يصل فلم يكن لذلك معنى اذا فصل قوله { مِّنْ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 ثم استأنف التخويف بالخسف إلا أنه على عرشه فوق السماء وقال تعالى { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِّنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } السجدة 5 وقال { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 فبين عروج الأمر وعروج الملائكة ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة اليه فقال { فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } المعارج 4 فقال صعودها إليه وفصله من قوله إليه كقول القائل اصعد الى فلان في ليلة أو يوم وذلك أنه في العلو وان صعودك إليه في يوم فاذا صعدوا الى العرش فقد صعدوا الى الله عز وجل وان كانوا لم يروه ولم يساووه في الإرتفاع في علوه فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر الى العلو¹

وصف الله تعالى نفسه بالعلو والاستواء على العرش وال فوقية

قد وصف الله تعالى نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله بالعلو والاستواء على العرش وال فوقية في كتابه في آيات كثيرة حتى قال بعض أكابر أصحاب الشافعي في القرآن ألف دليل أو أزيد تدل على ان الله تعالى عال على الخلق وأنه فوق عباده وقال غيره فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك مثل قوله { فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } فصلت 38 { وَلَهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 67-69

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ {الأنبياء19} فلو كان المراد بأن معنى عنده في قدرته كما يقول الجهمي لكان الخلق كلهم عنده فانهم كلهم في قدرته ومشيئته ولم يكن فرق بين من في السموات ومن في الأرض ومن عنده كما أن الاستواء على العرش لو كان المراد به الاستيلاء عليه لكان مستويا على جميع المخلوقات وكان مستويا على العرش قبل أن يخلقه دائما والاستواء مختص بالعرش بعد خلق السموات والأرض كما أخبر بذلك في كتابه فدل على أنه تارة كان مستويا عليه وتارة لم يكن مستويا عليه ولهذا كان العلو من الصفات المعلومة بالسمع مع العقل والشرع عند الأئمة المثبتة واما الاستواء على العرش فمن الصفات المعلومة بالسمع فقط دون العقل والمقصود أنه تعالى وصف نفسه بالمعية وبالقرب و المعية معيتان عامة وخاصة فالأولى قوله تعالى {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} الحديد4 والثانية قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} النحل128 الى غير ذلك من الآيات وأما القرب فهو كقوله {فَأَنِّي قَرِيبٌ} البقرة186 وقوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } ق16¹

أما علو الله تعالى عن سائر مخلوقاته وأنه كامل الأسماء الحسنى والصفات العلى فالذى يدل عليه منها الكتاب قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 والذى يدل عليه من السنة قصة معراج الرسول الى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها اليه وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون في الليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم الى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم وفي حديث الخوارج الا تآمنوني وأنا أمين من في السماء وفي حديث الرقية ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك وفي حديث الأوعال والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه وفي حديث قبض الروح حتى يعرج بها الى السماء التى فيها الله وفى سنن أبى داود عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله أعرابي فقال يا رسول الله جهدت الانفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فسبح رسول الله حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال ويحك أتدرى ما الله ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ان الله على عرشه وان عرشه على سمواته وأرضه كهكذا وقال بأصابه مثل القبة وفى الصحيح عن جابر بن عبدالله ان رسول الله لما خطب خطبة عظيمة يوم عرفات فى أعظم جمع حضره رسول الله جعل يقول الا هل بلغت فيقولون نعم فيرفع اصبعه الى السماء وينكبها اليهم ويقول اللهم اشهد غير مرة وحديث الجارية لما سألتها أين الله قالت فى السماء فأمر بعنقها وعلل ذلك بايمانها وأمثاله كثيرة وأما الذى يدل عليه من الاجماع ففي الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبی تقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمواته وروى عبدالله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له بم نعرف ربنا قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ولا نقول كما قالت الجهمية أنه هاهنا فى الأرض وباسناد صحيح عن سليمان بن حرب الامام سمعت حماد بن زيد وذكر الجهمية فقال انما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء شىء وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن عامر الضبعي امام أهل البصرة علما ودينا أنه ذكر عنده الجهمية فقال هم أشرف قولا من اليهود والنصارى وقد اجتمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله تعالى على العرش وقالوا هم ليس

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 122

على العرش شيء وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الأئمة من لم يقل ان الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه ثم ألقى على مزبلة لئلا يتأذى به اهل القبلة ولا أهل الذمة وروى الامام أحمد قال أنا شريح بن النعمان قال سمعت عبدالله بن نافع الصائغ قال سمعت مالك بن أنس يقول الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان وحكى الأوزاعي أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم مالك امام أهل الحجاز والأوزاعي امام أهل الشام والليث امام أهل البصرة والثوري امام أهل العراق حكى شهرة القول في زمن التابعين بالايمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية وانما قاله بعد ظهور جهم المنكر لكون الله فوق عرشه النافي لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف خلافه وروى الخلال بأسانيد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال سئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن عن قوله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } {5} طه 5 كيف استوى قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التصديق وهذا مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبدالرحمن أو نحوه وقال الشافعي خلافة أبي بكر حق قضاه الله تعالى في سمائه وجمع عليه قلوب عباده ولو يجمع ما قاله الشافعي في هذا الباب لكان فيه كفاية ومن أصحاب الشافعي عبدالعزيز بن يحيى الكنانى المكي له كتاب الرد على الجهمية وقرر فيه مسألة العلو وأن الله تعالى فوق عرشه والأئمة في الحديث والفقهاء والسنة والتصوف المائلون الى الشافعي ما من أحد منهم الا له كلام فيما يتعلق بهذا الباب ما هو معروف يطول ذكره وفي كتاب الفقه الأكبر المشهور عن أبي حنيفة يروونه بأسانيد عن أبي مطيع الحكم بن عبدالله قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر فقال لا تكفرن أحدا بذنب الى أن قال عمن قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر لأن الله يقول { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } {5} طه 5 وعرشه فوق سبع سموات قلت فان قال أنه على العرش ولكن لا أدري العرش في السماء أم في الأرض قال هو كافر وأنه يدعى من أعلى من أسفل وسئل علي بن المديني عن قوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } {المجادلة 7} قال اقرأ ما قبله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } {المجادلة 7} الآية وروى عن ابن عيسى الترمذى قال هو على العرش كما وصف في كتابه وعلمه وقدره وسلطانه في كل مكان وأبو يوسف لما بلغه عن المريسي انه ينكر الصفات الخيرية وان الله فوق عرشه أراد ضربه فهرب فضرب رفيقه ضربا بشعا وعن اصحاب ابى حنيفة في هذا الباب ما لا يحصى¹

السلف كلهم انكروا على الجهمية النفاة وقالوا بالاثبات

والسلف كلهم انكروا على الجهمية النفاة وقالوا بالاثبات وافصحوا به وكلامهم في الاثبات والانكار على النفاة اكثر من ان يمكن اثباته في هذا المكان وكلام الأئمة المشاهير مثل مالك والثوري والأوزاعي وابى حنيفة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع ابن الجراح والشافعي واحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وابى عبيد وأئمة اصحاب مالك وابى حنيفة والشافعي واحمد موجود كثير لا يحصيه أحد وجواب مالك في ذلك صريح في الاثبات فان السائل قال له يا أبا عبد الله { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } {طه 5} كيف استوى فقال مالك الاستواء معلوم والكيف

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 136

مجهول وفي لفظ استواؤه معلوم أو معقول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة فقد اخبر رضي الله عنه بأن نفس الاستواء معلوم وان كيفية الاستواء مجهولة وهذا بعينه قول أهل الاثبات وأما النفاة فما يثبتون استواء حتى تجهل كيفيته بل عند هذا القائل الشاك وامثاله ان الاستواء مجهول غير معلوم واذا كان الاستواء مجهولا لم يحتج ان يقال الكيف مجهول لا سيما اذا كان الاستواء منتفيا فالمنتفى المعلوم لا كيفية له حتى يقال هي مجهولة أو معلومة وكلام مالك صريح في اثبات الاستواء وانه معلوم وان له كيفية لكن تلك الكيفية مجهولة لنا لا نعلمها نحن ولهذا بدع السائل الذي سأله عن هذه الكيفية فان السؤال انما يكون عن امر معلوم لنا ونحن لا نعلم كيفية استوائه وليس كل ما كان معلوما وله كيفية تكون تلك الكيفية معلومة لنا يبين ذلك ان المالكية وغير المالكية نقلوا عن مالك أنه قال الله في السماء وعلمه في كل مكان حتى ذكر ذلك مكي خطيب قرطبة في كتاب التفسير الذي جمعه من كلام مالك ونقله أبو عمر والظلمكي وابو عمر بن عبد البر وابن ابي زيد في المختصر وغير واحد ونقله أيضا عن مالك غير هؤلاء ممن لا يحصى عددهم مثل احمد ابن حنبل وابنه عبد الله والأثرم والخلال والأجري وابن بطة وطوائف غير هؤلاء من المصنفين في السنة ولو كان مالك من الواقفة أو النفاة لم ينقل هذا الاثبات والقول الذي قاله مالك قاله قبله ربيعة بن ابي عبد الرحمن شيخه كما رواه عنه سفيان بن عيينة وقال عبد العزيز بن عبد الله بن ابي سلمة الماجشون كلاما طويلا يقرر مذهب الاثبات ويرد على النفاة قد ذكرناه في غير هذا الموضوع وكلام المالكية في ذم الجهمية النفاة مشهور في كتبهم وكلام أئمة المالكية وقدمائهم في الاثبات كثير مشهور حتى علماءهم حكوا اجماع أهل السنة والجماعة على ان الله بذاته فوق عرشه وقال أبو مطيع البلخي في كتاب الفقه الأكبر المشهور سألت أبا حنيفة عن يقول لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض قال قد كفر لأن الله عز وجل يقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وعرشه فوق سبع سمواته فقلت انه يقول على العرش استوى ولكن لا يدري العرش في السماء أو في الأرض فقال اذا أنكر انه في السماء كفر لأنه تعالى في اعلى عليين وانه يدعى من اعلى لا من اسفل وقال عبد الله بن نافع كان مالك بن انس يقول الله في السماء وعلمه في كل مكان وذكر أهل الكلام الذين ينقلون مقالات الناس مقالة أهل السنة وأهل الحديث كما ذكره أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي صنفه في اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين فذكر فيه أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة وغيرهم ثم قال ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث وجملة قولهم الاقرار بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء من عند الله وبما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون شيئا من ذلك وان الله واحد احد فرد صمد لا اله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وان محمدا عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وان الله على عرشه كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وان له يدين بلا كيف كما قال تعالى {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي} ص 75 وكما قال {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} المائدة 64 وان له عينين بلا كيف كما قال {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} القمر 14 وان له وجهها كما قال {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} الرحمن 27 وأقروا أن الله علما كما قال { أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} النساء 166 {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} فاطر 11 وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة وقالوا أنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر الا ما شاء الله وأن الأشياء تكون بمشيئة الله كما قال {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} التكويد 29 الى أن قال ويقولون ان القرآن كلام الله غير مخلوق ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله مثل ان الله ينزل الى سماء الدنيا فيقول هل من مستغفر فاغفر له كما جاء في الحديث ويقولون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} الفجر 22 وان الله يقرب من خلقه

كيف شاء كما قال { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } ق16 وذكر أشياء كثيرة الى أن قال فهذه جملة ما يأمر به ويستعملونه ويروونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب قال الأشعري أيضا في مسألة الاستواء قال أهل السنة وأصحاب الحديث ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على عرشه كما قال { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه5 ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله في القول بل نقول استوى بلا كيف وان له يدين بلا كيف كما قال تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } ص75 وان الله ينزل الى سماء الدنيا كما جاء في الحديث قال وقالت المعتزلة استوى على عرشه بمعنى استولى وقال الأشعري أيضا في كتابه الابانة في أصول الديانة قال في باب ذكر الاستواء على العرش ان قال قائل ما تقولون في الاستواء قيل نقول له ان الله مستو على عرشه كما قال { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه5 وقال { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر10 وقال { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } النساء158 وقال حكاية عن فرعون { يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ } {36} أسباب السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا } {37} غافر36-37 كذب فرعون موسى في قوله ان الله فوق السموات وقال الله تعالى { أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ } الملك16 فالسموات فوقها العرش وكل ما علا فهو سماء وليس اذا قال { أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ } الملك16 يعنى جميع السموات وانما أراد العرش الذى هو أعلا السموات الا ترى أنه ذكر السموات فقال { وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا } نوح16 ولم يرد أنه يملأ السموات جميعا ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم اذا دعوا نحو السماء لأن الله مستو على العرش الذى هو فوق السموات فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية أن معنى استوى استولى وملك وقهر وان الله فى كل مكان وجدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق وذهبوا فى الاستواء الى القدرة فلو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة لأن الله قادر على كل شىء والأرض فالله قادر عليها وعلى الحشوش والأخلية فلو كان مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال هو مستو على الاشياء كلها ولما لم يجز عند أحد من المسلمين أن يقال ان الله مستو على الاشياء كلها وعلى الحشوش والأخلية بطل أن يكون معنى الاستواء على العرش الاستيلاء الذى هو عام فى الاشياء كلها وقد نقل هذا عن الأشعري غير واحد من أئمة اصحابه كابن فورك والحافظ بن عساكر فى كتابه الذى جمعه فى تبين كذب المفترى فيما ينسب الى الشيخ أبى الحسن الأشعري وذكر اعتقاده الذى ذكره فى أول الابانة وقوله فيه فان قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون قيل له قولنا الذى به نقول وديانتنا التى ندين بها التمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان عليه أحمد بن حنبل نضر الله وجهه قائلون ولما خالف قوله مجانبون لأنه الامام الفاضل والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال وأوضح المنهاج به وقمع به بدع المبتدعين وزيع الزائعين وشك الشاكين فرحمة الله عليه من امام مقدم وكبير مفهوم وعلى جميع أئمة المسلمين وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 180-188 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 90 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 96 -

المبطل لتأويل من تؤل استوى بمعنى استولى وجوه

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية ان معنى قوله **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى طه5}** أنه استولى وملك وقهر وأنه في كل مكان وجدوا أن يكون على عرشه كما قال أهل الحق وذهبوا بالاستواء الى القدرة فلو كان هذا كما ذكروا كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة لأن الله قادر على كل شيء الى أن قال وأكثر في هذا وقد اتفق الأئمة جميعهم من المشرق والمغرب على الايمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقة عن رسول الله في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي وفارق الجماعة فانهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن أقرؤا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة فانه وصفه بصفة لا شيء والمبطل لتأويل من تؤل استوى بمعنى استولى وجوه أحدها أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين فانه لم يفسره لأحد في الكتب الصحيحة عنهم بل أول من قال ذلك بعض الجهمية والمعتزلة كما ذكره أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات وكتاب الابانة

الثاني أن معنى هذه الكلمة مشهور ولهذا لما سئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن ومالك بن أنس عن قوله **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى طه5}** قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول والايان به واجب والسؤال عنه بدعة ولا يريد أن الاستواء معلوم في اللغة دون الآية لأن السؤال عن الاستواء في الآية كما يستوى الناس الثالث أنه اذا كان معلوما في اللغة التي نزل بها القرآن كان معلوما في القرآن الرابع أنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوما لم يحتج أن يقول الكيف مجهول لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي الا ما قد علم أصله كما نقول انا نقر بالله ونؤمن به ولا نعلم كيف هو الخامس الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك هو عام في المخلوقات كالربوبية والعرش وان كان أعظم المخلوقات ونسبة الربوبية اليه لا تنفي نسبتها الى غيره كما في قوله **{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** المؤمنين 86 وكما في دعاء الكرب فلو كان استوى بمعنى استولى كما هو عام في الموجودات كلها لجاز مع اضافته الى العرش أن يقال استوى على السماء وعلى الهوى والبحار والأرض وعليها ودونها ونحوها اذ هو مستو على العرش فلما اتفق المسلمون على أنه يقال استوى على العرش ولا يقال استوى على هذه الاشياء مع أنه يقال استولى على العرش والاشياء علم أن معنى استوى خاص بالعرش ليس عاما كعموم الاشياء السادس أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وأخبر أن عرشه كان على الماء قبل خلقها وثبت ذلك في صحيح البخارى عن عمران بن حصين عن النبي قال كان الله ولا شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض مع أن العرش كان مخلوقا قبل ذلك فمعلوم أنه ما زال مستوليا عليه قبل وبعد فامتنع أن يكون الاستيلاء العام هذا الاستيلاء الخاص بزمان كما كان مختصا بالعرش السابع أنه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى اذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المشهور ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ولا دم مهراق ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربى وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا انه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة وقد علم انه لو احتج بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحتاج الى صحته فكيف ببيت من الشعر لا يعرف اسناده وقد طعن فيه أئمة اللغة وذكر عن الخليل كما ذكره ابو المظفر في كتابه الافصاح قال سئل الخليل هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى فقال هذا ما لا تعرفه العرب ولا هو جائز في لغتها وهو

امام فى اللغة على ما عرف من حاله فحينئذ حمله على ما لا يعرف حمل باطل الثامن أنه روى عن جماعة من أهل اللغة أنهم قالوا لا يجوز استولى بمعنى استولى الا فى حق من كان عاجزا ثم ظهر والله سبحانه لا يعجزه شىء والعرش لا يغالبه فى حال فامتنع أن يكون بمعنى استولى فاذا تبين هذا فقول الشاعر ثم استوى بشر على العراق لفظ مجازى لا يجوز حمل الكلام عليه الا مع قرينة تدل على ارادته واللفظ المشترك بطريق الاولى ومعلوم أنه ليس فى الخطاب قرينة أنه أراد بالآية الاستيلاء وأيضا فأهل اللغة قالوا لا يكون استوى بمعنى استولى الا فيما كان منازعا مغالبا فاذا غلب أحدهما صاحبه قيل استولى والله لم ينازعه أحد فى العرش فلو ثبت استعماله فى هذا المعنى الأخص مع النزاع فى ارادة المعنى الأعم لم يجب حمله عليه بمجرد قول بعض أهل اللغة مع تنازعهم فيه وهؤلاء ادعوا أنه بمعنى استولى فى اللغة مطلقا والاستواء فى القرآن فى غير موضع مثل قوله { اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } المؤمنون 28 { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } هود 44 { لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ } الزخرف 13 وفى حديث عدى أن رسول الله أتى بدابته فلما وضع رجله فى العرز قال بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله التاسع أنه لو ثبت أنه من اللغة العربية لم يجب أن يكون من لغة العرب العرباء ولو كان من لفظ بعض العرب العرباء لم يجب أن يكون من لغة رسول الله وقوله ولو كان من لغته لكان بالمعنى المعروف فى الكتاب والسنة وهو الذى يراد به ولا يجوز أن يراد معنى آخر العاشر أنه لو حمل على هذا المعنى لأدى الى محذور يجب تنزيه بعض الأئمة عنه فضلا عن الصحابة فضلا عن الله ورسوله فلو كان الكلام فى الكتاب والسنة كلاما نفهم منه معنى ويريدون به آخر لكان فى ذلك تدليس وتليب ومعاذ الله أن يكون ذلك فيجب أن يكون استعمال هذا الشاعر فى هذا اللفظ فى هذا المعنى ليس حقيقة بالاتفاق بل حقيقة فى غيره ولو كان حقيقة فيه للزم الاشتراك المجازى فيه واذا كان مجازا عن بعض العرب أو مجازا اخترعه من بعده أفنترك اللغة التى يخاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته الحادى عشر أن هذا اللفظ الذى تكرر فى الكتاب والسنة والدواعى متوفرة على فهم معناه من الخاصة والعامة عادة ودينا ان جعل الطريق الى فهمه ببيت شعر أحدث فيؤدى الى محذور فلو حمل على معنى هذا البيت للزم تخطئة الأئمة الذين لهم مصنفات فى الرد على من تأول ذلك ولكان يؤدى الى الكذب على الله ورسوله والصحابة والأئمة وللزم أن الله امتحن عباده بفهم هذا دون هذا مع ما تقرر فى نفوسهم وما ورد به نص الكتاب والسنة والله سبحانه لا يكلف نفسا الا وسعها وهذا مستحيل على الله ورسوله والصحابة والأئمة الثانى عشر أن معنى الاستواء معلوم علما ظاهرا بين الصحابة والتابعين وتابعيهم فيكون التفسير المحدث بعده باطلا قطعاً وهذا قول يزيد بن هارون الواسطى فانه قال ان من قال { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 خلاف ما تقرر فى نفوس العامة فهو جهمى ومنه قول مالك الاستواء معلوم وليس المراد أن هذا اللفظ فى القرآن معلوم كما قال بعض الناس استوى أم لا أو أنه سئل عن الكيفية ومالك جعلها معلومة والسؤال عن النزول ولفظ الاستواء ليس بدعة ولا الكلام فيه فقد تكلم فيه الصحابة والتابعون وانما البدعة السؤال عن الكيفية ومن أراد أن يزداد فى هذه القاعدة نورا فلينظر فى شىء من الهيئة وهى الاحاطة والكرية ولا بد من ذكر الاحاطة ليعلم ذلك¹

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 143-149

بيان ما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله على العرش

قال الامام أحمد في كتابه الذي كتبه في الرد على الجهمية والزنادقة بيان ما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله على العرش وقد قال تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى طه5}** وقال **{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }** الأعراف54 فقالوا هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش فهو على العرش وفي السموات وفي الأرض وفي كل مكان لا يخلو منه مكان ولا يكون في مكان دون مكان ويتلون آيات من القرآن **{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ }** الأنعام3 قلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظيم الرب شيء فقالوا أي شيء قلنا أحشاءكم واجوافكم واجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظيم الرب شيء وقد أخبرنا أنه في السماء فقال **{ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ }** الملك16 وقد قال جل ثناؤه **{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ }** فاطر10 وقال تعالى **{ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ }** آل عمران55 وقال تعالى **{ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ }** النساء158 وقال تعالى **{ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ }** الأنبياء19 وقال تعالى **{ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ }** النحل50 وقال تعالى **{ ذِي الْمَعَارِجِ }**3 **{ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }**4 **{ المَعَارِجِ 3-4 }** وقال تعالى **{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }** الأنعام18 وقال تعالى **{ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }** الشورى4 قال فهذا خبر الله أنه في السماء ووجدنا كل شيء في اسفل مذموما يقول جل ثناؤه **{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }** النساء145 وقال تعالى **{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ }** فصلت29 وقلنا لهم أليس تعلمون ان ابليس مكانه مكان والشياطين مكانهم مكان فلم يكن الله ليجتمع هو وابليس في مكان واحد ولكن معنى قوله عز وجل **{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ }** الأنعام3 يقول هو اله من في السموات واله من في الأرض وهو الله على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش لا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله في مكان دون مكان وذلك قوله **{ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }** الطلاق12 وقال من الاعتبار في ذلك لو أن رجلا كان في يده قدح من قوارير صاف وفيه شيء صاف لكان نظر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح والله وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه وخصلة أخرى لو أن رجلا بنى دارا بجميع مرافقها ثم اغلق بابها وخرج كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت في داره وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار فالله عز وجل وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع ما خلق وعلم كيف هو وما هو من غير أن يكون في شيء مما خلق وكذلك قال عبدالعزيز المكي صاحب الشافعي صاحب الحيدة المشهورة في كتاب الرد على الزنادقة والجهمية قال باب قول الجهمية في قول الله تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى طه5}** زعمت الجهمية أن قول الله **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى طه5}** انما المعنى استولى كقول العرب استوى فلان على مصر استوى على الشام يريد استولى عليها باب البيان لذلك يقال له أيكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستولى عليه فاذا قال لا قيل فمن زعم ذلك قال من زعم ذلك فهو كافر يقال له يلزمك أن تقول ان العرش قد أتت عليه مدة ليس الله بمستولى عليه وذلك

ان الله أخبر أنه خلق العرش قبل خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على عرشه بعد خلقه السموات والأرض قال الله عزوجل {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} الفرقان 59 وقوله {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} غافر 7 وقوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} فصلت 11 فأخبر أنه استوى على العرش فيلزمك أن تقول المدة الذي كان العرش فيها قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستول عليه إذ كان {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الفرقان 59 معناه عندك استولى فانما استولى بزعمك في ذلك الوقت لا قبله وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي أنه قال اقبلوا البشرى يا بنى تميم قالوا بشرتنا فاعطنا قال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن قالوا قبلنا فاخبرنا عن اول هذا الأمر كيف كان قال كان الله قبل كل شيء وكان عرشه على الماء وكتب في اللوح ذكر كل شيء وروى عن أبى رزين العقيلي وكان يعجب النبي صلى الله عليه وسلم مسألته انه قال يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض قال في عماء فوقه هواء وتحت هواء فيقال اخبرنى كيف استوى على العرش أهو كما يقول استوى فلان على السرير فيكون السرير قد حوى فلانا وحده اذا كان عليه فيلزمك أن تقول ان العرش قد حوى الله وحده اذا كان عليه لأننا لا نعقل الشيء على الشيء الا هكذا فيقال اما قولك كيف استوى فان الله تعالى لا يجرى عليه كيف وقد اخبرنا أنه استوى على العرش ولم يخبرنا كيف استوى لأنه لم يخبرهم كيف ذلك ولم تره العيون في الدنيا فتصفه بما رأت وحرّم عليهم أن يقولوا عليه ما لا يعلمون فأمنوا بخبره عن الاستواء ثم ردوا علم كيف استوى الى الله تعالى ولكن يلزمك أيها الجهمي أن تقول ان الله تعالى محدود وقد حوته الاماكن اذ زعمت في دعواك أنه في الاماكن لأنه لا يعقل شيء في مكان الا والمكان قد حواه كما تقول العرب فلان في البيت والماء في الحب فالبيت قد حوى فلانا والحب قد حوى الماء ويلزمك أشنع من ذلك لأنك قلت أفزع مما قالت به النصارى وذلك أنهم قالوا ان الله عز وجل في عيسى وعيسى بدن انسان واحد فكفروا بذلك وقيل لهم ما عظمتم الله اذ جعلتموه في بطن مريم وانتم تقولون انه في كل مكان وفي بطون النساء كلهن وبدن عيسى وأبدان الناس كلهم ويلزمك أيضا أن تقول أنه في أجواف الكلاب والخنازير لأنها أماكن وعندك أنه في كل مكان تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال فلما شئعت مقالته قال اقول ان الله في كل مكان لا كالمشيء في الشيء ولا كالمشيء على الشيء ولا كالمشيء خارجا عن الشيء ولا مباينا للشيء قال يقال له أصل قولك القياس والمعقول فقد دلت بالقياس والمعقول على أنك لا تعبد شيئا لأنه لو كان شيئا داخلا في القياس والمعقول لأن يكون داخلا في الشيء أو خارجا عنه فلما لم يكن في قولك شيئا استحال أن يكون الشيء في الشيء أو خارجا من الشيء فوصفت لعمرى ملتبسا لا وجود له وهو دينك وأصل مقالتك التعطيل فهذا عبدالعزيز المكي قد بين أن القياس والمعقول يوجب أن ما لا يكون داخلا في الشيء ولا خارجا منه فانه لا يكون شيئا وان ذلك صفة المعدوم الذي لا وجود له فالقياس هو الادلة العقلية والمعقول العلوم الضرورية¹

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي باب القول في الاستواء قال الله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الأعراف 54 {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 310

{ الأنعام 18 {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ} النحل 50 { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } فاطر 10 { أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 و اراد من فوق السماء كما قال { وَأَصْلَبْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ } طه 71 بمعنى على جذوع النخل وقال { فَسَيُحُوا فِي الْأَرْضِ } التوبة 2 اى على الارض وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السموات فمعنى الآية أمنتكم من على العرش كما صرح به فى سائر الآيات قال وفيما كتبنا من الآيات دلالة على ابطال قول من زعم من الجهمية ان الله بذاته فى كل مكان وقوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد 4 انما اراد بعلمه لا بذاته¹

قال الشيخ الامام أبو محمد عبدالقادر بن أبي صالح الجيلانى فى كتاب الغنية اما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد الى أن قال وهو بجهة العلو مستو على العرش محتو على الملك محيط علمه بالأشياء { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } فاطر 10 { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } السجدة 5 ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان بل يقال انه فى السماء على العرش كما قال { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه²

اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة

قال تعالى { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } {7} { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } {8} طه 7-8 قال الله تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } {الإسراء 110 وقال تعالى { وَنَلِّهِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } {الأعراف 180 وقال الله تعالى { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } {22} { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } {23} { هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {24} { الحشر 22-24 فأسماؤه كلها متفقه فى الدلالة على نفسه المقدسة ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذى دل عليه الاسم الآخر فالعزيم يدل على نفسه مع عزته والخالق يدل على نفسه مع خلقه والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ونفسه تستلزم جميع صفاته فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة وعلى أحدهما بطريق التضمن وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم³

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 193

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 85

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 185

قال تعالى { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } {7} { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } {8} طه 7-8 انه سبحانه وتعالى عالم بما يسر من القول وما يجهر به وعالم بأعماله وهو يعلم ظاهر الانسان وباطنه¹

فان الله تعالى سمي نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمي نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيفا الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } طه 7 وامثال ذلك فالقول في بعض هذه الصفات كالقول في بعض مذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 ليس كمثل شئ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزازي من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات فقوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 رد على أهل النفي والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع أهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مرید حقيقة متكلم حقيقة²

أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك

قال تعالى { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } {7} { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } {8} طه 7-8 وذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله ويجعلون عبده عابدا لغير الله مشركا بالله عادلا به جاعلا له ندا فانهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الله الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسوله وهو الاسلام العام الذى لا يقبل الله من الاولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبى من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا وهى رأس الدين وكما قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله الا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 512

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 194

وحسابهم على الله فضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 فأخبر سبحانه أنه يوحى الى كل رسول بنفى الالهوية عما سواه وإثباتها له وحده¹

في الصحيحين عن النبي أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما في الموطأ وغيره عن النبي أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفي الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة وفي الصحيح عنه أنه قال لعنه عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 116 وتلك الحسنة التي لا بد من سعادتها كما ثبت في الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر في الحديث أنها أعلا شعب الإيمان وفي الصحيحين عنه أنه قال لو فد عبدالقيس أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام في حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الإسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفي حديث في المسند قال الإسلام علانية والإيمان في القلب فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضي الله عنه أن القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وفي الصحيحين عنه أنه قال ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب²

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 256

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 644

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }

قال تعالى { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } {7} {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } {8} طه 7-8 فأسماؤه الحسنی مثل الرحمن الرحيم و الغفور الرحيم فهذه الاقوال هي أسماؤه الحسنی وهي اذا ذكرت في الدعاء والخبر يراد بها المسمى اذا قال {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} {الشعراء 217 فالمراد المسمى ليس المراد أنه يتوكل على الأسماء التي هي أقوال كما في سائر الكلام كلام الخالق وكلام المخلوقين قال تعالى {وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الأعراف 180 كان المراد أنه نفسه له الأسماء الحسنی ومنها اسمه الله كما قال {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء 110 فالذي له الأسماء الحسنی هو المسمى بها ولهذا كان في كلام الامام أحمد أن هذا الإسم من أسمائه الحسنی وتارة يقول الاسماء الحسنی له اى المسمى ليس من الأسماء ولهذا في قوله {وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الأعراف 180 لم يقصد أن هذا الاسم له الأسماء الحسنی بل قصد أن المسمى له الأسماء الحسنی¹

وقال تعالى {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} طه 8 وقال تعالى {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الحشر 24} و الحسنی المفضلة على الحسنه والواحد الاحسن ثم هنا ثلاثة أقوال اما ان يقال ليس له من الاسماء الا الأحسن ولا يدعى الا به واما ان يقال لا يدعى الا بالحسنی وان سمي بما يجوز وان لم يكن من الحسنی وهذان قولان معروفان واما ان يقال بل يجوز في الدعاء والخبر وذلك ان قوله {وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} {الأعراف 180} وقال { ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء 110} أثبت له الاسماء الحسنی و امر بالدعاء بها فظاهر هذا ان له جميع الاسماء الحسنی وقد يقال جنس الاسماء الحسنی بحيث لا يجوز نفيها عنه كما فعله الكفار و امر بالدعاء بها و امر بدعائه مسمى بها خلاف ما كان عليه المشركون من النهي عن دعائه باسمه الرحمن فقد يقال قوله { فَادْعُوهُ بِهَا } {الأعراف 180} امر ان يدعى بالاسماء الحسنی وان لا يدعى بغيرها كما قال {ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ} {الأحزاب 5} فهو نهى ان يدعوا لغير آبائهم ويفرق بين دعائه والخبار عنه فلا يدعى الا بالاسماء الحسنی واما الاخبار عنه فلا يكون باسم سيء لكن قد يكون باسم حسن او باسم ليس بسيء وان لم يحكم بحسنه مثل اسم شيء وذات وموجود اذا اريد به الثابت واما اذا اريد به الموجود عند الشدائد فهو من الاسماء الحسنی وكذلك المرید والمتكلم فان الارادة والكلام تنقسم الى محمود ومذموم فليس ذلك من الاسماء الحسنی بخلاف الحكيم والرحيم والصادق ونحو ذلك فان ذلك لا يكون الا محمودا وهكذا كما في حق الرسول حيث قال {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} {النور 63} فأمرهم ان يقولوا يا رسول الله يا نبي الله كما خاطبه الله بقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} {الأنفال 64} {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ} {المائدة 41} لا يقول يا محمد يا أحمد يا أبا القاسم وان كانوا يقولون في الاخبار كالأذان ونحوه اشهد ان محمدا رسول الله كما قال تعالى {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} {الفتح 29} وقال {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} {الصف 6} وقال {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ} {الأحزاب 40} فهو سبحانه لم يخاطب محمدا الا بنعت

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 197-198

التشريف كالرسول والنبى والمزمل والمدثر وخاطب سائر الانبياء بأسمائهم مع انه فى مقام الاخبار عنه قد يذكر اسمه فقد فرق سبحانه بين حالتى الخطاب فى حق الرسول وامرنا بالتفريق بينهما فى حقه وكذلك هو المعتاد فى عقول الناس اذا خاطبوا الاكابر من الامراء والعلماء والمشايخ والرؤساء لم يخاطبواهم ويدعوهم الا باسم حسن وان كان فى حال الخبر عن أحدهم يقال هو انسان وحيوان ناطق وجسم ومحدث ومخلوق ومربوب ومصنوع وابن انثى ويأكل الطعام ويشرب الشراب لكن كل ما يذكر من اسمائه وصفاته فى حال الاخبار عنه يدعى به فى حال مناجاته ومخاطبته وان كانت اسماء المخلوق فيها ما يدل على نقصه وحدوثه واسماء الله ليس فيها ما يدل على نقص ولا حدوث بل فيها الاحسن الذى يدل على الكمال وهى التى يدعى بها وان كان اذا اخبر عنه يخبر باسم حسن او باسم لا ينفى الحسن ولا يجب ان يكون حسنا وأما فى الاسماء المأثورة فما من اسم الا وهو يدل على معنى حسن فينبغى تدبير هذا للدعاء وللخير المأثور وغير المأثور الذى قيل لضرورة حدوث المخالفين للتفريق بين الدعاء والخبر وبين المأثور الذى يقال او تعريفهم لما لم يكونوا به عارفين وحينئذ فليس كل اسم ذكر فى مقام يذكر فى مقام بل يجب التفريق¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه5 و لفظ العلو يتضمن الإستعلاء و غير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } الأعراف54 فهو يدل على علوه على العرش و السلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري فى صحيحه عن أبى العالية فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَى } الأعراف54 قال إرتفع و كذلك رواه ابن أبى حاتم و غيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبى إياس عن أبى جعفر عن أبى الربيع عن أبى العالية { ثُمَّ اسْتَوَى } الأعراف54 قال إرتفع و قال البخاري و قال مجاهد فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } الأعراف54 علا على العرش و لكن يقال علا على كذا و علا عن كذا و هذا الثانى جاء فى القرآن فى مواضع لكن بلفظ تعالى كقوله { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } الإسراء43 { عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } المؤمنون92²

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 141-143

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 360

طه 9-23

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {9} إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى {10} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى {15} فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى {16} وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى {17} قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {18} قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى {19} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {20} قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى {21} وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى {22} لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {23}

الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ودفع موانع

قال تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {9} إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى {10} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى {15} فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى {16} وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى {17} قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {18} قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى {19} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {20} قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى {21} وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى {22} لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {23} طه 9-23

فإن الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ودفع موانع مثال ذلك غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب بل أنزل الله ماء السماء وأنبع ماء الأرض كما قال تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ {9} فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتَصِرْ {10} ففَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ {11} وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ {12} وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وُدُسَّرَ {13} تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ {14} وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {15} القمر 9-15 و وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته كآيات موسى من مثل مصير العصى حية كانت بعد أن ألقاها إما عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة للعادة وإما عند مطالبة فرعون له بالآية وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم وكذلك سائر آياته حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا وكذلك تقجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم مثل تكثير الماء كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع أي تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس

الأصابع وكذلك البئر كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها وإما بصبه الماء الذي بصق فيه فيها وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله إلى أمثال ذلك¹

الذي كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين

قال تعالى { **إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى** } طه 10 ونحن نعلم بالإضطرار من ملة المسلمين واليهود والنصارى أن الطور الذي كلم الله عليه موسى هو جبل من الجبال والطور الجبل وعلم بالإضطرار من دين أهل الملل والنقل بالتواتر أن الله لما كلم موسى كلمه من الشجرة وأنه كان يخرج منها نار محسوسة وأن موسى عليه السلام لما ضرب امرأته المخاض قال لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى طلب أن يجيء بجذوة نار أو يجد من يخبره وأنه سبحانه وتعالى كلمه وهو بالوادي المقدس طوى وعلم أن هذا التكليم الذي كلمه موسى لم يكلم غيره من الأنبياء والرسل إلا ما يذكر من مناجاة النبي ليلة المعراج²

والرب تعالى لم يكن في باطن الشجرة ولا حل فيها ولا اتحد بها وقول الله إنه كلمه منها وناداه منها كقوله { **فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} طه** } 11-12 وفي البقعة المباركة ونحو ذلك وليس في شيء من ذلك أن الرب تعالى حل في باطن الوادي المقدس أو البقعة المباركة أو الجانب الأيمن ولا أنه اتحد بشيء من ذلك ولا صار هو وشيء من ذلك جوهرًا واحدًا ولا شخصًا واحدًا كما يقول بعض النصارى إن اللاهوت والناسوت صارًا جوهرًا واحدًا وبعضهم يقول صارًا شخصًا واحدًا بل ولا قال أحد أنه حل في شيء من ذلك كحلول الماء في اللبن أو النار في الحديد كما يقول بعضهم إن اللاهوت حل في الناسوت كذلك ولو قدر أن بعض الناس قد قال شيئًا من المقالات التي لا تدل عليها الكتب الإلهية ولا تعلم بالعقل لم يكن قوله حجة إذ لا يحتج إلا بنقل ثابت عن الأنبياء أو بما يعلم بالعقل و أن الذي كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين وتكليمه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنزوله إلى السماء الدنيا ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق والكلام على ذلك مبسوط في غير هذا الموضع³

موسى فان الله كلمه بلا واسطة باتفاق المسلمين أهل السنة وأهل البدعة

قال تعالى { **إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى** } طه 10 وأما موسى فان الله كلمه بلا واسطة باتفاق المسلمين أهل السنة وأهل البدعة لم يقل أحد من المسلمين أن موسى كان بينه وبين الله واسطة في التكليم لا أهل السنة ولا الجهمية ولا من

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 404

²بغية المرتاد ج: 1 ص: 381

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 20

المعتزلة ولا الكلابية ولا غيرهم ولكن بينهم نزاع في غير هذا والذي رآه موسى كان ناراً بنص القرآن وهو أيضاً نور كما في الحديث والنار هي نور والله أعلم¹

ليس في القرآن تكرار

وقد قص سبحانه قصة موسى وأظهر براهين موسى وآياته التي هي من أظهر البراهين والأدلة حتى اعترف بها السحرة الذين جمعهم فرعون وناهيك بذلك فلما أظهر الله حق موسى وأتى بالآيات التي علم بالاضطرار أنها من الله وابتلعت عصاه الحبال التي أتى بها السحرة بعد أن جاءوا بسحر عظيم وسحروا أعين الناس واسترهبوا الناس ثم لما ظهر الحق وانقلبوا صاغرين قالوا {أَمْنَا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} طه 70 فقال لهم فرعون {أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى} {71} قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ {72} طه 71-72 من الدلائل البيِّنات اليقينية القطعية وعلى الذي فطرنا وهو خالقنا وربنا الذي لا يد لنا منه لن نُؤْتِرَكَ على هذه الدلائل اليقينية وعلى خالق البرية {فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} {72} إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} {73} طه 72-73 وقد ذكر الله هذه القصة في عدة مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر وليس في هذا تكرار بل فيه تنويع الآيات مثل أسماء النبي إذا قيل محمد وأحمد والحاشر والعاقب والمقفي ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة في كل اسم دلالة على معنى ليس في الاسم الآخر وإن كانت الذات واحدة فالصفات متنوعة وكذلك القرآن إذا قيل فيه قرآن وفرقان وبيان وهدى وبصائر وشفاء ونور ورحمة وروح فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الآخر وكذلك أسماء الرب تعالى إذا قيل الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذي في الاسم الآخر فالذات واحدة والصفات متعددة فهذا في الأسماء المفردة وكذلك في الجمل التامة يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان أخرى وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفات متعددة ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الآخر وليس في القرآن تكرار أصلاً وأما ما ذكره بعض لناس من أنه كرر القصص مع إمكان الاكتفاء بالواحدة وكان الحكمة فيه أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الآيات والقصص مثناة متكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم وقصة نوح إلى قوم فأراد الله أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض وأن يلقبها إلى كل سمع فهذا كلام من لم يقدر القرآن قدره وأبو الفرج اقتصر على هذا الجواب في قوله مثنى لما قيل لم تثبت وبسط هذا له موضع آخر فإن التثنية هي التنويع والتجنيس وهي استيفاء الأقسام ولهذا يقول من يقول من السلف الأقسام والأمثال²

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 585

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 168-169

بيان ان قولهم ان الكلام قديم مخالف لصريح المعقول والمنقول

1-المؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا

قال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} طه 11-14 } قالوا فالكلام القديم هو الحروف والأصوات ومنهم من قال الحروف دون الأصوات فهي قديمة أزلية بأعيانها لا نقول بوجود شيء بعد شيء وأنه ما زال يقول يا آدم يا نوح يا موسى من الأزل إلى الأبد ولا يزال يقول ذلك وقال هؤلاء باقتران الحروف بعضها ببعض في الأزل وأن الياء والسين موجودتان معا في الأزل والترتيب بينهما إنما هو ترتيب في ذاتهما أو في ظهورهما لا في وجودهما وهذا قول طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء حكاها الأشعري في المقالات عن طائفة قالته وقد وافقهم عليه طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وغيرهم فأنكر الجمهور هذا القول وقالوا هذا مخالف لصريح المعقول والمنقول فإن الله تعالى يقول { هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } غافر 68 وأن تخلص الفعل المضارع للاستقبال والمؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا قال تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } آل عمران 59¹

وقال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} طه 11-14 } فوقت النداء بقوله فلما وبقوله إذ فعلم أنه كان في وقت مخصوص لم يناداه قبل ذلك²

وفى هذا دليل على انه حينئذ نودي ولم يناد قبل ذلك ولما فيها من معنى الظرف كما فى قوله {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} الجن 19 ومثل هذا قوله {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} القصص 65 {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} القصص 74 فانه وقت النداء بظرف محدود فدل على أن النداء يقع فى ذلك الحين دون غيره من الظروف وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه ومثل هذا قوله تعالى {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} البقرة 30 وقوله {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} البقرة 34 وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين فان الكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته ثم من هؤلاء من قال انه معنى واحد لأن الحروف والأصوات متعاقبة يمتنع أن تكون قديمة ومنهم من قال بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان وأنها مترتبة فى ذاتها متقاربة فى وجودها لم تنزل ولا تزال قائمة بذاته والنداء الذى سمعه موسى قديم أزلى لم يزل ولا يزال ومنهم من قال بل الحروف قديمة الأعيان بخلاف الأصوات وكل هؤلاء يقولون أن التكليم والنداء ليس الا مجرد خلق ادراك

¹الصفدية ج: 2 ص: 58

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 64

المخلوق بحيث يسمع ما لم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ولا تكليم بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعا لما كان موجودا قبل سماعه بمنزلة جعل الأعمى بصيرا لما كان موجودا قبل رؤيته من غير أحداث شيء منفصل عن الأعمى فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا انه حينئذ نودي ولهذا يقولون انه يسمع كلامه لخلقه يدل عن قول الناس إنه يكلم خلقه وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق ويقولون عن أنفسهم إنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا ان القرآن كلام الله غير مخلوق وليس قولهم قول السلف لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون لله كلاما قائما بنفس الله وهذا قول السلف بخلاف الخلقية الذين يقولون ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره فان قول هؤلاء مخالف لقول السلف واما كون قول الخلقية أقرب فلأنهم يقولون ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته وهذا قول السلف وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه وليس كلامه بمشيئته واختياره بل كلامه عندهم كحياته وهم يقولون الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل والخلقية يقولون صفة فعل لا صفة ذات ومذهب السلف انه صفة ذات وصفة فعل معا فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه واختلافهم في كلام الله تعالى شبيه اختلافهم في أفعاله تعالى ورضاه وغضبه وارانته وكرهاته وحبه وبغضه وفرحه وسخطه ونحو ذلك فان هؤلاء يقولون هذه كلها أمور مخلوقة بائنة عنه ترجع إلى الثواب والعقاب والآخرين يقولون بل هذه كلها أمور قديمة الأعيان قائمة بذاته ثم منهم من يجعلها كلها تعود إلى ارادة واحدة بالعين متعلقة بجميع المخلوقات ومنهم من يقول بل هي صفات متعددة الأعيان لكن يقول كل واحدة واحدة العين قديمة قبل وجود مقتضياتها كما قالوا مثل ذلك في الكلام والله تعالى يقول { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرَّهُوا رِضْوَانَهُ } محمد 28 فأخبر أن أفعالهم أسخطته قال تعالى { فَلَمَّا أَسْفَوْنا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } الزخرف 55 أى أغضبونا وقال تعالى { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 إلى أمثال ذلك مما يبين أنه سخط على الكفار لما كفروا ورضي عن المؤمنين لما آمنوا ونظير هذا اختلافهم في أفعاله تعالى ومسائل القدر فان المعتزلة يقولون انه يفعل لحكمة مقصودة و ارادة الاحسان الى العباد لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود اليه وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلا فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به وهؤلاء لا يثبتون له حكمة ولا قصدا يتصف به والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا مقصودا يعود اليه وكذلك في الكلام أولئك أثبتوا كلاما هو فعله لا يقوم به وهؤلاء يقولون مالا يقوم به لا يعود حكمه اليه والفريقان يمتنعون ان يقوم به حكمة مرادة له كما يمتنع الفريقان ان يقوم به كلام وفعل يريده وقول أولئك أقرب إلى قول السلف والفقهاء اذ أثبتوا الحكمة والمصلحة في احكامه وأفعاله واثبتوا كلاما يتكلم به بقدرته ومشيئته وقول هؤلاء أقرب إلى قول السلف اذ اثبتوا الصفات وقالوا لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به اصلا ولا يعود اليه حكم من شيء لم يقم به فلا يكون متكلاما بكلام لم يقم به ولا يكون حكيما كريما ورحيما بحكمة ورحمة لم تقم به كما لا يكون عليما بعلم لم يقم به وقديرا بقدره لم تقم به ولا يكون محبا راضيا غضبانا بحب ورضى وغضب لم يقم به فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله بل وسائر صفاته وافقوا السلف والأئمة من وجه وخالفوهم من وجه وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر لكن الأشعرية في جنس مسائل الصفات بل وسائر الصفات والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة¹

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 131-135

2-الكلام أقسام وأنواع والله موصوف بها كلها

قال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} طه 11-14 } أن الكلام معانيه وحروفه تنقسم إلى خبر وإنشاء والإنشاء منه الطلب والطلب ينقسم إلى أمر ونهي وحقيقة الطلب غير حقيقة الخبر فكيف لا تكون هذه أقسام الكلام وأنواعه بل هو موصوف بها كلها وأيضا فالله تعالى يخبر أنه لما أتى موسى الشجرة ناداه فناداه في ذلك الوقت لم يناده في الأزل وكذلك قال { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ {الأعراف 11} وقال { إِنَّ مَثَلِ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {آل عمران 59} وقال { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ {البقرة 30} إلى مواضع كثيرة من القرآن تبين أنه تكلم بالكلام المذكور في ذلك الوقت فكيف يكون أزليا أبديا ما زال ولا يزال وكيف يكون لم يزل ولا يزال قائلا { يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا {هود 48} { يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلِّ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ وَارْفَعْنَاكَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَتَّعْنَاكَ فِيهَا أَيَّامًا وَنَعْمًا عَلَيْنَا أَلَمْ يَكُن لَكُمْ آيَاتٍ {آل عمران 55} { يَا مُوسَى {طه 11} إلى قوله { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا } طه 14 { يَا كَافِرُوا {آل عمران 55} { يَا مُوسَى {طه 11} إلى قوله { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا } طه 14 { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ {1} فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا {2} المزمّل 1-2¹

3- الذي نادى موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية

وقد أخبر الله تعالى في القرآن بنداؤه لعباده في أكثر من عشرة مواضع والنداء لا يكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة وسائر الناس والله أخبر أنه نادى موسى حين جاء الشجرة فقال { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {النمل 8} { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ {12} طه 11-12 } { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ {القصص 30} { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {الشعراء 10} { وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا {مريم 52} { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {15} { إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {16} { النازعات 15-16 } { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا {القصص 46} { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ {القصص 62} { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ {الصفوات 104} في موضعين { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ {القصص 65} { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا {الأعراف 22} فمن قال إنه لم يزل مناديا من الأزل إلى الأبد فقد خالف القرآن والعقل ومن قال إنه بنفسه لم يناد ولكن خلق نداء في شجرة أو غيرها لزم أن تكون الشجرة هي القائلة إنني أنا الله وليس هذا كقول الناس نادى الأمير إذ أمر مناديا فإن المنادي عن الأمير يقول أمر الأمير بكذا ورسم السلطان بكذا لا يقول أنا أمرتكم ولو قال ذلك لأهانته الناس والمنادي قال لموسى { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي } طه 14 { إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {القصص 30} وهذا لا يجوز أن يقوله ملك إلا إذا بلغه عن الله كما نقرأ نحن القرآن والملك إذا أمره الله بالنداء قال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إنني أحب فلانا فأحبه ثم ينادى جبريل في السماء إن الله يحب فلانا فأحبه فجبريل إذا نادى في السماء قال إن الله يحب فلانا فأحبه والله إذا نادى جبريل يقول يا جبريل إنني أحب فلانا ولهذا لما نادى الملائكة زكريا قال تعالى { فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى } آل عمران 39 وقال { وَإِذْ قَالَتْ

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 418

الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ { آل عمران 42 } ولا يجوز
 قط لمخلوق أن يقول إني أنا الله رب العالمين ولا يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه
 من يستغفرنني فأغفر له والله تعالى إذا خلق صفة في محل كان المحل متصفا بها فإذا خلق في
 محل علما أو قدرة أو حياة أو حركة أو لونا أو سمعا أو بصرا كان ذلك المحل هو العالم به القادر
 المتحرك الحي المتلون السميع البصير فإن الرب لا يتصف بما يخلقه في مخلوقاته وإنما يتصف
 بصفاته القائمة به بل كل موصوف لا يوصف إلا بما يقوم به لا بما يقوم بغيره ولم يقم به فلو كان
 النداء مخلوقا في الشجرة لكانت هي القائلة إني أنا الله وإذا كان ما خلقه الرب في غيره كلاما له
 وليس له كلام إلا ما خلقه لزم أن يكون إنطاقه لأعضاء الإنسان يوم القيامة كلاما له وتسبيح الحصى
 كلاما له وتسليم الحجر على الرسول كلاما له بل يلزم أن يكون كل كلام في الوجود كلامه لأنه قد
 ثبت أنه خالق كل شيء وهكذا طرد قول الحلوية الإتحادية كابن عربي فإنه قال وكل كلام في
 الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه ولهذا قال سليمان بن داود الهاشمي من قال إن
 قوله { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي** } طه 14 مخلوق فقوله من جنس قول فرعون الذي قال {
 أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} النازعات 24 فإن هذا مخلوق وهذا مخلوق يقول إن هذا يوجد أن يكون ما خلق فيه
 هذا القول هو القائل له كما كان فرعون هو القائل لما قام به قالوا وقولهم إن الكلام صفة فعل فيه
 تلبيس فيقال لهم أتريدون به أنه مفعول منفصل عن المتكلم أم تريدون به أنه قائم به فإن قلتم
 بالأول فهو باطل فلا يعرف قط متكلم بكلام وكلامه مستلزم كونه منفصلا عنه والفعل أيضا لا بد أن
 لا يكون قائما بالفاعل كما قال السلف والأكثرين وإنما المفعول هو الذي يكون بائنا عنه والمخلوق
 المنفصل عن الرب ليس هو خلقه إياه بل خلقه للسماوات والأرض ليس هو نفس السماوات والأرض
 والذين قالوا الخلق هو المخلوق فروا من أمور ظنوها محذورة وكان ما فروا إليه شرا مما فروا منه
 فإنهم قالوا لو كان الخلق غير المخلوق لكان إما قديما وإما حادثا فإن كان قديما لزم قدم المخلوق وإن
 كان حادثا فلا بد له من خلق آخر فيلزم التسلسل فقال لهم الناس بل هذا منقوض على أصلكم فإنكم
 تقولون إنه يريد بإرادة قديمة والمرادات كلها حادثة فإن كان هذا جائزا فلماذا لا يجوز أن يكون
 الخلق قديما والمخلوق حادثا وإن كان هذا غير جائز بل الإرادة تقارن المراد لزم جواز قيام الحوادث
 به وحينئذ فيجوز أن يقوم به خلق مقارن للمخلوق فلزم فساد قولكم على التقديرين وكذلك إذا قيل
 إن الخلق حادث فلم قلتم إنه محتاج إلى خلق آخر فإنكم تقولون المخلوقات كلها حادثة ولا تحتاج إلى
 خلق حادث فلم لا يجوز أن تكون مخلوقة بخلق حادث وهو لا يحتاج إلى خلق آخر ومعلوم أن
 حدوثها بخلق حادث أقرب إلى العقول من حدوثها كلها بلا خلق أصلا فإن كان كل حادث يفتقر إلى
 خلق بطل قولكم وإن كان فيها مالا يفتقر إلى خلق جاز أن يكون الخلق نفسه لا يفتقر إلى خلق آخر
 وهذه المواضع مبسوطة في غير هذا الموضع والمقصود التمثيل بكلام المختلفين في الكتاب الذين في
 قول كل واحد منهم حق وباطل وأن الصواب ما دل عليه الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين
 لهم بإحسان والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي فالطريق
 الشرعي هو النظر فيما جاء به الرسول والإستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به
 وعمل به لا يكفي أحدهما وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية فإن الرسول بين
 بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه والرسول بينوا للناس العقلية التي يحتاجون إليها كما ضرب
 الله في القرآن من كل مثل وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته وأما
 الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي فإن هذا فيه باطل كثير وكثير
 من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء
 منحرفون إلى اليهودية الباطلة والثاني طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء

منحرفون إلى النصرانية الباطلة فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرى وينتحل كل منهم اتباع الرسول والرسول ليس ما جاء به موافقا لما قال هؤلاء ولا هؤلاء {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} آل عمران 67 وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرد حصول المعارف بلا تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث وكلا الفريقين غالط بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم إن لم يعرف ذلك من جهته وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به وإلا فقد قال الله تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} الصف 5¹

4-أخبر سبحانه عن نفسه بالنداء في أكثر من عشرة مواضع

قال تعالى {فَلَمَّا أَنَا نُودِي يَا مُوسَى} {11} {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} {13} {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} {14} طه 11-14 هذا وقد أخبر سبحانه عن نفسه بالنداء في أكثر من عشرة مواضع فقال تعالى {فَلَمَّا دَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} {الأعراف 22} وقال تعالى {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} {القصص 62} {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} {القصص 65} وذكر سبحانه نداءه لموسى عليه السلام في سورة طه و مريم و الطس الثلاث وفي سورة و النازعات وأخبر أنه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى {فَلَمَّا أَنَا نُودِي مِنَ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} {القصص 30} وقال تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} {15} {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} {16} {النَّازِعَاتِ 15-16} وقال تعالى {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} {القصص 46} {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ} {الصافات 104} واستفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه سبحانه ينادى بصوت نادى موسى وينادى عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحي بصوت ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف كما لم يقل أحد منهم أن الصوت الذي سمعه موسى

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 423-430 و الجواب الصحيح ج: 4 ص: 16

قديم ولا أن ذلك النداء قديم ولا قال أحد منهم أن هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذى تكلم الله به بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذى يتكلم الله به وبين أصوات العباد¹

5-التكليم الخاص الكامل لا يدخل فيه الوحي الخاص الخفى

كلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام ولهذا سمي الله هذا نداء و نجاء فقال تعالى {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} {مريم52} وقال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى } {11} {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} {12} { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } {13} طه 11-13 وهذا التكليم مختص ببعض الرسل كما قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ} {البقرة253} وقال تعالى {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} {الأعراف143} وقال بعد ذكر إيحائه إلى الأنبياء {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} {النساء164} فمن جعل هذا من جنس الوحي الأول كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة ومن تكلم فى التصوف على طريقهم كما فى مشكاة الأنوار وكما فى كتاب خلع النعلين وكما فى كلام الاتحادية كصاحب الفصوص وأمثاله فضلاله ومخالفته للكتاب والسنة والاجماع بل وصريح المعقول من أبين الأمور وكذلك من زعم أن تكليم الله لموسى إنما هو من جنس الالهام والوحي وان الواحد منا قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى كما يوجد مثل ذلك فى كلام طائفة من فروخ الجهمية الكلابية ونحوهم فهذا أيضا من أعظم الناس ضلالا وقد دل كتاب الله على أن اسم الوحي والكلام فى كتاب الله فيهما عموم وخصوص فإذا كان أحدهما عاما اندرج فيه الآخر كما اندرج الوحي فى التكليم العام فى هذه الآية واندرج التكليم فى الوحي العام حيث قال تعالى { فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } طه 13 واما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفى الذى يشترك فيه الأنبياء وغيرهم كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل كما قال تعالى لذكريا { آيَاتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } {مريم10} ثم قال تعالى { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } {مريم11} فالإيحاء ليس بتكليم ولا يناقض الكلام وقوله تعالى فى الآية الأخرى {الَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا} {آل عمران41} أن جعل معنى الاستثناء منقطعا اتفق معنى التكليم فى الآيتين وان جعل متصلا كان التكليم مثل التكليم فى سورة الشورى وهو التكليم العام وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكلما خاصا كاملا بقوله { مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ } {البقرة253} مع العلم بأن الجميع أوحى إليهم وكلمهم التكليم العام وبأنه فرق بين تكليمه وبين الإيحاء إلى النبيين وكذا التكليم بالمصدر وبأنه جعل التكليم من وراء حجاب قسما غير إيحائه وبما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من تكليمه الخاص لموسى منه إليه وقد ثبت أنه كلمه بصوت سمعه موسى كما جاءت الآثار بذلك عن سلف الأمة وأئمتها موافقة لما دل عليه الكتاب والسنة²

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 304

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 403-400

ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن اوحى اليهم وهذا يدل على أمور على ان الله يكلم عبده تكليماً زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص فان لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص فالتكليم هو المقسوم في قوله { وَمَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا } الشورى 51 والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسماً منه وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص كما في قوله لموسى { فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } طه 13 وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما في سورة الشورى وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات فانه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لأحاد العباد ومثل هذا قوله في الآية الأخرى { وَمَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ } الشورى 51 فانه فرق بين الايحاء وبين التكليم من وراء الحجاب وبين ارسال رسول يوحى بآذنه ما يشاء فدل على ان التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الايحاء وأيضا فقوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } غافر 2 وقوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الجاثية 2 وقوله وأمثال ذلك يدل على انه منزل من الله لا من غيره وكذلك قوله { بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } المائدة 67 فانه يدل على اثبات أن ما أنزل اليه من ربه وانه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك وأيضا فهم يقولون انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله وان سمع بعضه فقد تبعض وكلاهما ينقض قولهم فانهم يقولون انه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض فان كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله أو أنزل عليه شيئا من كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره وهذا معلوم الفساد بالضرورة وان كان الواحد من هؤلاء انما يسمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم وأيضا فقوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } النساء 164 وقوله { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } الأعراف 143 وقوله { وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } مريم 52 وقوله { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى } { 11 } { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } { 12 } { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } { 13 } طه 11-13 الآيات دليل على تكليم سمعه موسى والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ومن قال انه يسمع فهو مكابر ودليل على انه ناداه والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازا وأيضا فقد قال تعالى { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 8 وقوله { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } القصص 30 وقال { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } { 15 } { إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } { 16 } { النَّازِعَاتِ 15-16 } وقال { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى } { 11 } { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } { 12 } طه 11-12 وفي هذا دليل على انه حينئذ نودي ولم يناد قبل ذلك ولما فيها من معنى الظرف¹

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 128-131

6-كلام الله وما يدخل فى كلامه من ندائه وغير ذلك ليس بمخلوق بائن منه بل

هو منه

قال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} طه 11-14 } فإن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه و أنه تنزيل منه و أنه كلامه و أنه قوله و أنه كفر من قال أنه قول البشر و أخبر أنه قول رسول كريم من الملائكة و رسول كريم من البشر و الرسول يتضمن المرسل فبين أن كلا من الرسولين بلغه لم يحدث هو منه شيئاً و أخبر أنه جعله قرآناً عربياً و قال عما ينزل منه جديداً بعد نزول غيره قديماً { مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ { الأنبياء 2 } و أخبر أن للكلام المعين وقتاً معيناً كما قال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى طه 11 } و قال { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ { الأعراف 11 }¹

قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً { الكهف 109 } والمداد يكتب به الحروف والمداد كله مخلوق ليس منه شيء غير مخلوق والصوت الذى يقرأ به الناس القرآن هو صوت العباد لكن الكلام كلام الله تعالى قال تعالى { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ { التوبة 6 } وقال النبى صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم فالكلام كلام البارى والصوت صوت القارىء وهذا ليس هو الصوت الذى ينادى الله به عباده ويسمعه موسى وغيره كما دل على ذلك الكتاب والسنة وكلام الله غير مخلوق عند سلف الأمة وأئمتها وهو أيضا يتكلم بمشيئته وقدرته عندهم لم يزل متكلماً إذا شاء فهو قديم النوع وأما نفس النداء الذى نادى به موسى ونحو ذلك فحينئذ ناداه به كما قال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى طه 11 } وكذلك نظائره فكان السلف يفرقون بين نوع الكلام وبين الكلمة المعينة قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً { الكهف 109 } وكلام الله وما يدخل فى كلامه من ندائه وغير ذلك ليس بمخلوق بائن منه بل هو منه والقرآن سمعه جبرئيل من الله ونزل به إلى محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ { النحل 102 } وقال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ { الأنعام 114 } وقال تعالى { نَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ { الزمر 1 } ونحو ذلك والنبى بلغه إلى الأمة والمسلمون يسمعه بعضهم من بعض وليس ذلك كسماع موسى كلام الله فانه سمعه بلا واسطة²

7-لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته

وقد قال تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً {163}

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 28

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 577-578

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا {164} النساء 163-164 فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى فمن قال ان موسى لم يسمع صوتا بل ألهم معناه لم يفرق بين موسى وغيره وقد قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} البقرة 253 وقال تعالى {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} الشورى 51 فقد فرق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا وقد قال الامام أحمد رضى اله عنه وغيره من الأئمة لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء كما قال تعالى {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى} طه 11 فناده حين أتاه ولم يناده قبل ذلك وقال تعالى {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءُ آثُهُمَا وَطَفَحَا بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ} الأعراف 22 فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك وكذلك قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} الأعراف 11 بعد أن خلق آدم وصوره ولم يأمرهم قبل ذلك وكذا قوله {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59 فأخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ومثل هذا الخبر في القرآن كثير يخبر انه تكلم فى وقت معين ونادى فى وقت معين وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى {إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ} البقرة 158 وقال نبدأ بما بدأ الله به فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة¹

8- بين الامام أحمد ما أنكرت الجهمية من أن يكون الله كلم موسى

قال تعالى {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى} 11 {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} 12 {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} 13 {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} 14 طه 11-14 وقال الامام أحمد فى الجزء الذى فيه الرد على الجهمية والزنادقة وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير ان نقول جوف ولا فم ولا شفتان وقال بعد ذلك بل نقول ان الله لم يزل متكلما اذا شاء ولا نقول انه كان ولا يتكلم حتى خلق وكلامه فيه طول قال باب ما انكرت الجهمية من ان الله كلم موسى فقلنا لم انكرتم ذلك قالوا ان الله لم يتكلم ولا يتكلم انما كون شيئا فعبر عن الله وخلق صوتا فأسمعه وزعموا ان الكلام لا يكون الا من جوف ولسان وشفنتين فقلنا هل يجوز ان يكون لمكون غير الله ان يقول {يَا مُوسَى} 11 {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ} 12 طه 11-12 او يقول {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} طه 14 فمن زعم ان ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية ولو كان كما زعم الجهمى ان الله كون شيئا كان يقول ذلك المكون يا موسى ان الله رب العالمين ولا يجوز ان يقول انى انا الله رب العالمين وقد قال جل ثناؤه {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} النساء 164 وقال {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} الأعراف 143 وقال {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} الأعراف 144 فهذا منصوص القرآن واما ما قالوا ان الله لم يتكلم ولا يكلم فكيف يصنعون بحديث الاعمش عن خيثمة عن عدى بن حاتم الطائى

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 587-598

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من احد الا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان واما قولهم ان الكلام لا يكون الا من جوف وفم وشفيتين ولسان فنقول ليس الله قال للسموات والارض { إِنِّي طُوعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } فصلت 11 أتراها انها قالت بجوف وفم وشفيتين ولسان وقال { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ } الأنبياء 79 اتراها انها يسبحن بجوف وفم ولسان وشفيتين ولكن الله انطقها كيف شاء وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير ان نقول جوف ولا فم ولا شفتان ولا لسان فلما خنفته الحجج قال ان الله كلم موسى الا ان كلامه غيره فقلنا وغيره مخلوق قال نعم قلنا هذا مثل قولكم الاول الا انكم تدفعون عن انفسكم الشنعة وحديث الزهري قال لما سمع موسى كلام ربه قال يا رب هذا الذي سمعته هو كلامك قال نعم يا موسى هو كلامي وانما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الالسن كلها وانا اقوى من ذلك وانما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك ولو كلمتك بأكثر من ذلك لمت قال فلما رجع موسى الى قومه قالوا له صف لنا كلام ربك فقال سبحان الله وهل استطيع ان اصفه لكم قالوا فشببهه قال سمعتم اصوات الصواعق التي تقبل في احلى حلاوة سمعتموها فكأنه مثله وقلنا للجهمية من القائل يوم القيامة { يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } المائدة 116 اليس الله هو القائل قالوا يكون الله شيئاً فيعبر عن الله كما كونه فعبر لموسى قلنا فمن القائل { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ } {6} فَلَنَقْصِّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ {7} الأعراف 6-7 اليس الله هو الذى يسأل قالوا هذا كله انما يكون شيئاً فيعبر عن الله فقلنا قد اعظمت على الله الفرية حين زعمتم انه لا يتكلم فشبهتموه بالاصنام التي تعبد من دون الله لان الاصنام لا تتكلم ولا تتحرك ولا تزول من مكان الى مكان فلما ظهرت عليه الحجة قال ان الله قد يتكلم لكن كلامه مخلوق قلنا قد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم ان كلامه مخلوق ففي مذهبكم قد كان فى وقت من الاوقات لا يتكلم وكذلك بنو آدم كانوا ولا يتكلمون حتى خلق لهم كلاما فقد جمعتم بين كفر وتشبيه فتعالى الله عن هذه الصفة علوا كبيرا بل نقول ان الله لم يزل متكلماً اذا شاء ولا نقول انه كان ولا يتكلم حتى خلق كلاما ولا نقول انه قد كان لا يعلم حتى خلق علما ولا نقول انه قد كان ولا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة ولا نقول انه قد كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نورا ولا نقول انه قد كان ولا عظمة حتى خلق لنفسه عظمة وذكر كلاما طويلا فى تقرير الصفات وانها لا تنافى التوحيد فقد بين أن كلام الأدميين مخلوق خلقه الله و ذلك أبلغ من نصه على أن أفعال العباد مخلوقة مع نصه على الأمرين و قال إذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله حين زعم أنه في كل مكان و لا يكون في مكان دون مكان فقل ليس الله كان و لا شيء فيقول نعم فقل له حين خلق خلقه خلقه فى نفسه أو خارجا عن نفسه فإنه يصير إلى ثلاثة أقاويل و احده منها إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه كفر حين زعم أن الجن و الإنس و الشياطين في نفسه و إن قال خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا أيضا كفرا حين زعم أنه دخل في مكان و حش قدر رديء و إن قال خلقهم خارجا من نفسه ثم لم يدخل فيهم رجع عن قوله أجمع و هو قول أهل السنة فقد بين أحمد كلام الأدميين مخلوق و نص فى غير موضع على أن أفعالهم مخلوقة و النص على كلامهم أبلغ فإن الشبه فيه أظهر فمن قال أن كلام الأدميين أو أفعالهم قديمة فهو مبتدع مخالف للكتاب و السنة و إجماع سلف الأمة و أئمتها¹

" خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون فى نعالهم ولا خفافهم "

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 153-155 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 419-421

قال تعالى { فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} طه 11- 14 } كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون تارة في نعالهم وتارة حفاة كما في سنن أبي داود و المسند عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى فخلع نعليه فخلع الناس نعالهم فلما انصرف قال لم خلعتم قالوا رأيناك خلعت فخلعنا قال فإن جبريل أتاني فأخبرني أن بهما خبثا فإذا أتى أحدكم المسجد فليقلب نعليه فإن رأى خبثا فليمسحه بالأرض ثم ليصل فيهما ففي الصحيحين و المسند عن أبي سلمة سعيد بن يزيد قال سألت أنسا أكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في نعليه قال نعم وفي سنن أبي داود عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم فقد أمرنا بمخالفة ذلك إذ هم ينزعون الخفاف والنعال عند الصلاة ويأتون فيما يذكر عنهم بموسى عليه السلام حيث قيل له وقت المناجاة { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } طه 12 فنهينا عن التشبه بهم وأمرنا أن نصلي في خفافنا ونعالنا وإن كان بهما أذى مسحناهما بالأرض لما تقدم ولما روى أبو داود أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا وطئ أحدكم بنعليه الأذى فإن التراب لهما طهور وفي لفظ قال إذا وطئ الأذى بخفيه فطهورهما التراب وعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعناه وقد قيل حديث عائشة حديث حسن وأما حديث أبي هريرة فلفظه الثاني من رواية محمد بن عجلان وقد خرج له البخاري في الشواهد ومسلم في المتابعات ووثقه غير واحد واللفظ الأول لم يسم راويه لكن تعدده مع عدم التهمة وعدم الشذوذ يقتضي أنه حسن أيضا وهذا أصح قولي العلماء ومع دلالة السنة عليه هو مقتضى الاعتبار فإن هذا محل تتكرر ملاقاته للنجاسة فأجزأ الإزالة عنه بالجامد كالمخرجين فإنه يجزئ فيهما الاستجمار بالأحجار كما تواترت به السنة مع القدرة على الماء وقد أجمع المسلمون على جواز الاستجمار يبين ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون تارة في نعالهم وتارة حفاة كما في السنن لأبي داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حافيا ومنتعلا والحجة في الانتعال ظاهرة وأما في الاحتفاء ففي سنن أبي داود و النسائي عن عبد الله بن السائب قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي يوم الفتح ووضع نعليه عن يساره وكذلك في سنن أبي داود حديث أبي سعيد المتقدم قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه ووضعها عن يساره¹

يؤجر على الإستماع الذي يقصد

قال تعالى { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } طه 13 فلو كان الرجل مارا فسمع القرآن من غير أن يستمع إليه لم يؤجر على ذلك وإنما يؤجر على الإستماع الذي يقصد كما قال تعالى { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } الأعراف 204²

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 166-167 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 34-35

²مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 214

موسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة

قال تعالى { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ } طه13 وقد دل كتاب الله على أن اسم الوحي والكلام فى كتاب الله فيهما عموم وخصوص فإذا كان أحدهما عاما اندرج فيه الآخر كما اندرج الوحي فى التكليم العام فى هذه الآية واندرج التكليم فى الوحي العام حيث قال تعالى { فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ } طه13 واما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفى الذى يشترك فيه الأنبياء وغيرهم كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل كما قال تعالى لذكريا { آتَيْنَكَ آلَا تَكْلَمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } مريم10 ثم قال تعالى { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } مريم11 فالإيحاء ليس بتكليم ولا يناقض الكلام وقوله تعالى فى الآية الأخرى { أَلَّا تَكْلَمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا } آل عمران41 أن جعل معنى الاستثناء منقطعا اتفق معنى التكليم فى الآيتين وان جعل متصلا كان التكليم مثل التكليم فى سورة الشورى وهو التكليم العام وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكليما خاصا كاملا بقوله { مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ } البقرة253 مع العلم بأن الجميع أوحى إليهم وكلمهم التكليم العام وبأنه فرق بين تكليمه وبين الإيحاء إلى النبيين وكذا التكليم بالمصدر وبأنه جعل التكليم من وراء حجاب قسما غير إيحاؤه وبما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من تكليمه الخاص لموسى منه إليه وقد ثبت أنه كلمه بصوت سمعه موسى كما جاءت الآثار بذلك عن سلف الأمة وأئمتها موافقة لما دل عليه الكتاب والسنة¹

قال تعالى { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ } طه13 فإنه سبحانه قال { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } النساء163 إلى قوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } النساء164 وهذا يدل على أمور على أنه يكلم العبد تكليما زائدا على الوحي الذى هو قسيم التكلم الخاص فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص فالتكليم العام هو المقسوم فى قوله { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ } الشورى51 الآية فالتكليم المطلق قسيم الوحي الخاص لا قسما منه وكذلك الوحي يكون عاما فيدخل فيه التكليم الخاص كقوله { فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ } طه13 ويكون قسيما له كما فى الشورى وهذا يبطل قول من قال إنه معنى واحد قائم بالذات فإنه لا فرق بين العام وما لموسى وفرق سبحانه فى الشورى بين الإيحاء وبين التكلم من وراء حجاب وبين إرسال رسول { فَيُوحِيَ بَأِذِنِهِ مَا يَشَاءُ } الشورى²51

والله تعالى قد فرق فى كتابه بين تكليمه لموسى وإيحاؤه إلى غيره بقوله تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } النساء163 إلى قوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } النساء164 وقال تعالى { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذِنِهِ مَا يَشَاءُ } الشورى51 ففرق بين التكليم الذى حصل لموسى وبين الإيحاء المشترك وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة كما قال تعالى { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ } {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 402-407

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 225

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا {14} طه 13-14 والرسول إذا بلغه إلى الناس وبلغه الناس عنه كان مسموعاً سماعاً مقيداً بواسطة المبلغ كما قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} التوبة 6 فهو مسموع مبلغ عنه بواسطة المخلوق بخلاف سماع موسى عليه السلام وان كان العبد يسمع كلام الرسول من المبلغين عنه فليس ذلك كالسماع منه فأمر الله تعالى أعظم ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على ان القرآن الذي يقرأه المسلمون كلام الله تعالى ولم يقل أحد منهم أن اصوات العباد ولا مداد المصاحف قديم مع اتفاقهم على ان المثبت بين لوحى المصحف كلام الله وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم فالكلام الذي يقرؤه المسلمون كلام الله والأصوات التي يقرؤون بها أصواتهم والله أعلم¹

أن ما أخبر الله به في كتابه من تكليم موسى وسمع موسى لكلام الله يدل على أنه كلمه بصوت فانه لا يسمع الا الصوت وذلك ان الله قال في كتابه عن موسى { فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ } طه 13 وقال في كتابه { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } {163} وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا } {164} النساء 163-164 ففرق بين ايحائه الى سائر النبيين وبين تكليمه لموسى كما فرق ايضا بين النوعين في قوله { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ } الشورى 51 ففرق بين الايحاء والتكليم من وراء حجاب فلو كان تكليمه لموسى الهاما ألهمه موسى من غير أن يسمع صوتا لم يكن فرق بين الايحاء الى غيره والتكليم له فلما فرق القرآن بين هذا وهذا وعلم باجماع الامة ما استفاضت به السنن عن النبي من تخصيص موسى بتكليم الله اياه دل ذلك على أن الذي حصل له ليس من جنس الالهامات وما يدرك بالقلوب انما هو كلام مسموع بالأذان ولا يسمع بها الا ما هو صوت وأن مفسرى القرآن واهل السنن والآثار واتباعهم من السلف كلهم متفقون على أن الله كلم موسى بصوت كما فى الآثار المعروفة عنهم فى الكتب المأثورة عن السلف مثل ما ذكره ابن جرير وأمثاله فى تفسير قوله { حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } سبأ 23 وتفسير كلام الله لموسى وغير ذلك وكما ذكره عبدالله بن أحمد والخلال والطبرانى وأبو الشيخ وغيرهم فى كتب السنة وكما ذكره الامام أحمد وغيره فى كتب الزهد وقصص الأنبياء²

" أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له "

قال تعالى { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } طه 14 وذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله ويجعلون عابده عابدا لغير الله مشركا بالله عادلا به جاعلا له ندا فانهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الله الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو الاسلام العام الذى لا يقبل الله من الاولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبي من

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 559

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 532

كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا وهي رأس الدين وكما قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دمانهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 فأخبر سبحانه أنه يوحى الى كل رسول بنفى الالوهية عما سواه وإثباتها له وحده¹

فى الصحيحين عن النبى أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما فى الموطأ وغيره عن النبى أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفى الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة وفى الصحيح عنه أنه قال لعنه عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 116 وتلك الحسنة التى لا بد من سعادة صاحبها كما ثبت فى الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر فى الحديث أنها أعلا شعب الإيمان وفى الصحيحين عنه أنه قال لوفد عبدالقيس أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام فى حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه فى صورة أعرابي وسأله عن الإيمان فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الإسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفى حديث فى المسند قال الإسلام علانية والإيمان فى القلب فأصل الإيمان فى القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كان فى القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه وهى تصديق لما فى القلب ودليل عليه وشاهد له وهى شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما فى القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضى الله عنه أن القلب ملك والأعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وفى الصحيحين عنه أنه قال ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب²

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 256

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 643-644

محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس

محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وقد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبهه ومن خضع له ولم يحبه لم يعبهه وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا¹

أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وذلك هو أصل ما أمرهم به على السن الرسل كما قال نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } هود 50 وقال { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ } البقرة 130 إلى قوله { إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } البقرة 133 14 وقال لموسى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 وقال المسيح { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } المائدة 117 والإسلام هو الاستسلام لله وحده وهو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له وهذا المعنى الذي خلق الله له الخلق هو أمر وجودي من باب المأمور به ثم الأمر بعد ذلك بما هو كمال ما خلق له وأما المنهى عنه فاما مانع من أصل ما خلق له وأما من كمال ما خلق له نهوا عن الاشرار لأنه مانع من الاصل وهو ظلم في الربوبية كما قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان 13 ومنعوا عن ظلم بعضهم في النفوس والاموال والابضاع والاعراض لأنه مانع من كمال ما خلق له فظهر ان فعل المأمور به أصل وهو المقصود وان ترك المنهى عنه فرع وهو التابع وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 لان الشرك منع الاصل فلم يك في النفس استعداد للفلاح في الآخرة بخلاف ما دونه فان مع المغفور له أصل الايمان الذي هو سبب السعادة²

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 115

الكمال الذي لا نقص فيه للممكن الوجود هو كمال مطلق لكل ما يتصف به

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه14 واما قول القائل الكمال والنقص من الأمور النسبية فقد بينا ان الذي يستحقه الرب هو الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وانه الكمال الممكن للموجود ومثل هذا لا ينتفى عن الله اصلا والكمال النسبي هو المستلزم للنقص فيكون كمالا من وجه دون وجه كالأكل للجائع كما له وللشبعان نقص فيه لأنه ليس بكمال محض بل هو مقرون بالنقص والتعالى والتكبر والثناء على النفس وامر الناس بعبادته ودعائه والرغبة اليه ونحو ذلك مما هو من خصائص الربوبية هذا كمال محمود من الرب تبارك وتعالى وهو نقص مذموم من المخلوق وهذا كالخبر عما هو من خصائص الربوبية كقوله { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي** } طه14 وقوله تعالى { **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** } غافر60 وقوله { **إِن تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ** } البقرة284 وقوله { **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْفُوتُونَا** } العنكبوت4 وقوله { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } الحجر42 وقوله { **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** } غافر51 وقوله { **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** } {2} { **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** } {3} الطلاق2-3 واماثل هذا الكلام الذي يذكر الرب فيه عن نفسه بعض خصائصه وهو في ذلك صادق في اخباره عن نفسه بما هو من نعوت الكمال هو ايضا من كماله فان بيانه لعباده وتعريفهم ذلك هو ايضا من كماله واما غيره فلو اخبر بمثل ذلك عن نفسه لكان كاذبا مفتريا والكذب من اعظم العيوب والنقائص واما اذا اخبر المخلوق عن نفسه بما هو صادق فيه فهذا لا يذم مطلقا بل قد يحمد منه اذا كان في ذلك مصلحة كقول النبي انا سيد ولد آدم ولا فخر واما اذا كان فيه مفسدة راجحة او مساوية فيذم لفعله ما هو مفسدة لا لكذبه والرب تعالى لا يفعل ما هو مذموم عليه بل له الحمد على كل حال فكل ما يفعله هو منه حسن جميل محمود واما على قول من يقول الظلم منه ممتنع لذاته فظاهر واما على قول الجمهور من اهل السنة والقدرية فانه انما يفعل بمقتضى الحكمة والعدل فاخبره كلها واقواله وافعاله كلها حسنة محمودة واقعة على وجه الكمال الذي يستحق عليه الحمد وله من الامور التي يستحق بها الكبرياء والعظمة ما هو من خصائصه تبارك وتعالى فالكبرياء والعظمة له بمنزلة كونه حيا قيوما قديما واجبا بنفسه وانه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وانه العزيز الذي لا ينال وانه قهار لكل ما سواه فهذه كلها صفات كمال لا يستحقها الا هو فما لا يستحقه الا هو كيف يكون كمالا من غيره وهو معدوم لغيره فمن ادعاه كان مفتريا منازعا للربوبية في خواصها كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي قال يقول الله تعالى العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما عذبتة وجملة ذلك أن الكمال المختص بالربوبية ليس لغيره فيه نصيب فهذا تحقيق اتصافه بالكمال الذي لا نصيب لغيره فيه ومثل هذا الكمال لا يكون لغيره فادعائه منازعة للربوبية وفرية على الله ومعلوم ان النبوة كمال للنبي واذا ادعاها المفترون كمسليمة واماثله كان ذلك نقصا منهم لا لأن النبوة نقص ولكن دعواها ممن ليست له هو النقص وكذلك لو ادعى العلم والقدرة والصلاح من ليس متصفا بذلك كان مذموما ممقوتا وهذا يقتضى ان الرب تعالى متصف بكمال لا يصلح للمخلوق وهذا لا ينافي ان ما كان كمالا للموجود من حيث هو موجود فالخالق احق به ولكن يفيد ان الكمال الذي يوصف به المخلوق بما هو منه اذا وصف الخالق بما هو منه فالذي للخالق لا يماثله ما للمخلوق ولا يقاربه وهذا حق فالرب تعالى مستحق للكمال مختص به على وجه لا يماثله فيه شيء فليس له سمي ولا كفؤ سواء كان الكمال مما لا يثبت منه شيء للمخلوق كربوبية العباد والغنى المطلق ونحو ذلك او كان مما يثبت منه نوع للمخلوق فالذي يثبت للخالق منه نوع هو اعظم مما يثبت من ذلك للمخلوق عظمة هي اعظم من

فضل اعلی المخلوقات على ادناها و ملخص ذلك ان المخلوق يذم منه الكبرياء والتجبر وتزكية نفسه احيانا ونحو ذلك واما قول السائل فان قلت نحن نقطع النظر عن متعلق الصفة وننظر فيها هل هي كمال ام نقص وكذلك نحيل الحكم عليها باحدهما لانها قد تكون كمالا لذات نقصا لاخرى على ما ذكر فيقال بل نحن نقول الكمال الذى لا نقص فيه للممكن الوجود هو كمال مطلق لكل ما يتصف به وايضا فالكمال الذى هو كمال للموجود من حيث هو موجود يمتنع ان يكون نقصا فى بعض الصور لان ما كان نقصا فى بعض الصور تاما فى بعض هو كمال لنوع من الموجودات دون نوع فلا يكون كمالا للموجود من حيث هو موجود ومن الطرق التى بها يعرف ذلك ان نقدر موجودين أحدهما متصف بهذا والاخر بنقيضه فانه يظهر من ذلك ايهما اكمل واذا قيل هذا اكمل من وجه وهذا انقص من وجه لم يكن كمالا مطلقا والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم¹

كلام الله صفة من صفات ذاته ليس شىء من كلام الله خلق ولا مخلوق

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 قال ابو عبدالله الحاكم في تاريخ نيسابور يقول ابو بكر أحمد بن اسحاق ويحيى بن منصور كلام الله صفة من صفات ذاته ليس شىء من كلام الله خلق ولا مخلوق ولا فعل ولا مفعول ولا محدث ولا حدث ولا احداث فمن زعم ان شيئا منه مخلوق او محدث او زعم ان الكلام من صفة الفعل فهو جهمى ضال مبتدع وأقول لم يزل الله متكلمًا ولا يزال متكلمًا والكلام له صفة ذات لا مثل لكلامه من كلام خلقه ولا نفاذ لكلامه لم يزل ربنا بكلامه وعلمه وقدرته و صفات ذاته واحدا لم يزل ولا يزال كلم ربنا انبيائه وكلم موسى والله الذى قال له { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي** } ويكلم أولياءه يوم القيامة ويحييهم بالسلام قولاً فى دار عدنه وينادى عباده فيقول { **مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** } القصص 65 ويقول { **لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } غافر 16 ويكلم أهل النار بالتوبيخ والعقاب ويقول لهم { **أخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا** } المؤمنون 108 ويخلو الجبار بكل احد من خلقه فيكلمه ليس بينه وبين احد منهم ترجمان كما قال النبي ويكلم ربنا جهنم فيقول لها { **هَلْ امْتَلَأْتِ** } ق 30 وينطقها فتقول { **هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ** } ق 30 فمن زعم ان الله لم يتكلم الا مرة ولم يتكلم الا ما تكلم به ثم انقضى كلامه كفر بالله بل لم يزل الله متكلمًا ولا يزال متكلمًا لا مثل لكلامه لانه صفة من صفات ذاته نفى الله المثل عن كلامه كما نفى المثل عن نفسه ونفى النفاذ عن كلامه كما نفى الهلاك عن نفسه فقال { **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** } القصص 88 وقال { **قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي** } الكهف 109 كلام الله غير بائن عن الله ليس هو دونه ولا غيره ولا هو بل هو صفة من صفات ذاته كعلمه الذى هو صفة من صفات ذاته لم يزل ربنا عالما ولا يزال عالما ولم يزل متكلمًا ولا يزال يتكلم فهو الموصوف بالصفات العلى لم يزل بجميع صفاته التى هي صفات ذاته واحدا ولا يزال وهو اللطيف الخبير كلم موسى فقال له { **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ** } طه 12 فمن زعم ان غير الله كلمه كفر بالله فان الله ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأجيبه هل من

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 137-140

تائب فأتوب عليه فمن زعم ان علمه ينزل او امره ضل بل ينزل الى سماء الدنيا المعبود سبحانه الذي يقال له يا رحمن يا رحيم فيكلم عباده بلا كيف¹

من قال ان كلام الله مخلوق خلقه في الشجرة فيكون جعل الشجرة إلها أعظم كفرا من جعل فرعون إلها

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 فما فعلوه المعتزلة في مسمى المتكلم حيث قالوا هو من فعل الكلام ولو في غيره وجعلوا من أحدث كلاما منفصلا عنه قائما بغيره متكلمًا وإن لم يرقم به هو كلام أصلا وهذا من أعظم البهتان والقرمطة والسفسطة ولهذا الزمهم السلف أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات وكذلك أيضا ما خلقه في الحيوانات ولا يفرق حينئذ بين نطق وانطق وإنما قالت الجلود { **أَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** } فصلت 21 ولم تقل نطق الله بذلك ولهذا قال من قال من السلف كسليمان بن داود الهاشمي وغيره ما معناه أنه على هذا يكون الكلام الذي خلق في فرعون حتى قال { **أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى** } النازعات 24 كالكلام الذي خلق في الشجرة حتى قالت { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا** } طه 14 فأما أن يكون فرعون محقا أو تكون الشجرة كفرعون وإلى هذا المعنى ينحو الإتحادية من الجهمية وينشدون وكل كلام في وجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه وهذا يستوعب أنواع الكفر ولهذا كان من الأمر البين للخاصة والعامية ان من قال المتكلم لا يقوم به كلاما أصلا فإن حقيقة قوله أنه ليس بمتكلم إذ ليس المتكلم إلا هذا ولهذا كان أولوهم يقولون ليس بمتكلم ثم قالوا هو متكلم بطريق المجاز وذلك لما إستقر في الفطر أن المتكلم لا بد أن يقوم به كلام وإن كان مع ذلك فاعلا له كما يقوم بالإنسان كلامه وهو كاسب له أما إن يجعل مجرد أحداث الكلام في غيره كلاما له فهذا هو الباطل²

قال سليمان بن داود الهاشمي نظير أحمد بن حنبل الذي قال الشافعي ما رأيت أعتل من رجلين أحمد بن حنبل و سليمان بن داود الهاشمي قال من قال { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا** } طه 14 مخلوق فهو كافر و إن كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال { **أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى** } النازعات 24 و زعموا أن هذا مخلوق و معنى ذلك كون قول فرعون { **أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى** } النازعات 24 كلاما قائما بذات فرعون فإن كان قوله { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 كلاما خلقه في الشجرة كانت الشجرة هي القائلة لذلك كما كان فرعون هو القائل لذلك و حينئذ فيكون جعل الشجرة إلها أعظم كفرا من جعل فرعون إلها³

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 173-174

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 153-154

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 95

فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في اوله ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري وأبي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني قال فيه وان القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً وأنزله على نبيه وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقا وأثبتوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعدته حيث قال {سَأُصَلِّيهِ سَفَرَ} المدثر 26 فلما أوعد الله سقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} المدثر 25 علمنا انه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر وأما أحمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية فانهم أظهروا القول بانكار صفات الله تعالى وحقائق اسمائه وان القرآن مخلوق حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ودعوا الناس الى ذلك وعاقبوا من لم يجبهم إما القتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية وإما بالحبس أو بالضرب وكفروا من خالفهم فثبت الله تعالى الإمام أحمد حتى أحمده الله به باطلهم ونصر أهل الايمان والسنة عليهم وأذلهم بعد العز وأخلمهم بعد الشهرة واشتهر عند خواص الأمة وعوامها ان القرآن كلام الله غير مخلوق واطلاق القول ان من قال انه مخلوق فقد كفر وأما الاطلاق القول بان الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بان القرآن مخلوق وهذا بلا ريب يستتاب فإن تاب وإلا قتل فإنه أنكر نص القرآن وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله والذي يقول القرآن مخلوق هو في المعنى موافق له فلذلك كفره السلف قال البخاري في كتاب خلق الأفعال قال سفيان الثوري من قال القرآن مخلوق فهو كافر قال وقال عبدالله بن المبارك من قال {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} طه 14 مخلوق فهو كافر ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك قال وقال ابن المبارك لا نقول كما قالت الجهمية انه في الأرض ههنا بل على العرش استوى وقيل له كيف نعرف ربنا قال فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وقال من قال لا إله إلا الله مخلوق فهو كافر وأنا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية قال وقال علي بن عاصم ما الذين قالوا ان لله ولدا اكفر من الذين قالوا ان الله لا يتكلم قال البخاري وكان اسماعيل بن أبي ادريس بسميهم زنادقة العراق وقيل له سمعت احدا يقول القرآن مخلوق فقال هؤلاء الزنادقة قال وقال أبو الوليد سمعت يحيى بن سعيد وذكر له أن قوما يقولون القرآن مخلوق فقال كيف يصنعون ب {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} الإخلاص 1 كيف يصنعون بقوله {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} طه 14 قال وقال ابو عبيد القاسم بن سلام نظرت في كلام اليهود والمجوس فما رأيت قوما أضل في كفرهم منهم واني لأستجهل من لا يكفرهم الا من لا يعرف كفرهم قال وقال سليمان بن داود الهاشمي من قال القرآن مخلوق فهو كافر وان كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون اولى بان يخلد في النار إذ قال {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} النازعات 24 وزعموا ان هذا مخلوق والذي قال {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} فَأَعْبُدْنِي {طه 14 هذا أيضا قد ادعى ما ادعى فرعون فلم صار فرعون اولى أن يخلد في النار من هذا وكلاهما عنده مخلوق فأخبر بذلك ابو عبيد فاستحسنه وأعجبه ومعنى كلام هؤلاء السلف رضى الله عنهم ان من قال ان كلام الله مخلوق خلقه فى الشجرة أو غيرها كما قال هذا الجهمي المعتزلى المسؤول عنه كان حقيقة قوله ان الشجرة هي التي قالت لموسى {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} فَأَعْبُدْنِي {طه 14 ومن قال هذا مخلوق قال ذلك فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} النازعات 24 كلاهما مخلوق وكلاما قال ذلك فان كان قول فرعون كفرا فقول هؤلاء أيضا كفر ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول الى قول فرعون وان كانوا لا يفهمون ذلك فان فرعون كذب موسى فيما أخبر به من أن ربه هو الأعلى وانه كلمه كما قال تعالى {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} {36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} {37}

غافر 36-37 وهو قد كذب موسى في ان الله كلمة ولكن هؤلاء يقولون إذا خلق كلاما في غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة أحدها ان الله سبحانه انطق الأشياء كلها نطقا معتادا ونطقا خارجا عن المعتاد قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} يس 65 وقال تعالى { حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 20 { وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 21 { فصلت 20-21 وقال تعالى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } النور 24 وقد قال تعالى { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ } ص 18 وقد ثبت ان الحصى كان يسبح في يد النبي وان الحجر كان يسلم عليه وأمثال ذلك من انطاق الجمادات فلو كان إذا خلق كلاما في غيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى ويكون قد كلف من سمع هذا الكلام كما كلف موسى بن عمران بل قد ثبت ان الله خالق أفعال العباد فكل ناطق فانه خالق وكلامه فلو كان متكلم بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله يقولون وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون ان كلام الأدميين غير مخلوق فان كل واحدة من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فاولئك يجعلون الجميع مخلوقا وان الجميع كلام الله وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلوية وشيخ المشبهة الحلوية وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة الدين الاسلام سلب الله أعداء الدين فان الله يقول { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } 40 { الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } 41 { الحج 40-41 وأي معروف أعظم من الايمان بالله وأسمائه وآياته وأي منكر أعظم من الالحاد في أسماء الله وآياته الوجه الثاني أن يقال لهؤلاء الضالين ما خلقه الله في غيره من الكلام وسائر الصفات فانما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره فإذا خلق الله في بعض الأجسام حركة أو طعما أو لونا أو ريحا كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم وإذا خلق بمحل حياة أو علما أو قدرة أو إرادة أو كلاما كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المرید المتكلم فإذا خلق كلاما في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علما ولا يكون الله هو المتكلم به كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعا أو بصرا كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفا بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة فلا يكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات ولا المصوت بما خلقه في غيره من الأصوات ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه في غيره من الكلام ولا يكون متكلماً بذلك الكلام الوجه الثالث ان الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه والناس منفقون على أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام فلا يكون مرید إلا بإرادة وكذلك لا يكون عالم إلا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها من قام به مسمى المصدر فانما يسمى بالحي من قامت به الحياة وبالمتحرك من قامت به الحركة وبالعالم من قام به العلم وبالقادر من قامت به القدرة فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى بإسم الفاعل ونحوه من الصفات وهذا معلوم بالاقتدار في جميع النظائر وذلك لأن إسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة والمركب يمتنع تحققه بدون

تحقق مفرداته وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة فكذلك في الأفعال مثل تكلم وكلم وبتكلم ويكلم وعلم ويعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك سواء قيل ان الفعل المشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل لا نزاع بين الناس ان فاعل الفعل هو فاعل المصدر فإذا قيل كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم وكذلك التعلم والتكلم والفاعل هو الذى قام به المصدر الذى هو التكليم والتعليم والتعلم فإذا قيل تكلم فلان أو كلم فلان فلانا فلان هو المتكلم والمكلم قوله تعالى { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } النساء 164 تكلما وقوله { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } البقرة 253 وقوله { وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } الأعراف 143 يقتضى ان الله هو المكلم فكما يمتنع ان يقال هو متكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره فهذه خمسة أوجه أحدها انه يلزم الجهمية على قولهم ان يكون كل كلام خلقه الله كلاما له إذا لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه وكل من فعل كلاما ولو فى غيره كان متكلماً به عندهم وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول قائماً يدل لكونه خلق صوتاً فى محل والدليل يجب طرده فيجب ان يكون كل صوت يخلقه له كذلك وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات فلا يبقى فرق بين الصوت الذى هو كلام الله تعالى على قولهم والصوت الذى هو ليس بكلام الثانى ان الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة عاد حكمها إلى ذلك المحل ولا يعود حكمها إلى غيره الثالث ان يشتق منه المصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة به ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره وهذا كله بين ظاهر وهو ما يبين قول السلف والأئمة ان من قال ان الله خلق كلاماً فى غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائداً إلى ذلك المحل لا إلى الله الرابع ان الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال تكلما قال غير واحد من العلماء التوكيد بالمصدر ينفي المجاز لئلا يظن ان أرسل إليه رسولا أو كتب إليه كتاباً بل كلمه منه إليه والخامس ان الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا } الشورى 51 الآية فكان تكليم موسى من وراء الحجاب وقال { يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي } الأعراف 144 وقال { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } النساء 163 إلى قوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } النساء 164 والوحى هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه فى الهواء لكان وحى الأنبياء أفضل منه لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة وموسى إنما عرفه بواسطة ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى ابن عمران وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وانه يقتضى تعطيل الرسالة فان الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله بل يقتضى تعطيل التوحيد فان من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات بل من لا تقوم به الصفات فهو عدم محض إذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها فى الذهن لا فى الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول المتفلسفة الدهرية الذين يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق لا صفة له وقد علم أن المطلق بشرط الاطلاق لا يوجد إلا فى الذهن وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضاً حقيقة تكليمه لموسى ويقولون إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال وهكذا يقولون فى الوحى إلى جميع الأنبياء وحقيقة قولهم ان القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس صافية شريفة وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء وقد كفر السلف من يقول بقولهم فكيف هؤلاء وكلام السلف والأئمة فى مثل هؤلاء لا يحصى قال حرب بن اسماعيل الكرمانى سمعت اسحاق بن راهويه يقول ليس بين أهل العلم إختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق وكيف يكون شىء من الرب عز ذكره مخلوقاً

ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا علم الله وقدرته ومشيبته مخلوقة فان قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا كان الله تبارك اسمه ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة وهو الكفر المحض الواضح لم يزل الله عالما متكلماً له المشيئة والقدرة في خلقه والقرآن كلام الله وليس بمخلوق فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر وقال وكيع بن الجراح من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن شيئاً من الله مخلوق ففيل له من أين قلت هذا قال لان الله يقول { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } {السجدة13} ولا يكون من الله شيء مخلوق وهذا القول قاله غير واحد من السلف وقال أحمد بن حنبل كلام الله من الله ليس ببائن منه وهذا معنى قول السلف القرآن كلام الله منه بدا ومنه خرج وإليه يعود كما في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول الله انكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه يعنى القرآن وقد روى أيضا عن أبي أمامة مرفوعا وقال أبو بكر الصديق لأصحاب مسيلمة الكذاب لما سمع قرآن مسيلمة ويحكم أين يذهب بعقولكم إن هذا كلاما لم يخرج من أى من رب وليس معنى قول السلف والأئمة إنه منه خرج ومنه بدا أنه فارق ذاته وحل بغيره فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل بغيره فكيف يكون كلام الله قال تعالى { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } {الكهف5} فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم ومع هذا فلم تفارق ذاتهم و أيضا فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق والناس إذا سمعوا كلام النبي ثم بلغوه عنه كان كلام الذي بلغوه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ قال تعالى { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } {التوبة6} وقال زينوا القرآن بأصواتكم ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية فانهم زعموا ان القرآن خلقه الله في غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله كما يقولون كلامه لموسى خرج من الشجرة فبين السلف والأئمة ان القرآن من الله بدأ وخرج وذكروا قوله { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } {السجدة13} فأخبر ان القول منه لا من غيره من المخلوقات و من هي لابتداء الغاية فان كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم يكن صفة لله كقوله { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ } {الجاثية13} وقوله في المسيح { وَرُوحٌ مِّنْهُ } {النساء171} وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ } {النحل53} وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة لله كقوله { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } {السجدة13} وكذلك قد أخبر في غير موضع من القرآن ان القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه ردا على هذا المبتدع المفترى وأمثاله ممن يقول أنه لم ينزل منه قال تعالى { أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْتِغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } {الأنعام114} وقال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } {النحل102} وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } {193} { عَلَى قَلْبِكَ } {194} {الشعراء193-194} وقال { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } {البقرة97} وقال هنا { نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ } {النحل102} فبين ان جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك وكذلك سائر آيات القرآن كقوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } {الزمر1} وقوله { حم } {1} { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } {2} { غَافِرٍ } {1-2} وقوله { حم } {1} { تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } {2} { فَصَلَّتْ } {1-2} وقوله { ألم } {1} { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {2} {السجدة1-2} وقوله { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } {المائدة67} فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله فمن قال انه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله مكذب لكتاب الله متبع لغير سبيل المؤمنين ألا ترى ان الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال { وَأَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً { البقرة 22 فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزل من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ { الحديد 25 لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء وكذلك الحيوان فان الذكر ينزل الماء في الاناث فلم يقل فيه من السماء¹

أول من ابتدع الاقوال الجهمية المحضة النفاة الذين لا يثبتون الأسماء والصفات

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 وكان أول من ابتدع الاقوال الجهمية المحضة النفاة الذين لا يثبتون الأسماء والصفات فكانوا يقولون أولا أن الله تعالى لا يتكلم بل خلق كلاما في غيره وجعل غيره يعبر عنه وان قوله تعالى { **وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى { الشعراء 10** وقول النبي أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقي ثلث الليل فيقول من يدعوني فاستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له معناه أن ملكا يقول ذلك عنه كما يقال نادى السلطان أى أمر مناديا ينادى عنه فإذا تلى عليهم ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من أنه يقول ويتكلم قالوا هذا مجاز كقوله العربي امتلأ الحوض وقال قطنى وقالت اتساع بطنه ونحو ذلك فلما عرف السلف حقيقته وأنه مضاه لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون أن الله تعالى لم يتكلم وإنما أضافت الرسل إليه الكلام بلسان الحال كفروهم وبينوا ضلالهم ومما قالوا لهم أن المنادى عن غيره كمنادى السلطان يقول أمر السلطان بكذا خرج مرسومه بكذا لا يقول أنى أمرم بكذا وأنهام عن كذا والله تعالى يقول في تكليمه لموسى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 ويقول تعالى إذا نزل ثلث الليل الغابر من يدعوني فاستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له وإذا كان القائل ملكا قال كما في الحديث الذى فى الصحيحين إذا أحب الله العبد نادى فى السماء يا جبريل أنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل وينادى فى السماء أن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول فى الأرض فقال جبريل فى ندائه عن الله تعالى أن الله يحب فلانا فأحبه وفى نداء الرب يقول من يدعوني فاستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له فإن قيل فقد روى أنه يأمر مناديا فينادى قيل هذا ليس فى الصحيح فان صح أمكن الجمع بين الخبرين بان ينادى هو ويأمر مناديا ينادى أما أن يعارض بهذا النقل الصحيح المستفيض الذى اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول مع أنه صريح فى أن الله تعالى هو الذى يقول من يدعوني فاستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له²

فالملك اذا نادى عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول ان الله أمر بكذا أو قال كذا وهكذا اذا أمر السلطان مناديا ينادى فانه يقول يا معشر الناس امر السلطان بكذا ونهى عن كذا ورسم بكذا لا يقول أمرت بكذا ونهيت عن كذا بل لو قال ذلك بودر الى عقوبته وهذا تأويل من التأويلات القديمة

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 507-520

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 309-311

للجهمية فانهم تأولوا تكليم الله لموسى عليه السلام بأنه أمر ملكا فكلمه فقال لهم أهل السنة لو كلمه ملك لم يقل **{إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}** طه14 بل كان يقول كما قال المسيح عليه السلام **{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}** المائدة117 فالملائكة رسل الله الي الانبياء تقول كما كان جبريل عليه السلام يقول لمحمد **{وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ}** مريم64 ويقول ان الله يأمرك بكذا ويقول كذا لا يمكن أن يقول ملك من الملائكة **{إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}** طه14¹

روى أبو القاسم اللالكائي في أصول السنة قال أخبرنا الحسن بن عثمان قال حدثنا عمرو بن جعفر قال حدثنا أحمد بن الحسن الترمذي قال قلت لأحمد بن حنبل ان الناس قد وقعوا في القرآن فكيف أقول فقال أليس أنت مخلوقا قلت نعم قال فكلامك منك مخلوق قلت نعم قال أفليس القرآن من كلام الله قلت نعم قال وكلام الله من الله قلت نعم قال فيكون من الله شيء مخلوق بين أحمد للسائل ان الكلام من المتكلم وقائم به لا يجوز ان يكون الكلام غير متصل بالمتكلم ولا قائم به بدليل ان كلامك أيها المخلوق منك لا من غيرك فاذا كنت انت مخلوقا وجب ان يكون كلامك ايضا مخلوقا وإذا كان الله تعالى غير مخلوق امتنع ان يكون ما هو منه وبه مخلوقا وقصده بذلك الرد على الجهمية الذين يزعمون ان كلام الله ليس من الله ولا متصل به فبين أن هذا الكلام ليس هو معنى كون المتكلم متكلمًا ولا هو حقيقة ذلك ولا هو مراد الرسل والمؤمنين من الاخبار عن ان الله قال ويقول وتكلم بالقرآن ونادى وناجى ودعا ونحو ذلك مما اخبرت به عن الله رسله واتفق عليه المؤمنون به من جميع الأمم ولهذا قال تعالى **{وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}** السجدة13 وقال **{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** الزمر1 وقال تعالى **{وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}** النمل6 وقال تعالى **{الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}** هود1 وليس القرآن عينا من الأعيان القائمة بنفسها حتى يقال هذا مثل قوله **{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ}** الجاثية13 وإنما هو صفة كالعلم والقدرة والرحمة والغضب والارادة والنظر والسمع ونحو ذلك وذلك لا يقوم الا بموصوف وكل معنى له اسم وهو قائم بمحل وجب أن يشتق لمحلته منه اسم وان لا يشتق لغير محلته منه اسم فكما ان الحياة والعلم والقدرة اذا قام بموصوف وجب أن يشتق له منه اسم الحي والعالم والقادر ولا يشتق الحي والعالم والقادر لغير من قام به العلم والقدرة فكذلك القول والكلام والحب والبغض والرضا والرحمة والغضب والارادة والمشية إذا قام بمحل وجب أن يشتق لذلك الموصوف منه الاسم والفعل فيقال هو الصادق والشهيد والحكيم والودود والرحيم والأمر ولا يشتق لغيره منه اسم فلو لم يكن الله سبحانه وتعالى هو القائل بنفسه **{ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا }** طه14 بل أحدث ذلك في غيره لم يكن هو الأمر بهذه الأمور ولا المخبر بهذا الخبر ولكان ذلك المحل هو الأمر بهذا الأمر المخبر بهذا الخبر وذلك المحل اما الهواء وإما غيره فيكون ذلك المحل المخلوق هو القائل لموسى **{إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}** طه14 ولهذا كان السلف يقولون في هذه الآية وأمثالها من قال إنه مخلوق فقد كفر ويستعظمون القول بخلق هذه الآية وأمثالها أكثر من غيرها يعظم عليهم أن تقوم دعوى الالهية والربوبية لغير الله تعالى ولهذا كان مذهب جماهير أهل السنة والمعرفة وهو المشهور عند أصحاب الامام أحمد وأبي حنيفة وغيرهم من المالكية والشافعية والصوفية وأهل الحديث وطوائف من أهل الكلام من الكرامية وغيرهم ان

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 371-372

كون الله سبحانه وتعالى خالقا ورازقا ومحيبا ومميتا وباعثا ووارثا وغير ذلك من صفات فعله وهو من صفات ذاته ليس من يخلق كمن لا يخلق ومذهب الجمهور ان الخالق غير المخلوق فالخلق فعل الله القائم به والمخلوق هو المخلوقات المنفصلة عنه¹

الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال { **أَقِيمُوا الصَّلَاةَ** } بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} {العلق 9-10} وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتك يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبه فإذا قيل { **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} {العلق 9-10} فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقبتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم { **أَقِيمُوا الصَّلَاةَ** } عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا إجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاء وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد²****

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 433-436

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه14 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فإذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } الذاريات56 وفي قوله { **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** } النساء36 وقوله { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ** } البقرة21 وقوله { **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ** } الزمر2 { **قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي** } الزمر14 وقوله { **أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** } الزمر64 ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } الفاتحة5 وقوله { **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** } هود123 وقول نوح { **اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا** } نوح13

اسم الإيمان فإنه تارة يذكر مفردا مجردا لا يقرن بالعمل الواجب فيدخل فيه العمل الواجب تضمننا ولزوما وتارة يقرن بالعمل فيكون العمل حينئذ مذكورا بالمطابقة والنص ولفظ الإيمان يكون مسلوب الدلالة عليه حال الاقتران أو دالا عليه كما في قوله سبحانه لموسى عليه السلام { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه14²

ذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه14 قال تعالى { **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** } العنكبوت45 والفحشاء من المنكر وكذلك قال { **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ** } النحل90 وإيتاء ذي القربى هو من العدل والاحسان كما أن الفحشاء والبغي من المنكر وكذلك قوله { **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ** } الأعراف170 وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب وكذلك قوله { **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** } الأنبياء90 ودعاؤهم رغباً ورهباً من الخيرات وأمثال ذلك في القرآن كثير وهذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر لكونه مطلوباً بالمعنى العام والمعنى الخاص وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران فإذا أفرد عم وإذا قرن بغيره خص كاسم الفقير والمسكين لما أفرد أحدهما في مثل قوله { **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } البقرة273 وقوله { **إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ** } المائدة89 دخل فيه الآخر ولما قرن بينهما في قوله { **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ** } التوبة60 صاراً نوعين وقد قيل إن الخاص المعطوف على العام لا يدخل في العام حال الاقتران بل يكون من هذا الباب والتحقيق أن هذا ليس لازماً قال تعالى

{ **مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ** } البقرة98 وقال تعالى { **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ** } الأحزاب7 وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام كما في

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 176

نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم كما في قوله {هُدَى
لِّلْمُتَّقِينَ} {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {3} وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} {4} البقرة 2-4 قوله {يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ} البقرة 3 يتناول الغيب الذي يجب الإيمان به لكن فيه إجمال فليس فيه دلالة على أن من
الغيب ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب
وبالإخبار بالغيب وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ومن هذا الباب قوله تعالى {اتْلُ مَا أُوحِيَ
إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} العنكبوت 45 قال أحمد بن حنبل وغيره تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله
كلها ثم خص الصلاة بالذكر كما في قوله {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ} الأعراف 170 وقوله {فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} طه 14 و تلاوة الكتاب هي اتباعه كما
قال ابن مسعود في قوله تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} البقرة 121 قال يحلون
حلاله ويحرمون حرامه ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها
لكن خصها بالذكر لمزيتها وكذلك قوله لموسى {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
لِذِكْرِي} طه 14 وإقامة الصلاة لذكره من أجل عبادته وكذلك قوله تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا
سَدِيدًا} الأحزاب 70 وقوله {اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} المائدة 35 وقوله {اتَّقُوا اللَّهَ
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} التوبة 119 فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله لكن خصت بالذكر
ليقصد بها المتعبد بخصوصها فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يعبد إلا
بمعونته¹

الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال

قال تعالى {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} طه 14 فالصلاة لها شأن
انفردت به على سائر الأعمال قال تعالى {وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صِدْرًا بِمَا يَقُولُونَ} {97} فَسَبَّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} {98} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} {99} الحجر 97-99 تعم
جميع الطاعات وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها وكذلك قوله {وَاسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة 45 فإن الصبر وإن كان هو الحبس عن
المكروهات فإن فيه فعل جميع العبادات وكذلك قوله تعالى {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ
الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} طه 14 فإن عبادة الله تعم جميع الأعمال الصالحة ثم خص الصلاة بالذكر²

جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن أكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة
فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان الى خلقه فكرر
فرض الصلاة في القرآن في غير آية ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى
{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} البقرة 43 وقال {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 375-376 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 169 و مجموع الفتاوى ج: 10

ص: 174-176

²شرح العمدة ج: 4 ص: 89

الدِّينِ { التوبة 11 } وَقَالَ { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } { البينة 5 } وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبي عن الإسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذًا إلى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملًا فبينه الرسول وإن بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن¹

الله سبحانه و تعالى أمر بإقامة الصلاة

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 وان الله سبحانه و تعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع { **أَقِيمُوا الصَّلَاةَ** } و إقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإني أراكم من بعد ظهري و في رواية أنهم أتموا الركوع و السجود و سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري و مسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و أصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ففرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم و عليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم اقل ذلك في صلاتك كلها و في رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر و اقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي قائما و اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي قائما و باقيه مثله و في رواية و إذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك و ما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك و عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه أن

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 6-8

رجلا دخل المسجد فذكر الحديث و قال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر و يحمد الله عز و جل و يثني عليه و يقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راعكا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعد ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته و في رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز و جل فيغسل وجهه و يديه إلى المرفقين و يمسح برأسه و رجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله و يحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له و تيسر و ذكر نحو اللفظ الأول و قال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه و ربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله و تسترخي ثم يكبر فيستوي قاعدا على مقعدته و يقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود و النسائي و ابن ماجه و الترمذي و قال حديث حسن و الروايتان لفظ أبي داود و في رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن و بما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك و امدد ظهرك و قال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى و في رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز و جل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن و قال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن و افترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك و في رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقراء به و إلا فاحمد الله عز و جل و كبره و هلله و قال فيه و إن انتقصت منه شيئا انتقصت من صلاتك فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة و أمر الله و رسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب و أمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع و السجود و أمره المطلق على الإيجاب و أيضا قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة و العمل لا يكون منفيا إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز و جل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة¹

" من حفظ الصلاة وحافظ عليها حفظ دينه "

قال تعالى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 و عماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات و يجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه و من ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة و هي أول ما أوجبه الله من العبادات و الصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج و هي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة و ما ملكت أيمانكم و هي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله و آخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب الدين كله و هي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام و عموده الصلاة و ذروة سنامه الجهاد في سبيل الله و أمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين و عماده

¹ القواعد النورانية ج: 1 ص: 26

وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقربها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالانسك تارة¹

و من لم يصل المكتوبة حتى خرج وقتها و هو من أهل فرضها لزمه القضاء على الفور لما روى انس بن مالك رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك متفق عليه و في رواية لمسلم إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فان الله يقول { **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } طه 14 و في لفظ من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها إن يصلها إذا ذكرها و عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم نحوه رواه مسلم و غيره و عن أبي قتادة في قصة نومهم عن الصلاة إن النبي صلى الله عليه و سلم قال ليس في النوم تفریط فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها رواه الجماعة إلا البخاري فأوجب صلى الله عليه و سلم القضاء على الفور مع التأخير لعذر فمن التأخير لعذر أولى فان قيل تخصيص الحكم بالناسي دليل على إن العامد بخلافه و قد قال ابن مسعود رضي الله عنه إن للصلاة وقتا كوقت الحج و هذا يدل على إن لا تفعل في غير الوقت قلنا إنما خص النائم و الناسي إذ لا إثم عليهما في التأخير إلى حين الذكر و الانتباه بخلاف العامد فكان تأخيرها عن وقتها من الكبائر و معنى قول ابن مسعود أنه لا يحل له إن يؤخرها عن وقتها و لا يقبل منه إذا أخرها كما قال الصديق رضي الله عنه إن الله حقا بالليل لا يقبله بالنهار و حقا بالنهار لا يقبله بالليل و ذلك إن الله تعالى أوجب عليه إن يصلي و إن يفعل ذلك في الوقت فالإخلال بالوقت لا يوجب الإخلال بأصل الفعل بل يأتي بالصلاة و يبقى التأخير في ذمته أما إن يعذبه الله أو يتوب عليه أو يغفر له و لم يرد إن الصلاة كالحج من كل وجه فان الحج لا يفعل في غير وقته سواء أخر لعذر أو لغير عذر و الصلاة بخلاف ذلك و مثل هذا ما روي إن من افطر يوما من رمضان لم يقض عنه صيام الدهر كله و إن صامه يعني من أجل تفويت عين ذلك اليوم مع إن القضاء واجب عليه و يدل على ذلك إن عمر و ابن مسعود و غيرهما من السلف جعلوا ترك الصلاة كفرا و تأخيرها عن وقتها إثما و معصية و فسروا بذلك قوله تعالى { **عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** } 5 و قوله تعالى { **أَصَاعُوا الصَّلَاةَ** } مريم 59 فلو كان فعلها بعد الوقت لا يصح بحال كالوقوف بعرفة بعد وقته لكان وجود تلك الصلاة كعدمها و كان المؤخر كافرا كالتارك و قد أخبر النبي صلى الله عليه و سلم عن الأمراء الذين يؤخرون الصلاة حتى يخرج وقتها و امر إن يصلي خلفهم و لو كانت الصلاة فاسدة لم تصح الصلاة خلفهم كالمصلي بغير وضوء و يجوز تأخير القضاء شيئا يسيرا لغرض صالح مثل اختيار بقعة على بقعة و انتظار جماعة يكثر بهم جمع الصلاة بل يستحب له إذا نام عنها في موضع إن ينتقل عنه إلى غيره للقضاء نص عليه و اختاره بعض أصحابنا إذا نام عنها في منزل في السفر و ذلك كما فعل النبي صلى الله عليه و سلم لما فاتته صلاة الفجر في السفر و قال هذا منزل حضرنا فيه الشيطان لأن الصلاة في مظان الشياطين كالحمام و الحش لا تجوز فالتى عرض الشيطان فيها احسن أحوالها أن يستحب ترك الصلاة فيها و لا يجب عليه القضاء أكثر من مرة واحدة لأن النبي صلى الله عليه و سلم لم يقض يوم الخندق و يوم نام عن الفجر أكثر من مرة واحدة و قد احتج احمد على ذلك بما رواه في المسند بإسناد جيد عن عمران بن حصين قال ثم امر بلالا فأذن ثم صلى الركعتين قبل الفجر ثم أقام فصلينا فقالوا يا رسول الله ألا نعيدها في وقتها من الغد فقال أينهاكم ربكم عن الربا و يقبله منكم و هذا لأن

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

الواجب في الذمة صلاة واحدة فلو امر بصلاتين لكان ربا فان قيل ففي حديث أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم أما أنه ليس في النوم تقريظ إنما التقريظ على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها رواه احمد و مسلم و في رواية ابن ماجة فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها و لوقتها في الغد قلنا معناه و الله اعلم فليصلها حاضرة و أكد الأمر بالمحافظة لئلا يتوهم إن الرخصة لغير المعذور و ليتحفظ من تفويت مرة أخرى و قد رواه أبو داود و لفظه من أدرك معكم في غد صلاة فليقض معها مثلها و هذا و الله اعلم توهم من بعض الرواة بما فهم من المعنى و قد علل البخاري هذه الرواية¹

{ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا }

وقال تعالى لموسى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا } طه 15 قال ابن عباس وغيره أكاد اخفيها من نفسي فكيف اطلع عليها وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وهو في مسلم من حديث عمر أن النبي قيل له متى الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل فأخبر انه ليس بأعلم بها من السائل وكان السائل في صورة أعرابي ولم يعلم انه جبريل الا بعد ان ذهب وحين أجابه لم يكن يظنه إلا اعرابيا فاذا كان النبي قد قال عن نفسه إنه ليس بأعلم بالساعة من عرابي فكيف يجوز لغيره ان يدعى علم ميقاتها وانما اخبر الكتاب والسنة بأشراطها وهي علامتها وهي كثيرة تقدم بعضها وبعضها لم يأت بعد²

المحبة التي لم توزن بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشرك وإتباع الأهواء

قال تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } 15 { فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَأَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى } 16 طه 15-16 قال تعالى { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ } الجاثية 23 فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه فما هويه هوية إلهه فهو لا يتأله من يستحق التأله بل يتأله ما يهواه وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم ومحبة عباد العجل له وهذه محبة مع الله لا محبة لله وهذه محبة أهل الشرك والنفوس قد تدعي محبة الله وتكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه وقد أشركته في الحب مع الله وقد يخفي الهوى على النفس فإن حبك الشيء يعمى ويصم وهكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله وفي نفسه شرك قد خفي عليه وهو يعملها إما لحب رياسة وإما لحب مال وإما لحب صورة و لهذا قالوا يارسول الله الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء فأبي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله فلما صار كثير من الصوفية النسائك المتأخرين يدعون المحبة ولم يزنوها بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشرك وإتباع الأهواء والله تعالى قد جعل محبته موجبة لإتباع رسوله فقال { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } آل

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 232-235

² مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 341

عمران 31 وهذا لأن الرسول هو الذي يدعو الى ما يحبه الله و ليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين بل هذا هو هذا في ذاته وإن تنوعت الصفات فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب ليست محبته لله وحده بل إن كان يحبه فهي محبة شرك فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود و النصارى محبة الله فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين وهكذا أهل البدع فمن قال أنه من المريدين لله المحبين له وهو لا يقصد إتباع الرسول والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى بحسب ما فيه من البدعة فإن البدع التي ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر وأيضا فمن تمام محبة الله ورسوله بغض من حاد الله ورسوله والجهاد في سبيله لقوله تعالى { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ } المجادلة 22 وقال تعالى { تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } {80} ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذواهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون {81} المائدة 80-81 وقال تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ } الممتحنة 4 فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم ومن معه حيث أبدوا العداوة والبغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله وحده فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة وهؤلاء سلكوا طريق الإرادة والمحبة مجملا من غير اعتصام بالكتاب والسنة كما سلك أهل الكلام والرأي طريق النظر والبحث من غير اعتصام بالكتاب والسنة فوق هؤلاء في ضلالات وهؤلاء في ضلالات كما قال تعالى { فَأِمَّا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ هُدَى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى } {126} طه 123-126 وقال { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 وقال { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } الإسراء 9 وقال { قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } يونس 108 ومثل هذا كثير في القرآن وقد بسط الكلام على هذا الأصل في غير هذا الموضوع¹

قال تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } {15} فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى } {16} طه 15-16 وكلا الطائفتين الذين يسلكون إلى الله محض الإرادة والمحبة والدنو والقرب منه من غير اعتبار بالأمر والنهي المنزلين من عند الله الذين ينتهون إلى الفناء في توحيد الربوبية يقولون بالجمع والإصطلام في توحيد الربوبية ولا يصلون إلى الفرق الثاني ويقولون أن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ويجعلون هذا غاية السلوك والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه ويحبونه ويكرهونه ويأمرون به وينهون عنه ولكن

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 360-362

بإرادتهم ومحبتهم وهواهم لا بالكتاب المنزل من عند الله كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضى أن لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله ولا يوالى إلا الله ولا يعادي إلا الله وأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما أبغضه ويأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى الله عنه وإنك لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا الله ولا تسأل إلا الله وهذا ملة إبراهيم وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين والفناء في هذا هو الفناء المأمور به الذي جاءت به الرسل وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه فيكون مع الحق بلا خلق كما قال الشيخ عبد القادر كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس وتحقيق الشهادة بأن محمدا رسول الله يوجب أن تكون طاعته طاعة الله وإرضاءه إرضاء الله ودين الله ما أمر به فالحلال ما حله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ولهذا طالب الله المدعين لمحبتهم بمتابعتهم فقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 وضمن لمن إتبعه أن الله يحبه بقوله {يُحِبُّكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 وصاحب هذه المتابعة لا يبقى مريدا إلا ما أحبه الله ورسوله ولا كارها إلا لما كرهه الله ورسوله وهذا هو الذي يحبه الحق كما قال ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعادنى لأعيدنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهذا محبوب الحق ومن إتبع الرسول فهو محبوب الحق وهو المتقرب إلى الله بما دعا إليه الرسول من فرض ونفل ومعلوم أن من كان هكذا فهو يحب طاعة الله ورسوله ويبغض معصية الله ورسوله فإن الفرائض والنوافل كلها من العبادات التي يحبها الله ورسوله ليس فيها كفر ولا فسوق والرب تعالى أحبه لما قام بمحسوب الحق فإن الجزاء من جنس العمل فلما لم يزل متقربا إلى الحق بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبه الحق فإنه إستفرغ وسعه في محبوب الحق فصار الحق يحبه المحبة التامة التي لا يصل إليها من هو دونه في التقرب إلى الحق بمحوباته حتى صار يعلم بالحق ويعمل بالحق فصار به يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي¹

ضعف إدراك القلب وقوته

قال تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } {15} فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى } {16} طه 15-16 والمحبة المحموده هي المحبة النافعة وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء ومعلوم أن الحي العالم لا يختار أن يحب ما يضره لكن يكون ذلك عن جهل وظلم فإن النفس قد تهوي ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم منها لها وقد تكون جاهلة بحالها به بأن تهوي الشيء وتحبه بلا علم

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 337-339

منها بما في محبته من المنفعة والمضرة وتتبع هواها وهذا حال من اتبع هواه بغير علم وقد يكون عن اعتقاد فاسد وهو حال من اتبع الظن وما تهوي نفسه وكل ذلك من أمور الجاهلية¹

فمرض الجسم يكون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال إما بشهوة مالا يحصل أو يفقد الشهوة النافعة وينفر به عما يصلح ويفقد النفرة عما يضر ويكون بضعف قوة الإدراك والحركة كذلك مرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال وهي الأهواء التي قال الله فيها {فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} طه16 وكما يكون الجسد خارجا عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهييه الجسم بلا قول الطبيب ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له²

إذا حصل الخبر بما يوجب زوال الحزن والخوف زال

قال تعالى { وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى } {17} { قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى } {18} { قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى } {19} { فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } {20} { قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } {21} { وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى } {22} { لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } {23} طه 17-23 إنه أمر أن يطمئن ويثبت لأن الخوف يحصل بغير اختيار العبد إذا لم يكن له ما يوجب الأمن فإذا حصل ما يوجب الأمن زال الخوف فقوله تعالى لموسى { وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } طه21 هو أمر مقرون بخبره بما يزيل الخوف وكذلك قوله { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } {67} { قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } {68} طه 67-68 هو نهى عن الخوف مقرون بما يوجب زواله وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لصديقه { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة40 نهى عن الحزن مقرون بما يوجب زواله وهو قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة40 وإذا حصل الخبر بما يوجب زوال الحزن والخوف زال وإلا فهو تهجم على الإنسان بغير اختياره وهكذا قول صاحب مدين لموسى لما قص عليه القصص { لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } القصص25 وكذلك قوله { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران139 قرن النهى عن ذلك بما يزيله من إخباره أنهم هم الأعْلون إن كانوا مؤمنين وكذلك قوله { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } النحل127³

لطائف لغوية

1- قال تعالى { إِنِّي آنَسْتُ نَارًا } طه10 أي رأيتها⁴

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 16

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 30

³منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 464

⁴مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 465

2-قال تعالى { فَلَمَّا أَنهَا نُوْدِي يَا مُوسَىٰ {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {12} وَأَنَا
اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ {13} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {14} طه 11-14 فأخبر
أنه يخلق ما يشاء ويختار والإختيار في لغة القرآن يراد به التفضيل والانتقاء والإصطفاء¹

3-قال تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ {15} فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ
لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ {16} طه 15-16 قال الأئمة السعي في كتاب الله هو العمل والفعل
كما قال تعالى { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ } الليل 4 وقال تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } الإسراء 19 وقال تعالى { وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا
{ البقرة 205 وقال تعالى { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا
{ المائدة 33 وقال عن فرعون { ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ } النازعات 22 وقال { إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ
سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا } الإنسان 22²

4-قال تعالى { وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَىٰ {22} لِئُرْيِكَ مِنْ
آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ {23} طه 22-23 والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر
وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسمونها من يسميها من النظائر معجزات وتسمى دلائل النبوة
وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ
المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة
والبرهان وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن كقوله تعالى { وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَىٰ } طه 22³

5-قال تعالى { وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَىٰ {22} لِئُرْيِكَ مِنْ
آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ {23} طه 22-23 جناح الانسان جانبه كما ان جناح الطير جانبه⁴

¹رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 137

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 151 و شرح العمدة ج: 4 ص: 600 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 261
³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 414

⁴مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 466

طه 24-46

{ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ } {24} قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {25} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {26} وَاخْلُ عُنُقَهُ مِّن لِّسَانِي {27} يَفْقَهُوا قَوْلِي {28} وَاَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي {29} هَارُونَ أَخِي {30} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {31} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي {32} كَيْ نَسَبَحَكَ كَثِيرًا {33} وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا {34} إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا {35} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ {36} وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ {37} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ {38} أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأَلِيْقَهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي {39} إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ {40} وَاصْطَنَعَتْكَ لِنَفْسِي {41} اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي {42} اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ {43} فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهِ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ {44} قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ {45} قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ {46}

اخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول

قال تعالى { اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ } طه 24 وقد فرق الله بين ما قبل الرسالة وما بعدها في أسماء وأحكام وجمع بينهما في أسماء وأحكام وذلك حجة على الطائفتين على من قال ان الافعال ليس فيها حسن وقبيح ومن قال انهم يستحقون العذاب على القولين اما الاول فانه سماهم ظالمين وطاغين ومفسدين لقوله تعالى { اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ } طه 24 وقوله { وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } {10} قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ } {11} الشعراء 10- 11 وقوله { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } القصص 4 فاخبر انه ظالما وطاغيا ومفسدا هو وقومه وهذه اسماء ذم الافعال والذم انما يكون في الافعال السيئة القبيحة فدل ذلك على ان الافعال تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول اليهم لا يستحقون العذاب الا بعد اتيان الرسول اليهم لقوله { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {الإسراء 15} وكذلك أخبر عن هود انه قال لقومه { اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } {هود 50} فجعلهم مفترين قبل أن يحكم بحكم يخالفونه لكونهم جعلوا مع الله الها آخر فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة فانه يشرك بربه ويعدل به ويجعل معه آلهة أخرى ويجعل له أندادا قبل الرسول ويثبت أن هذه الاسماء مقدم عليها وكذلك اسم الجهل والجاهلية يقال جاهلية وجاهلا قبل مجيء الرسول واما التعذيب فلا والتولى عن الطاعة كقوله { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ } {31} وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ } {القيامة 31-32} فهذا لا يكون الا بعد الرسول مثل قوله عن فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ } {النازعات 21} كان هذا بعد مجيء الرسول اليه كما قال تعالى { فَأَرَاهُ الْكُفْرَىٰ } {20}

فَكَذَّبَ وَعَصَى {21} النازعات 20-21 وقال {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} {المزمّل 16} هذا آخر ما وجد (هذه عبارة لمن جمع مجموع الفتاوى لابن تيمية)¹

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول كقوله لموسى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } {17} {قُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} {18} {وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} {19} {النازعات 17-19} وقال {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} {4} {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} {5} {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ} {6} {القصص 4-6} فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى وحين كان صغيراً قبل أن يأتيه برسالة انه كان طاغياً مفسداً وقال تعالى {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} {37} {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى} {38} {أَنْ اقْذِيبِي فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيبِي فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي} {39} {طه 37-39} وهو فرعون فهو إذ ذاك عدو لله ولم يكن جاءته الرسالة بعد²

قال تعالى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } {24} {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} {25} {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} {26} {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي} {27} {يَفْقَهُوا قَوْلِي} {28} {وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي} {29} {هَارُونَ أَخِي} {30} {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} {31} {وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} {32} {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا} {33} {وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} {34} {إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} {35} {طه 24-35}

الرد على استدلال الرافضي بقوله تعالى {وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي} على إمامة علي

قال الرافضي المنهج الثاني في الأدلة المأخوذة من القرآن والبراهين الدالة على إمامة علي من الكتاب العزيز كثيرة قوله تعالى {وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي} {طه 29} من طريق أبي نعيم عن ابن عباس قال اخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد علي وبيدي ونحن بمكة وصلى أربع ركعات ورفع يده إلى السماء فقال اللهم موسى بن عمران سألك وأنا محمد نبيك أسألك أن تشرح لي صدري وتحل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علي بن أبي طالب أخي اشدد به أزرى أشركه في أمري قال ابن عباس سمعت منادياً ينادي يا احمد قد أوتيت ما سألت وهذا نص في الباب والجواب المطالبة بالصحة كما تقدم أولاً الثاني أن هذا كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث بل هم يعلمون أن هذا من أسمع الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة في أكثر الأوقات لم يكن ابن عباس قد ولد وابن عباس ولد وبنو هاشم في الشعب محصورون ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ابن عباس بلغ سن التمييز ولا كان ممن يتوضأ ويصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم مات وهو لم يحتلم بعد وكان له عند الهجرة نحو خمس سنين أو اقل منها وهذا لا يؤمر بوضوء ولا صلاة فإن

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 37-38

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 679

النبى صلى الله عليه وسلم قال مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع ومن يكون بهذا السن لا يعقل الصلاة ولا يحفظ مثل هذا الدعاء إلا بتلقين لا يحفظ بمجرد السماع الرابع انهم قد قدموا في قوله { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } المائدة 55 وحديث التصديق بالخاتم في الصلاة أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بهذا الدعاء وهنا قد ذكروا انه قد دعا بهذا الدعاء بمكة قبل تلك الواقعة بسنين متعددة فان تلك كانت في سورة المائدة والمائدة من آخر القران نزولا وهذا في مكة فإذا كان قد دعا بهذا في مكة وقد استجيب له فأى حاجة إلى الدعاء به بعد ذلك بالمدينة بسنين متعددة الخامس أنا قد بينا فيما تقدم وجوها متعددة في بطلان مثل هذا فان هذا الكلام كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة ولكن هنا قد زادوا فيه زيادات كثيرة لم يذكرها هناك وهي قوله { وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي } طه 32 فصرحوا هنا بان عليا كان شريكه في أمره كما كان هارون شريك موسى وهذا قول من يقول بنبوته وهذا كفر صريح وليس هو قول الإمامية وإنما هو من قول الغالية و ليس الشريك في الأمر هو الخليفة من بعده فانهم يدعون إمامته بعده و مشاركته له في أمره في حياته و هؤلاء الإمامية و إن كانوا يكفرون من يقول بمشاركته له في النبوة لكنهم يكثرون سوادهم في المقال و الرجال بمن يعتقدون فيه الكفر و الضلال و بما يعتقدون انه من الكفر و الضلال لفرط منابذتهم للدين و مخالفتهم لجماعة المسلمين و بغضهم لخيار أولياء الله المتقين و اعتقادهم فيهم انهم من المرتدين فهم كما قيل في المثل رمتي بدائها و انسلت و هذا الرفض الكذاب يقول و هذا نص في الباب فيقال له يا دبير هذا نص في أن عليا شريكه في أمره في حياته كما كان هارون شريكا لموسى فهل تقول بموجب هذا النص أم ترجع عن الإحتجاج بأكاذيب المفترين و ترهات إخوانك المبطلين¹

الأمر بتسبيحه يقتضى إثبات صفات الكمال له

قال تعالى { اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ } 24 { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي } 25 { وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } 26 { واحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي } 27 { يَفْقَهُوا قَوْلِي } 28 { واجْعَلْ لِّي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِي } 29 { هَارُونَ أَخِي } 30 { اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي } 31 { وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي } 32 { كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا } 33 { وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا } 34 { إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } 35 طه 24-35 والأمر بتسبيحه يقتضى أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضى التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمدها عليها فيقتضى ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده²

الله تعالى خص موسى بمزية فوق الرضا

قال تعالى { أَنْ أَفْذِيهِ فِي النَّابُوتِ فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي } طه 39

¹ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 273-276

² مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

ومعلوم أن موسى بن عمران عليه السلام من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم إن الله خص موسى بمزية فوق الرضا حيث قال { **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** } طه¹ 39

فهذا الثناء والمحبة والدعاء والتعظيم الذي للأنبياء وأتباعهم خارج عن قوى أنفس الأنبياء²

الله سبحانه لا سمي له لا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمن بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قبلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** } {180} **وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ** } {181} **وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } {182} الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** } طه³ 39

لا نجد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف

قال عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون الامام نظير مالك في كلامه المشهور الذي رد فيه على الجهمية ومن خالفها ومن أول كلامه قال اعرف رحمك الله غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها اذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف هل تستدل بذلك على شيء من طاعته أو تزجر به عن شيء من معصيته فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقا وتكلفا فقد { **اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ**

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 242 و الاستقامة ج: 2 ص: 84 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 120

² الصفدية ج: 1 ص: 224

³ مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130-131 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 11

حَيْرَانَ {الأنعام 71} فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال لا بد ان كان له كذا من أن يكون له كذا فعلى عن البين بالخفى فجدد ما سمي الرب من نفسه لصمت الرب عما لم يسم منها فلم يزل يملى له الشيطان حتى جحد قول الله عز وجل { وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ } {22} إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ {23} القيامة 22-23 فقال لا يراه أحد يوم القيامة فجدد والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أوليائه يوم القيامة من النظر الى وجهه ونضرتة إياهم { فِي مَفْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ } القمر 55 قد قضى أنهم لا يموتون فهم بالنظر اليه ينضرون الى ان قال وانما جحد رؤية الله يوم القيامة اقامة للحجة الضالة المضلة لأنه قد عرف أنه اذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحدا وقال المسلمون يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فإنكم ترون ربكم يومئذ كذلك وقال رسول الله لا تمتلىء النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وينزوي بعضها الى بعض وقال لثابت بن قيس لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة وقال فيما بلغنا ان الله تعالى ليضحك من أزلكم وقنوطكم وسرعة اجابتكم فقال له رجل من العرب ان ربنا ليضحك قال نعم قال لا نعدم من رب يضحك خيرا الى أشباه لهذا مما لا نحصيه قد عرف أنه اذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحدا وقال المسلمون يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فإنكم ترون ربكم يومئذ كذلك وقال رسول الله لا تمتلىء النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وينزوي بعضها الى بعض وقال لثابت بن قيس لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة وقال فيما بلغنا ان الله تعالى ليضحك من أزلكم وقنوطكم وسرعة اجابتكم فقال له رجل من العرب ان ربنا ليضحك قال نعم قال لا نعدم من رب يضحك خيرا الى أشباه لهذا مما لا نحصيه وقال تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } الطور 48 وقال تعالى { وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي } طه 39 وقال تعالى { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ } ص 75 وقال تعالى { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 فوالله ما دلهم على عظم ما وصفه من نفسه وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم ان ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفة قلوبهم فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا لا نجد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف اعلم رحمك الله أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك ولا تجاوز ما قد حد لك فان من قوام الدين معرفة المعروف وانكار المنكر فما بسطت عليه المعرفة وسكنت اليه الافئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة وتوارثت علمه الامة فلا تخافن في ذكره وصفته من ربك ما وصف من نفسه عيبا ولا تتكلفن بما وصف لك من ذلك قدرا وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك ولا في حديث عن نبيك من ذكر صفة ربك فلا تكلفن علمه بعقلك ولا تصفه بلسانك واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه فان تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل انكار ما وصف منها فكما أعظمت ما جحد الجاحدون مما وصف من نفسه فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها فقد والله عز المسلمون الذين يعرفون المعروف وبهم يعرف وينكرون المنكر وبانكارهم ينكر يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه وما بلغهم مثله عن نبيه فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلب مسلم ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن وما ذكر عن

النبى انه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمي وما وصف الرب تعالى من نفسه وهذا كله كلام ابن الماجشون الامام فتدبره وانظر كيف أثبت الصفات ونفى علم الكيفية موافقا لغيره من الأئمة وكيف أنكر على من نفى الصفات بأنه يلزمهم من اثباتها كذا وكذا كما تقوله الجهمية أنه يلزم ان يكون جسما أو عرضا فيكون محدثا¹

وقال أبو عبدالله محمد بن أبي زمنين الامام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذى صنفه فى أصول السنة قال فيه فى الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه قال وأعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به انبياءه ورسوله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز عن ما لم يدع اليه ايماننا وأنهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى فى كتابه على لسان نبيه وقد قال وهو اصدق القائلين { **وَلِئَصْنَعِ عَلَى عَيْنِي طه39** ومثل هذا فى القرآن كثير فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه ويسمع ويرى ويتكلم هو الأول لا شىء قبله والآخر الباقي الى غير نهاية ولا شىء بعده والظاهر العالى فوق كل شىء والباطن بطن علمه بخلقه فقال { **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } البقرة 29 قيوم حى لا تأخذه سنة ولا نوم وذكر أحاديث الصفات وذكر أحاديث الصفات ثم قال فهذه صفات ربنا التى وصف بها نفسه فى كتابه ووصفه بها نبيه وليس فى شىء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير { **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } الشورى 11 لم تره العيون فتحدده كيف هو ولكن رأته القلوب فى حقائق الايمان²

وقال الإمام أبو عبدالله محمد بن خفيف فى كتابه الذى سماه اعتقاد التوحيد باثبات الاسماء والصفات إلى أن قال فأول ما نبتدىء به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها ذكر أسماء الله عز وجل فى كتابه وما بين صلى الله عليه وسلم من صفاته فى سنته وما وصف به عز وجل مما سنذكر قول القائلين بذلك مما لا يجوز لنا فى ذلك أن نرده الى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك ومما قد امرنا بالاستسلام له الى أن قال ثم ان الله تعرف الينا بعد اثبات الوجدانية والاقرار بالالوهية ان ذكر تعالى فى كتابه بعد التحقيق بما بدأ من اسمائه وصفاته وأكد عليه السلام بقوله فقبلوا منه كقبولهم لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله الا الله الى أن قال باثبات نفسه بالتفصيل من المجمل فقال لموسى عليه السلام قال تعالى { **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِيتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ** } { **40** } **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** } { **41** } طه 40-41 وقال { **وَيُحَدِّثُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** } آل عمران 28 ولصحة ذلك واستقرار ما جاء به المسيح عليه السلام فقال { **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** } المائدة 116 وقال عز وجل { **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** } الأنعام 54 وأكد عليه السلام صحة اثبات ذلك فى سنته فقال يقول الله عز وجل من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسه وقال كتب كتابا بيده على نفسه ان رحمتى غلبت غضبى وقال سبحان الله رضى نفسه وقال فى محاجة آدم لموسى أنت الذى اصطفاك الله واصطنعك لنفسه فقد صرح بظاهر قوله أنه اثبت لنفسه نفسا واثبت له الرسول ذلك فعلى من صدق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر به

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 43 و مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 562

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 57

عن نفسه ويكون ذلك مبينا على ظاهر قوله ليس كمثلته شيء ثم قال فعلى المؤمنين خاصتهم وعامتهم قبول كل ما ورد عنه عليه السلام بنقل العدل عن العدل حتى يتصل به وان مما قضى الله علينا في كتابه ووصف به نفسه ووردت السنة بصحة ذلك ان قال {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} النور 35 ثم قال عقيب ذلك { نُورٌ عَلَى نُورٍ } النور 35 وبذلك دعاه صلى الله عليه وسلم أنت نور السموات والأرض ثم ذكر حديث أبي موسى حجابته النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وقال سبحات وجهه جلاله ونوره نقله عن الخليل وأبي عبيد وقال قال عبدالله بن مسعود نور السموات نور وجهه¹

وأما لفظ العينين فليس هو في القرآن ولكن جاء في حديث وذكر الأشعري عن أهل السنة والحديث أنهم يقولون إن لله عينين ولكن الذي جاء في القرآن {أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي} طه 39²

الْحَزَنُ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهِ وَلَا رَسُولُهُ بَلْ قَدْ نَهَى عَنْهُ فِي مَوَاضِعٍ وَأَنْ تَعْلُقَ بِأَمْرِ الدِّينِ

قال تعالى { إِذْ تَمْشِي أُخُنُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَرَجَّيْنَاكَ مِنَ الْعَمِّ وَقَتَلْنَاكَ فَنُوحًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ } 40 {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} 41 طه 40-41 واما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بأمر الدين كقوله تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 وقوله {وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} النحل 127 وقوله {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} التوبة 40 وقوله {وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ} يونس 65 وقوله {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} الحديد 23 وامثال ذلك كثير وذلك لانه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا ياتم صاحبه اذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي ان الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا او يرحم و اشار بيده الى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضي الرب ومنه قوله تعالى {وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَاسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} يوسف 84 وقد تبين بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك اذا افضى الى ترك أمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه والا كان

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 73-74

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 414

حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة الحزن واما ان افضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وان كان محمودا من جهة اخرى¹

{ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى {36} وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى {37} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ {38} أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنِعَ عَلَىٰ عَيْنِي {39} إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى {40} وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي {41} أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي {42} أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ {43} فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ {44} طه

العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق

{ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ {43} فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ {44} قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ {45} قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ {46} فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ {47} إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ {48} قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ {50} قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ {51} قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ {52} طه 43-52 و الذين قالوا المعرفة لا تحصل إلا بالنظر قالوا لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر وغيره فيقال لهم و ليس فيما قص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحدا أوجبها بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم و لكن أكثر الرسل إفتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح و هود و صالح و شعيب و قومهم كانوا مقرين بالخالق لكن كانوا مشركين يعبدون غيره كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه و سلم و من الكفار من أظهر جحود الخالق كفرعون حيث قال { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ {القصص} 38 و قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ {النازعات} 24 و قال لموسى { لئن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ { الشعراء} 29 وقال { يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ {36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا {37} غافر 36-37 ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن قال { وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {10} قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ {11} قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ {12} وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ {13} وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ {14} قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمْعُونَ {15} فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {16} أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ {17} قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ {18} وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ {19} قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ {20}

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 17

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ {21} الشعراء 10-21 قال فرعون إنكاراً و جحداً { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 قال موسى { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } {24} قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ {25} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ {26} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ {27} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا {28} الشعراء 28 الآيات وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 هو سؤال عن ماهية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول ما الإنسان ما الملك ما الجنى و نحو ذلك قالوا و لما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به و هو قوله { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الشعراء 23 و هذا قول قاله بعض المتأخرين و هو باطل فإن فرعون إنما استفهم إستفهام إنكار و جحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته بل كان منكراً له جاحداً و لهذا قال في تمام الكلام { لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } الشعراء 29 و قال { وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا } {37} فإستفهامه كان إنكاراً و جحداً يقول ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا إنكاراً له فبين موسى أنه معروف عنده و عند الحاضرين وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده وأنكم إنما تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم كما قال موسى في موضع آخر لفرعون { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٍ } الإسرائ 102 و قال الله تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } النمل 14 و لم يقل فرعون و من رب العالمين فإن من سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسئول عنه أنه من أهل العلم و قد شك في عينه كما يقال لرسول عرف انه جاء من عند إنسان من أرسلك و أما ما فهى سؤال عن الوصف يقول أي شيء هو هذا و ما هو هذا الذي سميته { رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 قال ذلك منكراً له جاحداً فلما سأل جحداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر و أظهر من أن يشك فيه و يرتاب فقال { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } الشعراء 24 و لم يقل موقنين بكذا و كذا بل أطلق فأى يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب كما قالت الرسل لقومهم { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ } إبراهيم 10 و إن قلتم لا يقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا كل علم فهذه دعوى السفسطة العامة و مدعيها كاذب ظاهر الكذب فإن العلوم من لوازم كل إنسان فكل إنسان عاقل لا بد له من علم و لهذا قيل في حد العقل إنه علوم ضرورية و هي التي لا يخلو منها عاقل فلما قال فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } الشعراء 27 و هذا من إفتراء المكذبين على الرسول لما خرجوا عن عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوه إلى الجنون و لما كانوا مظهرين للجدد بالخالق أو للإستراية و الشك فيه هذه حال عامتهم و دينهم و هذا عندهم دين حسن و إنما إلههم الذي يطيعونه فرعون قال { إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } الشعراء 27 فبين له موسى أنكم الذين سلبتم العقل النافع و أنتم أحق بهذا الوصف فقال { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } الشعراء 28 فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية و أعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن به و اليقين بشيء هو من لوازم العقل بين ثانياً أن الإقرار به من لوازم العقل و لكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه فإن لم يعمل به صاحبه قيل إنه ليس له عقل و يقال أيضاً لمن لم يتبع ما أيقن به إنه ليس له يقين فإن اليقين أيضاً يراد به العلم المستقر في القلب و يراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق الموقن إلا على من استقر في قلبه العلم و العمل و قوم فرعون لم يكن عندهم إتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل و لا يقين و كلام موسى يقتضى الأمرين إن كان لك يقين فقد عرفته و إن كان لك عقل فقد عرفته و إن ادعت أنه لا يقين لك و لا عقل لك فذلك قومك فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان و من يكون هكذا لا

يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية مع أن هذا باطل منكم فإنكم موقنون به كما قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل 14 و لكم عقل تعرفونه به و لكن هواكم يصدكم عن إتباع موجب العقل و هو إرادة العلو في الأرض و الفساد فأنتم لا عقل لكم بهذا الإعتبار كما قال أصحاب النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} الملك 10 و قال تعالى عن الكفار {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} الفرقان 44 قال تعالى عن فرعون و قومه {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} الزخرف 54 و الخفيف هو السفية الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه و بسط هذا له موضع آخر و المقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا و استدلوا حتى تعرفوه فلم يكفوا أولاً بنفس المعرفة و لا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة إذ كانت قلوبهم تعرفه و تقر به و كل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها و الإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته و لهذا قال الله في خطابه لموسى {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ} طه 44 ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه و يعرف إنعامه عليه و إحسانه إليه و إفتقاره إليه فذلك يدعو إلى الإيمان {أَوْ يَخْشَى} طه 44 ما ينذر به من العذاب فذلك أيضا يدعو إلى الإيمان كما قال تعالى {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} النحل 125 فالحكمة تعريف الحق فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة و من نازعه هواه و عظ بالترغيب و الترهيب فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى إتباعه فإن الحق محبوب في الفطرة و هو أحب إليها و أجل فيها و ألد عندها من الباطل الذي لا حقيقة له فإن الفطرة لا تحب ذلك فإن لم يدعه الحق و العلم به خوف عاقبة الجحود و العصيان و ما في ذلك من العذاب فالنفس تخاف العذاب بالضرورة فكل حى يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع فمن الناس من يتبع هواه فيتبع الأدنى دون الأعلى كما أن منهم من يكذب بما خوف به أو يتغافل عنه حتى يفعل ما يهواه فإنه إذا صدق به و استحضره لم يبعث نفسه إلى هواها بل لا بد من نوع من الغفلة و الجهل حتى يتبعه و لهذا كان كل عاص لله جاهلا كما قد بسط هذا في مواضع¹

" ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شاناه "

فليس حسن النية بالرعية و الاحسان اليهم ان يفعل ما يهوونه و يترك ما يكرهونه فقد قال الله تعالى {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} المؤمنون 71 و قال تعالى للصحابة {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} الحجرات 7 وإنما الاحسان اليهم فعل ما ينفعهم في الدين و الدنيا ولو كرهه من كرهه لكن ينبغي له ان يرفق بهم فيما يكرهونه ففي الصحيحين عن النبي انه قال ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شاناه و قال إن الله رقيق يحب الرفق و يعطى على الرفق مالا يعطى على العنف و كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول والله انى لأريد أن أخرج لهم المرة من الحق فأخاف ان ينفروا عنها فأصبر حتى تجئ الحلوة من الدنيا فأخرجها معها فاذا نفروا لهذه سكنوا لهذه وهكذا كان النبي إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول و سأله مرة بعض أقاربه أن يوليه على الصدقات و يبرزه منها فقال ان الصدقة لا تحل لمحمد و لآل محمد فمنعهم إياها

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 332-339

وعوضهم من الفئ وتحاكم اليه على وزيد وجعفر في ابنه حمزة فلم يقض بها لواحد منهم ولكن قضى بها لخالتها ثم إنه طيب قلب كل واحد منهم بكلمة حسنة فقال لعلى أنت منى وأنا منك وقال لجعفر أشبهت خلقى وخلقى وقال لزبد أنت أخونا ومولانا فكهذا ينبغي لولى الأمر فى قسمه وحكمه فان الناس دائما يسألون ولى الأمر مالا يصلح بذله من الولايات والأموال والمنافع والأجور والشفاعة فى الحدود وغير ذلك فيعوضهم من جهة أخرى إن أمكن أو يردهم بميسور من القول مالم يحتج إلى الاغلاظ فان رد السائل يؤلمه خصوصا من يحتاج الى تأليفه وقد قال الله تعالى {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} الضحى 10 وقال الله تعالى {وَأْتِ دَا الْفُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} الإسراء 26 إلى قوله {وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا} الإسراء 28 وإذا حكم على شخص فانه قد يتأذى فاذا طيب نفسه بما يصلح من القول والعمل كان ذلك تمام السياسة وهو نظير ما يعطيه الطبيب للمريض من الطب الذى يسوغ الدواء الكريه وقد قال الله لموسى عليه السلام لما أرسله إلى فرعون {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} طه 44 وقال النبى لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطوعا ولا تختلفا وبال مرة أعرابى فى المسجد فقام أصحابه اليه فقال لا ترزموه أ لا تقطعوا عليه بوله ثم أمر بدلو من ماء فصب عليه وقال النبى إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين والحديثان فى الصحيحين وهذا يحتاج اليه الرجل فى سياسة نفسه وأهل بيته ورعيته فان النفوس لا تقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها التى هى محتاجة اليها فتكون تلك الحظوظ عباده الله وطاعة له مع النية الصالحة ألا ترى ان الأكل والشرب واللباس واجب على الانسان حتى لو اضطر الى الميتة وجب عليه الأكل عند عامة العلماء فان لم يأكل حتى مات دخل النار لأن العبادات لا تؤدى غلا بهذا ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب اضطر الى الميتة وجب عليه الأكل عند عامة العلماء فان لم يأكل حتى مات دخل النار لأن العبادات لا تؤدى غلا بهذا ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولهذا كانت نفقة الإنسان على نفسه وأهله مقدمه على غيرها فى السنن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله تصدقوا فقال رجل يارسول الله عندى دينار فقال تصدق به على نفسك قال عندى آخر قال تصدق به على زوجتك قال عندى آخر قال تصدق به على ولدك قال عندى آخر قال تصدق به على خادمك قال عندى آخر قال انت أبصر به وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجر الذى أنفقتة على أهلك وفى صحيح مسلم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن آدم إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى وهذا تأويل قوله تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} البقرة 219 أى الفضل وذلك لأن نفقة الرجل على نفسه وأهله فرض عين بخلاف النفقة فى الغزو والمساكين فانه فى الأصل إما فرض على الكفاية وإما مستحب وإن كان قد يصير متعينا إذا لم يقم غيره به فان إطعام الجائع واجب ولهذا جاء فى الحديث لو صدق السائل لما أفلح من رده ذكره الامام احمد وذكر انه إذا علم صدقه وجب إطعامه وقد روى أبو حاتم البستى فى صحيحه حديث أبى ذر رضى الله عنه الطويل عن النبى الذى فيه من أنواع العلم والحكمة وفيه أنه كان فى حكمة آل داود عليه السلام حق على العاقل ان تكون له أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها بأصحابه الذين يخبرونه بعيوبه ويحدثونه عن ذات نفسه وساعة يخلو فيها ببلذته فيما يحل ويحمله فان فى هذه الساعة عوننا على تلك الساعات فبين أنه لا بد من اللذات المباحة الجميلة فانها تعين على تلك الأمور ولهذا ذكر الفقهاء ان

العدالة هي الصلاح في الدين والمروءة باستعمال ما يجمله ويزينه وتجنب ما يدنسه ويشينه وكان ابو الدرداء رضى الله عنه يقول إنى لأستجم نفس بالشئ من الباطل لأستعين به على الحق والله سبحانه إنما خلق اللذات والشهوات فى الأصل لتتمام مصلحة الخلق فانه بذلك يجتلبون ما ينفعهم كما خلق الغضب ليدفعوا به ما يضرهم وحرم من الشهوات ما يضر تناوله وذم من اقتصر عليها فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة ولهذا جاء فى الحديث الصحيح ان النبى قال فى بضع أحدكم صدقة قالوا يارسول الله آياتى أهدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها فى حرام أما يكون عليه وزر قالوا بلى قال فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال وفى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال له إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها فى امرأتك والآثار فى هذا كثيرة فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته والمنافق لفساد قلبه ونيته يعاقب على ما يظهره من العبادات رياء فان فى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب وكما ان العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات وترك المحرمات فقد شرع أيضا كل ما يعين على ذلك فينبغى تيسير طريق الخير والطاعة والاعانة عليه والترغيب فيه بكل ممكن مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم فى العمل الصالح من مال أو ثناء أو غيره ولهذا شرعت المسابقة بالخيل والابل والمناضلة بالسهم وأخذ جعل عليها لما فيه من الترغيب فى إعداد القوة ورباط الخيل للجهد فى سبيل الله حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم يسابق بين الخيل هو وخلفاؤه الراشدون ويخرجون الأسباق من بيت المال وكذلك عطاء المؤلفلة قلوبهم فقد روى أن الرجل كان يسلم أول النهار رغبة فى الدنيا فلا يجىء آخر النهار إلا والاسلام أحب اليه مما طلعت عليه الشمس¹

أتى كلا من الانبياء من الآيات ما آمن على مثله البشر

فجعل الله الانبياء والمرسلين من اهل بيت ابراهيم عليه السلام وجعل لكل منهم خصائص ورفع بعضهم فوق بعض درجات وأتى كلا منهم من الآيات ما آمن على مثله البشر فجعل لموسى العصا حية حتى ابتلعت ما صنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعصى وكانت شيئا كثيرا وقلق له البحر حتى صار يابساً والماء واقفا حاجزا بين اثنى عشر طريقا على عدد الاسباط وارسل معه القمل والضفادع والدم وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم وانزل عليهم صبيحة كل يوم المن والسلوى واذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر { فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ } البقرة 60²

قال تعالى { **أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** } {42} **أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** } {43} **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** } {44} طه 42-44

و الخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة³

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 364-370 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 115

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 605

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 175

قال تعالى { لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } جعل ذلك نوعين لما في ذلك من الفوائد

قال تعالى { أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي } {42} { أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } {43} **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** {44} طه 42-44

و قوله { مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ } ق33 وفي هذه الآية قال { سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى } الأعلى 10 و قال في قصة فرعون { **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** طه 44 } فعطف الخشية على التذکر و قال { لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } الفرقان 62 و في قصة الرجل الصالح المؤمن الأعمى قال { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي } {3} أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذَّكْرَى } {4} عيس 3-4 و قال في حم المؤمن { ذَلِكَ بَأْنَهُ إِذَا دَعَى اللَّهَ وَحَدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } {12} { هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ } {13} { غَافِرٌ } 12-13 فقال { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ } غافر 13 و الإنابة جعلها مع الخشية في قوله { هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ } {32} { مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ } {33} { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ } {34} { ق32-34 } و ذلك لأن الذي يخشى الله لا بد أن يرجوه و يطمع في رحمته فينيب إليه و يحبه و يحب عبادته و طاعته فإن ذلك هو الذي ينجيهِ مما يخشاه و يحصل به ما يحبه و الخشية لا تكون ممن قطع بأنه معذب فإن هذا قطع بالعذاب يكون معه القنوط و اليأس و الإبلاس ليس هذا خشية و خوفاً و إنما يكون الخشية و الخوف مع رجاء السلامة و لهذا قال { تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ } الشورى 22 فصاحب الخشية لله ينيب إلى الله كما قال { وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ } {31} { هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ } {32} { مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ } {33} { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ } {34} ق31-34 و هذا يكون مع تمام الخشية و الخوف فأما في مبادئها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب و الذنب الذي يقتضيه فيشتغل بطلب النجاة و السلام و يعرض عن طلب الرحمة و الجنة و قد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها و تقابلها فينجو بذلك من النار و لا يستحق الجنة بل يكون من أصحاب الأعراف و إن كان مألهم إلى الجنة فليسوا ممن أزلت لهم الجنة أي قربت لهم إذ كانوا لم يأتوا بخشية الله و الإنابة إليه و استجمل بعد ذلك و أما قوله في قصة فرعون { **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** طه 44 } و قوله { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي } {3} أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذَّكْرَى } {4} عيس 3-4 فلا يناقض هذه الآية لأنه لم يقل في هذه الآية سيخشى من يذکر بل ذكر أن كل من خشى فإنه يتذكر إما أن يتذكر فيخشى و إن كان غيره يتذكر فلا يخشى و إما أن تدعوه الخشية إلى التذکر فالخشية مستلزمة للتذکر فكل خاش متذکر كما قال تعالى { **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** } فاطر 28 فلا يخشاه إلا عالم فكل خاش لله فهو عالم هذا منطوق الآية و قال السلف و أكثر العلماء إنها تدل على أن كل عالم فإنه يخشى الله كما دل غيرها على أن كل من عصى الله فهو جاهل كما قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن قوله { **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** } النساء 17 فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل و كذلك قال مجاهد و الحسن البصرى و غيرهم من العلماء التابعين و من بعدهم و ذلك أن الحصر في معنى الإستثناء و الإستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء فنفي الخشية عن ليس من العلماء وهم العلماء به

الذين يؤمنون بما جاءت به الرسل يخافونه {قال تعالى} {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَنْبَاءِ
{الزمر 9} و أثبتتها للعلماء فكل عالم يخشاه فمن لم يخش الله فليس من العلماء بل من الجهال كما قال
عبدالله بن مسعود كفى بخشية الله علما و كفى بالإغترار بالله جهلا و قال رجل للشعبي أيها
العالم فقال إنما العالم من يخشى الله فذلك قوله {سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى} {الأعلى 10
يقتضى أن كل من يخشاه فلا بد أن يكون ممن تذكر و قد ذكر أن الأشقى يتجنب الذكرى فصار
الذي يخشى ضد الأشقى فذلك يقال كل من تذكر خشى و التحقيق أن التذكر سبب الخشية فإن
كان تاما أوجب الخشية كما أن العلم سبب الخشية فإن كان تاما أوجب الخشية و على هذا ف قوله
في قصة فرعون {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} {طه 44} جعل ذلك نوعين لما فى ذلك من الفوائد
أحدها أنه إذا تذكر أنه مخلوق و أن الله خالقه و ليس هو إلها و ربا كما ذكر و ذكر إحسان الله إليه
فهذا التذكر يدعوه إلى إعترافه بربوبية الله و توحيدة و إنعامه عليه فيقتضى الإيمان و الشكر و إن قدر
أن الله لا يعذبه فإن مجرد كون الشيء حقا و نافعا يقتضى طلبه و إن لم يخف ضررا بعدمه كما
يسارع المؤمنون إلى فعل التطوعات و النوافل لما فيها من النفع و إن كان لا عقوبة فى تركها كما
يحب الإنسان علوما نافعة و إن لم يتضرر بتركها و كما قد يحب محاسن الأخلاق و معالي الأمور
لما فيها من المنفعة و اللذة فى الدنيا و الآخرة و إن لم يخف ضررا بتركها فهو إذا تذكر آلاء الله
و تذكر إحسانه إليه فهذا قد يوجب إعترافه بحق الله و توحيدة و إحسانه إليه و يقتضى شكره لله و
تسليم قوم موسى إليه و أن لم يخف عذابا فهذا قد حصل بمجرد التذكر قال {أَوْ يَخْشَى} {طه 44
و نفس الخشية إذا ذكر له موسى ما توعدده الله به من عذاب الدنيا و الآخرة فإن هذا الخوف قد يحمله
على الطاعة و الإنقياد و لو لم يتذكر و قد يحصل تذكر بلا خشية و قد يحصل خشية بلا تذكر و
قد يحصلان جميعا و هو الأغلب قال تعالى {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} {طه 44} و أيضا فذكر
الإنسان يحصل بما عرفه من العلوم قبل هذا فيحصل بمجرد عقله و خشيته تكون بما سمعه من
الوعيد فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به و الثانى يكون ممن له أذن يسمع بها و قد تحصل الذكرى
الموجبة للخير بهذا و بهذا كما قال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ {36} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ {37} }
ق36-37 الفائدة الثانية أن التذكر سبب الخشية و الخشية حاصلة عن التذكر فذكر التذكر الذي
هو السبب و ذكر الخشية التى هي النتيجة و إن كان أحدهما مستلزما للآخر كما قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ {37} } ق37 وكما قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ {الملك 10} وقال { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ
بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {الحج 46} فكل
من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما
قالوه ينجو وإلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه كما قال { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ
عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفأ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَانْبَغُوا أَهْوَاءَهُمْ
{محمد 16} وقال { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ {يونس 42
وقال { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {يوسف 2} وكذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل
لا ينفع و قد إترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا { قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ
مِن شَيْءٍ {الملك 9} وكذلك المعتبرين بآثار المعذبين الذين قال فيهم { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون
لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا {الحج 46} إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين
المكذبين للرسل والناجين الذين صدقوا فسمعوا قول الرسل وصدقواهم الفائدة الثالثة أن الخشية

أيضا سبب للتذكر كما تقدم فكل منهما قد يكون سببا للآخر فقد يخاف الإنسان فيتذكر وقد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها يتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله فإن قيل مجرد ظن المخوف قد يوجب الخوف فكيف قال { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } فاطر 28 قيل النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يترك هواه ولهذا قال { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ } النازعات 40 وقال تعالى في ذم الكفار { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ وَاعْبُدُوا لِلَّهِ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ أَلَا تَأْتِي السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَنَبِّئِينَ } الجاثية 32 ووصف المتقين بأنهم بالأخرة يوقنون ولهذا أقسم الرب على وقوع العذاب والساعة وأمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة و علي أن القرآن حق فقال { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ } التغابن 7 وقال { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } سبأ 3 وقال { وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } يونس 53 وأما قوله تعالى { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ } غافر 13 فهو حق كما قال فإن المتذكر إما أن يتذكر ما يدعو إلى الرحمة والنعمة و الثواب كما يتذكر الإنسان ما يدعو إلى السؤال فينيب وإما أن يتذكر ما يفتضي الخوف والخشية فلا بد له من الإنابة حينئذ لينجو مما يخاف ولهذا قيل في فرعون { لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } طه 44 فينيب { أَوْ يَخْشَى } طه 44 وكذلك قال له موسى { هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزُكَّى } 18 { وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى } 19 { النازعات 18-19 فجمع موسى بين الأمرين لتلازمهما وقال في حق الأعمى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزُكَّى } 3 { أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى } 4 { عبس 3-4 فذكر الإنتفاع بالذكرى كما قال { وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } الذاريات 55 والنفع نوعان حصول النعمة وإندفاع النعمة ونفس إندفاع النعمة نفع وإن لم يحصل معه نفع آخر ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع وكلاهما نفع فالنفع تدخل فيه الثلاثة والثلاثة تحصل بالذكرى كما قال تعالى { وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } الذاريات 55 وقال { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزُكَّى } 3 { أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى } 4 { عبس 3-4¹

إذا قوى العلم والتذكر دفع الهوى وإذا إندفع الهوى بالخشية أبصر القلب

وعلم

وقال في طريقتي العلم والعمل قال الله تعالى لموسى وهارون { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } طه 44 وقال في السورة بعينها { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا } طه 99 إلى قوله { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا } طه 113 فنذكر في كل واحدة من الرسالتين العظيمتين رسالة موسى ورسالة محمد أن ذلك لأجل التذكر أو الخشية ولم يقل ليتذكر ويخشى ولا قال ليتقون ويحدث لهم ذكرا بل جعل المطلوب أحد الأمرين وهذا مطابق لقوله { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } النحل 125 ونحو ذلك وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه نعم العبد صهيب لولم يخف الله لم يعصه وذلك يرجع إلى تحقيق قوله { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } 7 { الفاتحة 7 وقوله { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } العصر 3 وقوله { أُولِي

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 175- 185

الأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ {ص45 وقوله {أَوْلَيْكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {البقرة5 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {القمر47 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} طه123 - 124 الآية ونحو ذلك وسبب ذلك أن العمل إما بمعرفة الحق وإتباعه في العلم والعمل جميعاً صلاح القول والعمل العلم والإرادة والعلم أصل العمل و أصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له مالم يحصل معارض مانع فالعلم بالحق يوجب إتباعه إلا لمعارض راجح مثل إتباع الهوى بالإستكبار ونحوه كحال الذين قال الله فيهم {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا {الأعراف146 وقال {وَجَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا {النمل14 وقال {فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ {الأنعام33 ولهذا قال {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ {ص26 ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التي فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق إتبعته وأحبته إذ الحق نوعان حق موجود فالواجب معرفته والصدق في الإخبار عنه وضد ذلك الجهل والكذب وحق مقصود وهو النافع للإنسان فالواجب إرادته والعمل به وضد ذلك إرادة الباطل وإتباعه ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهل ومحبة الصدق دون الكذب ومحبة النافع دون الضار وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك كما انه في صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار فإذا إشتهى ما يضره أن كره ما ينفعه فلمرض في الجسد وكذلك أيضاً إذا إندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح كما أن الجسد إذا إندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع سبب للآخر وذلك سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لضد ذلك فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب وإذا كان كذلك فصلاح بني آدم الإيمان والعمل الصالح ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيطان أحدهما الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالاً والثاني إتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس فيكونون غواة مغضوباً عليهم ولهذا قال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى {1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى {2} {النجم1-2} وقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي وبالهدى الذي هو خلاف الضلال وبهما يصلح العلم والعمل جميعاً ويصير الإنسان عالماً عادلاً لا جاهلاً ولا ظالماً وهم في الصلاح على ضربين تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له إتبعه وعمل به فهذا هو الذي يدعى الحكمة وهو الذي يتذكر وهو الذي يحدث له القرآن ذكراً والثاني ان يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة وهذا هو القسم الثاني المذكور في قوله {أَوْ يَخْشَى {طه44} وفي قوله {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {طه113} وقد قال في السورة في قصة فرعون {أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {17} فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى {18} وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى {19} {النازعات17-19} فجمع بين التزكى والهدى والخشية كما جمع بين العلم والخشية في قوله {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ {فاطر28} وفي قوله {وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ {الأعراف154} وفي قوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا {66} {وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا {67} {وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا {68} {النساء66-68} وذلك لما ذكرنا من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر والذكر الذي يحدثه القرآن ومن الخشية المانعة من إتباع الهوى

سبب لصلاح حال الإنسان وهو مستلزم للآخر إذا قوى على ضده فإذا قوى العلم والتذكر دفع الهوى وإذا إندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا ولهذا كان فسادُه بانتفاء كل منهما فإذا إنتفى العلم الحق كان ضالا غير مهتد وإذا إنتفى إتباعه كان غاويا مغضوبا عليه ولهذا قال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ} {1} {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ} {2} {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ} {3} {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} {4} {النجم 1-4} وقال في ضد ذلك {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} {النجم 23} وقال {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} {القصص 50} وقال {وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} {الأنعام 119} وقال {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 وقال في ضده {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} طه 124 وقال {أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} لقمان 5 وقال في ضده {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} {القمر 47} قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة وبين الضلال والشقاوة بين حسنة الدنيا والآخرة وسيئة الدنيا والآخرة ويقرن بين النافع والعمل الصالح بين العلم الطيب والعمل الصالح كما يقرن بين ضديهما وهو الضلال والغى إتباع الظن وما تهوى الأنفس والقربان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي والإستعادة كان الذم والنهي لكل منهما من الضلال والغى من الجهل والظلم من الضلال والغضب ولأن كلا منهما صار مكروها مطلوب العدم لا سيما وهو مستلزم للآخر وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما وقد يطلب كل منهما وقد يحمد أحدهما وقد يحمد كل منهما لأن كل منهما خير مطلوب محمود وهو سبب لحصول الآخر لكن كمال الصلاح يكون بوجودهما جميعا وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما ولم يعارضه معارض والداعى للخلق الأمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين فيطلب أحدهما لأنه مطلوب في نفسه وهو سبب للآخر فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعا فقد يثقل ذلك عليه والأمر ببناء والنهي هدم والأمر هو يحصل العافية بتناول الأدوية والنهي من باب الحمية والبناء والعافية تأتي شيئا بعد شيء وأما الهدم فهو أعجل والحمية أعم وإن كان قد يحصل فيهما ترتيب أيضا فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سببا وطريقا إلى حصول المقصود مع حصول الآخر فقوله سبحانه {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} طه 44 وقوله {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} طه 113 طلب وجود أحد الأمرين بتبليغ الرسالة وجاء بصيغة لعل تسهيلا للأمر ورفقا وبيانا لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول المقصود فلا يطلبان جميعا في الإبتداء ولهذا جاء في الأثر إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها لا سيما اصول الحسنات التي تستلزم سائرها مثل الصدق فإنه أصل الخير كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ولهذا قال سبحانه {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ} {221} {تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} {222} {الشعراء 221-222} وقال {وَيْلٌ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} {7} {يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا} {8} {الجاثية 7-8} ولهذا يذكر أن بعض المشائخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال يا بنى أنا أمرك بخصلة واحدة فأحفظها لى ولا أمرك الساعة

بغيرها التزم الصدق وإياك الكذب وتوعده على الكذب بوعيد شديد فلما إلتزم ذلك الصدق دعاه إلى بقية الخير ونهاه عما كان عليه فإن الفاجر لاحد له فى الكذب¹

الداعى يجب أن يكون أمره لله

والأمر بالسنة والنهي عن البدعة هو أمر بمعروف ونهي عن منكر وهو من أفضل الأعمال الصالحة فيجب أن يبتغي به وجه الله وإن يكون مطابقاً للأمر وفي الحديث من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فينبغي أن يكون عليماً بما يأمر به عليماً بما ينهى عنه رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه فالعلم قبل الأمر والرفق مع الأمر والحلم بعد الأمر فإن لم يكن عالماً لم يكن له أن يفقو ما ليس له به علم وإن كان عالماً ولم يكن رفيقاً كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض فلا يقبل منه وكالمؤدب الغليظ الذي لا يقبل منه الولد وقد قال تعالى لموسى وهارون {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} طه 44 ثم إذا أمر ونهى فلا بد أن يؤدى في العادة فعليه أن يصبر ويحلم كما قال تعالى {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} لقمان 17 وقد أمر الله نبيه بالصبر على أذى المشركين في غير موضع وهو إمام الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر فإن الإنسان عليه أولاً أن يكون أمره لله وقصده طاعة الله فيما أمره به وهو يجب صلاح الأمور أو إقامة الحجة عليه فإن فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفته وتنقيص غيره كان ذلك حمية لا يقبله الله وكذلك إذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطاً ثم إذا رد عليه ذلك وأوذي أو نسب إلى أنه مخطيء وغرضه فاسد طلبت نفسه الانتصار لنفسه وأتاه الشيطان فكان مبدأ عمله لله ثم صار له هوى يطلب به أن ينتصر على من آذاه وربما اعتدى على ذلك المؤذي وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة إذا كان كل منهم يعتقد أن الحق معه وأنه على السنة فإن أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوى أن ينتصر جاههم أو رياستهم وما نسب إليهم لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله بل يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه ويرضون عن يوافقهم وإن كان جاهلاً سبيء القصد ليس له علم ولا حسن قصد فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله ويذموا من لم يذمه الله ورسوله وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله وهذا حال الكفار الذين لا يطلبون إلا أهواءهم ويقولون هذا صديقنا وهذا عدونا وبلغه المغل هذا بال هذا باغي لا ينظرون إلى موالاته الله ورسوله ومعاداته الله ورسوله ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس قال الله تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} {الأنفال 39} فإذا لم يكن الدين كله لله وكانت فتنة وأصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله والموالات لله والمعادات لله والعبادة لله والإستعانة بالله والخوف من الله والرجاء لله والإعطاء لله والمنع لله وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله ونهيه نهي الله ومعاداته معاداته الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 239

له ويغضب له أنه السنة وهو الحق وهو الدين فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا بل قصد الحماية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهداً في سبيل الله فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كمنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وكفر بعضهم بعضاً وفسق بعضهم بعضاً¹

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قبيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} {180} {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {182} الصافات 180-182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه قال تعالى { قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى } {45} قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } {46} طه 45-46²

دل الكتاب والسنة ودلائل العقل على ان الله سميع بصير

فان الله تعالى سمي نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمي نفسه حيا عليماً حكيماً قديراً سمياً بصيراً غفوراً رحيماً الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى {إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 وأمثال ذلك فالقول في بعض هذه الصفات كالقول في بعض مذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 253-256

² مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130-131 والعقيدة الواسطية ج: 1 ص: 17

المخلوقين بل هو سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 ليس كمثل شئ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعي من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهاً ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 رد على أهل النفي والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع أهل الإثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشئ الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الائمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة¹

وقد دل الكتاب والسنة واتفق سلف الامة ودلائل العقل على انه سميع بصير والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم فاذا خلق الاشياء راها سبحانه واذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم كما قال تعالى { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا } المجادلة 1 أي تشتكي اليه وهو يسمع التحاور والتحاور تراجع الكلام بينها وبين الرسول قالت عائشة سبحان الذي وسع سمعه الاصوات لقد كانت المجادلة تشتكي الى النبي صلى الله عليه وسلم في جانب البيت وانه ليخفي على بعض كلامها فأنزل الله { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا } المجادلة 1 وكما قال تعالى لموسى وهارون { لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 وقال { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } الزخرف 80 وقد ذكر الله علمه بما سيكون بعد ان يكون في بضعة عشر موضعا في القران مع اخباره في مواضع اكثر من ذلك انه يعلم ما يكون قبل ان يكون وقد اخبر في القران من المستقبلات التي لم تكن بعد بما شاء الله بل اخبر بذلك نبيه وغير نبيه ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء بل هو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف كان يكون كقوله { وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ } الأنعام 28 بل وقد يعلم بعض عباده بما شاء ان يعلمه من هذا وهذا وهذا ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء²

وقال أبو عبدالله محمد بن أبى زمنين الامام المشهور من أئمة المالكية فى كتابه الذى صنفه فى أصول السنة قال فيه فى الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه قال وأعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به انبياءه ورسوله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز عن ما لم يدع اليه ايماناً وأنهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى فى كتابه على لسان نبيه وقد قال وهو اصدق القائلين { إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 ومثل هذا فى القرآن كثير فهو تبارك

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 197

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 465-466

وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه ويسمع ويرى ويتكلم هو الأول لا شيء قبله والآخر الباقي الى غير نهاية ولا شيء بعده والظاهر العالى فوق كل شيء والباطن بطن علمه بخلقه فقال { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } البقرة 29 قيوم حى لا تأخذه سنة ولا نوم وذكر أحاديث الصفات وذكر أحاديث الصفات ثم قال فهذه صفات ربنا التى وصف بها نفسه فى كتابه ووصفه بها نبيه وليس فى شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 لم تره العيون فتحده كيف هو ولكن رآته القلوب فى حقائق الايمان¹

لفظ مع جاءت فى القرآن عامة وخاصة

سأل ابن شاهين الجنيد عن معنى مع فقال على معنيين مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة قال الله { **إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى** } طه 46 ومع العامة بالعلم والإحاطة قال الله تعالى { **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } المجادلة 7 فقال ابن شاهين مثلك يصلح أن يكون دالا للأمة على الله²

قال تعالى { **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** } التوبة 40 فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله معه ومع صاحبه كما قال لموسى وهارون { **إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى** } طه 46 **سورة طه 46** وقد أخرجنا فى الصحيحين من حديث أنس عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه قال نظرت إلى إقدام المشركين على رؤوسنا ونحن فى الغار فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وهذا الحديث مع كونه مما اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق فلم يختلف فى ذلك اثنان منهم فهو مما دل القرآن على معناه يقول { **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** } التوبة 40 والمعية فى كتاب الله على وجهين عامة وخاصة فالعامة كقوله تعالى { **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** } الحديد 4 وقوله { **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } المجادلة 7 فهذه المعية عامة لكل متناجين وكذلك الأولى عامة لجميع الخلق ولما أخبر سبحانه فى المعية أنه رابع الثلاثة وسادس الخمسة قال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظنك باثنين الله ثالثهما فإنه لما كان معهما كان ثالثهما كما دل القرآن على معنى الحديث الصحيح وإن كان هذه معية خاصة وتلك عامة وأما

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 57

²الاستقامة ج: 1 ص: 187

المعينة الخاصة فكقوله تعالى لما قال لموسى وهارون { لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 فهذا تخصيص لهما دون فرعون وقومه فهو مع موسى وهارون دون فرعون وكذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 كان معناه إن الله معنا دون المشركين الذين يعادونهما ويطلبونهما كالذين كانوا فوق الغار ولو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه وكذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 فهذا تخصيص لهم دون الفجار والظالمين وكذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } البقرة 153 تخصيص لهم دون الجازعين وكذلك قوله تعالى { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي } المائدة 12 وقال { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا } الأنفال 12 وفي ذكره سبحانه للمعينة عامة تارة وخاصة أخرى ما يدل على أنه ليس المراد بذلك أنه بذاته في كل مكان أو أن وجوده عين وجود المخلوقات ونحو ذلك من مقالات الجهمية الذين يقولون بالحلول العام والاتحاد العام أو الوحدة العامة لأنه على هذا القول لا يختص بقوم دون قوم ولا مكان دون مكان بل هو في الحشوش على هذا القول وأجواف البهائم كما هو فوق العرش فإذا أخبر أنه مع قوم دون قوم كان هذا مناقضا لهذا المعنى لأنه على هذا القول لا يختص بقوم دون قوم ولا مكان دون مكان بل هو في الحشوش على هذا القول كما هو فوق العرش والقرآن يدل على اختصاص المعينة تارة وعمومها أخرى فعلم أنه ليس المراد بلفظ المعينة اختلاطه وفي هذا أيضا رد على من يدعى أن ظاهر القرآن هو الحلول لكن يتعين تأويله على خلاف ظاهره ويجعل ذلك أصلا يقيس عليه ما يتأوله من النصوص فيقال له قولك إن القرآن يدل على ذلك خطأ كما أن قول قرينك الذي اعتقد هذا المدلول خطأ وذلك لوجه أحدها أن لفظ مع في لغة العرب إنما تدل على المصاحبة والموافقة والاقتران ولا تدل على أن الأول مختلط بالثاني في عامة موارد الإستعمال كقوله تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ } الفتح 29 لم يرد أن ذواتهم مختلطة بذاته وقوله { اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } التوبة 119 وكذلك قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ } الأنفال 75 وكذلك قوله عن نوح { وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } هود 40 وقوله عن نوح أيضا { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ } الأعراف 64 وقوله عن هود { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } الأعراف 72 وقول قوم شعيب { لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا } الأعراف 88 وقوله { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } النساء 146 وقوله { وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } الأنعام 68 وقوله { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ } المائدة 53 وقوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ } الحشر 11 وقوله عن نوح { اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ } هود 48 وقوله { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } الأعراف 47 وقوله { فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } التوبة 83 وقوله { رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ } التوبة 87 وقال { لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } التوبة 88 ومثل هذا كثير في كلام الله تعالى وسائر الكلام العربي وإذا كان لفظ مع إذا استعملت في كون المخلوق مع المخلوق لم تدل على اختلاط ذاته بذاته فهي أن لا تدل على ذلك في حق الخالق بطريق الأولى فدعوى ظهورها في ذلك باطل من وجهين أحدهما أن هذا ليس معناها في اللغة ولا اقترن بها في الاستعمال ما يدل على الظهور فكان الظهور منتفيا من كل وجه الثاني أنه إذا انتفى الظهور فيما هو أولى به فانتفاؤه فيما هو أبعد عنه

أولى الثاني أن القرآن قد جعل المعية خاصة أكثر مما جعلها عامة ولو كان المراد اختلاط ذاته بالمخلوقات لكانت عامة لا تقبل التخصيص الثالث أن سياق الكلام أوله وآخره يدل على معنى المعية كما قال تعالى في آية المجادلة { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } المجادلة 7 فافتتحها بالعلم وختمها بالعلم فعلم أنه أراد عالم بهم لا يخفى عليه منهم خافية وهكذا فسرها السلف الإمام أحمد ومن قبله من العلماء كابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وفي آية الحديد قال { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الحديد 4 فختمها أيضا بالعلم وأخبر أنه مع استوائه على العرش يعلم هذا كله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه فهناك أخبر بعموم العلم لكل نجوى وهنا أخبر أنه مع علوه على عرشه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وهو من العباد أينما كانوا يعلم أحوالهم والله بما يعملون بصير وأما قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 فقد دل السياق على أن المقصود ليس مجرد علمه وقدرته بل هو معهم في ذلك بتأييده ونصره وأنه يجعل للمتقين مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون وكذلك قوله لموسى وهارون { لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 فإنه معهما بالتأييد والنصر والإعانة على فرعون وقومه كما إذا رأى الإنسان من يخاف فقال له من ينصره نحن معك اي معاونوك وناصروك على عدوك¹

الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور

وجماع الأمر في ذلك أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه وقصد اتباع الحق واعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والاحاد في اسماء الله وآياته ولا يحسب الحاسب أن شيئا من ذلك يناقض بعضه بعضا ألبتة مثل ان يقول القائل ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد 4 وقوله اذ قام أحدكم الى الصلاة فان الله قبل وجهه ونحو ذلك فان هذا غلط وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الحديد 4 فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا كما قال النبي في حديث الأوعال والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه وذلك أن كلمة مع في اللغة اذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة الا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماساة أو محاذاة عن يمين أو شمال فاذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى فانه يقال ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا ويقال هذا المتاع معي لمجاخته لك وان كان فوق رأسك فانه مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال { يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا } الحديد 4 الى

¹منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 372-390

قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد4 دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته وكذلك في قوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } المجادلة7 الى قوله { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة7 الآية ولما قال النبي لصاحبه في الغار { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة40 كان هذا أيضا حقا على ظاهره ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد وكذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل128 وكذلك قوله لموسى وهارون { **إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى** } طه46 هنا المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول لا تخف أنا معك أو أنا هنا أو أنا حاضر ونحو ذلك ينبيه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها وربما صار مقتضاها من معناها فيختلف باختلاف المواضع فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضى في كل موضع أمورا لا يقتضيتها في الموضوع الآخر فاما ان تختلف دلالتها بحسب المواضع أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردنا وان امتاز كل موضع بخاصية فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية فانهما وان اشتركتا في أصل الربوبية والعبودية فلما قال { رَبِّ الْعَالَمِينَ } {121} { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } {122} الاعراف 121-122 كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق فان من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره وكذلك قوله { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا } الإنسان6 و { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا } الإسراء1 فان العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق كما في قوله { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } مريم93 وتارة يعنى به العابد فيخص ثم يختلفون فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل فكانت الاضافة في حقه أكمل مع أنها حقيقة في جميع المواضع ومثل هذه الالفاظ يسميها بعض الناس مشككة لتشكك المستمع فيها هل هي من قبيل الاسماء المتواطئة أو من قبيل المشتركة في اللفظ فقط والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة اذ واضع اللغة انما وضع اللفظ بازاء القدر المشترك وان كانت نوعا مختصا من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ ومن علم أن المعية تضاف الى كل نوع من أنواع المخلوقات كإضافة الربوبية مثلا وأن الاستواء على الشيء ليس الا للعرش وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط لا حقيقة ولا مجازا علم أن القرآن على ما هو عليه من غير تحريف ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب ان نقله عن غيره وضال ان اعتقده في ربه وما سمعنا أحدا يفهم هذا من اللفظ ولا رأينا أحدا نقله عن واحد ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله ورسوله ان الله في السماء ان السماء تحويه لبادر كل أحد منهم الى أن يقول هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا واذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئا محالا لا يفهمه الناس منه ثم يريد أن يتأوله بل عند الناس ان الله في السماء وهو على العرش واحد ان السماء انما يراد به العلو فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وتعالى وسع السموات والأرض وان الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة وان العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة الى قدرة الله وعظمته فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقا يحصره ويحويه وقد قال سبحانه { **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ** } طه71 وقال { **فَسِيرُوا فِي**

الأرض { النحل 36 بمعنى على ونحو ذلك وهو كلام عربي حقيقة لا مجازا وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف وانها متواطئة في الغالب لا مشتركة¹

لفظ المعية ليست يراد بها اختلاط احدي الذاتين بالآخرى

فان لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الحديد 4 وقوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } المجادلة 7 وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا هو معهم بعلمه وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم قال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي ثنا اسماعيل بن ابراهيم بن معمر عن نوح بن ميمون المضروب عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد 4 قال هو على العرش وعلمه معهم قال وروى عن سفيان الثوري أنه قال علمه معهم وقال حدثنا أبي قال حدثنا أحمد بن ابراهيم الدورقي حدثنا نوح بن ميمون المضروب ثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } المجادلة 7 إلى قوله { أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة 7 قال هو على العرش وعلمه معهم ورواه باسناد آخر عن مقاتل بن حيان هذا وهو ثقة في التفسير ليس بمجروح كما جرح مقاتل بن سليمان وقال عبدالله بن أحمد ثنا أبي ثنا نوح بن ميمون المضروب عن بكير بن معروف ثنا ابو معاوية عن مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة 7 قال هو على العرش وعلمه معهم وقال علي بن الحسن بن شقيق حدثنا عبدالله بن موسى صاحب عبادة ثنا معدان قال ابن المبارك ان كان أحد بخراسان من الابدال فمعدان قال سألت سفيان الثوري عن قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد 4 قال علمه وقال حنبل بن اسحق في كتاب السنة قلت لأبي عبدالله أحمد بن حنبل ما معنى قوله تعالى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } الحديد 4 و { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } المجادلة 7 إلى قوله تعالى { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } المجادلة 7 قال علمه عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء شاهد علام الغيوب يعلم الغيب ربنا على العرش بلا حد ولا صفة وسع كرسيه السموات والأرض وقد بسط الامام أحمد الكلام على معنى المعية في الرد على الجهمية ولفظ المعية في كتاب الله جاء عاما كما في هاتين الآيتين وجاء خاصا كما في قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 وقوله { إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } طه 46 وقوله { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص فانه قد علم أن قوله { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 أراد به تخصيصه واما بكر دون عدوهم من الكفار وكذلك قوله { إِنِّي مَعَكُمْ }

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 103-106

أَسْمَعُ وَأَرَى {طه46} فهو مع موسى وهارون دون فرعون وكذلك قوله {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} النحل128 خصهم بذلك دون الظالمين والفجار وأيضا فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا شيء من القرآن يراد بها اختلاط احدي الذاتين بالأخرى كما في قوله {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} الفتح29 وقوله {فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} النساء146 وقوله {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} التوبة119 وقوله {وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ} الأنفال75 ومثل هذا كثير فامتنع أن يكون قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ } الحديد4 يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق وأيضا فانه افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم فكان السياق يدل على انه أراد أنه عالم بهم وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر وبين أن لفظ المعية في اللغة وان اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة فهو اذا كان مع العباد لم يناف ذلك علوه على عرشه ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ويخص بعضهم بالاعانة والنصر والتأييد¹

وقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } الزخرف84 أى هو إله من فى السموات وإله من فى الأرض كما قال الله تعالى { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الروم27 وكذلك قوله تعالى { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } الأنعام3 كما فسره أئمة العلم كالامام احمد وغيره انه المعبود فى السموات والأرض واجمع سلف الأمة وأئمتها على ان الرب تعالى بائن من مخلوقاته يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ويعلم انه ليس كمثل شىء فى صفات الكمال كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } {1} { اللَّهُ الصَّمَدُ } {2} { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } {3} { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } {4} { الاخلاص 1-4 } قال ابن عباس الصمد العليم الذى كمل فى علمه العظيم الذى كمل فى عظمته القدير الكامل فى قدرته الحكيم الكامل فى حكمته السيد الكامل فى سؤدده وقال ابن مسعود وغيره هو الذى لا جوف له و الاحد الذى لا نظير له فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفى النقائص عنه واسمه الاحد يتضمن اتصافه انه لا مثل له²

الصفات الاختيارية

والصفات الاختيارية هى الأمور التى يتصف بها الرب عز وجل فنقوم بذاته بمشيينته وقدرته مثلا كلامه وسمعه وبصره وارادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التى نطق بها الكتاب العزيز والسنة والآيات التى تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جدا وكذلك السمع والبصر والنظر قال الله تعالى { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا } {المجادلة 1} اخبر انه يسمع تحاورهما حين كانت تجادل وتشتكى الى الله وقال النبى اذا قال الامام سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم فجعل سمعه لنا جزاء وجوابا للحمد

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 495-497 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 248-251

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 248-251

فيكون ذلك بعد الحمد والسمع يتضمن مع سمع القول قبوله واجابته ومنه قول الخليل { **إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** } إبراهيم 39 وكذلك قوله وكذلك قوله الموسى { **إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى** } طه 46 و المعقول الصريح يدل على ذلك فان المعدوم لا يرى ولا يسمع بصريح العقل واتفق العقلاء لكن قال من قال من السالمية انه يسمع ويرى موجودا في علمه لا موجودا بائنا عنه ولم يقل انه يسمع ويرى بائنا عن الرب فاذا خلق العباد وعملوا وقالوا فاما ان نقول انه يسمع اقوالهم ويرى اعمالهم واما لا يرى ولا يسمع فان نفى ذلك فهو تعطيل لهاتين الصفتين وتكذيب للقرآن وهما صفتا كمال لا نقص فيه فمن يسمع ويبصر أكمل ممن لا يسمع ولا يبصر والمخلوق يتصف بأنه يسمع ويبصر فيمتنع اتصاف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق سبحانه وتعالى وقد عاب الله تعالى من يعبد من لا يسمع ولا يبصر في غير موضع ولأنه حى والحي اذا لم يتصف بالسمع والبصر اتصف بضد ذلك وهو العمى والصمم وذلك ممتنع وبسط هذا له موضع آخر وانما المقصود هنا انه اذا كان يسمع ويبصر الاقوال والاعمال بعد أن وجدت فاما ان يقال أنه تجدد وكان لا يسمعها ولا يبصرها فهو بعد ان خلقها لا يسمعها ولا يبصرها وان تجدد شيء فاما ان يكون وجودا او عدما فان كان عدما فلم يتجدد شيء وان كان وجودا فاما أن يكون قائما بذات الله او قائما بذات غيره و الثانى يستلزم ان يكون ذلك الغير هو الذى يسمع ويرى فيتعين ان ذلك السمع والرؤية الموجودين قائم بذات الله وهذا لا حيلة فيه¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** } طه 24 وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقبصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك²

2- قال تعالى { **إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا** } طه 35 بصير منزه عن العمى³

3- أن الله قد أخبر بأنه مع عباده في غير موضع من الكتاب عموما وخصوصا مثل قوله { **قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى** } طه 46 وكان النبي اذا سافر يقول اللهم انت صاحب فى السفر والخليفة فى الاهل اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا فإن المعية لا تكون الا من الطرفين فان معناها المقارنة والمصاحبة⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 228

²قاعدة فى المحبة ج: 1 ص: 46

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 276

{ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ
بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى {47} إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ
عَلَيَّ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى {48} قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50} قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى {51} قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ
رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى {52} الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ
لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى {53}
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ {54} مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى {55} وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى {56}
قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى {57} فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ
فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى {58} قَالَ مَوْعِدُكُمْ
يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى {59} فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ
آتَى {60} قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ
خَابَ مَن افْتَرَى {61} فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى {62} قَالُوا إِنَّ
هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ
الْمُتْلَى {63} فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَن اسْتَعْلَى {64} قَالُوا
يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى {65} قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَِعَصِيَّتُهُمْ يَخِيزُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَآ تَسْعَى {66} فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً
مُّوسَى {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى {68} وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا
صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى {69} فَأَلْقَى السِّحْرَةَ
سُجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى {70} قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذِنَ لَكُمْ إِنَّهُ
لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ فِي
جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى {71} قَالُوا لَن نُّؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا
مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {72}
إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
وَأَبْقَى {73} إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى {74}
وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى {75} جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى {76} وَلَقَدْ أُوحِيَ
إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا

**تَحْشَى {77} فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ {78} وَأَضَلَّ
فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى {79}**

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى { فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى {طه} 47

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {الفتاحه} 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {البقرة} 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا {الأعراف} 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرب الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {الأنعام} 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ {النحل} 121 { اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ {الشورى} 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ {التوبة} 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ {الأعراف} 3 وقوله { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {طه} 123 وقوله { وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ {الأنعام} 153 وقد يقرب به غيره كقوله { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {الأنعام} 155 وقوله { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ {الأنعام} 106 وقوله { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {يونس} 109¹

الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة

قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى {15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى {16} { الليل 15-16 } أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون { فَكذَّبَ وَعَصَى {النازعات} 21 وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى {31} } وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى {32} {القيامة} 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُم رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا {15} } فَعَصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً {16} {المزمل} 15-16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سَنُذْعِرْ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {الفتح 16} وذمه في غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ {16} المزملة¹ مقصود الرسالة هو الإخبار بالعذاب لمن كذب وعصى كما قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون قال تعالى { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ } طه² 48

الإقرار بالصانع فطري مغزوي في الجبلة

فالنفس مفطورة على علم ضروري موجود فيها بالخالق الذي خلق السموات و أنه خلق السموات والأرض ليس شيء منها خلق الناس كما قال موسى لفرعون لما قال له { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } {23} قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ } {24} الشعراء 23-24 و { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ } {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ } {50} طه 49-50³

أما إثبات الصانع فطرقة لا تحصي بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغزوي في الجبلة ولهذا كانت دعوة عامة الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له وكان عامة الأمة مقرين بالصانع مع إشرافهم به بعبادة ما دونه والذين أظهروا إنكار الصانع كفرعون خاطبتهم الرسل خطاب من يعرف أنه حق كقول موسى لفرعون { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلًّا رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ } {الإسراء 102} ولما قال فرعون { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 قال له موسى { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ } {24} قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ آلَا تَسْتَمْعُونَ } {25} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } {26} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } {27} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } {28} الشعراء 24-28 ولما قال فرعون { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ } {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ } {50} طه 49-50 فكان جواب موسى له جوابا للمتجاهل الذي يظهر أنه لا يعرف الحق وهو معروف عنده فإن سؤال فرعون بقوله { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 استفهام إنكار لوجوده ليس هو استفهام طلب لتعريف ماهيته كما ظن ذلك بعض المتأخرين وقالوا إن فرعون طالبه ببيان الماهية فعدل عن ذلك لامتناع الجواب بذكرها فإن هذا غلط منهم فإن فرعون لم يكن مقرا بالصانع ألبيته بل كان جاحدا له وكان استفهامه استفهام إنكار لوجوده ولهذا قال { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي } {القصص 38} وقال

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 59-60

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 74

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 234

{ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } { النازعات 24 } ولو كان مقرا بوجوده طالبا لمعرفة ماهيته لم يقل هذا ولكان موسى ما أجابه إجابة لم تذكر فيها ماهيته¹

طريقة الانبياء الاستدلال على الرب تعالى بذكر آياته

وكذلك ذكر في مخاطبة الرسل للكفار كقوله سبحانه { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى } { 49 } { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } { 50 } { قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } { 51 } { قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى } { 52 } { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى } { 53 } { كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } { 54 } { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } { 55 } طه 49- 50 مثل هذا في القرآن كثير وما فطر فيه من المخلوقات دل على ذلك وفي نفس الإنسان عبرة تامة فإن من نظر في خلق أعضائه وما فيها من المنافع له وما في تركيبها من الحكمة والمنفعة مثل كون ماء العين مالحا ليحفظ شحمة العين من أن تنوب وماء الأذن مرا ليمنع الذباب من الولوج وماء الفم عذب ليطيب ما يمضغ من الطعام وأمثال ذلك علم علما ضروريا أن خالق ذلك له من الرحمة والحكمة ما يبهر العقول مع ما في ذلك من الدلالة على المشيئة²

كانت طريقة الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه الاستدلال على الرب تعالى بذكر آياته وان استعملوا في ذلك القياس استعملوا القياس الاولي ولم يستعملوا قياس شمول يستوي افراده ولا قياس تمثيل محض فان الرب تعالى لا مثل له ولا يجتمع هو وغيره تحت كلي يستوي افراده بل ما ثبت غيره من كمال لا نقص فيه فثبوته له بطريق الاولي وما تنزه عنه غيره من النقائق فتنزّه عنه بطريق الاولي استعمال قياس الاولي في القران ولهذا كانت الاقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القران من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربوبيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وامكان المعاد وغير ذلك من المطالب العالية السنية والمعالم الالهية التي هي اشرف العلوم واعظم ما تكمل به النفوس من المعارف وان كان كما لها لا بد فيه من كمال علمها وقصدها جميعا فلا بد من عبادة الله وحده المتضمنة لمعرفته ومحبهه والذل له واما استدلاله تعالى بالآيات فكثير في القران والفرق بين الآيات وبين القياس ان الآية هي العلامة وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول لا يكون مدلوله امرا كليا مشتركا بين المطلوب وغيره بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول كما ان الشمس آية النهار قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة فنفس العلم

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 271

² العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 201

بطولع الشمس يوجب العلم بوجود النهار وكذلك آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته بعينه لا يوجب امرا كلياً مشتركاً بينه وبين غيره وكذلك آيات الرب تعالى نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى لا يوجب علماً كلياً مشتركاً بينه وبين غيره والعلم يكون هذا مستلزماً لهذا هو جهة الدليل فكل دليل في الوجود لا بد ان يكون مستلزماً للمدلول والعلم باستلزام المعين للمعين المطلوب اقرب الى الفطرة من العلم بأن كل معين من معينات القضية الكلية يستلزم النتيجة والقضايا الكلية هذا شأنها فان القضايا الكلية ان لم تعلم معيناتها بغير التمثيل والا لم تعلم الا بالتمثيل فلا بد من معرفة لزوم المدلول للدليل الذي هو الحد الاوسط فلا بد ان يعرف ان كل فرد من افراد الحكم الكلي المطلوب يلزم كل فرد من افراد الدليل كما اذا قيل كل ا ب وكل ب ج فكل ج ا فلا بد ان يعرف ان كل فرد من افراد الجيم يلزم كل فرد من افراد الباء وكل فرد من افراد الباء يلزم كل فرد من افراد الالف ومعلوم ان العلم بلزوم الجيم المعين للباء المعين والباء المعين للالف المعين اقرب الى الفطرة من هذا وهذا كما قدمناه في امثلة اقيستهم البرهانية مثل قولهم الكل اعظم من الجزء و الاشياء المساوية لشيء واحد متساوية و الضدان لا يجتمعان والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ونحو ذلك فان هذه قضايا كلية ومعلوم ان الانسان اذا تصور ما يتصوره من معين او جزئه فان تصوره لكون هذا الكل المعين اعظم من جزئه اسبق الى عقله من ان يتخيل ان كل كل اعظم من جزئه فهو يتصور ان بدنه اعظم من يده ورجله وان السماء اعظم من كواكبها والجبل اعظم من بعضه والمدينة اعظم من بعضها ونحو ذلك قبل ان يتصور القضية الكلية الشاملة لجميع هذه الافراد ولذلك اذا تصور شيئاً معيناً يعلم انه لا يكون موجوداً معدوماً في حال واحدة قبل ان يتصور ان كل نقيضين لا يجتمعان ولذلك اذا تصور سواداً معيناً علم انه لا يكون اللون الواحد سواداً بياضاً قبل ان يتصور ان كل ضدين لا يجتمعان وامثال ذلك كثيرة واذا قيل تلك القضية الكلية تحصل في الذهن ضرورة او بديهية من واهب العقل قيل فحصول تلك القضية المعينة في الذهن من واهب العقل اقرب عظم الفرق بين اثبات الرب بالآيات وبين اثباته بالقياس البرهاني ومعلوم ان كل ما سوى الله من الممكنات فانه مستلزم لذات الرب تعالى يمتنع وجوده بدون وجود ذات الرب تعالى وتقدس وان كان مستلزماً ايضاً لامور كلية مشتركة بينه وبين غيره فلأنه يلزم من وجوده وجود لوازمه وتلك الكليات المشتركة من لوازم المعين اعني يلزمه ما يخصه من ذلك الكلي العام والكلي المشترك يلزمه بشرط وجوده ووجود العالم الذي يتصور القدر المشترك وهو سبحانه يعلم الامور على ما هي عليه فيعلم نفسه المقدسة بما يخصها ويعلم الكليات انها كليات فيلزم من وجود الخاص وجود العام المطلق أي حصة المعين من ذلك العام كما يلزم من وجود هذا الانسان وجود الانسان ومن وجود هذا الانسان وجود الانسانية والحيوانية القائمة به فكل ما سوى الرب مستلزم لنفسه المقدسة بعينها يمتنع وجود شيء سواه بدون وجود نفسه المقدسة فان الوجود المطلق الكلي لا تحقق له في الاعيان فضلاً عن ان يكون خالقاً لها مبدعاً ثم يلزم من وجوده المعين الوجود المطلق المطابق للمعين فاذا تحقق الوجود الواجب تحقق الوجود المطلق المطابق للمعين واذا تحقق الفاعل لكل شيء تحقق الفاعل المطلق المطابق واذا تحقق القديم الازلي تحقق القديم المطلق المطابق واذا تحقق الغنى عن كل شيء تحقق الغنى المطابق واذا تحقق رب كل شيء تحقق الرب المطابق كما ذكرنا انه اذا تحقق هذا الانسان وهذا الحيوان تحقق الانسان المطلق المطابق والحيوان المطلق المطابق لكن المطلق لا يكون مطلقاً الا في الازهان لا في الاعيان والله تعالى هو الخالق للامور الموجودة في الاعيان والمعلم للصور الذهنية المطابقة لما في الاعيان ولهذا كان اول ما انزل على رسوله { اَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } 1 { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } 2 { اَفْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } 3 { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } 4 { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } 5 { العلق 1-5 بين في اول ما انزل انه

خالق الاعيان عموما وخصوصا فكما انه خالق الموجودات العينية فهو المعلم للماهيات الذهنية فالموجودات الخارجية ايات مستلزمة لوجود عينه واذا تصورتها الازهان معينة او مطلقة فهو المعلم لهذا المتصور إذ الصور الذهنية ايضا من آياته المستلزمة لوجود عينه لكنها تدل مع ذلك على هدايته وتعليمه كما قال تعالى {سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} الاعلى 1-3 {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} طه 50 كما ان الموجودات العينية من آيات وجوده والصور الذهنية من حيث انها موجودات عينيه من هذا الباب كما أنها من جهة مطابقتها للموجودات الخارجية من الباب الاول لكن إذا علم إنسان وجود إنسان مطلق وحيوان مطلق لم يكن عالما بنفس المعين كذلك من علم واجبا مطلقا وفاعلا مطلقا وغنيا مطلقا لم يكن عالما بنفس رب العالمين وما يختص به عن غيره وذلك هو مدلول آياته تعالى فأياته تستلزم عينه التي يمنع تصورها من وقوع الشركة فيها وكل ما سواه دليل على عينه وآية له فانه ملزوم لعينه وكل ملزوم فانه دليل على لازمة ويمتنع تحقق شئ من الممكنات إلا مع تحقق عينه فكلها ملزوم لنفس الرب دليل عليه آية له¹

الهدى أربعة أقسام

قال تعالى { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى } {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50} طه 49-50 وجلب المنفعة ودفع المضرة أما أن يكون في الدين أو في الدنيا فصارت أربعة أقسام الهداية والمغفرة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا وإن شئت قلت الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الأصل في الأعمال الإرادية والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب منفعته واللباس لدفع مضرته وفتح الأمر بالهداية فإن الهداية وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدى الله إياهم كما قال سبحانه { سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } {1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} الاعلى 1-3 وقال موسى { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه 50 وقال تعالى { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } {البلد 10} وقال { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا } {الإنسان 3} ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام احدها الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر والثاني الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى { وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } فصلت 17 وقال تعالى { إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } {الرعد 7} وقال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {الشورى 52} فهذا مع قوله { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } {القصص 56} يبين أن الهدى الذى أثبتته هو البيان والدعاء والأمر والنهى والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لا يقدر عليه إلا الله والقسم الثالث الهدى الذى هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذى يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 150-156

القدرة على الطاعة وأما من قال أنهما إستطاعتان إحداهما قبل الفعل وهي الإستطاعة المشروطة في التكليف كما قال تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 وقال النبي لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وهذه الإستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى وهي الإستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فاثبات النوعين جميعا كما قد بسطناه في غير هذا الموضوع فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا والثانية المقارنة للفعل وهي الموجبة له وهي المنفية عن من لم يفعل في مثل قوله { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود 20 وفي قوله { لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف 101 وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 وقوله { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 وفي قوله { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } الكهف 17 وأمثال ذلك وهذا هو الذي تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته فإستهدوني أهدكم فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما امرهم بذلك في أم الكتاب في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 وعند القدرية إن الله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وإزاحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } يونس 25 فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذي يجوز له عليه بعض المثبتة وبيان أنه هو الذي يهدي عباده ردا على القدرية فأخبر هناك بعدله الذي يذكره بعض المثبتة وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذي تنكره القدرية وإن كان كل منهما قصده تعظيما لا يعرف ما إشتمل عليه قوله والقسم الرابع الهدى في الآخرة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } 23 { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } 24 { الْحج 23-24 } وقال { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } يونس 9 فقوله { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } يونس 9 كقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } الطور 21 على أحد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الإهتمام في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ } 22 { مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } 23 { الصافات 22-23 } وقال { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } الإسراء 72 وقال { فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } 123 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } 124 { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } 125 { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } 126 { طه 123-126 } وقال { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } الإسراء 97 الآية فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في

الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار¹

قال تعالى { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى } {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50} طه 49-50 ومما يبين به فضل أمته على جميع الأمم وذلك مستلزم لكونه رسولا صادقا كما تقدم وهو آية وبرهان على نبوته فإن كل ملزوم فإنه دليل على لازمه إن الأمم نوعان نوع لهم كتاب منزل من عند الله كاليهود والنصارى ونوع لا كتاب لهم كالهند واليونان والترك وكالعرب قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وما من أمة إلا ولا بد لها من علم وعمل بحسبهم ويقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل حي كما يهدي الحيوان لجلب ما ينفعه بالأكل والشرب ودفع ما يضره باللباس والكن وقد خلق الله فيه حبا لهذا وبغضا لهذا قال تعالى {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى {1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} الْأَعْلَى 1-3} وقال موسى {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه²50

الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات

قال تعالى { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى } {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50} طه 49-50 كان أول ما أنزل الله على نبيه { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } {1} العلق 1 إلى قوله { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } {5} العلق 5 فبين سبحانه في أول ما أنزله انه سبحانه هو الخالق الهادي { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} } الأعلى 2-3 كما قال موسى {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه³50 فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الانسان فقال { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } {2} العلق 2 ثم ذكر انه علم فان الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات³

والله سبحانه الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى الذي اخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة يهدي من يشاء من عباده بما تيسر له من الأدلة التي تبين له الحق من الباطل والصدق من الكذب كما في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم⁴

قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى } {2} الأعلى 2 فأطلق الخلق و التسوية و لم يخص بذلك الإنسان كما أطلق قوله بعد { وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } {3} الأعلى 3 لم يقيد هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات و قد بين موسى عليه السلام شموله في قوله { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 422 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 171-176

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 6

³مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 111

⁴منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 420

خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى { طه 50 و قد ذكر المقيد بالإنسان في قوله { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ {6} الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ {7} الانفتار 6-7 و قد ذكر المطلق و المقيد في أول ما نزل من القرآن و هو قوله { أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {1} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {2} أَفَرَأَى وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {4} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {5} العلق 1-5 و في جميع هذه الآيات مطلقها و مقيدها و الجامع بين المطلق و المقيد قد ذكر خلقه و ذكر هدايته و تعليمه بعد الخلق كما قال في هذه السورة { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} الأعلى 2-3 لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها فلا بد أن تهدي إلى تلك الغاية التي خلقت لها فلا تتم مصلحتها و ما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها و هذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة و غاية تصل إليها كما قال ذلك السلف و جمهور المسلمين و جمهور العقلاء و قالت طائفة كجهم و أتباعه إنه لم يخلق شيئاً لشيء و وافقه أبو الحسن الأشعري و من اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة و هم يثبتون أنه مريد و ينكرون أن تكون له حكمة يريد بها و طائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته و حكمته و ينكرون إرادته و كلاهما تناقض و قد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء في غير هذا الموضع و أن منتهاهم جحد الحقائق فإن هذا يقول لو كان له حكمة يفعل لأجلها كان يجب أن يريد الحكمة و ينتفع بها و هو منزه عن ذلك و ذلك يقول لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك و أرسطو و أتباعه يقولون لو فعل شيئاً لكان الفعل لغرض و هو منزه عن ذلك¹

قال تعالى { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى {49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50} طه 49-50 قال تعالى { أَفَرَأَى وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {4} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {5} العلق 3-5 سمي و وصف نفسه بالكرم و بأنه الأكرم بعد إخباره أنه خلق ليتبين أنه ينعم على المخلوقين و يوصلهم إلى الغايات المحمودة كما قال في موضع آخر { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} الأعلى 2-3 و كما قال موسى عليه السلام { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى { طه 50 } و كما قال الخليل عليه السلام { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ { الشعراء 78 } فالخلق يتضمن الإبتداء و الكرم تضمن الإنتهاء كما قال في أم القرآن { رَبِّ الْعَالَمِينَ { الفاتحة 2 } ثم قال { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { الفاتحة 3 }²

خلق الله تعالى الأشياء بأسباب

و قد خلق الله تعالى الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا { البقرة 164 } و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ { الأعراف 57 } و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ { المائدة 16 }³

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 130

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 294

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 80

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى { **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** } طه 54 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الأبواب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون¹

ومن كان مسلوب العقل أو مجنونا فغايبته أن يكون القلم قد رفع عنه فليس عليه عقاب ولا يصح إيمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شيء من أعماله فإن الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل فمن لا عقل له لا يصح شيء من عبادته لا فرائضه ولا نوافله ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من أولياء الله ولهذا قال تعالى { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** } طه 128 أي العقول وقال تعالى { **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ** } الفجر 5 أي لذي عقل وقال تعالى { **وَأَتَقُونَ يَا أُولِي الْأَبْصَابِ** } البقرة 197 وقال { **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ** } الأنفال 22 وقال تعالى { **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فاما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } الملك 10 وقال تعالى { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ** } الأعراف 179 وقال { **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يُعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** } الفرقان 44 فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفعه²

الاعادة المذكورة في قوله تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } ليست هي

النشأة الثانية

وفي الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي رواه أبو حاتم في صحيحه وقد رواه أيضا الأئمة قال ان الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فان كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان الى الناس عند رجليه فيؤتى من عند رأسه

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 436 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 264-265

فتقول الصلاة ما قبلي مدخل ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام ما قبلي مدخل ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة ما قبلي مدخل ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان الى الناس ما قبلي مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب فيقال له ما هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه فيقول دعوني حتى أصلى فيقولون انك ستفعل أخبرنا عما نسألك عنه فقال عم تسألوني فيقولون ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ما تشهد عليه به فيقول اشهد أنه رسول الله وأنه جاء بالحق من عند الله فيقال على ذلك حبيت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث ان شاء الله تعالى ثم يفتح له باب من ابواب الجنة فيقال له ذلك مقعدك منها وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفتح له باب من ابواب النار فيقال له ذلك مقعدك منها وما أعد الله لك فيها لو عصيت ربك فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ويعاد جسده كما بدىء وتجعل نسمة في نسمة الطيب وهي طير تعلق في شجر الجنة وفي لفظ وهو في طير يعلق في شجر الجنة قال أبو هريرة قال الله تعالى {يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} إبراهيم 27 وفي لفظ ثم يعاد الجسد الى ما بدىء منه وهذه الاعادة هي المذكورة في قوله قال تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } طه 55 ليست هي النشأة الثانية¹

" كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء "

"

والقول الذي عليه السلف و جمهور العقلاء من أن الأجسام تتقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة و الأطباء و هذا القول و هو القول في خلق الله للأجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقبلها و يحيلها من جسم إلى جسم هو الذي عليه السلف و الفقهاء قاطبة و الجمهور و لهذا يقول الفقهاء في النجاسة هل تطهر بالإستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا و الخنزير و غيره ملحا و نحو ذلك و المنى الذي في الرحم يقبله الله علقة ثم مضغة و كذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء و الماء الذي نزل عليها غير ذلك من المواد التي يقبلها ثمرة بمشيئته و قدرته و كذلك الحبة يفلقها و تتقلب المواد التي يخلقها منها سنبله و شجرة و غير ذلك و هكذا خلقه لما يخلقه سبحانه و تعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما و لحما و غير ذلك من أجزاء البدن و كذلك المضغة يقبلها عظما و غير عظام قال الله تعالى { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } 12 { ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ } 13 { ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } 14 { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ } 15 { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } 16 { المؤمنون 12-16 و كذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا } يس 80 فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلا كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلا و لا كان في بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا و بما ضمه إلى هذا من مواد آخر

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 448

و كذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم و منه يركب وهو إذا أعاد الإنسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة و تلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة و ليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون و لا يتغوطون و لا و لا يبصقون و لا يتمخطون و إنما هو رشح كرشح المسك و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ {ي كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} {الأنبياء 104}

فهم يعودون غلفا لا مختونين وقال الحسن البصري و مجاهد كما بدأكم فخلقكم في الدنيا و لم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء و قال قتادة بدأهم من التراب و إلى التراب يعودون كما قال تعالى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} طه 55 و قال {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} الأعراف 25 و هو قد شبه سبحانه إعادة الناس في النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها في غير موضع كقوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأعراف 57 و قال {وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} ق 7 إلى قوله {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} ق 11 و قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّبُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} {5} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {6} الحج 5-6 و قال تعالى {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} فاطر 9 و هو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق و أنه يحيي العظام و هي رميم و أنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} الروم 27 و يخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى {وَقَالُوا أَيُّدَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} {98} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ} {99} الاسراء 98-99 و قال تعالى {وَقَالُوا أَيُّدَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} {49} قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} {50} أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} {51} يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} {52} الاسراء 49-52 و قال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} يس 81 و قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {33} وَأَقْرَابًا} {58} أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} {59} نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَٰتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} {60} عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} {61} وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} {62} الواقعة 58-62 و المراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم كما أخبر بذلك في قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} {الأحقاف 33} فإن القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق في هذه الدار ناسا أمثالهم فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين و هذه هي النشأة الأولى و قد علموها و بها إحتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة

كما قال {وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} الواقعة 62 وقال {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} {78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} {79} بس 78-79 وقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ} الحج 5 وهذا قال {عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} الواقعة 61 قال الحسن بن الفضل البجلي الذي عندي في هذه الآية {وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} {61} {وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ} {62} الواقعة 61-62 أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت و ذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات و ليست الأخرى كذلك و معلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح و تلك النطفة من منى الرجل و المرأة و هو يعذبه بدم الطمث الذي يربي به الجنين في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة و ظلمة الرحم و ظلمة البطن و النشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة و لا يغذون بدوم و لا يكون أحدهم نطفة رجل و امرأة ثم يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى و تكون المادة من التراب كما قال {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} طه 55 و قال تعالى {فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} الأعراف 25 {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} {17} {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} {18} نوح 17-18 و في الحديث أن الأرض تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات كما قال تعالى {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} ق 11 {كَذَلِكَ النُّشُورُ} فاطر 9 {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأعراف 57 فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان و يتماثلان و يتشابهان من وجه و يفترقان و يتنوعان من وجه آخر و لهذا جعل المعاد هو المبدأ و جعل مثله أيضا فباعثبار إتفاق المبدأ و المعاد فهو هو و بإعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله و هكذا كل ما أعيد لفظ الإعادة يقتضي المبدأ و المعاد سواء في ذلك إعادة الأجسام و الأعراض كإعادة الصلاة و غيرها فإن النبي صلى الله عليه و سلم مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة و يقال للرجل أعد كلامك و فلان قد أعاد كلام فلان بعينه و يعيد الدرس فالكلام هو الكلام و إن كان صوت الثاني غير صوت الأول و حركته و لا يطلق القول عليه أنه مثله بل قد قال تعالى {قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} الإسراء 88 و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا و إن كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أي مثل هذا قال و يقال فعل هذا عودا على بدء إذا فعله مرة ثانية بعد أولى و منه البئر البدي و البئر العادي فالبدي التي إبتدئت و العادي التي أعيدت و ليست بنسبة إلى عاد كما قيل و يقال إستعدته الشيء فأعاده إذا سألته ان يفعله مرة ثانية و منه سميت العادة يقال عادة و إعتاده و تعوده أي صار عادة له و عود كلبه الصيد فتعوده و هو المعاودة و المعاودة الرجوع إلى الأمر الأول و يقال الشجاع معاود لأنه لا يمل المراس و عاودته الحمى و عاوده بالمسألة أي سألته مرة بعد مرة و تعاود القوم في الحرب و غيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه و العواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى و عواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة بإعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى و إن تعدد الشخص و لهذا يقال هو مثله و يقال هذا هو هذا و كلاهما صحيح و أعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده و إنما يقال حاكاه و شابهه بخلاف ما إذا فعلا ثانيا مثل ما فعل أولا فإنه يقال أعاد فعله و كذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده و لا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده و يقال قريء على هذا و أعاد على هذا و هذا يقرأ أي يدرس و هذا يعيد و لو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد و كذلك من كسر خاتما

أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان و يقال من هدم دارا أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن هذا لا يسمى معيدا و المعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه و يقال هذا مثل الأول من كل وجه و نحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه و هو مثله من وجه و بهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان و نحو ذلك مما يمنع إعادته في صريح العقل و إنما يعاد بالإتيان بمثله و إن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه و الإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب و هي الإعادة التي فهمها المشركون و المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و هي التي يدل عليها لفظ الإعادة و المعاد هو الأول بعينه و إن كان بين لوازم الإعادة و لوازم البداية فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثاني مباينا للأول من كل وجه كما زعم بعضهم و لا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم و كما إنه سبحانه خلق الإنسان و لم يكن شيئا كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئا و على هذا فالإنسان الذي صار ترابا و نبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر و هلم جرا و الإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان و أكل ذلك الحيوان إنسانا آخر ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان و هذا الإنسان و صار كل منهما ترابا كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا و يعاد هذا من التراب و إنما يبقى عجب الذنب منه خلق و منه يركب و أما سائرهم فعدم فيعاد من المادة التي إستحال إليها فإذا إستحال في القبر الواحد ألف ميت و صاروا كلهم ترابا فإنهم يعادون و يقومون من ذلك القبر و ينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضا كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضا و إذا صار ألف إنسان ترابا في قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة و جعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام و الشراب كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات و حيوان و كذلك لو أكل إنسانا أو أكل حيوانا قد أكل إنسانا فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الإستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة و من غير أن يغذوها بدم الطمث و من غير أن يغذوها بلبن الأم و بسائر ما يأكله من الطعام و الشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي إستحالت إلي أبدانهم فقد غلط و حينئذ فإذا أكل إنسان إنسانا فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية و هو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية و معلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما و شرابا ثم يصير كلوسا كالثرثرة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى في البدن كله و يأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظاما و اللحم لحما و العرق عرقا و هذا في الرزق كإستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة و كما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزا و فاكهة و لحما ثم يجعلها كلوسا و كيموسا ثم دما ثم عظاما و لحما و عروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال { وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } الواقعة 61 و لا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الإستحالات التي كانت في النشأة الأولى و بهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائما في التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من إنقلاب النطفة علقة و العلقة مضغة و حقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى و أما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى و تماثلها و إذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى إنقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بإنقلابه بسبب التحلل و معلوم أن من رأي شخصا و هو شاب ثم راه و هو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الإستحالة و كذلك سائر الحيوان و النبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل و الإستحالة ثابت في سائر الحيوان و النبات كما هو في بدن الإنسان و لا يحتاج عاقل في إعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى و أن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين و

لا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل و لا يخطر هذا ببال أحد و لا و لا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذاك على تلك الأجزاء التي لا تعرف و لا تتميز عن غيرها بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة و الفرس و الإنسان مع أنه قد يكون كان صغيرا فكبر و لا يقال إنما كان هو ذاك باعتبار أن النفس الناطقة و احدة كما زعمه من ادعى أن البدن الثاني ليس هو ذاك الأول و لكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففي أي بدن كانت حصل المقصود فإن هذا أيضا باطل مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف مخالف للمعقول من الإعادة فإننا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذاك و هذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه و تقوم بذاتها و كذلك يقولون مثل هذا في الحيوان و في الإنسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا و ذاك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك مع وجود الإستحالة و علم بذلك أن ما ذكر من الإستحالة لا ينافي أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن و لهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا كما قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} يس 65 و قال تعالى {حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 20 {وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 21 { فصلت 21-22¹

القرآن لم يخبر بفناء العالم في المستقبل قط

قال تعالى { **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** } طه 55 ومن المعلوم أن القرآن لم يخبر بفناء العالم في المستقبل قط كما لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء بل أخبر سبحانه وتعالى بخلق السموات والأرض كما أخبر بخلق الإنسان والجن وغير ذلك من المخلوقات وأخبر أنه خالق كل شيء قال الله تعالى { **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** } طه 55 وفي الصحيح عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خلقت الملائكة من نور و خلقت الجن من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم فالله سبحانه قد أخبر بخلق الإنسان الذي هو آدم و بخلق ذريته شيئا بعد شيء في غير آية وأخبر أن ذلك مخلوق من غيره فالأصل مخلوق من الطين من التراب والماء ثم جعل صلصالا فييبس وجف وذلك بالهواء ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلا فتلت للطعام وتلت للشراب وتلت للنفس وأخبر أنه خلق الجن من النار وأنه خلق الملائكة من النور ولم يذكر أنه خلق هذه الأصناف لا من شيء²

كل موطن في هذه الدار وفي البرزخ والقيامة له حكم يخصه

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 248-259

²الصفدية ج: 2 ص: 75

قال تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } طه 55 عود الروح الى بدن الميت فى القبر ليس مثل عودها اليه فى هذه الحياة الدنيا وإن كان ذلك قد يكون أكمل من بعض الوجوه كما أن النشأة الأخرى ليست مثل هذه النشأة وإن كانت أكمل منها بل كل موطن فى هذه الدار وفى البرزخ والقيامة له حكم يخصه ولهذا أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الميت يوسع له فى قبره ويسئل ونحو ذلك وإن كان التراب قد لا يتغير فالأرواح تعاد إلى بدن الميت وتفارقه وهل يسمى ذلك موتا فيه قولان قيل يسمى ذلك موتا وتأولوا على ذلك قوله تعالى { رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ } غافر 11 قيل إن الحياة الأولى فى هذه الدار والحياة الثانية فى القبر والموتة الثانية فى القبر والصحيح أن هذه الآية كقوله { كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } البقرة 28 فالموتة الأولى قبل هذه الحياة والموتة الثانية بعد هذه الحياة وقوله تعالى { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } البقرة 28 بعد الموت قال تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } طه 55 وقال { قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } الأعراف 25 فالروح تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى وتفارقه متى شاء الله تعالى لا يتوقت ذلك بمرة ولا مرتين والنوم أخو الموت ولهذا كان النبى يقول إذا أوى الى فراشه باسمك اللهم اموت وأحيا وكان إذا استيقظ يقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور فقد سمي النوم موتا والاستيقاظ حياة وقد قال تعالى { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى } الزمر 42 فبين انه يتوفى الانفس على نوعين فيتوفاهما حين الموت ويتوفى الانفس التى لم تمت بالنوم ثم اذا ناموا فمن مات فى منامه أمسك نفسه ومن لم يمت ارسل نفسه ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أوى الى فراشه قال باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين¹

الذين إستشكلوا فى قوله تعالى { إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } إنما إستشكلوه من جهة القياس لا من جهة السماع

فى قوله تعالى { إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } طه 63 فإن هذا مما اشكل على كثير من الناس فإن الذى فى مصاحف المسلمين { إِنَّ هَذَانِ } طه 63 بالألف وبهذا قرأ جماهير القراء وأكثرهم يقرأ إن مشددة وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم إن مخففة لكن ابن كثير يشدد نون هذان دون حفص والإشكال من جهة العربية على القراءة المشهورة وهى قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائى وأبى بكر عن عاصم وجمهور القراء عليها وهى أصح القراءات لفظا ومعنى وهذا يتبين بالكلام على ما قيل فيها فإن منشأ الإشكال أن الأسم المثنى يعرب فى حال النصب والخفض بالياء وفى حال الرفع بالألف وهذا متواتر من لغة العرب لغة القرآن وغيرها من الأسماء المبنية كقوله { وَالْأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ } النساء 11 ثم قال { فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَأُمُّهُ الثَّلَاثُ } النساء 11 وقال { وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ } يوسف 100 وقال { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ } المائدة 6 ولم يقل إثنان الكعبان وقال { وَاضْرِبْ

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 275

لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ {13} إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِتَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ {14} يس 13-14 ولم يقل إثنان وقال { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } {هُود 40} وقال { تَمَائِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّالِّينَ وَمِنَ الْمَعْرِزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ } الأنعام 143 ولم يقل إثنان ولا الذكران وإلا إثنين وقال { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } الذاريات 49 ولم يقل زوجان وقال { فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ } النساء 11 ولم يقل إثنان ومثل هذا كثير مشهور في القرآن وغيره فظن النحاة أن الأسماء المبهمة المبنية مثل هذين واللذين تجرى هذا المجرى وأن المبنى في حال الرفع يكون بالألف ومن هنا نشأ الإشكال وكان أبو عمرو إماما في العربية فقرأ بما يعرف من العربية إن هذين لساحران وقد ذكر أن له سلفا في هذه القراءة وهو الظن به أنه لا يقرأ إلا بما يرويه لا بمجرد ما يراه وقد روى عنه أنه قال إني لأستحيي من الله أن أقرأ { إِنَّ هَذَانِ } طه 63 وذلك لأنه لم ير لها وجها من جهة العربية ومن الناس من خطأ أبا عمرو في هذه القراءة ومنهم الزجاج قال لا أجيز قراءة أبي عمرو خلاف المصحف وأما القراءة المشهورة الموافقة لرسم المصحف فاحتج لها كثير من النحاة بأن هذه لغة بني الحارث بن كعب وقد حكى ذلك غير واحد من أئمة العربية قال المهدي بنو الحارث بن كعب يقولون ضربت الزيدان ومررت بالزيدان كما تقول جاءني الزيدان قال المهدي حكي ذلك أبو زيد والأخفش والكسائي والفراء وحكى أبو الخطاب أنها لغة بني كنانة وحكى غيره أنها لغة لختغم ومثله قول الشاعر تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هاوي والتراب عقيم وقال ابن الأنباري هي لغة لبني الحارث بن كعب وقريش قال الزجاج وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب وهو رأس من رؤوس الرواة أنها لغة لكنانة يجعلون ألف الإثنيين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد وأنشدوا فإطرق إطراق الشجاع ولو يجد مساعا لناباه الشجاع لصمما وقال ويقول هؤلاء ضربته بين أذناه قلت بنو الحارث بن كعب هم أهل نجران ولا ريب أن القرآن لم ينزل بهذه اللغة بل المثني من الأسماء المبنية في جميع القرآن هو بالياء في النصب والجر كما تقدمت شواهده وقد ثبت في الصحيح عن عثمان أنه قال إن القرآن نزل بلغة قريش وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف هم وزيد إذا اختلفتم إلا في حرف وهو التابوت فرفعوه إلى عثمان فأمر أن يكتب بلغة قريش رواه البخاري في صحيحه وعن انس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة إختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب إختلاف اليهود والنصارى فأرسل إلى حفصة ان أرسلى إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبدالله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق وهذه الصحيفة التي أخذها من عند حفصة هي التي أمر أبو بكر وعمر بجمع القرآن فيها لزيد بن ثابت وحديثه معروف في الصحيحين وغيرهما وكانت بخطه فلهذا أمر عثمان أن يكون هو أحد من ينسخ المصاحف من تلك الصحف ولكن جعل معه ثلاثة من قريش ليكتب بلسانهم فلم يختلف لسان قريش والأنصار إلا في لفظ التابوت و التابوت فكتبوه التابوت بلغة قريش وهذا يبين أن المصاحف التي نسخت كانت مصاحف متعددة وهذا معروف مشهور وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ إنه غلط من الكاتب أو نقل ذلك عن عثمان فإن هذا ممتنع لوجوه منها تعدد المصاحف وإجتمع جماعة على كل مصحف ثم وصول كل مصحف

إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون القرآن ويعتبرون ذلك بحفظهم والإنسان إذا نسخ مصحفا غلط في بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظه القرآن وسائر المصاحف فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفا ثم نسخ سائر الناس منه من غير إعتبار للأول والثاني أمكن وقوع الغلط في هذا وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قريش ولم يكن لحننا فامتنعوا أن يكتبوه إلا بلسان قريش فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا { **إِنْ هَذَا** } طه 63 وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم أو { **وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ** } النساء 162 وهم يعلمون أن ذلك لحن كما زعم بعضهم قال الزجاج في قوله { **وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ** } النساء 162 قول من قال إنه خطأ بعيد جدا لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقذوة فكيف يتركون شيئا يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم وقال ابن الأنباري حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان ليصلحه من بعده قلت ومما يبين كذب ذلك أن عثمان لو قدر ذلك فيه فإنما رأى ذلك في نسخة واحدة فأما أن تكون جميع المصاحف إتفقت على الغلط وثمان قد رآه في جميعا وسكت فهذا ممتنع عادة وشرعا من الذين كتبوا ومن عثمان ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف رأوا ما فيها وهم يحفظون القرآن ويعلمون أن فيه لحننا لا يجوز في اللغة فضلا عن التلاوة وكلهم يقر هذا المنكر لا يغيره أحد فهذا مما يعلم بطلانه عادة ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة بل يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر أن يدعوا في كتاب الله منكر لا يغيره أحد منهم مع أنهم لا غرض لأحد منهم في ذلك ولو قيل لعثمان مر الكاتب أن يغيره لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه فهذا ونحوه مما يوجب القطع بخطأ من زعم أن في المصحف لحننا أو غلطا وإن نقل ذلك عن بعض الناس ممن ليس قوله حجة فالخطأ جائز عليه فيما قاله بخلاف الذين نقلوا ما في المصحف وكتبوه وقرأوه فإن الغلط ممتنع عليهم في ذلك وكما قال عثمان إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش وكذلك قال عمر لابن مسعود أقرئء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل فإن القرآن لم ينزل بلغة هذيل وقوله تعالى في القرآن { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ** } إبراهيم 4 يدل على ذلك فإن قومه هم قريش كما قال { **وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ** } الأنعام 66 وأما كنانة فهم جيران قريش والناقل عنهم ثقة ولكن الذي ينقل ينقل ما سمع وقد يكون سمع ذلك في الأسماء المبهمة المبنية فظن أنهم يقولون ذلك في سائر الأسماء بخلاف من سمع بين أذناه و لناباه فإن هذا صريح في الأسماء التي ليست مبهمه وحينئذ فالذي يجب أن يقال إنه لم يثبت لأنه لغة قريش بل ولا لغة سائر العرب أنهم ينطقون في الأسماء المبهمة إذا ثبت بالياء وإنما قال ذلك من قاله من النحاة قياسا جعلوا باب التثنية في الأسماء المبهمة كما هو في سائر الأسماء وإلا فليس في القرآن شاهد يدل على ما قالوه وليس في القرآن اسم مبهم مبنى في موضع نصب أو خفض إلا هذا ولفظه { **هَذَا** } طه 63 فهذا نقل ثابت متواتر لفظا ورسمًا ومن زعم أن الكاتب غلط فهو الغلط غلطا منكرا كما قد بسط في غير هذا الموضوع فإن المصحف منقول بالتواتر وقد كتبت عدة مصاحف وكلها مكتوبة بالألف فكيف يتصور في هذا غلط وأيضا فإن القراء إنما قرأوا بما سمعوه من غيرهم والمسلمون كانوا يقرأون سورة طه على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وهي من أول ما نزل من القرآن قال ابن مسعود بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادى رواه البخارى عنه وهي مكية باتفاق الناس قال أبو الفرج وغيره هي مكية بإجماعهم بل هي من أول ما نزل وقد روى أنها كانت مكتوبة عند أخت عمر وأن سبب إسلام عمر كان لما بلغه إسلام وكانت السورة تقرأ عندها فالصحابه لا بد أن قد قرأوا هذا الحرف ومن الممتنع أن يكونوا كلهم قرأوه بالياء كأبي عمرو فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلا بالياء ولم تكتب إلا بالياء

فعلم أنهم أو غالبهم كانوا يقرؤونها بالألف كما قرأها الجمهور وكان الصحابة بمكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة يقرؤون هذه السورة في الصلاة وخارج الصلاة ومنهم سمعها التابعون ومن التابعين سمعها تابعوهم فيمتنع أن يكون الصحابة كلهم قرؤوها بالياء مع أن جمهور القراء لم يقرأوها إلا بالألف وهم أخذوا قراءتهم عن الصحابة أو عن التابعين عن الصحابة فهذا مما يعلم به قطعا أن عامة الصحابة إنما قرؤوها بالألف كما قرأ الجمهور وكما هو مكتوب وحينئذ فقد علم أن الصحابة إنما قرأوا كما علمهم الرسول وكما هو لغة للعرب ثم لغة قريش فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الأسماء المبهمة تقول أن هذان ومررت بهذان تقولها في الرفع والنصب والخفض بالألف ومن قال إن لغتهم أنها تكون في الرفع بالألف طولب بالشاهد على ذلك والنقل عن لغتهم المسموعة منهم نثرا ونظما وليس في القرآن ما يشهد له ولكن عمدته القياس وحينئذ فنقول قياس هذا بغيرها من الأسماء غلط فإن الفرق بينهما ثابت عقلا وسماعا أما النقل والسماع فكما ذكرناه وأما العقل والقياس فقد تفتن للفرق غير واحد من حذاق النحاة فحكى ابن الأنباري وغيره عن الفراء قال ألف التثنية في هذان هي ألف هذا والنون فرقت بين الواحد والإثنين كما فرقت بين الواحد والجمع نون الذين وحكا المهدوي وغيره عن الفراء ولفظه قال إنه ذكر أن الألف ليست علامة التثنية بل هي ألف هذا فزدت عليها نونا ولم أغيرها كما زدت على الياء من الذى فقلت الذين في كل حال قال وقال بعض الكوفيين الألف في هذا مشبهة بفعالن فلم تغير كما لم تغير قال وقال الجرجاني لما كان إسما على حرفين أحدهما حرف مد ولين وهو كالحركة ووجب حذف إحدى الألفين في التثنية لم يحسن حذف الأولى لئلا يبقى الإسم على حرف واحد فحذف علم التثنية وكان النون يدل على التثنية ولم يكن لتغيير النون الأصلية الألف وجه فثبت في كل حال كما يثبت في الواحد قال المهدوي وسأل إسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع جرت التثنية على ذلك مجرى الواحد إذ التثنية يجب أن لا تغير فقال إسماعيل ما أحسن ما قلت لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به فقال له ابن كيسان فليقل القاضي حتى يؤنس به فتبسم قلت بل تقدمه الفراء وغيره والفراء في الكوفيين مثل سيبويه في البصريين لكن إسماعيل كان إعماده على نحو البصريين والمبرد كان خصيصا به وبيان هذا القول أن المفرد ذا فلو جعلوه كسائر الأسماء لقالوا في التثنية ذوان ولم يقولوا ذان كما قالوا عصوان ورجوان ونحوهما من الأسماء الثلاثية وها حرف تنبيه وقد قالوا فيما حذفوا لامه أبوان فردته التثنية إلى أصله وقالوا في غير هذا ويدان وأما ذا فلم يقولوا ذوان بل قالوا كما فعلوه في ذو و ذات التي بمعنصاحب فقالوا هو ذو علم وهما ذوا علم كما قال {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} {الرحمن 48} وفي إسم الإشارة قالوا ذان و تان كما قال {فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ} {القصص 32} فإن ذا بمعنى صاحب هو إسم معرب فتغير إعرابه في الرفع والنصب والجر فقيل ذو وذا وذى وأما المستعمل في الإشارة والأسماء الموصولة والمضمرات هي مبنية لكن أسماء الإشارة لم تفرق لا في واحد ولا في جمعه بين حال الرفع والنصب والخفض فكذلك في تثنيته بل قالوا قام هذا وأكرمت هذا ومررت بهذا وكذلك هؤلاء في الجمع فكذلك المثني قال هذان وأكرمت هذان ومررت بهذان فهذا هو القياس فيه ان يلحق مثناه بمفرده وبمجموعه لا يلحق بمثنى غيره الذى هو أيضا معتبر بمفرده ومجموعة فالأسماء المعربة ألحق مثناها بمفردها ومجموعها تقول رجل ورجلان ورجال فهو معرب في الأحوال الثلاثة يظهر الإعراب في مثناه كما ظهر في مفرده ومجموعه فتبين أن الذين قالوا إن مقتضى العربية أن يقال إن هذين ليس معهم بذلك نقل عن اللغة المعروفة في القرآن التي نزل بها القرآن بل هي أن يكون المثني من أسماء مبنيا في الأحوال الثلاثة على لفظ واحد كمفرد أسماء الإشارة ومجموعها وحينئذ فإن قيل إن الألف هي

ألف المفرد زيد عليها النون أو قيل هي علم التنثية وتلك حذفت أو قيل بل هذه الألف تجمع هذا وهذا معنى جواب ابن كيسان وقول الفراء مثله فالمعنى وكذلك قول الجرجاني وكذلك قول من قال إن الألف فيه تشبه ألف يفعلان ثم يقال قد يكون الموصول كذلك كقوله {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِيهَا مِنكُمْ} النساء 16 فإن ثبت أن لغة قريش أنهم يقولون رأيت الذين فعلا ومررت بالذين فعلا وإلا فقد يقال هو بالألف في الأحوال الثلاثة لانه إسم مبنى والأف فيه بدل الياء في الذين شبه هذا بالذين وتشبيه اللذان به أولى وإبن كيسان علل بأن المبهم مبنى لا يظهر فيه الإعراب فجعل مثناه كمفرده ومجموعه وهذا العلم يأتي في الموصول يؤيد ذلك أن المضمرات من هذا الجنس والمرفوع والمنصوب لهما ضمير متصل ومنفصل بخلاف المجرور فإنه ليس له إلا متصل لأن المجرور لا يكون إلا بحرف أو مضاف لا يقدم على عامله فلا ينفصل عنه فالضمير المتصل في الواحد الكاف من أكرمك ومررت بل وفي الجمع أكرمتم ومررت بكم وفي التنثية زيدت الألف في النصب والجر فيقال أكرمتم ومررت بكم كما نقول في الرفع ففي الواحد والجمع فعلت وفعلتم وفي التنثية فعلتما بالألف وحدها زيدت علما على التنثية في حال الرفع والنصب والجر كما زيدت في المنفصل في قوله إياكما و أنتما فهذا كله مما يبين أن لفظ المثني في الأسماء المبنية في الأحوال الثلاثة نوع واحد لم يفرقوا بين مرفوعه وبين منصوبه ومجروره كما فعلوا ذلك في الأسماء المعربة وان ذلك في المثني أبلغ منه في لفظ الواحد والجمع إذ كانوا في الضمائر يفرقون بين ضمير المنصوب والمجرور وبين ضمير المرفوع في الواحد والمثني ولا يفرقون في المثني وفي لفظ الإشارة والموصول ولا يفرقون بين الواحد والجمع وبين المرفوع وغيره ففي المثني بطريق الأولى والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ذكر شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في موضع آخر وذكر فيها هذا الإعتراض وقد يعترض على ما كتبتناه أولا بأنه جاء أيضا في غير الرفع بالياء كسائر الأسماء قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ} فصلت 29 ولم يقل اللذان أضلانا كما قيل في الذين إنه بالياء في الأحوال الثلاثة وقال تعالى في قصة موسى {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّكَ لَآتِيَانَا أُمَّةٌ مِّن رَّبِّكَ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ} القصص 27 ولم يقل هاتان و هاتان تبع لإبنتي وقد يسمى عطف بيان وهو يشبه الصفة كقوله {وَأَلِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} الأعراف 73 لكن الصفة تكون مشتقة أو في معنى المشتق وعطف البيان يكون بغير ذلك كأسماء الأعلام وأسماء الإشارة وهذه الآية نظير قوله {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} طه 63 وأما قوله {أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا} فصلت 29 فقد يفرق بين إسم الإشارة والموصول بأن إسم الإشارة على حرفين بخلاف الموصول فإن الإسم هو اللذان عدة حروف وبعده يزداد علم الجمع فتكسر الذال وتفتح النون وعلم التنثية ففتح الذال وتكسر النون والألف فقلت في النصب والجر لأن الإسم الصحيح إذا جمع جمع التصحيح كسر آخره في النصب وفي الجر وفتحت نونه وإذا ثنى فتح آخره وكسرت نونه في الأحوال الثلاثة وهذا يبين أن الأصل في التنثية هي الألف وعلى هذا فيكون في إعرابه لغتان جاء بهما القرآن تارة يجعل كاللذان وتارة يجعل كاللذين ولكن في قوله {إِخْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ} القصص 27 كان هذا أحسن من قوله هاتان لما فيه من إتباع لفظ المثني بالياء فيهما ولو قيل هاتان لأشبه كما لو قيل إن ابنتي هاتان فإذا جعل بالياء علم تابع مبين عطف بيان لتمام معنى الإسم لا خبر تتم به الجملة وأما قوله {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} طه 63 فجاء إسما مبتدأ اسم إن وكان مجيئة بالألف أحسن في اللفظ من قولنا إن هذا لساحران لأن الألف أخف من الياء ولأن الخبر بالألف فإذا كان كل من الإسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة وهذا معنى صحيح وليس في القرآن ما يشبه هذا من كل وجه وهو بالياء فتبين أن هذا المسموع والمتواتر ليس في القياس الصحيح ما يناقضه لكن بينهما فروق دقيقة والذين إستشكلوا هذا

إنما إستشكلوه من جهة القياس لا من جهة السماع ومع ظهور الفرق يعرف ضعف القياس وقد يجب من يعتبر كون الألف في هذا هو المعروف في اللغة بأن يفرق بين قوله { **إِنْ هَذَا** } طه63 وقوله { **إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ** } القصص27 أن هذا تثنية مؤنث وذاك تثنية مذكر والمذكر المفرد منه ذا بالألف فزيدت فوق نون للتثنية واما المؤنث فمفرده ذى أو ذه أو ته وقوله إحدى ابنتي هاتين تثنية تى بالياء فكان جعلها بالياء فى النصب والجر اشبه بالمفرد بخلاف تثنية المذكر وهو ذا فإنه بالألف فأقراره بالألف أنسب وهذا فرق بين تثنية المؤنث وتثنية المذكر والفرق بينه وبين اللذين قد تقدم وحينئذ فهذه القراءة هى الموافقة للسمع والقياس ولم يشتهر ما يعارضها من اللغة التى نزل بها القرآن والله أعلم وقوله { **إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ** } القصص27 هو كقول النبی صلى الله عليه وسلم من اكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون ومثله فى الموصول قول ابن عباس لعمر أخبرنى عن المرأتين اللتين قال الله فيهما { **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ** } التحريم4 آخره والحمد لله وحده¹

معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية

قال تعالى { **وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى** } {56} **قَالَ أَجِئْنَا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى** } {57} **فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى** } {58} **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** } {59} **فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى** } {60} **قَالَ لَهُم مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى** } {61} **فَتَنَزَّ عُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى** } {62} **قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ أَوْ بَرِيدٌ إِنْ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى** } {63} **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى** } {64} **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى** } {65} **قَالَ بَلْ أُلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيئُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْعَى** } {66} **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى** } {67} **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى** } {68} **وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفُفًا مَّا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** } {69} طه56-69 الفرق ما بين عصا موسى و عصي السحرة فان تلك كانت حية تسعى و تلك يخيل اليه من سحرهم انها تسعى²

ومعلوم أن معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية مثال ذلك انقلاب العصا ثعباناً ثم ابتلاع الثعبان ما هنالك من العصي والحبال فإن هذا خارج عن قوى النفس والطبيعية لأن الخشب لا يقبل أن يصير حيواناً أصلاً ولا يمكن في القوى الطبيعية أن عصا تصير حية لا بقوى نفس ولا بسحر ولا غير ذلك بل الساحر غاية أن يتصرف في الأعراض بفعل ما يحدث عنه الأمراض والقتل ونحو ذلك مما يقدر عليه سائر الآدميين فإن الإنسان يمكنه أن يضرب غيره حتى يمرضه أو يقتله فالساحر والعائن وغيرهما ممن يتصرف بقوى الأنفس يفعل في المنفصل ما يفعله القادر في المتصل فهذا من

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 248-262

²مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 380

أفعال العباد المعروفة المقدرة وأما قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه كمصير الخشب حيوانا حساسا متحركا بالإرادة يبلغ عصيا وحبالا ولا يتغير فليس هذا من جنس مقدور البشر لا معتادا ولا نادرا ولا يحصل بقوى نفس أصلا ولهذا لما رأى سحرة فرعون ذلك علموا أنه خارج عن طريقة السحر فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ {46} قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ {47} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ {48} سورة الشعراء 46 48 وهذه الحادثة الخارقة للعادة فيها إثبات الصانع وإثبات نبوة أنبيائه فإن حدوث هذا الحادث على هذا الوجه في مثل ذلك المقام يوجب علما ضروريا أنه من القادر المختار لتصديق موسى ونصره على السحرة كما قال تعالى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى {68} وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى {69} سورة طه 67 69¹

الخوف يحصل بغير اختيار العبد إذا لم يكن له ما يوجب الأمن

قال تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى } {65} قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } {66} فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } {68} وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } {69} طه 66-69 إنه أمر أن يطمئن ويثبت لأن الخوف يحصل بغير اختيار العبد إذا لم يكن له ما يوجب الأمن فإذا حصل ما يوجب الأمن زال الخوف فقوله تعالى لموسى { وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } طه 21 هو أمر مقرون بخبره بما يزيل الخوف وكذلك قوله { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } {68} طه 67-68 هو نهي عن الخوف مقرون بما يوجب زواله وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لصديقه { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 نهى عن الحزن مقرون بما يوجب زواله وهو قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 وإذا حصل الخبر بما يوجب زوال الحزن والخوف زال وإلا فهو تهجم على الإنسان بغير اختياره وهكذا قول صاحب مدين لموسى لما قص عليه القصص { لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } القصص 25 وكذلك قوله { وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139 قرن النهى عن ذلك بما يزيله من إخباره أنهم هم الأعلون إن كانوا مؤمنين وكذلك قوله { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } النحل 127²

السحرة واهل النجوم لا يفلحون لا في الدنيا ولا في الآخرة

قال تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى } {65} قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } {66} فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } {68} وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } {69} طه 66-69 أكثر العلماء على أن الساحر كافر يجب قتله وقد ثبت قتل الساحر عن

¹الصفدية ج: 1 ص: 138

²منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 464

عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان و حفصة بنت عمر و عبدالله بن عمر و جندب بن عبدالله و روي ذلك مرفوعا عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم و قد قال تعالى { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى طه69 } و قال تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } 102 { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ } 103 {البقرة 102-103} فبين سبحانه أن طلاب السحر يعلمون أن صاحبه ما له في الآخرة من خلاق أي من نصيب و لكن يطلبون به الدنيا من الرئاسة و المال { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا } البقرة 103 لحصل لهم من ثواب الله في الدنيا و الآخرة ما هو خير لهم مما يطلبونه و لهذا تجد الذين يدخلون في السحر و دعوة الكواكب و تسبيحاتها فيخاطبونها و يسجدون لها انما مطلوب أحدهم المال و الرئاسة فيكفر و يشرك بالله لأجل ما يتوهمه من حصول رئاسة و مال و لا يحصل له إلا ما يضره و لا ينفعه كما يدل عليه استقراء أحوال العالم و قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه عد من الكبائر الاشرار بالله و السحر و قتل النفس و الربا و الفرار من الزحف و كذب المحصنات الغافلات المؤمنات و غير ذلك من أنواع السحر و أصنافه متنوعة¹

و لا ريب ان السحرة قد يشتبهون بالأنبياء و الأولياء و يأتون ما يظن أن يضاهاه ما تأتي به الأنبياء كما أتى سحرة فرعون بما يضاهاون به معجزة موسى {فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } الشعراء 45 الى قوله {سَاجِدِينَ } الشعراء 46²

السحر مبناه على الشرك والكذب والظلم

قال تعالى { قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ أَلْقَىٰ } 65 { قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } 66 { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى } 67 { قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ } 68 { وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } 69 طه 66-69 فاذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلا على نبوته وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين فان الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم والسحرة تعلمهم الشياطين والساحر لا يتجاوز سحره الامور المقدورة للشياطين كما تقدم بيانه والساحر كما قال تعالى { وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69 وقال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } البقرة 102 فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة ولا يقرب إلى الله وأن من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق فإن مبناه على الشرك والكذب والظلم مقصود صاحبه الظلم والفواحش وهذا مما يعلم بصريح العقل أنه

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 384

²مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 390

من السيئات فالنبي لا يأمر به ولا يعمله يستعين على ذلك صاحبه بالشرك والكذب وقد علم بصريح العقل مع ما تواتر عن الانبياء أنهم حرموا الشرك فمتى كان الرجل يأمر بالشرك وعبادة غير الله أو يستعين على مطالبه بهذا والكذب والفواحش والظلم علم قطعاً أنه من جنس السحرة لا من جنس الانبياء وخوارق هذا يمكن معارضتها وإبطالها من بني جنسه وغير بني جنسه وخوارق الانبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها ولا يمكن أحداً إبطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً¹

" من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد "

وصناعة التجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوى الفلكية والقوايل الأرضية صناعة محرمة بالكتاب والسنة واجماع الأمة بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل قال الله تعالى { وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69 وقال { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالطَّاغُوتِ } النساء 51 قال عمر وغيره الجبت السحر وروى ابو داود في سننه باسناد حسن عن قبيصة بن مخارق عن النبي صلى الله عليه وسلم قال العيافة والطرق والطيرة من الجبت قال عوف راوي الحديث العيافة زجر الطير والطرق الخط يخط في الأرض وقيل بالعكس فاذا كان الخط ونحوه الذي هو من فروع النجامة من الجبت فكيف بالنجامة وذلك أنهم يولدون الأشكال في الأرض لأن ذلك متولد من اشكال الفلك وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم باسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد فقد صرح رسول الله بان علم النجوم من السحر وقد قال الله تعالى { وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69 وهكذا الواقع فإن الاستقرار يدل على ان اهل النجوم لا يفلحون لا في الدنيا ولا في الآخرة وروى احمد ومسلم في الصحيح عن صفية بنت عبيد عن بعض ازواج النبي عن النبي انه قال من اتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة اربعين يوماً والمنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء وعند بعضهم هو في معناه فاذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمستؤل وروى ايضا في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله ان قوما منا يأتون الكهان قال فلا تأتوهم فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتيان الكهان والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين هو من جنس الكاهن واسوأ حالا منه فلحق به من جهة المعنى وفي الصحيح عنه انه قال ثمن الكلب خبيث ومهر البغي خبيث وحلوان الكاهن خبيث وحلوانه الذي تسميه بالعامية حلوانته ويدخل في هذا المعنى ما يعطيه المنجم وصاحب الأزام التي يستقسم بها مثل الخشبة المكتوب عليها أ ب ج د والضارب بالحصى ونحوهم فما يعطى هؤلاء حرام وقد حكى الاجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبعثي والقاضي عياض وغيرهما وفي الصحيحين عن زيد بن خالد قال خطبنا رسول الله بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فقال اتدرون ماذا قال ربكم الليلة قلنا الله

¹النبوات ج: 1 ص: 23

ورسوله أعلم قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب وفى صحيح مسلم عن ابى هريرة عن النبى قال ما انزل الله من السماء من بركة الا اصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث ويقولون بكوكب كذا وكذا وفى صحيح مسلم عنه انه قال اربع فى امتى من امر الجاهلية الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والنياحة والاستسقاء بالأنواء وفيه عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ} الواقعة 82 قال هو الاستسقاء بالأنواء أو كما قال والنصوص عن النبى واصحابه وسائر الأئمة بالنهاى عن ذلك اكثر من ان يتسع هذا الموضوع لذكرها¹

دعوى المدعى ان السحر هي قوى نفسانية من أبطل الباطل

قال تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى } {65} قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } {66} فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } {68} وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفُفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } {69} طه 66-69 فدعوى المدعى ان السحر هي قوى نفسانية من أبطل الباطل فإن السحر كثير منه يكون بالشياطين وكتب السحر مملوءة من الأقسام والعزائم على الجن بساداتهم الذين يعظمونهم ولذلك كانت الإنس تستعيز بالجن كما قال الله تعالى { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } الجن 6 كانوا إذا نزل الرجل منهم بواد يقول أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فأنزل الله هذه الآية وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ففرق بين الشيطان وبين الهوام وبين أعين الإنس كما يدل ذلك على وجود الضرر في هذه الجهات الثلاث الإنس والجن والهوام وهؤلاء يعبدون الكواكب بأنواع العبادات والقرايين وتتنزل عليهم الشياطين التي يسمونها هم روحانيات الكواكب وهي أشخاص منفصلة عنهم وإن لم يروها سمعوا كلامها فتخبرهم وتخاطبهم بأمور كثيرة وتقضي لهم أنواعا من الحوائج وهذا موجود اليوم كثيرا في بلاد الترك والخطأ والعجم والهند بل وفي بلاد مصر واليمن والعراق والشام وغير ذلك وأعرف من هؤلاء عددا وهم كما قال تعالى { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفُفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69²

السنة فى أسباب الخير والشر

وقال ان الريح من روح الله وانها تأتي بالرحمة وتأتى بالعذاب فلا تسبوا ولكن سلوا الله من خيرها وتعودوا بالله من شرها فأخبر انها تأتي بالرحمة وتأتى بالعذاب وأمر أن نسأل الله من خيرها ونعوذ بالله من شرها فهذه السنة فى أسباب الخير والشر ان يفعل العبد عند اسباب الخير

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 192-195

²الصفدية ج: 1 ص: 173

راجحة على مفسدته ومنفعته راجحة على المضرة وان كرهته النفوس كما قال تعالى { كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 216 فأمر بالجهاد وهو مكروه للنفوس لكن مصلحته ومنفعته راجحة على ما يحصل للنفوس من ألمه بمنزلة من يشرب الدواء الكريه لتحصل له العافية فإن مصلحة حصول العافية له راجحة على ألم شرب الدواء وكذلك التاجر الذي يتغرب عن وطنه ويسهر ويخاف ويتحمل هذه المكروهات مصلحة الربح الذي يحصل له راجحة على هذه المكاره وفي الصحيحين عن النبي أنه قال حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقد قال تعالى في حق الساحر { وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69 وقال تعالى { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } البقرة 102 إلى قوله { وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } البقرة 102 فبين سبحانه أن هؤلاء يعلمون أن الساحر ماله في الآخرة من نصيب وإنما يطلبون بذلك بعض أغراضهم في الدنيا { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } البقرة 103 آمنوا واتقوا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه لكان ما يأتيهم به على ذلك في الدنيا والآخرة خير لهم مما يحصل لهم بالسحر قال الله تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 وقال { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً } النحل 97 وقال { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } النحل 41 الآيتين وقال { وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } 201 { أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا } 202 { البقرة 201-202 } والأحاديث فيما يثيب الله عبده المؤمن على الأعمال الصالحة في الدنيا والآخرة كثيرة جدا وليس للعبد أن يدفع كل ضرر بما شاء ولا يجلب كل نفع بما شاء بل لا يجلب النفع إلا بما فيه تقوى الله ولا يدفع الضرر إلا بما فيه تقوى الله فإن كان ما يفعله من العزائم والأقسام والدعاء والخلوة والسهر ونحو ذلك مما أباحه الله ورسوله فلا بأس به وان كان مما نهى الله عنه ورسوله لم يفعله فمن كذب بما هو موجود من الجن والشياطين والسحر وما يأتون به على اختلاف أنواعه كدعاء الكواكب وتخريج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية وما ينزل من الشياطين على كل أفاك أثيم فالشياطين التي تنزل عليهم ويسمونها روحانية الكواكب وأنكروا دخول الجن في أبدان الإنس وحضورها بما يستحضرون به من العزائم والأقسام وأمثال ذلك كما هو موجود فقد كذب بما لم يحط به علما ومن جوز أن يفعل الانسان بما رآه مؤثرا من هذه الأمور من غير أن يزن ذلك بشريعة الإسلام فيفعل ما أباحه الله ويترك ما حرم الله وقد دخل فيما حرمه الله ورسوله إما من الكفر وإما من الفسوق وإما العصيان بل على كل أحد أن يفعل ما أمر الله به ورسوله ويترك ما نهى الله عنه ورسوله ومما شرعه النبي من التعوذ فإنه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال من قرأ آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه لم يزل عليه من الله حافظ ولم يقربه شيطان حتى يصبح وفي السنن أنه كان يعلم أصحابه أن يقول أحدهم أعود بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ولما جاءت الشياطين بلهب من نار أمر بهذا التعوذ أعود بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرا من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرا في الأرض وما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن فقد جمع العلماء من الأذكار والدعوات التي يقولها العبد إذا أصبح وإذا أمسى وإذا نام وإذا خاف شيئا وأمثال ذلك من الأسباب ما فيه بلاغ فمن سلك مثل هذه السبيل فقد سلك سبيل أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومن دخل في سبيل أهل الجبت والطاغوت الداخلة في الشرك والسحر فقد خسر الدنيا والآخرة وبذلك ذم الله من ذمه من مبدلة أهل الكتاب حيث قال { وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ

مَنْ عِنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {101} وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ {102} البقرة 101- 102 إلى قوله {وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {102} البقرة 102 والله سبحانه وتعالى أعلم¹

الحصر في إنما هو من جنس الحصر بالنفي والإستثناء

قوله صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات) لفظه إنما للحصر عند جماهير العلماء وهذا مما يعرف بالإضطرار من لغة العرب كما تعرف معانى حروف النفي والإستفهام والشرط وغير ذلك لكن تنازع الناس هل دلالتها على الحصر بطريق المنطوق او المفهوم على قولين والجمهور على أنه بطريق المنطوق والقول الآخر قول بعض مثبتى المفهوم كالقاضى أبى يعلى فى أحد قولييه وبعض الغلاة من نفاته وهؤلاء زعموا أنها تفيد الحصر وإحتجوا بمثل قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} الحجرات 10 وقد إحتج طائفة من الأصوليين على أنها للحصر بأن حرف إن للإثبات وحرف ما للنفي فإذا إجتمعا حصل النفي والإثبات جميعا وهذا خطأ عند العلماء بالعربية فإن ما هنا هو ما الكافة ليست ما النافية وهذه الكافة تدخل على إن وأخواتها فتكفيها عن العمل وذلك لأن الحروف العاملة اصلها ان تكون للإختصاص فإذا إختصت بالإسم أو بالفعل ولم تكن كالجزم منه عملت فيه فإن وأخواتها إختصت بالإسم فعملت فيه وتسمى الحروف المشبهة للأفعال لأنها عملت نصبا ورفعا وكثرت حروفها وحروف الجر إختصت بالإسم فعملت فيه وحروف الشرط إختصت بالفعل فعملت فيه بخلاف أدوات الإستفهام فإنها تدخل على الجملتين ولم تعمل وكذلك ما المصدرية ولهذا القياس فى ما النافية أن لا تعمل أيضا على لغة تميم ولكن تعمل على اللغة الحجازية التى نزل بها القرآن فى مثل قوله تعالى {مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ} المجادلة 2 و {مَا هَذَا بَشَرًا} يوسف 31 إستحسانا لمشابهتها ليس هنا لما دخلت ما الكافة على أن أزالته إختصاصها فصارت تدخل على الجملة الإسمية والجملة والفعلية فبطل عملها كقوله {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ} الرعد 7 وقوله {إِنَّمَا نُجَزِّوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} الطور 16 وقد تكون ما التى بعد أن إسما لا حرفا كقوله {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ} طه 69 بالرفع أى ان الذى صنعوه كيد ساحر خلاف قوله {إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} طه 72 فإن القراءة بالنصب لا تستقيم إذا كانت ما بمعنى الذى وفى كلا المعنيين الحصر موجود لكن إذا كانت ما بمعنى الذى فالحصر جاء من جهة أن المعارف هى من صيغ العموم فإن الأسماء أما معارف وإما نكرات والمعارف من صيغ العموم والنكرة فى غير الموجب كالنفي وغيره من صيغ العموم فقوله {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ} طه 69 تقديره أن الذى صنعوه كيد ساحر وأما الحصر فى إنما فهو من جنس الحصر بالنفي والإستثناء كقوله تعالى {مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا} الشعراء 154 {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} آل عمران 144 والحصر قد يعبر عنه بأن الأول محصور فى الثانى وقد يعبر عنه بالعكس والمعنى واحد وهو أن الثانى أثبتته الأول ولم يثبت له غيره مما يتوهم أنه ثابت له وليس المراد أنك تنفى عن الأول كل ما سوى الثانى فقوله {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ}

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 278-282

{الرعد7 أى انك لست ربا لهم ولا محاسبا ولا مجازيا ولا وكيلا عليهم كما قال {لَسْتَ عَلَيْهِمْ
بِمُصَيِّرٍ} الغاشية22 وكما قال { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } آل عمران20¹

لو رأى الكفار آية من آيات الإيمان فسجدوا لله مؤمنين ب الله ورسوله لنفعهم ذلك

قال تعالى { فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } {70} { قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ
وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } {71} طه70-71 فقد أخبر الله في غير موضع من القرآن عن سجود
سحرة فرعون كما قال تعالى { وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ } {120} { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {121}
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } {122} الأعراف120-122 وذلك سجود مع إيمانهم وهو مما قبله الله منهم
وأدخلهم به الجنة ولم يكونوا على طهارة وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه ولو قرىء
القرآن على كفار فسجدوا لله سجود إيمان ب الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أو رأوا آية من
آيات الإيمان فسجدوا لله مؤمنين ب الله ورسوله لنفعهم ذلك ومما يبين هذا أن السجود يشرع منفردا
عن الصلاة كسجود التلاوة وسجود الشكر وكالسجود عند الآيات فإن ابن عباس لما بلغه موت بعض
أمهات المؤمنين سجد وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا إذا رأينا آية أن نسجد²

براهين موسى وآياته هي من أظهر البراهين والادلة

قد قص سبحانه قصة موسى وأظهر براهين موسى وآياته التي هي من أظهر البراهين والادلة حتى
اعترف بها السحرة الذين جمعهم فرعون وناهيك بذلك فلما أظهر الله حق موسى وأتى بالآيات التي
علم بالاضطرار أنها من الله وابتلعت عصاه الحبال التي أتى بها السحرة بعد ان جاءوا بسحر عظيم
وسحروا أعين الناس واسترهبوا الناس ثم لما ظهر الحق وانقلبوا صاغرين قالوا { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ
وَمُوسَى } طه70 فقال لهم فرعون { آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } {71}
قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا } {72} طه71-72 من الدلائل البيّنات
اليقينية القطعية وعلى الذى فطرنا وهو خالقنا وربنا الذى لا بد لنا منه لن نؤثرك على هذه الدلائل
اليقينية وعلى خالق البرية { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } {72} إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } {73} طه72-73³

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 265-267

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 73

³مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 169

سنة الكفار في الأنبياء

فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة فبين سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة ومثلوه بالمسحور فقالوا سحر وشعر وكهانة ونحو ذلك ضلوا فيها عن الحق فلا يستطيعون مع الضلال سبيلا إلى الحق وقد أخبر تعالى أن هذه سنة الكفار في الأنبياء قبله وقد أخبر سبحانه أن الكفار قالوا عن موسى عليه السلام أنه ساحر وأنه مجنون فقال فرعون { قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلْبَتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } طه 71¹

يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي فكل من عارضها صادرا ممن ليس من جنس الأنبياء فليس من آياتهم ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لما ادعى أنه ساحر فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة وأمرهم موسى أن يأتوا أولا بخوارقهم فلما أتت وابتلعتها العصا التي صارت حية علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا إيمانا جازما ولما قال لهم فرعون { قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلْبَتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } {71} قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } {72} طه 71-72 و { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {47} رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ } {48} الشعراء 47-48 فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتاد لأمثالهم وأن هذا ليس من هذا الجنس بل هذا مختص بمثل هذا فدل على صدق دعواه وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفه فرعون كما قال تعالى { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } الزخرف 254²

وقد عرف الناس أن السحرة لهم خوارق ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوة نبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر وقال فرعون للسحرة لما آمنوا { آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلْبَتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } طه 71 و { إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُؤُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } الأعراف 123 كل هذا من كذب فرعون³

لفظ الايمان ليس مرادفا للفظ التصديق من وجوه

أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله أخذوا يتكلمون في مسمى الايمان و الإسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها مثل أن يقولوا الايمان في اللغة هو التصديق والرسول انما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده بالايمن التصديق ثم قالوا والتصديق انما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالأعمال ليست من الإيمن ثم عمدتهم في أن الإيمن هو التصديق قوله

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 162

²النبوات ج: 1 ص: 14

³النبوات ج: 1 ص: 22

{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا} يوسف 17 أى بمصدق لنا فيقال لهم إسم الإيمان قد تكرر ذكره فى القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ويفرق بين السعداء والاشقياء ومن يوالى ومن يعادى والدين كله تابع لهذا وكل مسلم محتاج الى معرفة ذلك أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله ووكله الى هاتين المقدمتين ومعلوم أن الشاهد الذى استشهدوا به على أن الايمان هو التصديق أنه من القرآن ونقل معنى الايمان متواتر عن النبى أعظم من تواتر لفظ الكلمة فان الايمان يحتاج الى معرفة جميع الأمة فينقلونه بخلاف كلمة من سورة فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبني على مثل هذه المقدمات ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلخوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات فهذا كلام عام مطلق ثم يقال هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة فمن الذى قال أن لفظ الايمان مرادف للفظ التصديق وهب أن المعنى يصح اذا استعمل فى هذا الموضع فلم قلت أنه يوجب الترادف ولو قلت ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى لكن لم قلت ان هذا هو المراد بلفظ مؤمن واذا قال الله أقيموا الصلاة ولو قال القائل أتموا الصلاة ولازموا الصلاة التزموا الصلاة افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحا لكن لا يدل هذا على معنى أقيموا فكون اللفظ يرادف اللفظ يراد دلالاته على ذلك ثم يقال ليس هو مرادفا له وذلك من وجوه أحدها أن يقال للمخبر اذا صدقته صدقه ولا يقال آمنه وآمن به بل يقال آمن له كما قال {فَأَمَّنَ لَهُ لَوْطُ} العنكبوت 26 وقال {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ} يونس 83 وقال فرعون {آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَّا لَكُمْ} طه 71 وقالوا لنوح {أَنْتُمْ لَكُمْ وَاللَّهُ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} التوبة 61 {فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} المؤمنون 47 وقال {وَإِنْ لَّمْ تُوْمِنُوا لِي فَاَعْتَرِزُوا لِي} الدخان 21 فان قيل فقد يقال ما أنت بمصدق لنا قيل اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه اذا ضعف عمله اما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدرا أو باجتماعهما فيقال فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل هو عابد لربه متق لربه خائف لربه وكذلك تقول فلان يرهب الله ثم تقول هو راهب لربه واذا ذكرت الفعل واخرته تقويه باللام كقوله {وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} الأعراف 154 وقد قال {فَأَيَّايَ فَرَّهَبُونَ} النحل 51 فعدها بنفسه وهناك ذكر اللام فان هنا قوله {فَأَيَّايَ} النحل 51 أتم من قوله فلى وقوله هنا لك {لِرَبِّهِمْ} الأعراف 154 أتم من قوله ربهم فان الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالياء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده ومن هذا قوله {وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِبُونَ} الشعراء 55 وإنما يقال غظته لا يقال غظت له ومثله كثير فيقول القائل ما أنت بمصدق لنا ادخل فيه اللام لكونه اسم فاعل والا فانما يقال صدقته لا يقال صدقت له ولو ذكروا الفعل لقالوا ما صدقتنا وهذا بخلاف لفظ الايمان فإنه تعدى الى الضمير باللام دائما لا يقال آمنته قط وانما يقال آمنت له كما يقال أقررت له فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا الثانى أنه ليس مرادفا للفظ التصديق فى المعنى فان كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له فى اللغة صدقت كما يقال كذبت فمن قال السماء فوقنا قيل له صدق كما يقال كذب وأما لفظ الايمان فلا يستعمل إلا فى الخبر عن غائب لم يوجد فى الكلام أن من أخبر عن مشاهدة كقوله طلعت الشمس وغربت أنه يقال آمنه كما يقال صدقناه ولهذا المحدثون والشهود ونحوهم يقال صدقناهم وما يقال آمنه لهم فان الايمان مشتق من الأمن فانما يستعمل فى خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذى يؤتمن عليه المخبر ولهذا لم يوجد قط فى القرآن وغيره لفظ آمن له الا فى هذا النوع والاثنان اذا اشتركا فى معرفة الشيء يقال صدق أحدهما صاحبه ولا يقال آمن له لأنه لم يكن غائبا عنه انتمنه

عليه ولهذا قال {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ} العنكبوت 26 {أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} المؤمنون 47 {أَمَنْتُمْ لَهُ} طه 71 {يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} التوبة 61 فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك فاللفظ متضمن مع التصديق ومعنى الإلتئام والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ولهذا قالوا {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا} يوسف 17 أى لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن اليه ولو كنا صادقين لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك فلو صدقوا لم يأمن لهم الثالث أن لفظ الايمان فى اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فانه من المعلوم فى اللغة أن كل مخبر يقال له صدقت أو كذبت ويقال صدقناه أو كذبناه ولا يقال لكل مخبر أمنا له أو كذبناه ولا يقال أنت مؤمن له أو مكذب له بل المعروف فى مقابلة الايمان لفظ الكفر يقال هو مؤمن أو كافر والكفر لا يختص بالتكذيب بل لو قال أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم فلما كان الكفر المقابل للايمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الايمان ليس هو التصديق فقط بل اذا كان الكفر يكون تكديبا ويكون مخالفة ومعادة وامتناعا بلا تكذيب فلا بد أن يكون الايمان تصديقا مع موافقة وموالاته وانقياد لا يكفى مجرد التصديق فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر فيجب أن يكون كل مؤمن مسلما منقادا للأمر وهذا هو العمل فان قيل فالرسول فسر الإيـمان بما يؤمن به قيل فالرسول ذكر ما يؤمن به لم يذكر ما يؤمن له وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له بالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا به وليس كل غيب أمنا به علينا أن نطيعه وأما ما يجب من الايمان له فهو الذى يوجب طاعته والرسول يجب الايمان به وله فينبغى أن يعرف هذا وأيضا فان طاعته طاعة الله وطاعة الله من تمام الإيـمان به الرابع أن من الناس من يقول الايمان اصله فى اللغة من الأمن الذى هو ضد الخوف فأمن أى صار داخلا فى الأمن وأنشدوا وأما المقدمة الثانية فيقال إنه اذا فرض أنه مرادف للتصديق فقولهم أن التصديق لا يكون الا بالقلب أو اللسان عنه جوابان أحدهما المنع بل الأفعال تسمى تصديقا كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال العينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشى والقلب يتمنى ذلك ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف قال الجوهري والصدىـق مثال الفسـيق الدائم التصديق ويكون الذى يصدق قوله بالعمل وقال الحسن البصرى ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال وهذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه كما رواه عباس الدورى حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجى عن الحسن قال ليس الإيـمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الاعمال من قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه العمل ذلك بأن الله يقول {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر 10 ورواه ابن بطة من الوجهين وقوله ليس الايمان بالتمنى يعنى الكلام وقوله بالتحلى يعنى أن يصير حلية ظاهرة له فيظهره من غير حقيقة من قلبه ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الاعمال فالعمل يصدق أن فى القلب ايمانا واذا لم يكن عمل كذب ان فى قلبه ايمانا لأن ما فى القلب مستلزم للعمل الظاهر وانتفاء اللـازم يدل على انتفاء الملزوم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 284-288

{ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى }

قد يقال إن الإيمان أرجح من الكفر إذا احتيج إلى المفاضلة عند من يظن أن ذلك أرجح وكذلك يقال في الخير والشر قال تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء 125 بل قد يفضل الله سبحانه نفسه على ما عبد من دونه كقوله { اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } النمل 59 وقول المؤمنين للسحرة { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } طه 73¹

فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون و عما يشركون فهو متعال عن الشركاء و الأولاد كما أنه مسبح عن ذلك و تعاليه سبحانه عن الشريك هو تعاليه عن السمي و الند و المثل فلا يكون شيء مثله و قد ذكروا من معاني العلو الفضيلة كما يقال الذهب أعلى من الفضة و نفى المثل عنه يقتضى أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله و هو يتضمن أنه أفضل و خير من كل شيء كما أنه أكبر من كل شيء و فى القرآن { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } النمل 59 و يقول { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } النحل 17 و يقول { أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ } يونس 35 و قالت السحرة { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } طه 73² و هو سبحانه يبين أن المعبودين دونه ليسوا مثله فى مواضع²

الدار الدنيا منقطعة ولذاتها لا تصفوا ولا تدوم ابدأ بخلاف الآخرة

وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي انما تدم إذا اعقبت الما اعظم منها او منعت لذة خيرا منها وتحمد اذا اعانت على اللذة المستقرة وهو نعيم الآخرة التي هي دائمة عظيمة وقال تعالى عن السحرة الذين امنوا { قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } {72} { إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } {73} طه 72 73 والله سبحانه انما خلق الخلق لدار القرار وهي الجنة والنار فأما الدار الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفوا ولا تدوم ابدأ بخلاف الآخرة فإن لذاتها ونعيمها صاف من الكدر دائم غير منقطع ليس فيها حزن ولا نصب ولا لغوب واهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يمتخطون بل فيها ما تشتهي الانفس وتلذذ الاعين³

فدفعه الشر الذي تريده النفوس الشريرة هو من الخير وهو بيديه ولو مكن تلك النفوس لفلته فهو سبحانه لا يمكنها بل يمنعها إذا أرادت مع أنها لو خليت لفلته فهو تارة بمنع الشر بإزالة سببه ومقتضيه وتارة يخلق ما يضاده

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 480

² مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 121

³ الاستقامة ج: 2 ص: 151

اسم الخاطيء لم يجيء في القرآن الا للاثم بمعنى الخطيئة

ولفظ الخطأ يستعمل في العمد وفي غير العمد قال تعالى { **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسْبِيَ** إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرَزُّهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } الإسراء 31 والا كثرون يقرؤون خطأ على وزن رداً وعلماً وقرأ ابن عامر خط على وزن عملا كلفظ الخطأ في قوله { **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا** } النساء 92 وقرأ ابن كثير خطأ على وزن هجاء وقرأ ابن رزين خطأ على وزن شراباً وقرأ الحسن وقتادة خطأ على وزن قتلا وقرأ الزهري خطأ بلا همز على وزن عدى قال الاخفش خطى يخطأ بمعنى أذنب وليس معنى أخطأ لان اخطأ في ما لم يصنعه عمدا يقول فيما اتيته عمدا خطيت وفيما لم يتعمده أخطأت وكذلك قال أبو بكر ابن الانباري الخطأ الاثم يقال قد خطا يخطا اذا اثم وأخطأ يخطيء اذا فارق الصواب وكذلك قال ابن الانباري في قوله { **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ** } يوسف 91 فان المفسرين كابن عباس وغيره قالوا لمذنبين آثمين في أمرك وهو كما قالوا فانهم قالوا { **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** } يوسف 97 وكذلك قال العزيز لامرأته { **وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** } يوسف 29 قال ابن الانباري ولهذا اختير خاطئين على مخطئين وان كان اخطأ على ألسن الناس اكثر من خطا يخطى لان معنى خطا يخطى فهو خاطيء اثم ومعنى أخطأ يخطيء ترك الصواب ولم ياتم قال عبادك يخطئون وأنت رب تكفل المنايا والحتوم وقال الفراء الخطأ الاثم الخطا والخطا والخطا ممدود ثلاث اللغات قلت يقال في العمد خطأ كما يقال في غير العمد على قراءة ابن عامر فيقال لغير المتعمد أخطأت كما يقال له خطيت ولفظ الخطيئة من هذا ومنه قوله تعالى { **مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِفُوا** } نوح 25 وقول السحرة { **إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** } الشعراء 51 ومنه قوله في الحديث الصحيح الالهي يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي أنه كان يقول في دعائه اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجهدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول قال أقول اللهم باعد بيني وخطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والتلج والبرد والذين قالوا كل مجتهد مصيب والمجتهد لا يكون على خطأ وكرهوا أن يقال للمجتهد إنه أخطأ هم وكثير من العامة يكره أن يقال عن إمام كبير إنه أخطأ وقوله أخطأ لأن هذا اللفظ يستعمل في الذنب كقراءة بن عامر إنه كان خطأ كبيرا ولأنه يقال في العامد أخطأ يخطيء كما قال يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم فصار لفظ الخطا والخطأ قد يتناول النوعين كما يخض غير العامل وأما لفظ الخطيئة فلا يستعمل إلا في الاثم والمشهور أن لفظ الخطأ يفارق العمد كما قال تعالى { **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ** } النساء 92 الاية ثم قال بعد ذلك { **وَمَنْ يَقْتُلْ**

¹رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 132

مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ { النساء 93 وقد بين الفقهاء أن الخطأ ينقسم إلى خطأ في الفعل وإلى خطأ في القصد فالأول أن يقصد الرمي إلى ما يجوز رميه من صيد وهدف فيخطيء بها وهذا فيه الكفارة والدية والثاني أن يخطى في قصده لعدم العلم كما أخطأ هناك لضعف القوة وهو أن يرمى من يعتقد مباح الدم ويكون معصوم الدم كمن قتل رجلا في صفوف الكفار ثم تبين أنه كان مسلما والخطأ في العلم هو من هذا النوع ولهذا قيل في أحد القولين إنه لا دية فيه لأنه مأمور به بخلاف الأول وأيضا فقد قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ { الأحزاب 5 ففرق بين النوعين وقال تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا { البقرة 286 وقد ثبت في الصحيح ان الله تعالى قال قد فعلت فلفظ الخطأ وأخطأ عند الاطلاق يتناول غير العمد واذا ذكر مع النسيان أو ذكر في مقابلة العمد كان نصا فيه وقد يراد به مع القرينة العمد أو العمد والخطأ جميعا كما في قراءة ابن عامر وفي الحديث الالهي إن كان لفظه كما يرويه عامة المحدثين تخطئون بالضم واما اسم الخاطيء فلم يجيء في القرآن الا للائم بمعنى الخطيئة كقوله { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ { يوسف 29 وقوله { قَالُوا تَأَلَّهَ لَقَدْ أَتَرَكَّا اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ { يوسف 91 وقوله { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ { يوسف 97 وقوله { لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ { الحاقة 37¹

المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه

والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنتهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كنتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُدُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ { الأعراف 145 وقال { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ { الزمر 55 فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ { الزمر 18 فاقضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ { الإسراء 53 وقد يقال هذا نظير قوله تعالى { **وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** { طه 73 ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسيىء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ { الزمر 55 هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحذور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر بالإحسان في قوله تعالى { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 20-23

تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {البقرة 195} والإحسان منه واجب ومنه مستحب¹

لما كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة ولا ميتا عديم الإحساس كان في الآخرة كذلك

قال تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } طه 74 أن الله تعالى هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم من العقل و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل قال تعالى { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } {1} العلق 1 إلى قوله { مَا لَمْ يَعْلَمْ } {5} العلق 1-5 و قال تعالى { الرَّحْمَنُ } {1} {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} {2} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} {3} {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} {4} الرحمن 1-4 و قال تعالى { سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } {1} {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} {2} {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} {3} {الاعلى 1-3} و قال { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } {البلد 10} ففي كل واحد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له و قد هداه الى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الآخرة و جعل في فطرته محبة لذلك لكن قد يعرض الإنسان عن طلب علم ما ينفعه و ذلك الاعراض أمر عدمي لكن النفس من لوازمها الإرادة والحركة فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها أن تحيا الحياة النافعة فتعبد الله و متى لم تحيا هذه الحياة كانت ميتة و كان مالها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة ولا ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى { ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } {الأعلى 13} فالجزاء من جنس العمل لما كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة و لا ميتا عديم الإحساس كان في الآخرة كذلك و النفس إن علمت الحق و أرادته فذلك من تمام إنعام الله عليها و إلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله مرادات سيئة فهذا تتركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده وهذا عدم²

أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون

قال تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } طه 74 قال تعالى { وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى } {11} {الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى} {12} { ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } {13} {الاعلى 11-13} و قد ذكر في سورة الليل قوله { فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى } {14} { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى } {15} {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} {16} { الليل 14-16} و هذا الصلي قد فسره النبي صلى الله عليه و سلم في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها و لا يحيون و لكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجاء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد كان بالبادية و في رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 17-18

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 208

ذكر عن عبدالصمد بن عبدالوارث ثنا أبي ثنا سليمان التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فأتى على هذه { لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } الأعلى 13 فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون فيؤتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغطاء في حميل السيل فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحماً ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل وهذا المعنى مستفيض عن النبي صلى الله عليه وسلم بل متواتر في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما وفيها الرد على طائفتين على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون إن أهل التوحيد يدخلون فيها وهذه الآية حجة عليهم وعلى من حكي عنه من غلاة المرجئة أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك وفيه رد على من يقول يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحدا النار كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعية و مرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن وغيرهم كالقاضي أبي بكر وغيره فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم والقول ب أن أحدا لا يدخلها من أهل التوحيد ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه لكن حكي عن مقاتل بن سليمان وقال إحتج من قال ذلك بهذه الآية وقد أجيبوا بجوابين أحدهما جواب طائفة منهم الزجاج قالوا هذه نار مخصوصة لكن قوله بعدها { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى } {17} الليل 17 لا يبقى فيه كبير و عد فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها وجواب آخرين قالوا لا يصلونها صلي خلود وهذا أقرب و تحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائماً فأما من دخل و خرج فإنه نوع من الصلي ليس هو الصلي المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها و النار لم تأكله كله فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود و الله أعلم¹

هما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين

في قوله تعالى { أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ } المؤمنون 35 طال الفصل بين أن وإسمها وخبرها فأعاد أن لتقع على الخبر لتأكيد به ونظير هذا قوله تعالى { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ } التوبة 63 لما طال الكلام أعاد أن هذا قول الزجاج وطائفة وأحسن من هذا أن يقال كل واحدة من هاتين الجملتين شرطية مركبة من جملتين جزائيتين فأكدت الجملة الشرطية بأن على حد تأكيدها في قول الشاعر إن من يدخل الكنيسة يوماً يلق فيها جاذراً وظباءً ثم أكدت الجملة الجزائية ب أن إذ هي المقصودة على حد تأكيدها في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } الأعراف 170 ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 195- 197

الجزء قوله تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فلا يقال في هذا إن أعيدت لطول الكلام ونظيره قوله تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } طه 74 ونظيره { أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } الأنعام 54 فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين ألا ترى تأكيد قوله غفور رحيم ب إن غير تأكيد من عمل سوءا بجهالة فإنه غفور رحيم له ب أن وهذا ظاهر لإخفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب¹

اشتراط الله للأعمال الصالحة الايمان واشتراط للايمان الأعمال الصالحة

قال ابو عمر بن عبد البر في التمهيد الايمان والاسلام احدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان له إذ لا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه من حيث اشتراط الله للأعمال الصالحة الايمان واشتراط للايمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك { فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ } الأنبياء 94 وقال في تحقيق الايمان بالعمل { وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى } طه 75 فمن كان ظاهره أعمال الاسلام ولا يرجع إلى عقود الايمان بالغيب فهو منافق نفاقا ينقل عن الملة ومن كان عقده الايمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الاسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلما ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمنا بالله وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه وقال ومثل الايمان في الأعمال كمثل القلب في الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر لا يكون ذو جسم حى لا قلب له ولا ذو قلب بغير جسم فهما شيان منفردان وهما فى الحكم والمعنى منفصلان ومثلهما أيضا مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة لا يقال حبتان لتفاوت صفتيهما فكذلك أعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان وهو من أعمال الجوارح والايمن باطن الإسلام وهو من أعمال القلوب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الإسلام علانية والايمن فى القلب وفى لفظ الايمان سر فالاسلام أعمال الايمان والايمن عقود الاسلام فلا ايمان الا بعمل ولا عمل إلا بعقد ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح ومثله قول رسول الله انما الأعمال بالنيات أى لا عمل الا بعقد وقصد لأن إنما تحقيق للشيء ونفى لما سواه فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات فمثل العمل من الإيمن كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام الا بهما لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام وكذلك فى سقوط العمل ذهاب الايمان ولذلك حين عدد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ } 8 { وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } 9 { البلد 8-9 بمعنى ألم نجعله ناظرا متكلمنا فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين لأن الكلام الذى جرت به النعمة لا يتم الا بهما²

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 276-277

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 333-335

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الايمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الايمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الايمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 فقد يقال إسم الايمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الايمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الايمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العيان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه¹

يغذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه

ويغذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميهِ ويوقمه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشيء إذا نما فى الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى التوبة {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} التوبة 103 وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الاخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فإذا استقرغ البدن من الاخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر شينا فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى قال تعالى { وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى } {75} جَنَاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى } {76} طه 75- 76 فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا وقال فصلت وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهي التوحيد والايمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إلهية الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

وهذا أصل ما تزكو به القلوب و التزكية جعل الشيء زكيا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس¹

ما كان لموسى من الآيات ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح

قال تعالى {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى} {77} فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} {78} وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} {79} طه77-79 فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح²

عامه الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى} {77} فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} {78} وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} {79} طه77-79

عامه الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الأنعام87 وكما في قوله {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ} النحل121 {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} الشورى13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} التوبة33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} {69} فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} {71} الصافات69-71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} الأحزاب67-68 وقوله {فَمَنْ أَتْبَعَ هُذَاهُ فَلَآ يُضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه123 ثم يقرن بالغى والغضب كما في قوله {مَا ضَلَّ

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 6

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 19

صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى { النجم 2 وفي قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله
{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ } القمر 47¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } {51} قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى {52} طه 51-52 لفظ العلم يضاف تارة إلى العلم وتارة إلى المعلوم والثاني كقوله حين قال فرعون { قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } {51} قال موسى { قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى } {52} طه 51-52 فالقرون الاولى معلومة لاعالمة²

2- قال تعالى { فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى } طه 60 وقال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى } {15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى {16} { الليل 15-16 } أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَى } {النازعات 21} وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى } {31} وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {32} القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا } {15} { فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً } {16} {المزمل 15-16} ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } {الفتح 16} ودمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله { فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ } {16} {المزمل 16}³

3- قال تعالى { قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى } طه 60 وعذابه اسم جامع لكل شر ودار العذاب الخالص هى النار⁴

4- قال تعالى { وَلَا صَلَبَتْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ } طه 71 وقال { فَسَيُخَوِّا فِي الْأَرْضِ } التوبة 2 وقال { يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } {المائدة 26} وليس المراد أنهم فى جوف النخل وجوف الأرض⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166-167

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 137

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

⁵مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 272

قال تعالى {وَأَصْلَبْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ} طه71 المراد عليها ويقال فلان في الجبل وفي السطح وإن كان على أعلى شىء فيه¹

وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبى في كتابه المسمى فهم القرآن قوله {وَأَصْلَبْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ} طه71 يعنى فوقها عليها²

5-قال تعالى { وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى } {75} جَنَاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَنْ تَزَكَّى } {76} طه75-76 قوله تعالى {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} البقرة25 فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان فى مثل قوله {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} يوسف82 وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال³

6-قال تعالى {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} {77} فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتَهُمْ } {78} وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} {79} طه77-79 ولفظ العبد فى القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده

ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها⁴

7-قال تعالى {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} {77} فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتَهُمْ } {78} وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} {79} طه77-79 وذكر الله الغشيان فى مواضع مثل قوله تعالى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} {الأعراف54} وَقَوْلُهُ {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا} {الأعراف189} وَقَوْلُهُ {أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} {هود5} هذا كله فيه احاطة من كل وجه⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 53

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 69

³مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

⁴مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 43

⁵مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 250

طه 80-98

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى {80} كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى {81} وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى {82} وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى {83} قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {84} قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ {85} فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {86} قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {87} فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {88} أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {89} وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي {90} قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى {91} قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {92} إِلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي {93} قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي {94} قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ {95} قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي {96} قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا {97} إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا {98} طه 80-98

ليس هذا التخصص لليهود منافيا التعميم للرسالة

قال تعالى { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى } طه 80 وليس في القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب وإنما فيه إثبات رسالته إليهم كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش وليس هذا مناقضا لهذا وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب كما فيه إثبات رسالته إلى بني إسرائيل كقوله { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى } طه 80 وليس هذا التخصص لليهود منافيا لذلك التعميم وفي رسالته خطاب لليهود تارة وللنصارى تارة وليس خطابه لإحدى الطائفتين

ودعوته لها مناقضا لخطابه للأخرى ودعوته لها وفي كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته في دعوته لهم إلى شرائع دينه وليس في ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم¹

الاحلال والاعطاء قد يكون سعة وقد يكون عقوبة وفتنة

قال تعالى { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى } طه 80 أن الحسنات سبب للتحليل دينا وكونا والسيئات سبب للتحريم دينا وكونا فان التحريم قد يكون حمية وقد يكون عقوبة والاحلال قد يكون سعة وقد يكون عقوبة وفتنة قال تعالى { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 الآية وهي بيينة فى الاصلاح والتقوى والاحسان موجبة لرفع الحرج وان المؤمن العامل الصالحات المحسن لا حرج عليه ولا جناح فيما طعم فان فيه عونا له وقوة على الايمان والعمل الصالح والاحسان ومن سواهم على الحرج والجناح لان النعم إنما خلقها الله ليستعان بها على الطاعة والآية مدنية وهي من آخر ما نزل من القرآن وقال تعالى عن إبراهيم { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } البقرة 126 واما كون الاحلال والاعطاء فتنة فقوله { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ } طه 80 الى قوله { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى } طه 81²

لا طريق الى الله طريق المفرطين وطريق المعتدين

قال تعالى { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى } طه 81 هناك من رأوا من الطريق الى الله ترك ما تختاره النفس وتريده وأن لا يكون لأحدهم ارادة أصلا بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائنا من كان وهذا هو الذي أدخل كثيرا منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون اليه وما لا تتم مصلحة دينهم الا به فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعاده ومعلوم أن الأفعال التي على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قرينة فرأى أولئك الطريق الى الله ترك هذه العبادات والأفعال الطبيعية فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات وكلا الأمرين غير محمود ولا مأمور به ولا طريق الى الله طريق المفرطين الذين فعلوا هذه الأفعال المحتاج اليها على غير وجه العبادة والتقرب الى الله وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال بل المشروع أن تفعل بنية التقرب الى الله وأن يشكر الله قال الله تعالى { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى } طه 81 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ }

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 375

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 154

{ البقرة 172 فأمر بالأكل والشرب فمن أكل ولم يشكر كان مذموماً ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذموماً وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك وفي الصحيح أيضاً أنه قال نفقة المؤمن على أهله يحتسبها صدقة¹

قرن الصلاح والاصلاح بالايمن

قال تعالى { وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } طه 82 لفظ الصلاح و الفساد فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر وكذلك اسم المصلح والمفسد وقرن الصلاح والاصلاح بالايمن في مواضع كثيرة كقوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 82 { فَمَن آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } الأنعام 48 ومعلوم أن الايمان أفضل الاصلاح وأفضل العمل الصالح كما جاء في الحديث الصحيح أنه قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل قال ايمان بالله²

أن الإيمن إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمن هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمن القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمن الذى فى القلب فصار الإيمن متناولاً للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمن القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولاً ثم ذكر بإسمة الخاص تخصيصاً له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله { مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب 7 وقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } محمد 2 فخص الإيمن بما نزل على محمد بعد قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا } محمد 2 وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } البقرة 238 وقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 277 كقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 فإنه قصد أولاً أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمن أولاً لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضاً من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمن ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمن دخلت فى الإيمن وعطف

¹ الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 146

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 86

عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصاً بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلاً على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتقياً لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لتلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصاً وتنقيحاً ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحاً لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹

التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح

قال تعالى { **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** } طه 82 فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته قال الله تعالى { **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** } آل عمران 89 في التائب من الردة و قال في كاتم العلم { **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } البقرة 160 و قال { **وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** } الأنعام 54 و قال في القذف { **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** } النور 5 و قال { **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** } 70 { **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** } طه 82 و لما تاب كعب بن مالك و صاحبه أمر رسول اله صلى الله عليه و سلم المسلمين بهجرهم حتى نسانهم ثمانين ليلة و قال النبي صلى الله عليه و سلم في الغامدية لما رجمها لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و هل و جدت أفضل من أن جادت بنفسها لله و قد أخبر الله عن توبته على بنى إسرائيل حيث قال لهم موسى { **يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** } البقرة 54 و إذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات و السيئات و السراء و الضراء بما يحصل معه شكره و صبره أم كفره و جزعه و طاعته أم معصيته فالتائب أحق بالإبتلاء فآدم أهبط إلى الأرض إبتلاء له و و فقه الله في هبوطه لطاعته فكان حاله بعد الهبوط خيراً من حاله قبل الهبوط²

المسارعة إلى الخيرات مأمور بها

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 198-199

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 323-324

قال تعالى { وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى } {83} قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى {84} طه 83-84

إن الأصل في الصلاة في أول الوقت افضل من آخره إلا لمعنى يقتضي استحباب التأخير لأن الله تعالى قال { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ } البقرة 148 و قال تعالى { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } آل عمران 133 و قال تعالى { سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } الحديد 21 و قال تعالى { أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } المؤمنون 61 و قال { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } الواقعة 10 أي إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الجنة و قال تعالى { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } فاطر 32 و قال تعالى { وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ } المهاجرين والأنصار { التوبة 100 و قال عن نبيه موسى { وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } طه 84 و هذه الآيات تقتضي إن المسارعة إلى الخيرات أمور بها و إن فاعلها مستوجب لثناء الله و رضوانه و لذلك يقتضي الاستباق إلى الخيرات و إلى أسباب المغفرة أمرا بها و ثناء على أهلها و تفضيلا لهم على غيرهم و الصلاة من افضل الخيرات و اعظم أسباب المغفرة و عن محمد ابن عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن النبي صلى الله عليه و سلم قال ثلاث يا علي لا تؤخرهن الصلاة إذا أتت و الجنابة إذا حضرت و الايم إذا وجدت لها كفوا رواه احمد و الترمذي و قال حديث حسن غريب و ما أرى إسناده بمتصل لكن هذا الانقطاع هو من رواية ولده و مثل ذلك يكون من أقوى المراسيل فانهم اعلم بحديثهم¹

الفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات

قال تعالى { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الأنفال 39 فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة و حتى يكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير الفتنة ووجود كون الدين كله لله وناقض بينهما فكون الفتنة ينافي كون الدين لله وكون الدين الله ينافي كون الفتنة و الفتنة قد فسرت بالشرك فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك و هو ينافي كون الدين كله لله و الفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات و الشهوات و فتنة الذين يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن و منه فتنة أصحاب العجل كما قال تعالى { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } طه 85 قال موسى { إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ } الأعراف 155 و قال تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } البقرة 93 قيل لسفيان بن عيينه إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبا شديدا فقال أنسيت قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } البقرة 93 أو كلاما هذا معناه وكل ما أحب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين لله²

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 191-192

² قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 88

لم يلزم من اتفاق الاسمين اتفاقهما ولا تماثل المسمى

قال تعالى { فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي } طه86 سمي الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة255 وسمى بعض عباده حيا فقال { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } الروم19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } الروم19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بالغضب فقال { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ } الفتح6 ووصف عبده بالغضب في قوله { فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا } طه86 وليس الغضب كالغضب¹

صفات النقص تنافي الألوهية

و موسى عليه السلام خاصم فرعون الذي جحد الربوبية و الرسالة و قال { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ } النازعات24 و { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي } القصص38 و قصته في القرآن مثناة مبسوطة لا يحتاج هذا الموضوع إلى بسطها و قرر أيضا أمر الربوبية و صفات الكمال لله و نفى الشرك و لما إتخذ قومه العجل بين الله لهم صفات النقص التي تنافي الألوهية فقال { وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } الأعراف148 و قال تعالى { قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ } {87} فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِي {88} أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } {89} طه 87-89 فوصفه بأنه و إن كان قد صوت صوتا هو خوار فإنه لا يكلمهم ولا يرجع إليهم قولا وأنه لا يهديهم سبيلا ولا يملك لهم ضرا و لا نفعًا²

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 15

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 207-208

في إثبات السمع والبصر والكلام إن نفي هذه الصفات نقائص مطلقا سواء نفيت عن حي أو جماد وما انتقت عنه هذه الصفات لا يجوز أن يحدث عنه شيء ولا يخلقه ولا يجيب سائلا ولا يعبد ولا يدعى وقال تعالى { فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيْ {88} أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {89} طه 88-89 وهذا لأنه من المستقر في الفطر أن مالا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم لا يكون ربا معبودا كما أن مالا يغنى شيئا ولا يهدى ولا يملك ضرا ولا نفعا لا يكون ربا معبودا ومن المعلوم أن خالق العالم هو الذي ينفع عباده بالرزق وغيره ويهديهم وهو الذي يملك أن يضرهم بأنواع الضرر فإن هذه الأمور من جملة الحوادث التي يحدثها رب العالمين فلو قدر أنه ليس محدثا لها كانت حادثة بغير محدث أو كان محدثها غيره وإذا كان محدثها غيره فالقول في إحداث ذلك الغير كالقول في سائر الحوادث فلا بد أن تنتهي إلى قديم لا محدث ولذلك من المستقر في العقول أن مالا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ناقص عن صفات الكمال لأنه لا يسمع كلام أحد ولا يبصر أحد ولا يأمر بأمر ولا ينهى عن شيء ولا يخبر بشيء فإن لم يكن كالحى الأعمى الأصم كان بمنزلة ما هو شر منه وهو الجماد الذي ليس فيه قبول أن يسمع ويبصر ويتكلم ونفي قبول هذه الصفات أبلغ في النقص والعجز وأقرب إلى إنصاف المعلوم ممن يقبلها واتصف بأضدادها إذ الإنسان الأعمى أكمل من الحجر والإنسان الأبكم أكمل من التراب ونحو ذلك مما لا يوصف بشيء من هذه الصفات وإذا كان نفي هذه الصفات معلوما بالفطرة إنه من أعظم النقائص والعيوب وأقرب شيئا بالمعوم كان من المعلوم بالفطرة أن الخالق أبعد عن هذه النقائص والعيوب من كل ما ينفي عنه وإن اتصافه بهذه العيوب من أعظم الممتنعات¹

لفظ الجسد في القرآن

قال تعالى { قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {87} فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيْ {88} أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {89} طه 87-89 قال الشاعر ساعد به جسد مورس من الدماء مائع ويبس والجسد الأحمر والمجسد ما اشبع صبغه من الثياب لكمال ما لصق به من الصبغ فاللفظ فيه معنى التكاثر والتلاصق ولهذا يقول الفقهاء نجاسة متجسدة وغير متجسدة وهو في القرآن يراد به الجسد المصمت المتلاصق المتكاثف أو الذى لا حياة فيه وقد ذكر الله تعالى لفظة الجسد فى أربعة مواضع فقال تعالى { وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } الأنبياء 8 وقال تعالى { وَالْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ } ص 34 وقال { وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا } الأعراف 148 وقال تعالى { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا } طه 88 كأنه عجل مصمت لا جوف له وقد يقال أنه لا حياة فيه خار خورة ولم يقل عجلا له جسد له بدن له جسم لأنه من المعلوم أن كل عجل له جسد هو بدنه وهو جسمه والعجل المعروف جسد فيه روح والمقصود انما أخرجه كان جسدا مصمتا لا روح فيه حتى تبين نقصه وأنه كان مسلوب الحياة والحركة وقد روى أنه انما خار خورة واحدة وقد يقال ان اريد بالجسد المصمت او الغليظ ونحوه فلم قيل ان ذلك ذكر لبيان نقصه من هذا الوجه بل من هذا الوجه ضلوا به وانما كان النقص من جهة { أَنَّهُ لَّا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا } الأعراف 148 وقد يقال اذا كان لا حياة فيه فالنقص كان فيه من جهة عدم الحياة وغيرها من صفات الكمال لا من جهة كونه له بدن أو ليس له بدن فالأدمى له بدن ولو أخرج لهم عجلا كسائر العجول او آدميا كاملا أو فرسا حيا أو جملا أو غير ذلك من الحيوان لكان أيضا له بدن وكان ذلك اعجوبة عظيمة وكانت الفتنة به أشد ولكن الله سبحانه

¹ العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 118-119

بين أن المخرج كان موصوفا بصفات النقص يحقق ذلك وهو أنه سبحانه قال { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا } الأعراف 148 فلم يذكر فيما عابه به كونه ذا جسد ولكن ذكر فيما عابه به { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا } الأعراف 148 ولو كان مجرد كونه ذا بدن عيبا ونقصا لذكر ذلك فعلم أن الآية تدل على نقص حجة من يحتج بها على أن كون الشيء ذا بدن عيبا ونقصا وهذه الحجة نظير احتجاجهم بالافول فانهم غيروا معناه في اللغة وجعلوه الحركة فظنوا أن ابراهيم احتج بذلك على كونه ليس رب العالمين ولو كان كما ذكروه لكان حجة عليهم لا وان الله تعالى وصفه بكونه عجلا جسدا له خوار ثم قال { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا } الأعراف 148 وقال في السورة الأخرى { فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {87} فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ {88} أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا {89} طه 87-89 فلم يقتصر في وصفه على مجرد كونه جسدا بل وصفه بأن له خوارا وبين أنه لا يكلمهم ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فالموجب لنقصه اما أن يكون مجموع الصفات أو بعضها أو كل واحد منها فان كان المجموع لم يدل على أن نقصها واحدة نقص وان كان بعضها فليس كونه جسدا باولى من كونه له خوار وليس هذا وهذا بأولى من كونه مسلوب التكلم والقدرة على النفع والضر وان كان كل منهما معلوم أنهم انما ضلوا بخواره ونحو ذلك والله تعالى انما احتج عليهم بعدم التكلم والقدرة على النفع والضر وأنه ليس في القرآن دلالة على أن كونه جسدا وكونه له خوار صفة نقص وانما الذي دل عليه القرآن ان كونه لا يكلمهم ولا يقدر على نفعهم وضرهم نقص يبين ذلك ان الخوار هو الصوت والانسان الذي يصوت ويقال خار يخور الثور وهو يكلم غيره وقد يهديه السبيل والله سبحانه بين أن صفات العجل ناقصة عن صفات الانسان الذي يكلم غيره ويهديه فالعابد اكمل من المعبود يبين هذا أنه لو كلمهم لكان ايضا مصوتا فلو كان ذكر الصوت لبيان نقصه لبطل الاستدلال بقوله تعالى { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ } الأعراف 148 فان تكليمه لهم لو كلمهم انما كان يكون بصوت يسمعون منه فعلم أن ذكر التصويت لم يكن لكونه صفة نقص فكذلك ذكر الجسد وبالجملة من ذكر أن القرآن دل على هذا وهذا هو العيب الذي عابه به وجعله دليلا على نفي الهيته فقد قال على القرآن ما لا يدل عليه بل هو على نقيضه أدل¹

عاب الله من يعبد إلهها لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر

قال تعالى في ذم من يعبد من لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } طه 89 عاب الصنم بأنه أبكم لا يقدر على شيء إذ كان من المعلوم أن العجز عن النطق والفعل صفة نقص فالنطق والقدرة صفة كمال²

قوله { يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ } الحج 12 هو نفي لكونه المدعو المعبود من دون الله يملك نفعا أو ضرا وهذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة والبشر والجن والكواكب والأوثان كلها فإنما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {73} أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

¹ مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 219 و مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 216

² العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 102 و منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 373

رَحِيمٌ {74} مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّعَامِ
 انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ {75} قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
 وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {76} المائدة 73-76 وقد قال لختام الرسل {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا
 وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} الأعراف 188 وقال {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} الجن 21
 وقال على العموم {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ
 {فاطر 2 وقال {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
 {يونس 107 وقال {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ
 أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} الزمر 38 وقال
 صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 22 {أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ
 الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ} 23 {إِنِّي إِذَا أَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} 24 {إِنِّي آمَنْتُ
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ} 25 {يس 22-25 وقوله {يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ
 {الحج 12 نفى عام كما فى قوله { وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} طه 89 فهو لا يقدر أن يضر
 أحدا سواء عبده أو لم يعبده ولا ينفع أحدا سواء عبده أو لم يعبده وقول من قال لا ينفع أن عبد ولا
 يضر إن لم يعبد بيان لإنتفاء الرغبة والرغبة من جهته بخلاف الرب الذى يكرم عابديه ويرحمهم
 ويهين من لم يعبده ويعاقبه التحقيق انه لا ينفع ولا يضر مطلقا فإن الله سبحانه وسعت رحمته كل
 شىء وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبده فنفعه للعباد لا يختص بعابديه وإن كان فى هذا
 تفصيل ليس هذا موضعه وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده وهو سبحانه الضار النافع
 قادر على أن يضر من يشاء وإن كان ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمة فى حقهم كما قال أيوب
 { مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} الأنبياء 83 وقال تعالى {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ
 لَهُ إِلَّا هُوَ} الأنعام 17 وقال أيضا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا
 ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} الأعراف 188 وقال تعالى {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
 {البقرة 177 وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من الضرر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفال والمجانين
 والبهائم لما فى ذلك منة الحكمة والنعمة والرحمة كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع¹

بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره

قد بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره وان غيره لا يساويه فى الكمال فى مثل قوله تعالى
 {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} النحل 17 وقد بين ان الخلق صفة كمال وان الذى يخلق
 افضل من الذى لا يخلق وان من عدل هذا بهذا فقد ظلم وقال تعالى {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
 إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ
 كَيْفَ تَحْكُمُونَ} يونس 35 فبين سبحانه بما هو مستقر فى الفطر ان الذى يهدى الى الحق احق
 بالاتباع ممن لا يهدى الا ان يهديه غيره فلزم ان يكون الهادى بنفسه هو الكامل دون الذى لا يهدى
 الا بغيره واذا كان لا بد من وجود الهادى لغير المهتدى بنفسه فهو الاكمل وقال تعالى فى الاية
 الاخرى {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} طه 89 فدل على ان الذى

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 275

يرجع اليه القول ويملك الضر والنفع اكمل منه ومثل هذا في القرآن متعدد من وصف الاصنام بسلب صفات الكمال كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ونحو ذلك مما يبين ان المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات وان هذه الصفات لا تسلب الا عن ناقص معيب واما رب الخلق الذي هو اكمل من كل موجود فهو احق الموجودات بصفات الكمال وانه لا يستوى المتصف بصفات الكمال والذي لا يتصف بها وهو يذكر ان الجمادات في العادة لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف فقد جعله من جنس الاصنام الجامدة التي عابها الله تعالى وعاب عابديها ولهذا كانت القرامطة الباطنية من اعظم الناس شركا وعبادة لغير الله اذ كانوا لا يعتقدون في الههم انه يسمع او يبصر او يغنى عنهم شيئا والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له بل ذكرها لبيان انه المستحق للعبادة دون ما سواه فأفاد الاصلين اللذين بهما يتم التوحيد وهما اثبات صفات الكمال ردا على اهل التعطيل وبيان انه المستحق للعبادة لا اله الا هو ردا على المشركين والشرك في العالم اكثر من التعطيل ولا يلزم من اثبات التوحيد المنافي للاشراك ابطال قول اهل التعطيل ولا يلزم من مجرد الاثبات المبطل لقول المعطلة الرد على المشركين الا ببيان اخر والقرآن يذكر فيه الرد على المعطلة تارة كالرد على فرعون وامثاله ويذكر فيه الرد على المشركين وهذا اكثر لان القرآن شفاء لما في الصدور ومرض الاشراك اكثر في الناس من مرض التعطيل وايضا فان الله سبحانه اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو احق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب¹

أن المدح والثناء لا يكون إلا في الإثبات فإنه إنما يكون بصفات الكمال والكمال إنما يكون في الأمور الوجودية فأما العدم فلا كمال فيه فمن لم يصفه إلا بالسلب وقال إنه الوجود المقيد بالسلب كما قال ابن سينا وأمثاله من الباطنية فهو لم يثبت ولم يجعله موجودا فضلا عن أن يكون موصوفا بالكمال ممدوحا مثنيا عليه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن الكلام صفة كمال كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر صفة كمال وأن المتكلم أكمل ممن لا يتكلم كما أن الحي أكمل من الجماد ولهذا عاب الله الجمادات المعبودة بأنها لا تتكلم كما في قوله تعالى { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } طه 89 سواء كان المراد بيان أن العابد أكمل من معبوده وهذا ممتنع أو بيان أن المعبود يجب أن يكون متصفا بصفات الكمال وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن من يتكلم بقدرته ومشيبته فهو أكمل ممن لا يتكلم بمشيبته وقدرته بل يكون الكلام المعين لازما لذاته ومن المعلوم أنه من لم يزل متكلما إذا شاء فهو أكمل ممن كان لا يمكنه الكلام ثم صار يمكنه قال هؤلاء وكلام السلف والأئمة في هذا الباب متناسب يصدق بعضه بعضا²

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 82-84

²الصفدية ج: 2 ص: 66-67

العكوف عند قبر أو مقام هو من جنس دين المشركين

جاءت الشريعة بالاغتلاف الشرعي في المساجد بدل ما كان يفعل قبل الإسلام من المجاورة بغار حراء ونحوه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى قبضه الله والاعتكاف من العبادات المشروعة بالمساجد باتفاق الأئمة كما قال تعالى { وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ } البقرة 187 أي في حال عكوفكم في المساجد لا تباشروهن وإن كانت المباشرة خارج المسجد ولهذا قال الفقهاء إن ركن الاعتكاف لزوم المسجد لعبادة الله ومحظوره الذي يبطله مباشرة النساء فأما العكوف والمجاورة عند شجرة أو حجر تمثال أو غير تمثال أو العكوف والمجاورة عند قبر نبي أو غير نبي أو مقام نبي أو غير نبي فليس هذا من دين المسلمين بل هو من جنس دين المشركين الذين أخبر الله عنهم بما ذكره في كتابه حيث قال تعالى { **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** } 90 { **قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى** } 91 { **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا** } 92 { **أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** } 93 { **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** } 94 { **طه 90-94** فهذا عكوف المشركين وذاك عكوف المسلمين فعكوف المؤمنين في المساجد لعبادة الله وحده لا شريك له وعكوف المشركين على ما يرجونه ويخافونه من دون الله ومن يتخذونهم شركاء لله وشفعاء عند الله فإن المشركين لم يكن أحد منهم يقول إن العالم له خالقان ولا إن الله معه إله يساويه في صفاته هذا لم يقله أحد من المشركين بل كانوا يقولون بأن خالق السموات والأرض واحد كما أخبر الله عنهم بقوله { **وَأَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيُقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُوَفِّكُونَ** } العنكبوت 61 وكانوا يتخذون آلهتهم وسائط تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم¹

عبادة الله وحده هو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء

قال تعالى { **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** } 90 { **قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى** } 91 { **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا** } 92 { **أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** } 93 { **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** } 94 { **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ** } 95 { **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي** } 96 { **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا** } 97 { **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** } 98 { **طه 90-98** وذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 442

الله ويجعلون عابده عابدا لغير الله مشركا بالله عادلا به جاعلا له ندا فانهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو الاسلام العام الذي لا يقبل الله من الاولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء 48 وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبي من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا وهي رأس الدين وكما قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 فأخبر سبحانه أنه يوحى الى كل رسول بنفى الالهوية عما سواه وإثباتها له وحده¹

في الصحيحين عن النبي أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما في الموطأ وغيره عن النبي أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفي الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة وفي الصحيح عنه أنه قال لعمة عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنيات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء 116 وتلك الحسنة التي لا بد من سعادة صاحبها كما ثبت في الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر في الحديث أنها أعلا شعب الإيمان وفي الصحيحين عنه أنه قال لو فد عبد القيس أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام في حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الإسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفي حديث في المسند قال الإسلام علانية والإيمان في القلب فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضي الله عنه أن القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 256

طابت جنوده واذا خبث الملك خبثت جنوده وفي الصحيحين عنه أنه قال ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب¹

هذه الصيغة للواحد العظيم

قال تعالى { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا } طه 99 ذكر بصيغة الجمع { نَقُصُّ عَلَيْكَ } طه 99 و { عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ } القيامة 17 و { عَلَيْنَا بَيَانُهُ } القيامة 19 فالقراءة هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها أن النبي سمع القرآن من جبريل وجبريل سمعه من الله عز وجل واما قوله نتلوا ونقص ونحوه فهذه الصيغة فى كلام العرب للواحد العظيم الذى له أعوان يطيعونه فاذا فعل أعوانه فعلا بأمره قال نحن فعلنا كما يقول الملك نحن فتحنا هذا البلد وهو منا هذا الجيش ونحو ذلك²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } طه 85 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَقْوَامٌ آبَاءُهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ } {71} الصافات 69- 71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا } {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67 - 68 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى } طه 123 ثم يقرن بالغي والغضب كما فى قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم 2 وفى قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } القمر³ 47

2- ان كل نهى فففيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي فهو أمر فالأمر يتناول هذا وهذا ومنه قول موسى لأخيه { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا } {92} أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } {93} طه 92-93 وموسى قال له { اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ } الأعراف 142 نهى وهو لومه على أنه لم يتبعه وقال أفعصيت أمرى وعباد العجل كانوا مفسدين وقد جعل هذا كله أمرا⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 644

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 128

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

⁴مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 677

3- قال تعالى { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {92} أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي {93} طه
92-93 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل
عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَفْوًا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ {69}
فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ {71} الصافات 69- 71 وقوله
{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ
لَعْنَا كَبِيرًا {68} الأحزاب 67- 68 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {طه 123 ثم
يقرن بالغي والغضب كما في قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى {النجم 2 وفي قوله {غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {الفاحة 7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ {القمر 47¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

طه 99-114

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا} {99} مَنْ
أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا {100} خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ حِمْلًا {101} يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا {102} يَتَخَفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا {103} نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا {104} وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي
نَسْفًا {105} فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا {106} لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا {107} يَوْمَئِذٍ
يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا
هَمْسًا {108} يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ
قَوْلًا {109} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا {110} وَعَنْتِ
الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا {111} وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا {112} وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا {113} فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي
عِلْمًا {114}

القرآن أفضل الذكر

قال تعالى { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا } طه 99 و القرآن أفضل
الذكر كما قال تعالى { وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } الأنبياء 50 وقال تعالى { وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
ذِكْرًا } طه 99 وقال تعالى { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى
طه 124 وقال { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ } الشعراء 5¹

لم يقل الله تعالى ليتقون ويحدث لهم ذكرا

قال في طريقتي العلم والعمل قال الله تعالى لموسى وهارون { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } طه 44 وقال تعالى في السورة بعينها { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ
وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا } 99 { مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا } 100 { خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ
لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا } 101 { يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا } 102 { يَتَخَفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا } 103 { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا } 104

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 284

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا {105} فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا {106} لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلًا وَلَا أَمْتًا {107} يَوْمَئِذٍ يَنْبَعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا {108} يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا {109} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا {110} وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا {111} وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا {112} وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا {113} طه 99-113 فذكر في كل واحدة من الرسائل العظيمة رسالة موسى ورسالة محمد أن ذلك لأجل التذكير أو الخشية ولم يقل ليتذكر ويخشى ولا قال ليتقون ويحدث لهم ذكرا بل جعل المطلوب أحد الأمرين وهذا مطابق لقوله {اذع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} النحل 125 ونحو ذلك وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه نعم العبد صهيب لولم يخف الله لم يعصه وذلك يرجع إلى تحقيق قوله {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} {7} الفاتحة 7 وقوله {وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} {العصر 3} وقوله {أولي الأيدي والأبصار} {ص 45} وقوله {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} {البقرة 5} وقوله {إن المجرمين في ضلال وسعر} {القمر 47} وقوله {فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} {123} {ومن عرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} {124} طه 123-124 الآية ونحو ذلك وسبب ذلك أن العمل إما بمعرفة الحق وإتباعه فى العلم والعمل جميعا صلاح القول والعمل العلم والإرادة والعلم أصل العمل و أصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له مالم يحصل معارض مانع فالعلم بالحق يوجب إتباعه إلا لمعارض راجح مثل إتباع الهوى بالإستكبار ونحوه كحال الذين قال الله فيهم {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا} الأعراف 146 وقال {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} النمل 14 وقال {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} الأنعام 33 ولهذا قال {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله} ص 26 ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التى فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق إتبعته وأحبته إذ الحق نوعان حق موجود فالواجب معرفته والصدق فى الإخبار عنه وضد ذلك الجهل والكذب وحق مقصود وهو النافع للإنسان فالواجب إرادته والعمل به وضد ذلك إرادة الباطل وإتباعه ومن المعلوم أن الله خلق فى النفوس محبة العلم دون الجهل ومحبة الصدق دون الكذب ومحبة النافع دون الضار وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك كما انه فى صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار فإذا إشتهى ما يضره أن كره ما ينفعه فلمرض فى الجسد وكذلك أيضا إذا إندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح كما أن الجسد إذا إندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع سبب للأخر وذلك سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لصد ذلك فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب وإذا كان كذلك فصلاح بنى آدم الإيمان والعمل الصالح ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان أحدهما الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالا والثانى إتباع الهوى والشهوة اللذين فى النفس فيكونون غواة مغضوبا عليهم ولهذا قال {والنجم إذا هوى} {1} ما ضل صاحبكم وما غوى} {2} النجم 1-2 وقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فوصفهم بالرشد الذى هو خلاف الغي وبالهدى الذى هو خلاف الضلال وبهما يصلح العلم والعمل جميعا ويصير

الإنسان عالما عادلا لا جاهلا ولا ظالما وهم في الصلاح على ضربين تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له إتبعه وعمل به فهذا هو الذي يدعى الحكمة وهو الذي يتذكر وهو الذي يحدث له القرآن ذكرا والثاني ان يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة وهذا هو القسم الثاني المذكور في قوله { أَوْ يَخْشَى طه44 وفي قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ طه113 وقد قال في السورة في قصة فرعون { أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {17} فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى {18} وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى {19} } النازعات 17-19 فجمع بين التزكى والهدى والخشية كما جمع بين العلم والخشية في قوله { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ {فاطر28 وفي قوله { وَفِي نَسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ {الأعراف154 وفي قوله { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا {66} وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا {67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا {68} النساء66-68 وذلك لما ذكرنا من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر والذكر الذي يحدثه القرآن ومن الخشية المانعة من إتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان وهو مستلزم للآخر إذا قوى على ضده فإذا قوى العلم والتذكر دفع الهوى وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا ولهذا كان فسادهما بانتفاء كل منهما فإذا انتفى العلم الحق كان ضالا غير مهتد وإذا انتفى إتباعه كان غاويا مغضوبا عليه ولهذا قال { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {الفاحة7 وقال { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى {1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى {2} وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى {3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى {4} النجم1-4 وقال في ضد ذلك { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ {النجم23 وقال { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ {القصص50 وقال { وَإِنْ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ {الأنعام119 وقال { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى طه123 وقال في ضده { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى طه124 وقال { أَوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {لقمان5 وقال في ضده { إِنْ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {القمر47 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وإتبع ما فيه أن يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة وبين الضلال والشقاوة بين حسنة الدنيا والآخرة وسيئة الدنيا والآخرة ويقرن بين النافع والعمل الصالح بين العلم الطيب والعمل الصالح كما يقرن بين ضديهما وهو الضلال والغى إتباع الظن وما تهوى الأنفس والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي والاستعادة كان الذم والنهي لكل منهما من الضلال والغى من الجهل والظلم من الضلال والغضب ولأن كلا منهما صار مكروها مطلوب العدم لا سيما وهو مستلزم للآخر وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما وقد يطلب كل منهما وقد يحمد أحدهما وقد يحمد كل منهما لأن كل منهما خير مطلوب محمود وهو سبب لحصول الآخر لكن كمال الصلاح يكون بوجودهما جميعا وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما ولم يعارضه معارض والداعى للخلق الأمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين فيطلب أحدهما لأنه مطلوب في نفسه وهو سبب للآخر فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعا فقد يثقل ذلك عليه والأمر ببناء والنهي هدم والأمر هو يحصل العافية بتناول الأدوية والنهي من باب الحمية والبناء والعافية تأتي شيئا بعد شيء وأما الهدم فهو أعدل والحمية أعم وإن كان قد يحصل فيهما ترتيب أيضا فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سببا وطريقا إلى حصول المقصود مع حصول الآخر فقوله سبحانه { لَعَلَّهُ يَنْدَكَّرُ أَوْ يَخْشَى طه44 وقوله { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا

{طه 113} طلب وجود أحد الأمرين بتبليغ الرسالة وجاء بصيغة لعل تسهيلا للأمر ورفقا وبيانا لأن حصول احدهما طريق إلى حصول المقصود فلا يطلبان جميعا في الإبتداء ولهذا جاء في الأثر إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها لا سيما اصول الحسنات التي تستلزم سائرهما مثل الصدق فإنه أصل الخير كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ولهذا قال سبحانه { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ {221} تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ {222} الشعراء 221-222 } وقال { وَيَلُكُلُ أَفَّاكًا أَثِيمًا {7} يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا {8} الجاثية 7-8 } ولهذا يذكر أن بعض المشايخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال يا بني أنا أمرك بخصلة واحدة فأحفظها لى ولا أمرك الساعة بغيرها التزم الصدق وإياك الكذب وتوعده على الكذب بوعيد شديد فلما التزم ذلك الصدق دعاه إلى بقية الخير ونهاه عما كان عليه فإن الفاجر لاحد له فى الكذب¹

الجبال آية من آيات الله

الجبال خلقها الله وجعلها أوتادا للأرض وآية من آياته وفيها من منافع خلقه ما هو نعم الله على عباده وسوف يفعل بها ما أخبر به فى قوله { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا {105} فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا {106} لَا تَبْقَىٰ فِيهَا جَبَلٌ وَلَا أَمْتًا {107} طه 105-107 }²

{ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا }

خشوع الأصوات كقوله تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } طه 108 وهو إنخاضها وسكونها³

قال تعالى { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا {99} مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا {100} خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا {101} يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا {102} يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا {103} نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا {104} وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا {105} فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا {106} لَا تَبْقَىٰ فِيهَا جَبَلٌ وَلَا أَمْتًا {107} يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 239

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 51

³مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 565

عَوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا {108} يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا {109} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا {110} وَعَنْتِ الْأُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا {111} وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا {112} وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ زِكْرًا {113} طه 99-113 وفي حديث التجلي الذي في الصحيح لما ذكر مرورهم على الصراط قال صلى الله عليه وسلم ولا يتكلم أحد إلا الرسل ودعوى الرسل اللهم سلم سلم فهذا في وقت المرور على الصراط وهو بعد الحساب والميزان فكيف بما قبل ذلك وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل وأولي العزم وكل يقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني فعلت كذا وكذا نفسي نفسي نغمی¹

{يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا }

كما ثبت عنه في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول ربنا و لك الحمد ملء السماء و ملء الأرض و ملء ما بينهما و ملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد فهذا حمد و هو شكر الله تعالى و بيان أن حمده أحق ما قاله العبد ثم يقول بعد ذلك اللهم لا مانع لما أعطيت و لا معطي لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد و هذا تحقيق لوحديته لتوحيد الربوبية خلقا و قدرا و بداية و هداية هو المعطي المانع لا مانع لما أعطى و لا معطى لما منع و لتوحيد الالهية شرعا و أمرا و نهيا و هو أن العباد و إن كانوا يعطون ملكا و عظمة و بختا و رياسة في الظاهر أو في الباطن كأصحاب المكاشفات و التصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك الجد أي لا ينجيه و لا يخلصه من سؤالك و حسابك حظه و عظمته و غناه ولهذا قال لا ينفعه منك و لم يقل لا ينفعه عندك فإنه لو قيل ذلك أو هم أنه لا يتقرب به اليك لكن قد لا يضره فيقول صاحب الجد إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي كالذين أتوا النبوة و الملك لهم ملك في الدنيا و هم من السعداء فقد يظن ذو الجد الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده أنه كذلك فقال ولا ينفع ذا الجد منك ضمن ينفع معنى ينجى و يخلص فبين أن جده لا ينجيه من العذاب بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله و لا ينفعه جده منك فلا ينجيه و لا يخلصه فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد و تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 و قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 و قوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} هود 88 و قوله {وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْ لَهُ تَبَيَّنًا} 8 {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} 9 {المزمل 8-9} فقولته لا مانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت توحيد الربوبية الذي يقتضى أنه سبحانه هو الذي يسأل و يدعى و يتوكل عليه وهو سبب لتوحيد الالهية و دليل عليه كما يحتج به في القرآن على المشركين فان المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد توحيد الربوبية و مع هذا يشركون بالله فيجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله و يقولون إنهم شفعاؤنا عنده و إنهم يتقربون بهم اليه فيتخذونهم شفعا و قربانا كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} {يونس 18} و قال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} {الزمر 3} و قال تعالى {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {27}

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 141

فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَى ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِيَّاهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ {28} {الأحقاف 27-28} وهذا التوحيد هو عبادة الله و حده لا شريك له و أن لانعبده إلا بما أحبه و ما رضىه و هو ما أمر به و شرعه على ألسن رسله صلوات الله عليهم فهو متضمن لطاعته و طاعة رسوله و موالاته أوليائه و معاداة أعدائه و أن يكون الله و رسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما و هو يتضمن أن يحب الله حبا لا يماثله و لا يساويه فيه غيره بل يقتضى أن يكون رسوله صلى الله عليه و سلم أحب إليه من نفسه فإذا كان الرسول لأجل أنه رسول الله يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه فكيف بربه سبحانه و تعالى و فى صحيح البخاري أن عمر قال يارسول الله و الله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال فو الذي بعثك بالحق إنك لأحب إلي من نفسي قال الآن يا عمر وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} {الأحزاب 6} و قال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} {التوبة 24} فان لم يكن الله و رسوله و الجهاد فى سبيله أحب إلى العبد من الأهل و المال على اختلاف أنواعه فانه داخل تحت هذا الوعيد فهذا التوحيد توحيد الالهية يتضمن فعل المأمور و ترك المحذور و من ذلك الصبر على المقذور كما أن الأول يتضمن الاقرار بأنه لا خالق و لا رازق معطي و لا مانع إلا الله و حده فيقتضى أن لا يسأل العبد غيره و لا يتوكل إلا عليه و لا يستعين إلا به كما قال تعالى فى النوعين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {الفاحة 5} و قال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} {هود 123} وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين و المشركين و عليه يقع الجزاء و الثواب فى الأولى و الآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين فان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون و كانوا يعبدون مع الله غيره و يحبونهم كما يحبونه فكان ذلك التوحيد الذي هو توحيد الربوبية حجة عليهم فاذا كان الله هو رب كل شيء و مليكه و لا خالق و لا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه و ليس له عليهم خلق و لا رزق و لا بيده لهم منع و لا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرا و لانفعا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا فان قالوا ليسفح فقد قال الله {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} {البقرة 255} فلا يشفع من له شفاعه من الملائكة و النبيين إلا باذنه و أما قبورهم و ما نصب عليها من قباب و أنصاب أو تماثيلهم التى مثلت على صورهم مجسدة أو مرقومة فجعل الاستشفاع بها استشفاعا بهم فهذا باطل عقلا و شرعا فانها لاشفاعه لها بحال و لا لسائر الأصنام التى عملت للكواكب و الجن و الصالحين و غيرهم وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا باذنه و لا يشفعون إلا لمن ارتضى فما بقي الشفعاء شركاء كشفاعة المخلوق عند المخلوق فان المخلوق يشفع عنده نظيره أو من هو أعلى منه أو دونه بدون إذن المشفوع اليه و يقبل المشفوع إليه و لابد شفاعته إما لرغبته إليه أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه و إما لرهبته منه و إما لمحبهته إياه و إما للمعاوضة بينهما و المعاونة و إما لغير ذلك من الأسباب و تكون شفاعه الشفيع هي التى حركت إرادة المشفوع إليه و جعلته مريدا للشفاعة بعد أن لم يكن مريدا لها كأمر الأمر الذي يؤثر فى المأمور فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريدا لفعله و كذلك سؤال المخلوق للمخلوق فانه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله فالشفيع كما أنه شافع للطالب شفاعته فى الطلب فهو أيضا قد شفع المشفوع إليه فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب و المطلوب و الله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه فالأمر كله إليه و حده فلا شريك له بوجه و لهذا ذكر سبحانه نفي ذلك فى آية الكرسي التى فيها تقرير التوحيد فقال {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}

{البقرة 255 وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إذ سجد و حمد ربه يقال له ارفع راسك و قل يسمع و سل تعطه و اشفع تشفع فيحد له حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله كما قال { قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ } آل عمران 154 و قال لرسوله { أَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } آل عمران 128 و قال { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } الأعراف 54 فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا باذنه فهو يأذن لمن يشاء و لكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح اشفعوا توجروا و يقضى الله على لسان نبيه ما شاء و إذا دعاه الداعي و شفّع عنده الشفيع فسمع الدعاء و قبل الشفاعة لم يكن هذا مؤثرا فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق فانه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو و هذا يشفع و هو الخالق لأفعال العباد فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها و هو الذي وفقه للعمل ثم أثابه عليه و هو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سببا لما يفعله و هذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر و أن الله خالق كل شيء و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و لا يكون شيء إلا بمشيئته و هو خالق أفعال العباد كما هو خالق سائر المخلوقات قال يحيى بن سعيد القطان ما زلت أسمع أصحابنا يقولون إن الله خالق أفعال العباد و لكن هذا يناقض قول القدرية فانهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث و يخلق أفعاله بدون مشيئة الله و خلقه لهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلا لما لم يكن فاعلا له فبدعائه جعله مجيبا له و بتوبته جعله قابلا للتوبة و بشفاعته جعله قابلا للشفاعة و هذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه فان الاذن نوعان إذن بمعنى المشيئة و الخلق و إذن بمعنى الإباحة و الاجازة فمن الأول قوله في السحر { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 102 فان ذلك بمشيئة الله و قدرته و إلا فهو لم يبيح السحر و القدرية تنكر هذا الاذن و حقيقة قولهم إن السحر يضر بدون إذن الله و كذلك قوله { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ } آل عمران 166 فان الذي أصابهم من القتل و الجراح و التمثيل و الهزيمة إذا كان باذنه فهو خالق لأفعال الكفار و لأفعال المؤمنين و النوع الثاني قوله { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } {45} وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } {46} الاحزاب 45-46 و قوله { وَمَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ } الحشر 5 فان هذا يتضمن اباحته لذلك و اجازته له و رفع الجناح و الحرج عن فاعله مع كونه بمشيئته و قضائه فقوله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ } البقرة 255 هو هذا الاذن الكائن بقدره و شرعه و لم يرد بمجرد المشيئة و القدر فان السحر و انتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الاذن فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقا لها و قادرا عليها و مشيئا لها فعنده كل شافع و داع قد فعل ما فعل بدون خلق الله و قدرته و ان كان قد أباح الشفاعة و أما الكفر و السحر و قتال الكفار فهو عندهم بغير اذنه لا هذا الاذن و لا هذا الاذن فانه لم يبيح ذلك باتفاق المسلمين و عندهم أنه لم يشأه و لم يخلقه بل كان بدون مشيئته و خلقه و المشركون المقرون بالقدر يقولون ان الشفعاء يشفعون بالاذن القدري و ان لم يأذن لهم أباحه و جوازا و من كان مكذبا بالقدر مثل كثير من النصارى يقولون ان شفاعة الشفعاء بغير اذن لا قدري و لا شرعي و القدرية من المسلمين يقولون يشفعون بغير اذن قدري و من سأل الله بغير اذنه الشرعي فقد شفّع عنده بغير اذن قدري و لا شرعي فالداعي المأذون له فى الدعاء مؤثر فى الله عندهم لكن باباحته و الداعي غير المأذون له إذا أجاب دعاءه فقد أثر فيه عندهم لا بهذا الاذن و لا بهذا الاذن كدعاء بلعام بن باعوراء و غيره و الله تعالى يقول { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 فان قيل فمن الشفعاء من يشفع بدون اذن الله الشرعي و ان كان خالقا لفعله كشفاعة نوح لابنه و شفاعة ابراهيم لأبيه و شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن ابي بن سلول حين صلى عليه بعد موته و قوله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 قد قلتم

أنه يعم النوعين فانه لو أراد الاذن القدري لكان كل شفاعه داخله في ذلك كما يدخل في ذلك كل كفر و سحر و لم يكن فرق بين ما يكون باذنه و ما لا يكون باذنه و لو اراد الاذن الشرعي فقط لزم قول القدريه و هؤلاء قد شفَعوا بغير اذن شرعي قيل المنفى من الشفاعه بلا اذن هي الشفاعه التامه و هي المقبولة كما في قول المصلي سمع الله لمن حمده اي استجاب له و كما في قوله تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 و قوله { إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا } النازعات 45 و قوله { فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِدَ } ق 45 و نحو ذلك فان الهدى و الاذكار و التذكير و التعليم لا بد فيه من قبول المتعلم فاذا تعلم حصل له التعليم المقصود و الا قيل علمته فلم يتعلم كما قيل { وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } فصلت 17 فكذلك الشفاعه فالشفاعه مقصودها قبول المشفوع اليه و هي الشفاعه التامه فهذه هي التي لا تكون الا باذنه و اما اذا شفَع شفيع فلم تقبل شفاعته كانت كعدمها و كان على صاحبها التوبه و الاستغفار منها كما قال نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ } هود 47 و كما نهى الله النبي صلى الله عليه و سلم عن الصلاة على المنافقين و قال له { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } التوبه 84 و قال له { سَوَاءَ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } المنافقون 6 و لهذا قال على لسان المشركين { فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ } 100 { وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ } 101 { الشعراء 100-101 فالشفاعه المطلوبه هي شفاعه المطاع الذي تقبل شفاعته و هذه ليست لأحد عند الله إلا باذنه قدرا و شرعا فلا بد أن يأذن فيها و لا بد أن يجعل العبد شافعا فهو الخالق لفعله و المبيح له كما في الداعي هو الذي أمره بالدعاء و هو الذي يجعل الداعي داعيا فالأمر كله لله خلقا و أمرا كما قال { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } الأعراف 54 و قد روي في حديث ذكره ابن أبي حاتم و غيره أنه قال فمن يثق به فليدعه أي فلم يبق لغيره لا خلق و لا أمر و لما كان المراد بالشفاعه المثبتة هي الشفاعه المطلقة و هي المقصود بالشفاعه و هي المقبولة بخلاف المردوده فان أحدا لا يريد لها لا الشافع و لا المشفوع له و لا المشفوع إليه و لو علم الشافع و المشفوع له أنها ترد لم يفعلوها و الشفاعه المقبولة هي النافعة بين ذلك في مثل قوله { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } سبأ 23 و قوله { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه 109 فنفي الشفاعه المطلقة و بين أن الشفاعه لا تنفع عنده إلا لمن أذن له و هو الاذن الشرعي بمعنى أباح له ذلك و أجاز له كما قال تعالى { أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا } الحج 39 و قوله { لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ } الأحزاب 53 و قوله { لَيْسَتِ أَدْنَاكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } النور 58 و نحو ذلك و قوله { إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ } طه 109 هو إذن للمشفوع له فلا يأذن في شفاعه مطلقة لأحد بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعه فيه قال تعالى { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } 108 { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } 109 طه 108-109 و فيه قولان قيل إلا شفاعه من أذن له الرحمن وقيل لا تنفع الشفاعه إلا لمن أذن له الرحمن فهو الذي تنفعه الشفاعه وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين لا يذكرون غيره لأنه لم يقل لا تنفع إلا من أذن له و لا قال لا تنفع الشفاعه إلا فيمن أذن له بل قال لا تنفع الشفاعه إلا من أذن له فهي لا تنفع و لا ينتفع بها و لا تكون نافعة إلا للمأذون لهم كما قال تعالى في الآية الأخرى { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } سبأ 23 و لا يقال لا تنفع إلا لشفيع مأذون له بل لو أريد هذا لقليل لا تنفع الشفاعه عنده إلا من أذن له و إنما قال { إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } سبأ 23 و هو المشفوع له الذي تنفعه الشفاعه و قوله { حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ } سبأ 23 لم يعد الى الشفاء بل عاد إلى المذكورين في قوله { وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ

ظهير {22} سبا 22 ثم قال {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ} سبا 23 ثم بين أن هذا منتف {حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ} {23} سبا 23 فلا يعلمون ماذا قال حتى يفرع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع فهذا الأذن هو الأذن المطلق بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط فانه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له إذ قد يأذن له إذا خاصا وهكذا قال غير واحد من المفسرين قالوا وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين وكذلك قال السلف في هذه الآية قال قتادة في قوله {إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109 قال كان أهل العلم يقولون إن المقام المحمود الذي قال تعالى عسى أن يبيعتك ربك مقاما محمودا هو شفاعته يوم القيامة وقوله {إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109 إن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض قال البغوي {إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109 أذن الله له أن يشفع له {وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109 أي ورضى قوله قال ابن عباس يعنى قال لا إله إلا الله قال البغوي فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن وقد ذكروا القولين في قوله تعالى {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} سبا 23 و قدم طائفة هناك أن المستثنى هو الشافع دون المشفوع له بخلاف ما قدموه هنا منهم البغوي فانه لم يذكر هنا في الاستثناء إلا المشفوع له و قال هناك {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} سبا 23 فى الشفاعة قاله تكديبا لهم حيث قالوا {هُؤَلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} يونس 18 قال ويجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن له أن يشفع له وكذلك ذكروا القولين فى قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ شَهِدَ بِالْحَقِّ} الزخرف 86 و سنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى و نبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين و أنه منقطع و معنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية و هو يعم النوعين و ذلك أنه سبحانه قال {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109 و الشفاعة مصدر شفع شفاعته و المصدر يضاف الى الفاعل تارة و الى محل الفعل تارة و يماثله الذي يسمى لفظه المفعول به تارة كما يقال أعجبنى دق الثوب و دق القصار و ذلك مثل لفظ العلم يضاف تارة الى العلم و تارة الى المعلوم فالأول كقوله {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} البقرة 255 و قوله {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} النساء 166 و قوله {أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ} هود 14 و نحو ذلك والثاني كقوله {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} لقمان 34 فالساعة هنا معلومة لا عالمة و قوله حين قال فرعون {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} طه 51 قال موسى {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} طه 52 و مثل هذا كثير فالشفاعة مصدر لا بد لها من شافع و مشفوع له و الشفاعة تعم شفاعته كل شافع و كل شفاعة لمشفوع له فاذا قال {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ} طه 109 نفى النوعين شفاعته الشفعاء و الشفاعة للمذنبين فقوله {إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ} طه 109 يتناول النوعين من أذن له الرحمن و رضى له قولاً من الشفعاء و من أذن له الرحمن و رضى له قولاً من المشفوع له و هي تنفع المشفوع له متخلصه من العذاب و تنفع الشافع فتقبل منه و يكرم بقبولها و يثاب عليه و الشفاعة يؤمئذ لا تنفع لا شافعا و لا مشفوعا له {إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} النبأ 38 فهذا الصنف المأذون لهم المرضى قولهم هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة و هذا موافق لسائر الآيات فانه تارة يشترط فى الشفاعة اذنه كقوله {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 و تارة يشترط فيها الشهادة بالحق كقوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} الزخرف 86 {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ} الزخرف 86 ثم قال {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} الزخرف 86 وهنا اشترط الأمرين أن يأذن له الرحمن و أن يقول صوابا و المستثنى يتناول مصدر الفاعل و المفعول كما تقول لا ينفع الزرع إلا في وقته فهو يتناول زرع الحارث و زرع الأرض لكن هنا قال {إِلَّا

مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ {طه109} والاستثناء مفرغ فانه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا و إنما قال { لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ {طه109} فاذا لم يكن فى الكلام حذف كان المعنى لا تنفع الشفاعة الا هذا النوع فانهم تنفعهم الشفاعة و يكون المعنى أنها تنفع الشافع و المشفوع له و ان جعل فيه حذف تقديره لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن كان المصدر مضافا الى النوعين كل واحد بحسبه يضاف الى بعضهم لكونه شافعا و الى بعضهم لكونه مشفوعا له و يكون هذا كقوله {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ {البقرة177} أى من يؤمن و {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ {البقرة171} أى مثل داعي الذين كفروا كمثل الناقع أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به أى الذي ينعق به و المعنى فى ذلك كله ظاهر معلوم فلهذا كان من أفصح الكلام إيجازه دون الاطناب فيه و قوله {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ {طه109} إذا كان من هذا الباب لم يحتج ان الشافع تنفعه الشفاعة و ان لم يكرمه كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة وفى الآية الأخرى {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ {سبأ23} من هؤلاء و هؤلاء لكن قد يقال التقدير لا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه فيكون الاذن للطائفتين و النفع للمشفوع له كأحد الوجهين أو و لا تنفع الا لمن أذن له من هؤلاء و هؤلاء فكما أن الاذن للطائفتين فالنفع أيضا للطائفتين فالشافع ينتفع بالشفاعة و قد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح اشفعوا تؤجروا و يقضى الله على لسان نبيه ما شاء ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمدا صلى الله عليه و سلم هو الشفاعة التى يختص بها و هى المقام المحمود الذى يحمده به الأولون و الآخرون و على هذا لا تحتاج الآية الى حذف بل يكون معناها يومئذ لا تنفع الشفاعة لشافعا و لا مشفوعا { إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا {النبأ38} ولذلك جاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم قال يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء يا صفة عمه رسول الله صلى الله عليه و سلم لا أملك لك من الله من شيء يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء وفى الصحيح أيضا لا أفين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء أو شاة لها يعار أو رقاغ تخفق فيقول أغثنى فأقول قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء فيعلم من هذا أن قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ {الزخرف86} و { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا {النبأ37} على مقتضاه و أن قوله فى الآية { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ {النبأ37} كقوله صلى الله عليه و سلم لا أملك لكم من الله من شيء و هو كقول ابراهيم لأبيه {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ {المتحنة4} وهذه الآية تشبه قوله تعالى { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا {37} } يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا {38} {النبأ37-38} فان هذا مثل قوله {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا {طه109} ففي الموضوعين اشترط اذنه فهناك ذكر القول الصواب و هنا ذكر أن يرضى قوله و من قال الصواب رضى الله قوله فان الله إنما يرضى بالصواب وقد ذكروا فى تلك الآية قولين أحدهما أنه الشفاعة أيضا كما قال ابن السائب لا يملكون شفاعة الا باذنه والثانى لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا باذنه قال مقاتل كذلك قال مجاهد { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا {النبأ37} قال كلاما هذا من تفسيره الثابت عنه و هو من أعلم أو أعلم التابعين بالتفسير قال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به و قال عرضت المصحف على ابن عباس أفقه عند كل آية و أسأله عنها و عليه اعتمد الشافعي و أحمد و البخاري فى صحيحه و هذا يتناول الشفاعة أيضا وفى قوله { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا {النبأ37} لم يذكر استثناء فان أحدا لا يملك من الله خطابا مطلقا إذ المخلوق لا يملك شيئا يشارك فيه الخالق كما قد ذكرناه فى قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ {الزخرف86} أن هذا عام مطلق فان أحدا ممن يدعى

من دونه لا يملك الشفاعة بحال و لكن الله اذا أذن لهم شفَعوا من غير أن يكون ذلك مملوك لهم و كذلك قوله { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا } النبأ 37 هذا قول السلف و جمهور المفسرين و قال بعضهم هؤلاء هم الكفار لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم قال ابن عطية قوله { لَا يَمْلِكُونَ } النبأ 37 الضمير للكفار أي لا يملكون من إفضاله و إكماله أن يخاطبوه بمعذرة و لا غيرها و هذا مبتدع و هو خطأ محض و الصحيح قول الجمهور و السلف أن هذا عام كما قال في آية أخرى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } طه 108 و في حديث التجلي الذي في الصحيح لما ذكر مرورهم على الصراط قال صلى الله عليه و سلم و لا يتكلم أحد إلا الرسل و دعوى الرسل اللهم سلم سلم فهذا في وقت المرور على الصراط و هو بعد الحساب و الميزان فكيف بما قبل ذلك و قد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل و أولى العزم و كل يقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و اني فعلت كذا و كذا نفسي نفسي نفسي فاذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم و أيضا فان هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين و أهل الجنة و بعد أن ذكر الكافرين فقال { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا } 31 { حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا } 32 { وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا } 33 { وَكَأْسًا دِهَاقًا } 34 { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا } 35 { جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا } 36 { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا } 37 النبأ 31-37 ثم قال { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا } 38 النبأ 38 فقد أخبر أن الروح و الملائكة يقومون صفا لا يتكلمون و هذا هو تحقيق قوله { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا } و العرب تقول ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئا أي لا أقدر من أمره على شيء و غاية ما يقدر عليه الانسان من أمر غيره خطابه و لو بالسؤال فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئا و لا الخطاب فانه لا يتكلم أحد إلا باذنه و لا يتكلم { إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا } 38 النبأ 38 قال تعالى { إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأُبَيِّئَ لَكَ مَا أَسْتَعْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } الممتحنة 4 فقد أخبر الخليل أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء فكيف غيره و قال مجاهد أيضا { إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا } النبأ 38 قال حقا في الدنيا و عملا به رواه و الذي قبله عبد بن حميد و روى عن عكرمة { وَقَالَ صَوَابًا } النبأ 38 قال الصواب قول لا إله إلا الله فعلى قول مجاهد يكون المستثنى من أتى بالكلم الطيب و العمل الصالح قوله في سورة طه { يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه 109 فاذا جعلت هذه مثل تلك فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة و هي الشفاعة في الحسنات و في دخول الجنة كما في الصحيحين أن الناس يهتمون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يرحنا من مقامنا هذا فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم و في حديث الشفاعة أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن فهذه شفاعة في أهل الجنة و لهذا قيل إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد صلى الله عليه و سلم و يشفع غيره في العصاة فقوله { يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه 109 يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموما و في أهل الجنة و في المستحقين للعذاب و هو سبحانه في هذه و تلك لم يذكر العمل انما قال { وَقَالَ صَوَابًا } النبأ 38 وقال { وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه 109 لكن قد دل الدليل على أن القول الصواب المرضي لا يكون صاحبه محمودا إلا مع العمل الصالح لكن نفس القول مرضي فقد قال الله { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر 10 وقد ذكر البغوي و أبو الفرج ابن الجوزي و غيرهما في قوله { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } الزخرف 86 قولين أحدهما أن المستثنى هو الشافع و محل من الرفع والثاني هو المشفوع له قال أبو الفرج في معنى الآية قولان أحدهما أنه أراد ب { الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ } الزخرف 86 ألتهم ثم استثنى عيسى و عزيزا و الملائكة فقال { إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ

{ الزخرف 86 } و هو شهادة أن لا إله إلا الله { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } { الزخرف 86 } بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم قال و هذا مذهب الأكثرين منهم قتادة والثاني أن المراد ب { الَّذِينَ يَدْعُونَ } { الزخرف 86 } عيسى و عزيزا و الملائكة الذين عبدهم المشركون لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد { إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ } { الزخرف 86 } و هي كلمة الاخلاص { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } { الزخرف 86 } أن الله خلق عيسى و عزيزا و الملائكة و هذا مذهب قوم منهم مجاهد وقال البغوي { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ } { الزخرف 86 } هم عيسى و عزيز و الملائكة فانهم عبدوا من دون الله و لهم الشفاعة و على هذا تكون من في محل رفع و قيل من في محل خفض و أراد بالذين يدعون عيسى و عزيزا و الملائكة يعنى أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق قال و الأول أصح قلت قد ذكر جماعة قول مجاهد و قتادة منهم ابن أبي حاتم روى بإسناده المعروف على شرط الصحيح عن مجاهد قوله { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ } { الزخرف 86 } عيسى و عزيز و الملائكة يقول لا يشفع عيسى و عزيز و الملائكة { إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ } { الزخرف 86 } يعلم الحق هذا لفظه جعل شفع متعديا بنفسه و كذلك لفظ و على هذا فيكون منصوبا لا يكون مخفوضا كما قاله البغوي فان الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم و يكون على هذا يقال شفعت و شفعت له كما يقال نصحته و نصحت له و شفع أي صار شفيعا للطالب أي لا يشفعون طالبا و لا يعينون طالبا { إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } { الزخرف 86 } أن الله ربهم و روى بإسناده عن قتادة { إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } { الزخرف 86 } الملائكة و عيسى و عزيز أي انهم قد عبدوا من دون الله و لهم شفاعة عند الله و منزلة قلت كلا القولين معناه صحيح لكن التحقيق في تفسير الآية أن الاستثناء منقطع و لا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقا لا يستثنى من ذلك أحد عند الله فانه لم يقل و لا يشفع أحد و لا قال لا يشفع لأحد بل قال { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ } { الزخرف 86 } و كل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة و الشفاعة باذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله و سيد الشفعاء صلى الله عليه و سلم لم يعبد كما عبد المسيح و هو مع هذا له شفاعة ليست لغيره فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع فمن جعل الاستثناء متصلا فان معنى كلامه أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة إلا أن يشهد بالحق و هو يعلم أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق و هو يعلم و يبقى الذين لم يدعوا من دون الله لم تذكر شفاعتهم لأحد و هذا المعنى لا يليق بالقرآن و لا يناسبه و سبب نزول الآية يبطله أيضا و أيضا ف قوله { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ } { الزخرف 86 } يتناول كل معبود من دونه و يدخل في ذلك الأصنام فانهم كانوا يقولون هم يشفعون لنا قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّئُوا اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } { يونس 18 } فاذا قيل إنه استثنى الملائكة و الأنبياء كان في هذا اطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم و هذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة فانه إذا كان المعنى أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم إذا كانوا صالحين و القرآن كله يبطل هذا المعنى و لهذا قال تعالى { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } { النجم 26 } و قال تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } { 26 } { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } { 27 } { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } { 28 } { الأنبياء 28 } فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب فعلم أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه و أنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق و أيضا فان في القرآن إذا نفى الشفاعة من دونه نفاها مطلقا فان قوله { مِنْ دُونِهِ } { الزخرف 86 } إما أن يكون

متصلاً بقوله يملكون أو بقوله يدعون أو بهما فالتقدير لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا وهذا أظهر لأنه قال {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ} الزخرف 86 فأخر {الشَّفَاعَةَ} الزخرف 86 و قدم {مِنْ دُونِهِ} الزخرف 86 ومثل هذا كثير في القرآن {الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} يونس 66 و {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} يونس 18 كقوله {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} يونس 18 وقوله {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} يونس 106 بخلاف ما إذا قيل لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه فان هذا لا نظير له في القرآن و اللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا باذنه أو لمن ارتضى و نحو ذلك لا يقال في هذا المعنى من دونه فان الشفاعة هي من عنده فكيف تكون من دونه لكن قد تكون باذنه و قد تكون بغير إذنه وأيضا فاذا قيل {الَّذِينَ يَدْعُونَ} الزخرف 86 مطلقا دخل فيه الرب تعالى فانهم كانوا يدعون الله و يدعون معه غيره و لهذا قال {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} الفرقان 68 و التقدير الثالث لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه و هذا أجود من الذي قبله لكن يرد عليه ما يرد على الأول و مما يضعفهما أن الشفاعة لم تذكر بعدها صلة لها بل قال {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ} الزخرف 86 فنفى ملكهم الشفاعة مطلقا و هذا هو الصواب و ان كل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة فان المالك للشيء هو الذي يتصرف فيه بمشيئته و قدرته و الرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا باذنه فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال و لا يقال في هذا إلا باذنه إنما يقال ذلك في الفعل فيقال {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 و أما في الملك فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال و لا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكا لها بل هذا ممتنع كما يمتنع أن يكون خالقا و ربا و هذا كما قال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَلْبِ اللَّهِ شَيْئًا سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} البقرة 22 و {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} سبأ 23 فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه لم يثبت أن مخلوقا يملك الشفاعة بل هو سبحانه له الملك و له الحمد و لا شريك له في الملك قال تعالى {نَبَارِكُ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} 1 {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} 2 {الفرقان 1-2} ولهذا لما نفى الشفاعة من دونه نفاهم نفيا مطلقا بغير استثناء و إنما يقع الاستثناء إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه كما قال تعالى {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الأنعام 51 و كما قال تعالى {وَوَدَّعَزَّوَجَدُّ رَبِّهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الأنعام 70 و كما قال تعالى {مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} السجدة 4 فلما قال من دونه نفى الشفاعة مطلقا و إذا ذكر باذنه لم يقل من دونه كقوله {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 و قوله {مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} يونس 3 فمن تدبر القرآن تبين له أنه كما قال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي} الزمر 23 يشبه بعضه بعضا و يصدق بعضه بعضا ليس بمختلف و لا بمتناقض {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء 82 وهو {مَثَانِي} الزمر 23 يثني الله فيه الأقسام و يستوفيها¹

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 376-415 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 134-140 و الحسنة والسيئة ج:

الله سبحانه وتعالى نفى الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك

فالشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق وهي أن يشفع الشفيع الى غيره ابتداء فيقبل شفاعته فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع لم يكن مستقلاً بالشفاعة بل يكون مطيعاً له أى تابعا له في الشفاعة وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للأمر المسؤل وقد ثبت بنص القرآن في غير آية أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه كما قال تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 وقال { **يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا** } طه 109 وقال { **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** } الأنبياء 28 وأمثال ذلك والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية أنه قال { **وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَاٰلِي وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } الأنعام 51 وقال تعالى { **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَاٰلِي وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** } السجدة 4 فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولى ولا شفيع وأما نفى الشفاعة بدون إذنه فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه كما قال تعالى { **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** } 55 { **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** } 56 المائدة 55-56 وأيضا فقد قال { **أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ** } الزمر 43 { **أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ** } 43 { **قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } 44 { **الزمر 43-44** فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعا وأخبر أن الله الشفاعة جميعا فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره إذ لا يشفع أحد الا بإذنه وتلك فهي له¹

وقال تعالى { **قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** } 56 { **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } 57 { **الاسراء 56-57** قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون الي كما تتقربون الي فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم وكذلك الأنبياء والصالحون وان كانوا أحياء في قبورهم وان قدر انهم يدعون للأحياء وان وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ولم يفعل ذلك أحد من السلف لأن ذلك ذريعة الى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم في حياته فانه لا يفضى الى الشرك ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني فلا يؤثر فيه سؤال السائلين بخلاف سؤال أحدهم في حياته فانه يشرع اجابة السائل وبعد الموت انقطع التكليف عنهم وقال تعالى { **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** } 79 { **وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ**

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 117 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 128

وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80} آل عمران 79-80 فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر فالشفاعة نوعان أحدهما الشفاعة التي نفاها الله تعالى كالتي أثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة وضلالهم وهى شرك والثانى أن يشفع الشفيع بإذن الله وهذه التي أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتى ويسجد قال فأحمد ربي بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن فيقال أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فإذا أذن له فى الشفاعة شفع لمن أراد الله أن يشفع فيه¹

ان الله سبحانه وتعالى نفى الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع اليه شفاعة شافع لحاجته اليه رغبة ورهبة وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون هؤلاء خواص الله فنحن نتوسل الى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل الى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب الى الملوك من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج الى إجابة شفاعته رغبة ورهبة فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } {108} {يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} {109} طه 108-109 وقال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } {18} يونس 18 فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا الى الله وصوروا تماثيلهم فعبدهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها قال الله تعالى عن قوم نوح { وَقَالُوا لَا تَنْدُرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَنْدُرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } {23} { وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا } {24} نوح 23-24 قال ابن عباس وغيره هؤلاء قوم صالحون كانوا فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم وهذا مشهور فى كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخارى وغيره وهذه أبطلها النبى وحسم مادتها وسد ذريعتها حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلى فيها لا يستشفع بهم ونهى عن الصلاة الى القبور وأرسل على بن أبى طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً الا سواه ولا تماثلاً إلا طمسه ومحاه ولعن المصورين وعن أبى الهياج الأسدى قال لى على بن أبى طالب لأبعثك على ما بعثنى رسول الله ألا تدع تماثلاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته وفى لفظ ولا صورة إلا طمستها أخرجهم مسلم وأما شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاؤه للمؤمنين فهى نافعة فى الدنيا والدين باتفاق المسلمين وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة فى زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين وقد قيل إن بعض أهل البدعة ينكرها وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية وقال هؤلاء من يدخل

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 330-332

النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي أن الله يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم يخرجهم بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ويخرج آخرين بشفاعة غيره ويخرج قوما بلا شفاعة¹

من قال إن مخلوقا يشفع عند الله بغير إذنه فقد خالف إجماع المسلمين ونصوص القرآن

ونهى سبحانه أن يضرب له مثل بالمخلوق فلا يشبهه بالمخلوق الذي يحتاج إلى الأعوان والحجاب ونحو ذلك قال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} البقرة 186 وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَتَفَعَّلُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } {23} سبأ 22-23 ومحمد سيد الشفعاء لديه وشفاعته أعظم الشفاعات وجاهه عند الله أعظم الجاهات ويوم القيامة إذا طلب الخلق الشفاعة من آدم ثم من نوح ثم من إبراهيم ثم من موسى ثم من عيسى كل واحد يحيلهم على الآخر فإذا جاءوا إلى المسيح يقول إذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فإذهب فإذا رأيت ربي خررت له ساجدا وأحمد ربي بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن فيقال أي محمد إرفع رأسك وقل يسمع وصل تعطه وإشفع تشفع قال فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة الحديث فمن أنكر شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر فهو مبتدع ضال كما ينكرها الخوارج والمعتزلة ومن قال إن مخلوقا يشفع عند الله بغير إذنه فقد خالف إجماع المسلمين ونصوص القرآن قال تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 وقال تعالى { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } الأنبياء 28 وقال تعالى { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } النجم 26 وقال تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً } {108} **يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا** {109} **طه 108-109** وقال تعالى { مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ } يونس 3 وقال تعالى { مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ } السجدة 4 ومثل هذا في القرآن كثير فالدين هو متابعة النبي بأن يؤمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه ويحب ما أحبه الله ورسوله من الأعمال والأشخاص ويبغض ما أبغضه الله ورسوله من الأعمال والأشخاص والله سبحانه وتعالى قد بعث رسوله محمدا بالفرقان ففرق بين هذا وهذا فليس لأحد أن يجمع بين ما فرق الله بينه²

أصول الدين الثلاثة

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 149-153

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 341

ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 فقال ليهنك العلم أبا المنذر وهنا افتتحها بقوله {اللَّهُ} البقرة 255 وهو أعظم من قوله وربك ولهذا افتتح به أعظم سورة في القرآن فقال {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الفاتحة 2 وقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 إذا كان المشركون قد اتخذوا إليها غيره وإن قالوا بأنه الخالق ففي قوله خلق لم يذكر نفي خالق آخر إذ كان ذلك معلوما فلم يثبت أحد من الناس خالقا آخر مطلقا خلق كل شيء وخلق الإنسان وغيره بخلاف الإلهية قال تعالى {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} الأنبياء 68 وقال تعالى {وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشوا وَاصبروا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} ص 6 وقال تعالى {أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} الأنعام 19 وقال تعالى {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْعَرْشَ سَبِيلًا} الإسراء 42 فابتغوا معه آلهة أخرى ولم يثبتوا معه خالقا آخر فقال في أعظم الآيات {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 ذكره في ثلاثة مواضع من القرآن كل موضع فيه أحد أصول الدين الثلاثة وهي التوحيد والرسول والآخرة هذه التي بعث بها جميع المرسلين وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} الأنعام 150 فقال هنا {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 و{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} آل عمران 2 قرنها بأنه لا إله إلا هو وزاد في آل عمران {نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} 3 {مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} 4 {ال عمران 3-4} وهذا إيمان بالكتب والرسول وقال في طه {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} 109 {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} 110 {وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} 111 {طه 109-111} ¹

وصف الله نفسه بالعلم والقوة والرحمة

فإن الله وصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية في مثل قوله {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ} ص 71 وقوله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} النساء 164 وكذلك وصف نفسه بالعلم والقوة والرحمة ونحو ذلك كما في قوله {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} طه 110 ونحو ذلك مما وصف به نفسه في كتابه وما صح عن رسوله فإن القول في جميع ذلك من جنس واحد ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله في النفي والاثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} 1 {اللَّهُ الصَّمَدُ} 2 {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} 3 {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 4} فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} مريم 65 فأنكر أن يكون له سمي وقال تعالى {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} البقرة 22 وقال تعالى {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} النحل 74 وقال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 370-372

{ الشورى 11 } ففيمَا أُخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفو والسمي والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له في صفاته ولا أفعاله¹

قال تعالى { **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** طه 110 } قوله { **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** } البقرة 255 وهؤلاء (المعتزلة) يقولون علمه شيء واحد لا يمكن أن يحاط بشيء منه دون شيء فقالوا ولا يحيطون بشيء من معلومه وليس الأمر كذلك بل نفس العلم جنس يحيطون منه بما شاء و سائره لا يحيطون به و قال { **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** } طه 110 و الراجح من القولين أن الضمير عائد إلى { **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** } البقرة 255 و إذا لم يحيطوا بهذا علما و هو بعض مخلوقات الرب فأن لا يحيطوا علما بالخالق أولى وأحرى²

قال تعالى { **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** } طه 110 أن القرآن اشتمل على أصول الدين التي تستحق هذا الاسم وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية بخلاف ما أحدثه المبتدعون والملحدون كما قال أبو عبدالله الرازي مع خبرته بطرق هؤلاء في اخر عمره في كتابه اقسام اللذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفة فما وجدتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات { **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** } فاطر 10 { **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** } طه 5 و اقرأ في النفي { **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** } الشورى 11 { **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** } طه 110 قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي والخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين في العلم النافع والعمل الصالح وقد بعث الله محمدا بافضل ذلك وهو الهدى ودين الحق كما قال { **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا** } الفتح 28³

{ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا }

وهو لا يمنع من ذلك ما يستحقه العبد اصلا ولا يمنع الثواب الا اذا منع سببه وهو العمل الصالح فأما مع وجود السبب وهو العمل الصالح فإنه من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** } طه 112 وهو سبحانه المعطي المانع لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع لكن من على الانسان بالايمان والعمل الصالح ثم لم يمنعه موجب ذلك اصلا بل يعطيه من الثواب والقرب مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وحيث منعه ذلك فلا يبقى سببه وهو العمل الصالح ولا ريب انه يهدي من يشاء ويضل من يشاء لكن ذلك كله حكمة منه و عدل فمنعه للأسباب التي هي الاعمال الصالحة من حكمته و عدله واما المسببات بعد وجود اسبابها فلا يمنعها بحال الا اذا لم تكن اسبابا صالحة اما

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 324

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 88

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 346 والرد على المنطقيين ج: 1 ص: 321 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 170

لفساد في العمل واما السبب يعارض موجبه ومقتضاه فيكون لعدم المقتضى او لوجود المانع واذا كان منعه وعقوبته من عدم الايمان والعمل الصالح ابتداء حكمة منه وعدل فله الحمد في الحالين وهو المحمود على كل حال كل عطاء منه فضل وكل عقوبة منه عدل فإن الله يقول من تقرب الي شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب الي ذراعا تقربت اليه باعا ومن اتاني يمشي اتيته هرولة وقد اخبر انه من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وانه يضاعفها سبعمائة ضعف ويضاعفها اضعافا كثيرة واخبر انه من هم بحسنة كتبت له حسنة كاملة فإن عملها كتبت له عشر حسنات الي سبعمائة ضعف الي اضعااف كثيرة ومن هم بسيئة لم تكتب عليه فإن تركها لله كتبت له حسنة كاملة وان عملها لم تكتب عليه الا سيئة واحدة وقال سبحانه { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح انه قال الله اشد فرحا بتوبة عبده من احدكم يرى راحلته اذا وجدها عليها طعامه وشرابه لن يكون بتوبة التائب اعظم فرحا من الواجد لطعامه وشرابه ومركبه بعد الخوف المفضى الي الهلاك¹

الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه لا يفعله لعدله

حرم الله الظلم على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } هود 101 وقوله { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } الكهف 49 وقوله { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } فصلت 46 وقوله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا } النساء 40 وقوله { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا } النساء 77 ونفى إرادته بقوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ } آل عمران 108 وقوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ } غافر 31 ونفى خوف العباد له بقوله { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 فإن الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخيار الأمور أوسطها وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن التنازع فيه فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم إلا أن الظلم منه هو نظير الظلم من الأدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال وضربوا الله الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وإثبات الحكم في الأصل بالرأي وقالوا عن هذا إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالما له والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالا كما قالوا إنه لا يقدر أن يضل مهتديا وقالوا عن هذا إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانتة على فعل المأمور كان ظالما إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلما وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرًا ظلم له ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمه أخرى عامة أو خاصة وهذا الموضوع زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 50-52

الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا يقال إنه هو تارك له باختياره ومشيبته وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما وإلا فهمما قدر في الذهن وكان وجوده ممكنا والله قادر عليه فليس بظلم منه سواء فعله أولم يفعله وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الإثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ونحوهم وفسروا هذا الحديث بما ينبني على هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما رويناها عن إياس بن معاوية أنه قال ما ناظرت بعقلي كله أحدا إلا القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا أن تأخذ ما ليس لك أو أن تتصرف فيما ليس لك قلت فله كل شيء وليس هذا من إياس إلا ليبين أن التصرفات الواقعة هي في ملكه فلا يكون ظلما بموجب حدهم وهذا مما لا نزاع بين أهل الإثبات فيه فإنهم متفقون مع أهل الإيمان بالقدر على أن كل ما فعله الله هو عدل وفي حديث الكرب الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضايتك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل ولهذا يقال كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ويقال أعطتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتى إلا ما غفرت لي وهذه المناظرة من إياس كما قاله ربيعة بن أبي عبد الرحمن لغيلان حين قال له غيلان نشدتك الله أترى الله يحب أن يعصى فقال نشدتك الله أترى يعصى قسرا يعني قهرا فكأنما ألقمه حجرا فإن قوله يحب أن يعصى لفظ فيه إجمال وقد لا يتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفا من لدن الخصم فيؤتى بالواضحات فقال أفتراه يعصى قسرا فإن هذا إلزام له بالعجز الذي لازم للقدرية ولمن هو شر منهم من الدهرية الفلاسفية وغيرهم وكذلك إياس رأى أن هذا الجواب المطابق لحدهم خاصم لهم ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول وبالجملة فقله تعالى **{ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112** قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمله عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدر عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا إنه غير مقدر وأراد كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا للعامل المحسن لا يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير وأن الله لا يجزيه إلا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من أذنب كما قال **{ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }** ص 85 فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلئ منهم ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس أن النار تمتلئ ممن كان ألقى فيها حتى ينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط بعد قولها هل من مزيد وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها خلقا آخر ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم فهم إذا كفوا يوم القيامة في العرصات كما جاءت بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى **{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ }**

بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ { فصلت 46 يدل الكلام على أنه لا يظلم محسناً فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئاً فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله { أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى {36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى {37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى {38} وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى {39} النجم 36-39 فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببقاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله { وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى { النجم 39 فليس الأمر كذلك فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا في غير هذا الموضوع نحواً من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكة ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدنيوية وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وأنه لا يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ {هود 101 وقوله { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ { الزخرف 76 بين أن عقاب المجرمين عدلاً لذنوبهم لا لأننا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذي في السنن لو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ {30} مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ {31} غافر 30-31 يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلماً لاستحقاقهم ذلك وأن الله لا يريد الظلم والأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادراً عليها فعمل أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله¹

فجمهور الأئمة على أن الله تعالى منزّه عن أشياء هو قادر عليها ولا يوافقون هؤلاء على أنه لا ينزه عن مقدور الظلم الذي نزه الله سبحانه عنه نفسه في القرآن وحرمه على نفسه وهو قادر عليه وهو هضم الإنسان من حسناته أو حمل سيئات غيره عليه كما قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا {طه 112²

وجماهير المسلمين وسائر أهل الملل سلفهم وخلفهم الذين يقولون إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة ولا يظلم أحداً فينقصه شيئاً من حسناته ولا يحمل عليه شيئاً غيره بل ولا يعذب أحداً إلا بعد إرسال

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 402-406

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 204

رسول اليه كما قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } {112} سورة طه الآية 112 ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل إنه يجوز منه تعالى فعل كل شيء وأن الظلم هو الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة فهؤلاء يقولون إنما يعلم ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين في الجنة لا يعذبهم في النار بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة فضلا أن يعاقبهم بذنب غيرهم مع كراهية لفعلهم ونهيهم عن ذلك¹

أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس بعدل ولا من يقول إنه ليس بحكيم ولا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبا ولا أن يفعل قبيحا فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي أطلقه ومن أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين ولكن هذه مسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين فأما نفاة القدر كالمعتزلة ونحوهم فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية وأما المثبتون للقدر وهو جمهور الأمة وأئمتها كالصحاب والتابعين لهم بإحسان وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وفي تحليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك فقالت طائفة إن الظلم ممتنع منه غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلما وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون إنه لو عذب المطيعين ونعم العصاة لم يكن ظالما وقالوا الظلم التصرف فيما ليس له والله تعالى له كل شيء أو هو مخالفة الأمر والله لا أمر له وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وقال طائفة بل الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزله لا يفعله لعدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئا والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا وقد قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته وقال تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } {101} هود 100- 101 فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم وقال تعالى { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } الزمر 69 فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزله عنه وقال تعالى { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } الأنبياء 47 أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه وقال تعالى { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ } {28} مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } {29} ق 28- 29 وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره وقال تعالى { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } {الأنعام 164} فإن ذلك ينزه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 224

وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وفي الحديث الصحيح لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدوراً له سبحانه فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه على نفسه وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقه والكلام والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم¹

أن الظلم ممكن مقدور وأنه منزّه عنه لا يفعله لعلمه وعدله فهو لا يحمل على أحد ذنب غيره قال تعالى { مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 وعلى هذا فعقوبة الإنسان بذنب غيره ظلم يئزه الله عنه وأما إثابة المطيع بفضل منه وإحسان وإن كان حقاً واجبا بحكم وعده باتفاق المسلمين وبما كتبه على نفسه من الحرمة وبموجب أسمائه وصفاته فليس هو من جنس ظلم الأجير الذي استؤجر ولم يوف أجره فإن هذا معاوضة والمستأجر استوفى منفعته فإن لم يوفه أجره ظلّمه والله تعالى هو المحسن إلى العباد بأمره ونهيه وبإقداره لهم على الطاعة وبإعانتهم على طاعته وهم كما قال تعالى في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلّم ضالاً إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلّم جائعاً إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلّم عاراً إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألتة ما نقص مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفَعوني يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه فبين أن الخير الموجود من الثواب مما يحمد الله عليه لأنه المحسن به وبأسبابه وأما العقوبة فإنه عادل فيها فلا يلومن العبد إلا نفسه كما قيل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وأصحاب هذا القول يقولون الكتاب والسنة إنما تدل على هذا القول والله قد نزه نفسه في غير موضع عن الظلم الممكن المقدور مثل نقص الإنسان من حسناته وحمل سيئات غيره عليه²

الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك المأمور أو فعل المحظور

قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 كان الصواب في قول من يقول إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك المأمور أو فعل المحظور والمعتزلة في هذا وافقوا الجماعة بخلاف الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم فإنهم قالوا بل يعذب من لا ذنب له أو نحو ذلك ثم هؤلاء يحتجون على المعتزلة في نفس الإيجاب والتحريم العقلي بقوله

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 135-137 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

² منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 310-311

تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 وهو حجة عليهم أيضا في نفي العذاب مطلقا إلا بعد إرسال الرسل وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل فأولئك يقولون يعذب من لم يبعث إليه رسولا لأنه فعل القبائح العقلية وهؤلاء يقولون بل يعذب من لم يفعل قبيحا قط كالأطفال وهذا مخالف للكتاب والسنة والعقل أيضا قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 وقال تعالى عن النار { كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ } {8} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ } {9} الملك 8-9 فقد أخبر سبحانه وتعالى بصيغة العموم أنه كلما ألقى فيها فوج سألهم الخزنة هل جاءهم نذير فيعترفون بأنهم قد جاءهم نذير فلم يبق فوج يدخل النار إلا وقد جاءهم نذير فمن لم يأتته نذير لم يدخل النار وقال تعالى لإبليس { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85 فقد أقسم سبحانه أنه يملؤها من إبليس وأتباعه وإنما أتباعه من أطاعه فمن لم يعمل ذنبا لم يطعه فلا يكون ممن تملأ به النار وإذا ملئت بأتباعه لم يكن لغيرهم فيها موضع وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يزال يلقي في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه وفي رواية فيضع قدمه عليها فتقول قط قط وينزوي بعضها إلى بعض أي تقول حسبي حسبي وأما الجنة فيبقى فيها فضل فينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة هكذا روي في الصحاح من غير وجه ووقع في بعض طرق البخاري غلط قال فيه وأما النار فيبقى فيها فضل والبخاري رواه في سائر المواضع على الصواب ليبين غلط هذا الراوي كما جرت عادته بمثل ذلك إذا وقع من بعض الرواة غلط في لفظ ذكر ألفاظ سائر الرواة التي يعلم بها الصواب وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب بخلاف مسلم فإنه وقع في صحيحه عدة أحاديث غلط أنكرها جماعة من الحفاظ على مسلم والبخاري قد أنكر عليه بعض الناس تخريج أحاديث لكن الصواب فيها مع البخاري والذي أنكر على الشيخين أحاديث قليلة جدا وأما سائر متونهما فمما اتفق علماء المحدثين على صحتها وتصديقها وتلقيها بالقبول لا يستريبون في ذلك وقد قال تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } {130} ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } {131} الأنعام 130-131 فقط خاطب الجن والإنس واعترف المخاطبون بأنهم جاءتهم رسل يقصون عليهم آياته وينذرونهم لقاء يوم القيامة ثم قال { ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } الانعام 131 أي هذا بهذا السبب فعلم أنه لا يعذب من كان غافلا ما لم يأتته نذير فكيف الطفل الذي لا عقل له ودل أيضا على أن ذلك ظلم تنزه سبحانه عنه وإلا فلو كان الظلم هو الممتنع لم يتصور أن يهلكهم بظلم بل كيفما أهلكهم فإنه ليس بظلم عند الجهمية الجبرية وقد قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِكُمْ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } القصص 59 وقال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ } هود 117 وقال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قال المفسرون الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن ينقص من حسناته فجعل سبحانه عقوبته بذنب غيره ظلما ونزه نفسه عنه فأخبر أنه خلق الخلق ليجزى كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم أحدا فينقص من حسناته شيئا بل كما قال { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } الكهف 49 ومثل هذا كثير كقوله { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة 286 وقوله { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 وكذلك قوله { لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيَِّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ } {28} مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } {29} ق 28-29 فبين سبحانه أنه قدم بالوعد وأنه ليس بظلام للعبيد كما قال في الآية الأخرى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ }

مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ {101} هود 100-101 فهو سبحانه نزه نفسه عن ظلمهم وبين أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم فمن لم يكن ظالماً لنفسه تكون عقوبته ظلماً تنزه الله عنه وقال في الآية الأخرى {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} {74} لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ {75} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ {76} الزخرف 74-76¹

العبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر وذنب منه يحتاج فيه الى الاستغفار

قد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرت في نفسي ومن ذكرني في ملاء ذكرت في ملاء خير منه ومن تقرب الى شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة وفي بعض الآثار يقول الله تعالى أهل ذكري أهل مجالستي وأهل شكرى أهل زيارتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي وان تابوا فانا حبيبيهم لأن الله يحب التوابين وان لم يتوبوا فانا طبيبيهم ابتليهم بالمصائب حتى اطهرهم من المعائب وقد قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن ينقض من حسنات نفسه وقال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل 118 وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي قال يقول الله تعالى يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى اهدكم عبادى كلكم جائع الى من اطعمته فاستطعمونى اطعمكم يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى اكسكم يا عبادى انكم تذبون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب ولا ابالى فاستغفرونى اغفر لكم يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا فى وصعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى الا كما ينقص المخيط الا اذا غمس فى البحر يا عبادى انما هي اعمالكم احصيتها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ومن ذلك رواه البخارى فى صحيحة عن شداد بن اوس قال قال رسول الله سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم انت ربي لا اله الا الله أنت خلقتنى وأنا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذبك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا انت من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات فى يومه دخل الجنة ومن قالها اذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فالعبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر وذنب منه يحتاج فيه الى الاستغفار وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً فانه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا الى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد آدم وامام المتقين محمد يستغفر فى جميع الاحوال وقال فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ايها الناس توبوا الى ربكم فانى لأستغفر الله واتوب

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 99-105 و مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 175

اليه في اليوم اكثر من سبعين مرة وفي صحيح مسلم انه قال انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة¹

من اتقى الله في عمل تقبله منه وان كان عاصيا في غيره

قال تعالى { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** طه 112 } أي لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه من سيئات غيره و لا يهضم من حسناته و قال تعالى { **مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } ق 29 و قال النبي صلى الله عليه و سلم في حديث البطاقة الذي رواه الإمام أحمد و الترمذي و غيرهما يجاء برجل من أمتي يوم القيامة فتنشر له تسعة و تسعون سجلا كل سجل مد البصر فيقال له هل تنكر من هذا شيئا فيقول لا يارب فيقال له ألك عذر أ لك حسنة فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة و أنه لا ظلم عليك اليوم قال فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله فتوضع البطاقة في كفة و السجلات في كفة فطاشت السجلات و ثقلت البطاقة فقد أخبر النبي صلى الله عليه و سلم أنه لا يظلم بل يثاب على ما أتى به من التوحيد كما قال تعالى { **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** } 7 { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** } 8 { الزلزلة 7-8 }²

تنازع الناس في قوله { **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** } المائدة 27 فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة الا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة وعند المرجئة انما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا اهل الكبائر داخلين في اسم المتقين وعند اهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصا لله موافقا لأمر الله فمن اتقاه في عمل تقبله منه وان كان عاصيا في غيره ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وان كان مطيعا في غيره والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض اذا لم يكن المتروك شرطا في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الاعمال كما قال الله تعالى { **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** } الإسراء 19 وقال تعالى { **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً** } النحل 97 { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ** } النساء 124 وقال { **وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } البقرة 217³

ليس على أحد من وزر غيره شيء

فقوله تعالى { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** } طه 112 قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره و لا يهضم فينقص من حسناته و لا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنع لذاته

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 87-89 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 78 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 78

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 92

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 322-323

خارج عن الممكنات والمقدورات فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا أنه غير مقدور ولو أراد كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا أن يتصور خوفه حتى ينفى خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا العامل المحسن لا يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير وإن الله لا يجزيه إلا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من أذنب كما قال {لَأْمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص85 فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلئ منهم ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس إن النار لا تمتلئ ممن كان القى فيها حتى ينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعد قولها {هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ} ق30 وأما الجنة فيبقى فيها فضل عن يدخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها خلقا آخر ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم إذا كفوا يوم القيامة في العرضات كما جاءت بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} فصلت46 يدل الكلام على أنه لا يظلم محسنا فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله {أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى} {36} وإبراهيم الذي وفى {37} ألا تترر وأزره وزر أخرى {38} وأن ليس للإنسان إلا ما سعى {39} النجم 36-39 فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببياء أهله عليه ينافى الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب¹

العمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له

قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه112 أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وإن كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 141

القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العيان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه¹

اللسان العربي أكمل الألسنة

قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا } طه 113 والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية فالقرآن العربي كلام الله كما قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} النحل 98 إلى قوله {لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ} {103} النحل 103 فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبذل منه آية نزلته روح القدس وهو جبريل وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر من الله بالحق وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } {103} النحل 103 كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي فقال تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ } {103} النحل 103 أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي { وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } {103} النحل 103 ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين نزلها روح القدس من الله بالحق كما قال في الآية الأخرى { أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَلْسِنَةً حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } الأنعام 114 والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق والعلم لا يكون إلا حقا فقال { يَعْلَمُونَ } الأنعام 114 ولم يقل يقولون فان العلم لا يكون إلا حقا بخلاف القول وذكر علمهم ذكر مستشهد به²

قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا } طه 113 فهذا يتضمن إنعام الله على عباده لأن اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بيانا للمعاني فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره وهو إنما خوطب به أولاً العرب ليفهموه ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم وكان إقامة الحجة به على العرب أولاً والإنعام به عليهم أولاً لمعرفة معانيه قبل أن يعرفه غيرهم³

بين الله أنه أنزله عربياً لأن يتقوا والتقوى لا يكون إلا مع العلم بمعانيه

قال أبو عبدالرحمن السلمى لقد حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556
²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 38-39

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 69

حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً وقد قام عبدالله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة في تعلم البقرة ثمانى سنين وانما ذلك لأجل الفهم والمعرفة وهذا معلوم من وجوه أحدها أن العادة المطردة التى جبل الله عليها بنى آدم توجب اعتناءهم بالقرآن المنزل عليهم لفظاً ومعنى بل أن يكون اعتناءهم بالمعنى أوكد فانه قد علم أنه من قرأ كتاباً فى الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك فانه لا بد أن يكون راغباً فى فهمه وتصور معانيه فكيف بمن قرأ كتاب الله تعالى المنزل اليهم الذى به هداهم الله وبه عرفهم الحق والباطل والخير والشر والهدى والضلال والرشاد والغي فمن المعلوم أن رغبتهم فى فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات بل اذا سمع المتعلم من العالم حديثاً فانه يرغب فى فهمه فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلغ عنه بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول فى تعريفهم معانى القرآن أعظم من رغبته فى تعريفهم حروفه فان معرفة الحروف بدون المعانى لا تحصل المقصود اذا اللفظ انما يراد للمعنى الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه فى غير موضع كما قال تعالى { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ } ص 29 وقال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } محمد 24 وقال تعالى { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ } المؤمنون 68 وقال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء 82 فاذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فكيف لا يكون ذلك ممكناً للمؤمنين وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم الوجه الثالث أنه قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 وقال تعالى { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا طه 113 } فبين أنه أنزله عربياً لأن يعقلوا والعقل لا يكون الا مع العلم بمعانيه¹

الأقيسة العقلية التى اشتمل عليها القرآن هى الغاية فى دعوة الخلق إلى الله

قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا طه 113 } كلام الله لا يشتمل الا على حق يقين لا يشتمل على ما تمتاز به الخطابة والجدل عن البرهان بكون المقدمة مشهورة أو مسلمة غير يقينية بل اذا ضرب الله مثلاً مشتتلاً على مقدمة مشهورة أو مسلمة فلا بد وأن تكون يقينية فأما الاكتفاء بمجرد تسليم المنازع من غير أن تكون المقدمة صادقة أو بمجرد كونها مشهورة وان لم تكن صادقة فمثل هذه المقدمة لا يشتمل عليها كلام الله الذى كله حق وصدق وهو أصدق الكلام وأحسن الحديث وليس الأمر كما يتوهمه الجهال الضلال من الكفار المتفلسفة وبعض المتكلمة من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية وعرى عن البرهانية أو اشتمل على قليل منها بل جميع ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية وتكون تارة خطابية وتارة جدلية مع كونها برهانية والأقيسة العقلية التى اشتمل عليها القرآن هى الغاية فى دعوة الخلق إلى الله كما قال { وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا } الكهف 54 فى أول سبحان وآخرها وسورة الكهف والمثل هو القياس ولهذا اشتمل القرآن على

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 158

خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم ونزه الله عما يوجد في كلامهم من الطرق الفاسدة ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال¹

تعالیه عن الشركاء يقتضي إختصاصه بالإلهية

قال تعالى { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } طه 114 فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والأولاد فليس كمثله شيء وهذا يقتضي ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه وأنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال بل هو متعال عن أن يماثله شيء وتضمن أنه عال على كل ما سواه قاهر له قادر عليه نافذة مشيئته فيه وأنه عال على الجميع فوق عرشه فهذه ثلاثة أمور في إسمه العلى وإثبات علوه علوه على ما سواه وقدرته عليه وقهره يقتضي ربوبيته له و خلقه له وذلك يستلزم ثبوت الكمال و علوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال وهذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات والنفي ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال وفي النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال وينزه عن أن يكون له مثل في صفات الكمال كما قد دلت على هذا في سورة الإخلاص { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } {1} { اللَّهُ الصَّمَدُ } {2} الإخلاص 1-2 وتعالیه عن الشركاء يقتضي إختصاصه بالإلهية وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده²

الله سبحانه لا يجب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال

قال تعالى { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } طه 114 قد مدح الله العلم والعقل والفقه وهذا كثير في القرآن يأمر ويمدح التفكير والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقه والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق ونحو ذلك من أنواع العلم واسبابه وكماله ويذم اضداد ذلك³

ومن المعلوم أن الله لا يجب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال وإنما يجب الدين والعلم واليقين وقد ذم الحيرة بقوله تعالى { قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتُبْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {71} وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ الَّتِي كُنْتُمْ يُسْأَلُونَ } {72} الأنعام 71-72 وقد أمرنا الله تعالى أن نقول { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } {7} الفاتحة 6-7 وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النبي كان إذا قام من الليل يصلي يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 47

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 124

³الاستقامة ج: 2 ص: 158

فهو يسأل ربه ان يهديه لما اختلف فيه من الحق وقد قال الله تعالى له { **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** طه114 } وما يذكره بعض الناس عنه انه قال زدني فيك تحيرا كذب باتفاق اهل العلم بحديثه بل هذا سؤال من هو حائر وقد سأل المزيد من الحيرة ولا يجوز لأحد ان يسأل ويدعو بمزيد الحيرة اذا كان حائرا بل يسأل الهدى والعلم¹

قال تعالى { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** {1} **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ** {2} **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ** {3} **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** {4} **عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** {5} العلق1-5 أطلق الخلق ثم خص الإنسان وأطلق التعليم ثم خص التعليم بالقلم والخلق يتضمن فعله والتعليم يتضمن قوله فإنه يعلم بتكليمه وتكليمه بالإيحاء وبالتكليم من وراء حجاب وبإرسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء قال تعالى { **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ** {النساء113} وقال تعالى { **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** {آل عمران61} وقال تعالى { **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** طه114 } وقال تعالى { **الرَّحْمَنُ** {1} **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** {2} **خَلَقَ الْإِنْسَانَ** {3} **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** {4} **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** {5} الرحمن1-5²

الواجب على كل مؤمن إن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده

قال تعالى { **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** طه114 } فإن الله هداه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله { **رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** طه114 } وهذا يقتضي أنه كان عالما وأنه أمر بطلب المزيد من العلم ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله { **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** {الفاطحة6} وقد قال تعالى { **وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** {الشورى52}³

فإن الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان فإذا تبين له من العلم ما كان خافيا عليه اتبعه وليس هذا مذبذبا بل هذا مهتد زاده الله هدى وقد قال تعالى { **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** طه114 } فالواجب على كل مؤمن موالاتة المؤمنين وعلماء المؤمنين وإن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران ومن اجتهد منهم فأخطأ فله أجر لاجتهاده وخطؤه مغفور له وعلى المؤمنين أن يتبعوا أمامهم إذا فعل ما يسوغ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما جعل الإمام ليؤتم به⁴

الله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقيا وحفظه في قلبه

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 178

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 229

³الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 338 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 384

⁴الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 452 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 253

وقال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَهِ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} {القيامة 18} وفي الصحيحين عن ابن عباس قال إن علينا أن نجعله في قلبك ثم أن نقرأه بلسانك فإذا قرأه جبريل فاستمع له حتى يفرغ كما قال في الآية الأخرى {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ} {طه 114} أي لا تعجل بتلاوة ما يقرؤه جبريل عليك من قبل أن يقضي جبريل تلاوته بل استمع له حتى يقضي تلاوته ثم بعد هذا اقرأ ما أنزله إليك وعلينا أن نجمع ذلك في قلبك وأن نقرأه بلسانك ثم أن تبينه للناس بعد ذهاب جبريل عنك¹ فان الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة لأنهم انما كانوا يعتمدون في القرآن على حفظه في صدورهم لا على المصاحف وهو منقول بالتواتر محفوظ في الصدور ولو عدت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة فان المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التي تقبل التغيير والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقيا وحفظه في قلبه لم ينزله مكتوبا كالتوراة وأنزله منجما مفردا ليحفظ فلا يحتاج إلى كتاب كما قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} {الفرقان 32} الآية وقال تعالى {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ} {الإسراء 106} الآية وقال تعالى {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ} {طه 114} الآية وقال تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} {القيامة 17} الآية وفي الصحيح عن ابن عباس قال كان النبي يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفثيه فقال ابن عباس أحركهما لك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحركهما فحرك شفثيه فأنزل الله تعالى {لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} {16} {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} {17} {القيامة 16-17} قال جمعه في صدرك ثم تقرأه {فَإِذَا قَرَأْتَهِ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} {18} {القيامة 18} قال فاستمع له وانصت {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} {19} {القيامة 19} أي نبينه بلسانك فكان النبي إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي كما قرأه فلماذا لم تكن الصحابة ينقون المصاحف ويشكلونها وأيضا كانوا عربا لا يلحنون فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط وكان في اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل يعملون وتعملون فلم يقيدوه باحدهما ليمنعوه من الأخرى ثم أنه في زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها وكانوا يعملون ذلك بالحمرة ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف والكسرة بنقطة حمراء تحته والضمة بنقطة حمراء امامه ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك شد ويعملون المدة بقولك مد وجعلوا علامة الهزمة تشبه العين لأن الهزمة أخت العين ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان الفاظ العدد وغير ذلك وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل أنا وعلى شكل ثنا وتنازع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها على قولين معروفين وهما روايتان عن الامام أحمد لكن لا نزاع بينهم ان المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط كما يجب احترام الحرف ولا تنازع بينهم ان مداد النقطة والشكل مخلوق كما أن مداد الحرف مخلوق ولا نزاع بينهم ان الشكل يدل على الأعراب والنقط يدل على الحروف وان الأعراب من تمام الكلام العربى ويروى عن أبى بكر وعمر انهما قالا حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه ولا ريب ان النقطة والشكلة بمجردهما لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغى أن يجرد الكلام فيهما ولا ريب أن إعراب القرآن العربى من تمامه ويجب الاعتناء باعرابه والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق كذلك يبين الشكل المكتوب للأعراب المنطوق²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 382

² مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 101

لطائف لغوية

1- خشوع الأصوات كقوله تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } طه 108 وهو إنخفاضها وسكونها¹

2- قال تعالى { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } 108 { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } 109 { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } 110 طه 99- 110

فأنه من النفي إثبات عند جمهور العلماء كقوله تعالى { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه 109²

3- قال تعالى { وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا } طه 111 فمعنى القيوم أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم ولا يفنى بوجه من الوجوه³

4- الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى بإتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته⁴

5- قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا } طه 113 وقوله لعلمهم يتقون اللام لام التعليل (لامات كي⁵)

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 565

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 64

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 25

⁴مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

⁵الصفدية ج: 1 ص: 148

طه 115-129

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} {115} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ {116} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ {117} إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ {118} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ {119} فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ {120} فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ {121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ {122} قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ {127} أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ {128} وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى {129}

جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهى عنه

قال تعالى {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} {115} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ {116} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ {117} إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ {118} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ {119} فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ {120} فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ {121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ {122} قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ {127} أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ {128} وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى {129}

المنهى عنه وان جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهى عنه وان مثوبة بني آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات وان عقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات أن أول ذنب عصى الله به كان من أبي الجن وابي الانس وابوي الثقلين المأمورين وكان ذنب أبي الجن أكبر وأسبق وهو ترك المأمور به وهو السجود إباء واستكبارا وذنب أبي الانس كان ذنبا صغيرا {فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} {البقرة 37} وهو إنما فعل المنهى عنه وهو الأكل من الشجرة وإن كان كثير من الناس المتكلمين في العلم يزعم أن هذا ليس بذنب وان آدم تأول حيث نهى عن الجنس بقوله {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} {البقرة 35} فظن أنه الشخص فاختأ أو نسي والمخطيء والناسي ليسا مذنبين وهذا القول يقوله طوائف من أهل البدع والكلام والشيعا وكثير من المعتزلة وبعض الأشعرية وغيرهم ممن يوجب عصمة الأنبياء من

الصغائر وهؤلاء فروا من شيء ووقعوا فيما هو اعظم منه في تحريف كلام الله عن مواضعه وأما السلف قاطبة من القرون الثلاثة الذين هم خير قرون الأمة وأهل الحديث والتفسير وأهل كتب قصص الأنبياء والمبتدأ وجمهور الفقهاء والصوفية وكثير من أهل الكلام كجمهور الأشعرية وغيرهم وعموم المؤمنين فعلى ما دل عليه الكتاب والسنة مثل قوله تعالى **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى طه121}** وقوله **{قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** الأعراف23 بعد أن قال لهما **{ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تُلْكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** الأعراف22 وقوله تعالى **{فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** البقرة37 مع أنه عوقب باخراجه من الجنة وهذه نصوص لا ترد إلا بنوع من تحريف الكلم عن مواضعه والمخطيء والناسي إذا كانا مكلفين في تلك الشريعة فلا فرق وإن لم يكونا مكلفين امتنعت العقوبة ووصف العصيان والاختبار بظلم النفس وطلب المغفرة والرحمة وقوله تعالى **{ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تُلْكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** الأعراف22 وإنما ابتلى الله الأنبياء بالذنوب رفعا لدرجاتهم بالتوبة وتبليغا لهم الى محبته وفرحه بهم فان **{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}** البقرة222 ويفرح بتوبة التائب اشد فرح فالمقصود كمال الغاية لا نقص البداية فان العبد تكون له الدرجة لا ينالها إلا بما قدره الله له من العمل او البلاء وليس المقصود هنا هذه المسألة وانما الغرض أن ينظر تفاوت ما بين الذنبيين اللذين احدهما ترك المأمور به فانه كبير وكفر ولم يتب منه والآخر صغير تيب منه¹

جميع الملائكة سجدوا لآدم

اسجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى **{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}** ص73 فهذه ثلاث صيغ مقرررة للعموم وللإستغراق فإن قوله **{ الْمَلَائِكَةُ}** ص73 يقتضى جميع الملائكة فان اسم الجمع المعروف بالالف واللام يقتضى العموم كقوله رب الملائكة والروح فهو رب جميع الملائكة الثانى **{كُلُّهُمْ}** ص73 وهذا من ابلغ العموم الثالث قوله **{ أَجْمَعُونَ}** ص73 وهذا توكيد للعموم ولم يكن في المأمورين بالسجود أحد من الشياطين لكن أبوهم إبليس هو كان مأمورا فامتنع وعصى وجعله بعض الناس من الملائكة لدخوله في الأمر بالسجود وبعضهم من الجن لأن له قبيلة وذرية ولكونه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور والتحقيق أنه كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا غيرهما وهذا ما استدل به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة لأن الله أمر الملائكة بالسجود له إكراما له ولهذا قال إبليس **{أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ}** الإسراء62 فدل على أن آدم كرم على من سجد له فإن الإسم المجموع المعرف بالالف واللام يوجب إستيعاب الجنس قال تعالى **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}**

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 88-90

فَسَجَدُوا {طه116} فسجود الملائكة يقتضى جميع الملائكة هذا مقتضى اللسان الذى نزل به القرآن فالعدول عن موجب القول العام إلى الخصوص لا بد له من دليل يصلح له وهو معدوم¹

يعرض لخاصة أهل العلم والدين من الوسواس أكثر مما يعرض للعامة

قال تعالى {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلم نَجِدْ لَهُ عَزْماً} {115} {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى} {116} {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَنَسَى} {117} {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} {118} {وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى} {119} {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} {120} {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سُرَاتُهُمَا وَطَفَعََا بِخُصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} {121} {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} {122} {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هَذَايَ فَلَا يُضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} {طه115-123} وكثيرا ما تعرّض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبنتلى بوسواس الشيطان وبوسواس الكفر التى يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذلك صريح الايمان وفى رواية ما يتعاطم ان يتكلم به قال الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيبها فصيير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} {فاطر6} ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى {وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} {الإسراء82} وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران138 وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَاتُهُمْ إِيْمَانًا } {التوبة124} وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} {98} {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {99} {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 345-347

عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} النحل 98-100 فان المستعيز بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائذ بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَأَذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} {34} وَمَا يُقَالُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقَالُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ {35} وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {36} فصلت 34-36 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسئئات ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علماءؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماءهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نعمة فى العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسوس التى تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض¹

علم الله من لوازم نفسه

فإن الله قد أخبر عما يكون من أفعال العباد قبل أن تكون بل أعلم بذلك من شاء من ملائكته و غير ملائكته قال تعالى {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 30 فالملائكة حكما بان الأدميين يفسدون و يسفكون الدماء قبل أن يخلق الإنس و لا علم لهم إلا ما علمهم الله كما قالوا {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} {32} البقرة 32

ثم قال {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 30 و تضمن هذا ما يكون فيما بعد من آدم و إبليس و ذريتهما و ما يترتب على ذلك و دلت هذه الآية على أنه يعلم أن آدم يخرج من الجنة فإنه لولا خروجه من الجنة لم يصر خليفة فى الأرض فإنه أمره أن يسكن الجنة و لا يأكل من الشجرة بقوله {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 282-286

الظَّالِمِينَ {35} البقرة 35 و قال تعالى { فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } {117} إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى } {118} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى } {119} طه 117-119 نهاه أن يخرجها من الجنة و هي نهي عن طاعة إبليس التي هي سبب الخروج و قد علم قبل ذلك أنه يخرج من الجنة و أنه إنما يخرج منها بسبب طاعته إبليس و أكله من الشجرة لأنه قال قبل ذلك { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } البقرة 30 و لهذا قال من قال من السلف أنه قدر خروجه من الجنة قبل أن يأمره بدخولها بقوله { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } البقرة 30 و قال بعد هذا { قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } {36} البقرة 36 و قال تعالى { قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } {24} قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } {25} الأعراف 24-25 و هذا خبر عما سيكون من عداوة بعضهم بعضا و غير ذلك و قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ } {96} وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } {97} يونس 96-97 و قال { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } البقرة 6 و هذا خبر عن المستقبل و أنهم لا يؤمنون و قال تعالى { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85 و قال { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } السجدة 13 و هذا قسم منه على ذلك و هو الصادق البار في قسمه و صدقه مستلزم لعلمه بما أقسم عليه و هو دليل على أنه قادر على ذلك و قد يستدل به على أنه خالق أفعال العباد إذ لو كانت أفعالهم غير مقدورة له لم يمكنه أن يملأ جهنم بل كان ذلك إليهم إن شاؤا عصوه فملأها و إن شاؤا أطاعوه فلم يملأها لكن قد يقال أنه علم أنهم يعصونه فأقسم على جزائهم على ذلك و قد يجاب عن ذلك بأن علمه بالمستقبل قبل أن يكون مستلزم لخلقه له فإنه سبحانه لا يستفيد العلم من غيره كالملائكة و البشر و لكن علمه من لوازم نفسه فلو كانت أفعاله خارجة عن مقدوره و مراده لم يجب أن يعلمها كما يعلم مخلوقاته و بسط هذا له موضع آخر¹

الوسواس في النفس يكون من الشيطان تارة ومن النفس

وكذلك الوسواس في النفس يكون من الشيطان تارة ومن النفس تارة قال تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسْوَسُ بِهِ نَفْسُهُ } ق 16 وقال تعالى { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى } طه 120 وقال { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا } الأعراف 20 والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ومنه وسوسة الحلى وهو الكلام الخفي والصوت الخفي وقد قال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } {1} مَلِكِ النَّاسِ } {2} إِلَهِ النَّاسِ } {3} مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ } {4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } {5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ } {6} النَّاسِ 1-6 وقد قيل إن المعنى من الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة ومن الناس وأنه جعل الناس أولا تتناول الجنة والناس فسامهم ناسا كما سماهم رجالا قاله الفراء وقيل المعنى من شر الوسوس في صدور الناس من الجن ومن شر الناس مطلقا قاله الزجاج ومن المفسرين كأبي الفرج بن الجوزي من لم يذكر غيرهما وكلاهما ضعيف والصحيح أن المراد القول الثالث وهو أن الإستعادة من شر الوسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس فأمر بالاستعادة

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 492

من شر شياطين الإنس والجن كما قال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } الأنعام 112 وفي حديث أبي ذر الطويل الذي رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه بطوله قال يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فقال يا رسول الله أو للإنس شياطين قال نعم شر من شياطين الجن¹

في الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك يا رسول الله قال وإيائي ولكن ربي أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير وفي الصحيح عن عائشة قالت يا رسول الله أو معي شيطان قال نعم قالت ومع كل إنسان قال نعم ومعك يا رسول الله قال نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم والمراد في أصح القولين استسلم وانقاد لي ومن قال حتى أسلم أنا فقد حرف معناه ومن قال الشيطان صار مؤمنا فقد حرف لفظه وقد قال موسى لما قتل القبطي { هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } القصص 15 وقال فتى موسى { وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ } الكهف 63 وذكر الله في قصة آدم وحواء { فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } البقرة 36 وقوله { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا } الأعراف 20²

آدم عليه السلام أراد ما أطمعه الشيطان من الخلد والملك

وقال تعالى { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى } طه 120 وآدم عليه السلام أراد ما أطمعه الشيطان من الخلد والملك³

السيئات منشؤها الجهل والظلم

وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم فإن أحدا لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة أو لهواه وميل نفسه إليها ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو لبغض نفسه لها وفي الحقيقة فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل وإلا فلو كان عالما علما نافعا بأن فعل هذا يضره ضررا راجحا لم يفعله فإن هذا خاصية العاقل ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضررا راجحا كالسقوط من مكان عال أو في نهر يغرقه أو المرور بجانب حائط مائل أو دخول نار متأججة أو رمي

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 186-188

² منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 272

³ الجواب الصحيح ج: 3 ص: 449

ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ومن لم يعلم أن هذا يضره كالصبي والمجنون والساهي والغافل فقد يفعل ذلك ومن أقدم على ما يضره مع علمه من الضرر عليه فإظنه أن منفعته راجحة فأما أن يجزم بضرر مرجوح أو يظن أن الخير راجح فلا بد من رجحان الخير إما في الظن وإما في المظنون كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر لكنه يترجح عنده السلامة والربح وإن كان مخطئاً في هذا الظن وكذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع لم يسرق وكذلك الزاني إذا جزم بأنه يرجم لم يزن والشارب يختلف حاله فقد يقدم على جلد أربع وثمانين ويديم الشرم مع ذلك ولهذا كان الصحيح أن عقوبة الشارب غير محددة بل يجوز أن تنتهي إلى القتل إذا لم ينته إلا بذلك كما جاءت بذلك الأحاديث كما هو مذكور في غير هذا الموضوع وكذلك العقوبات متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه أو يكون غير جازم بعقوبته بل يرجو العفو بحسنات أو توبة أو بعفو الله أو يغفل عن هذا كله ولا يستحضر تحريماً ولا وعيداً فيبقى غافلاً غير مستحضر للتحريم والغفلة من أضرار العلم بالغفلة والشهوة أصل الشر قال تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} {الكهف 28} والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت نفسه عنه بالطبع فإن الله تعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها وبغضا لما يضرها فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً بل متى فعلته كان لضعف العقل ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل وذو نهى وذو حجي ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي منافع لا مضار كما فعل إبليس بأدم وحواء فقال {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} {121} طه 120-121¹

آدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة فقد تاب الله عليه واجتباها وهداه
آدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة فقد تاب الله عليه واجتباها وهداه²

قال الله تعالى لما اهبط آدم ومن معه الى الارض { اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} { قَالَ

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 61

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 415

كَذَلِكَ أَنْتَ آيَاتُنَا فَنَسِيئَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى {127} طه 123-127¹

أن آدم قد تاب الله عليه قبل ان ينزل الى الارض قال تعالى { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى {121} ثُمَّ
اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {122} طه 121-122 } وقال { فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ { البقرة 37 } وقد ذكر انه قال { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ { الأعراف 23 }²

الجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته

لما حاج موسى آدم وقال لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم بكم وجدت مكتوبا علي قبل أن
أخلق { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } طه 121 قال بأربعين سنة قال فحج آدم موسى وهذا الحديث ثابت
في الصحيحين لكن غلط كثير من الناس في معناه فظنوا أن آدم احتج بالقدر على أن الذنب لا يلام
عليه ثم تفرقوا بعد هذا بين مكذب بلفظه ومتأول لمعناه تأويلات فاسدة وهذا فهم فاسد وخطأ عظيم لا
يجوز أن يظن بأقل الناس علما وإيمانا أن يظن أن كل من أذنب فلا ملام عليه لكون الذنب مقدرًا عليه
وهو يسمع ما أخبر الله به في القرآن من تعذيبه لقوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ومدين وقوم لوط
وغيرهم والقدر شامل لجميع الخلق فلو كان المذنب معذورا لم يعذب هؤلاء على ذنوبهم وهو
يعلم ما أرسل الله به رسله محمدا وغيره من عقوبات المعتدين كما في التوراة والقرآن وما أمر الله به
من إقامة الحدود على المفسدين ومن قتال الكافرين وما شرعه الله من إنصاف المظلومين من
الظالمين وما يقضي به يوم القيامة بين عباده من عقوبة الكفار والاقتصاص للمظلوم من الظالم وقد
بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضوع لكن مقصود الحديث أن ما يصيب العبد من المصائب
فهي مقدرة عليه ينبغي أن يسلم لقدر الله كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التغابن 11 قال علقمة هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى
ويسلم وروى الوالبي عن ابن عباس يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم
يكن ليصيبه وقال ابن السائب وابن قتيبة إنه إذا ابتلى صبر وإذا أنعم عليه شكر وإذا ظلم غفر وإن
كانت المصيبة بسبب فعل الأب أو الجد فإن آدم قد تاب من الأكل فما بقي عليه ملام للتوبة والمصيبة
كانت مقدرة فلا معنى للوم آدم عليها فليس للإنسان أن يؤدي مؤمنا جرى له على يديه ما هو مصيبة
في حقه والمؤمن إما معذور وإما مغفور له³

ولم يعذر الله أحدا قط بالقدر و لو عذر به لكان أنبياءه و أوليائه أحق بذلك و آدم إنما حج موسى
لأنه لأمه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا و نفسك من الجنة و ما أصاب العبد
من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله و يعلم أنها مقدرة عليه كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التغابن 11 قال علقمة و قد روى عن ابن مسعود هو الرجل

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 169

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 319 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

³ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 135-137

تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم فالعبد مأمور بالتقوى و الصبر فالتقوى فعل ما أمر به و من الصبر على ما أصابه و هذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام { **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } يوسف 90 و قال تعالى { **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } آل عمران 186 و قال { **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً** } آل عمران 120 و قال { **بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ** } آل عمران 125 لا بد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة و الإستغفار و يبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر و الإستغفار كما قيل لأفضل الخلق { **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** } غافر 55 و قد بسط الكلام في غير هذا الموضوع على مناظرة آدم و موسى فإن كثيرا من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب و السنة و إجماع الأمة و منهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له و الحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه او غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى { **وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** } {121} **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى** } {122} طه 121-122 و قال { **فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** } البقرة 37 و كان آدم و موسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر و يوافقه الآخر و لو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة و لا أهبط من الجنة و موسى هو القائل { **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي** } القصص 16 و هو القائل { **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ ادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } الأعراف 151 و هو القائل { **أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** } الأعراف 155 و هو القائل لقومه { **فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ** } البقرة 54 فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا بل كان الإحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله و قدرها و من الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالمؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب و المعائب و الجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه و سيئاته و لا يعذر بالقدر من أساء إليه و لا يذكر القدر عند ما يبسر الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها و تفضل بها فلا يعجب بها و لا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها و إذا عمل سيئة إستغفر و تاب منها و إذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدره مقضية عليه¹

من ظن ان القدر حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين

ومن ظن ان القدر حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم { **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ** } الأنعام 148 قال الله تعالى رادا عليهم { **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاقُوا بِأَسْنَانِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** } {148} **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** } {149} الأنعام 148-149 ولو كان القدر حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسول

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 96-102

كقوم نوح و عاد و ثمود و المؤتفكات و قوم فرعون و لم يأمر باقامة الحدود على المعتدين و لا يحتج احد بالقدر إلا إذا كان متبعا لهواه بغير هدى من الله و من رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم و العقاب فعليه ان لا يذم احدا و لا يعاقبه إذا اعتدى عليه بل يستوى عنده ما يوجب اللذة و ما يوجب الألم فلا يفرق بين من يفعل معه خيرا و بين من يفعل معه شرا و هذا ممتنع طبعاً و عقلاً و شرعاً و قد قال تعالى { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } ص 28 و قال تعالى { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ } القلم 35 و قال تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } الجاثية 21 و قال تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } المؤمنون 115 و قال تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } القيامة 36 أى مهملاً لا يؤمر و لا ينهى و قد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال احتج آدم و موسى قال موسى يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده و نفخ فىك من روحه و أسجد لك ملائكته لماذا اخرجتنا و نفسك من الجنة فقال له آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه و كتب لك التوراة بيده فيكم و جدت مكتوبا على قبل ان اخلق { **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** } طه 121 قال باربعين سنة قال فلم تلومنى على امر قدره الله على قبل ان اخلق باربعين سنة قال حجج آدم موسى أى غلبه بالحجة و هذا الحديث ضلت فيه طائفتان طائفة كذبت به لما ظنوا انه يقتضى رفع الذم و العقاب عن عصى الله لأجل القدر و طائفة شر من هؤلاء جعلوه حجة و قد يقولون القدر حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه أو الذين لا يرون ان لهم فعلا و من الناس من قال إنما حج آدم موسى لأنه أبوه أو لأنه كان قد تاب أو لأن الذنب كان فى شريعة و اللوم فى اخرى أو لأن هذا يكون فى الدنيا دون الاخرى و كل هذا باطل و لكن وجه الحديث ان موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التى لحقتهم من أجل اكله من الشجرة فقال له لماذا اخرجتنا و نفسك من الجنة لم يلمه لمجرد كونه اذنب ذنباً و تاب منه فان موسى يعلم ان التائب من الذنب لا يلام و هو قد تاب منه ايضا ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 و المؤمن مأمور عند المصائب ان يصبر و يسلم و عند الذنوب ان يستغفر و يتوب قال الله تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 فأمره بالصبر على المصائب و الاستغفار من المعائب¹

من تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس

قال تعالى { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } 121 { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } 122 طه 121-122 خير الخلق الذين يصبرون على المصائب و يستغفرون من المعائب كما قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 و قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } 22 { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } 23 { الْحديد 22-23 و قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } التَّعَابِن 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 258

ويُسلم قال تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } آل عمران 135 وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام انه لما فعل من فعل قال { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وعن ابليس انه قال { بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرِيَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَعُوذُهُمْ أَجْمَعِينَ } الحجر 39 فمن تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس والحديث الذي في الصحيحين في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لما قال له موسى انت آدم ابو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك اسماء كل شيء لماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له آدم انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وخط لك التوراة بيده فيكم وجدت مكتوبا على قبل ان اخلق { وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ } طه 121 قال بكذا وكذا سنة قال فحج آدم موسى وهذا الحديث في الصحيحين من حديث ابى هريرة وقد روى باسناد جيد من حديث عمر رضى الله عنه فأدم عليه السلام انما حج موسى لان موسى لومه على ما فعل لاجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب اكله من الشجرة لم يكن لومه له لاجل حق الله في الذنب فان آدم كان قد تاب من الذنب كما قال تعالى { فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة 37 وقال تعالى { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ } طه 122 وموسى ومن هو دون موسى عليه السلام يعلم انه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب وآدم اعلم بالله من ان يحتج بالقدر على الذنب وموسى عليه السلام اعلم بالله تعالى من ان يقبل هذه الحجة فان هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لابليس عدو آدم وحجة لفرعون عدو موسى وحجة لكل كافر وفاجر وبطل وامر الله ونهيه بل انما كان القدر حجة لأدم على موسى لانه لام غيره لاجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه وقد قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التغابن 11 وقال انس خدمت النبي عشر سنين فما قال لى اف قط ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم افعله لم لا فعلته وكان بعض اهله اذا عاتبني على شيء يقول دعوه فلو قضى شيء لكان¹

من خالف أمر الله فقد عصى و إن كان داخلا فيما قدره الله و قضاه

قال تعالى { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ } {121} { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ } {122} طه 121- 122 { وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ } فهي معصية خاصة²

ومن قال أن آدم ما عصى فهو مكذب للقرآن و يستتاب فإن تاب و إلا قتل فإن الله قال { وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ } طه 121 و المعصية هي مخالفة الأمر الشرعي فمن خالف أمر الله الذي أرسل به رسله و أنزل به كتبه فقد عصى و إن كان داخلا فيما قدره الله و قضاه و هؤلاء ظنوا أن المعصية هي الخروج عن قدر الله و هذا لا يمكن فإن أحدا من المخلوقات لا يخرج عن قدر الله فإن لم تكن المعصية إلا هذا فلا يكون إبليس وفرعون وقوم ونوح وعاد وثمود وجميع الكفار عصاة أيضا لانهم

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 108-109

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

داخلون في قدر الله ثم قائل هذا يضرب و يهان و إذا تظلم ممن فعل هذا به قيل له هذا الذي فعل هذا ليس بعاص فإنه داخل في قدر الله كسائر الخلق و قائل هذا القول متناقض لا يثبت على حال¹

قد اتفق المسلمون على أن الانبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله فلا يجوز أن يقرهم على الخطأ في شيء مما يبلغونه عنه وبهذا يحصل المقصود من البعثة وأما وجوب كونه قبل أن يبعث نبياً لا يخطئ أو لا يذنب فليس في النبوة يستلزم هذا وقول القائل لو لم يكن كذلك لم تحصل ثقة فيما يبلغونه عن الله كذب صريح فإن من آمن وتاب حتى ظهر فضله وصلاحه ونبأه الله بعد ذلك كما نبأ إخوة يوسف ونبأ لوطاً وشعيباً وغيرهما وأيده الله تعالى بما يدل على نبوته فإنه يوثق فيما يبلغه كما يوثق بمن لم يفعل ذلك وقد تكون الثقة به أعظم إذا كان بعد الإيمان والتوبة قد صار أفضل من غيره والله تعالى قد أخبر أنه يبديل السيئات بالحسنات للتائب كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح ومعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل أن يصدر منهم ما يدعونه من الأحداث كانوا من خيار الخلق وكانوا أفضل من أولادهم الذين ولدوا بعد الإسلام ثم يقال وأيضا فجمهور المسلمين على أن النبي لا بد أن يكون من أهل البر والتقوى متصفاً بصفات الكمال ووجوب بعض الذنوب أحيانا مع التوبة الماحية الرافعة لدرجته إلى أفضل مما كان عليه لا ينافي ذلك وأيضا فوجوب كون النبي لا يتوب إلى الله فينال محبة الله وفرحه بتوبته وترتفع درجته بذلك ويكون بعد التوبة التي يحبه الله منه خيرا مما كان قبلها فهذا مع ما فيه من التكذيب للكتاب والسنة غض من مناصب الأنبياء وسلبهم هذه الدرجة ومنع إحسان الله إليهم وتفضله عليهم بالرحمة والمغفرة ومن اعتقد أن كل من لم يكفر ولم يذنب أفضل من كل من آمن بعد كفره وتاب بعد ذنبه فهو مخالف ما علم بالإضطرار من دين الإسلام فإنه من المعلوم أن الصحابة الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد كفرهم وهداهم الله به بعد ضلالهم وتابوا إلى الله بعد ذنوبهم أفضل من أولادهم الذين ولدوا على الإسلام وهل يشبهه بني الأنصار بالأنصار أو بني المهاجرين بالمهاجرين إلا من لا علم له وأين المنتقل بنفسه من السيئات إلى الحسنات بنظره واستدلاله وصبره واجتهاده ومفارقته عاداته ومعاداته لأوليائه ومواليته لأعدائه إلى آخر لم يحصل له مثل هذه الحال وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية وقد قال تعالى { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا {68} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا {69} إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {70} الفرقان 68-70

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يارب قد عملت أشياء لا أراها ههنا فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فأين من يبديل الله سيئاته حسنات إلى من لم تحصل له تلك الحسنات ولا ريب أن السيئات لا يؤمر بها وليس للعبد أن يفعلها ليقصد بذلك التوبة منها فإن هذا مثل من يريد أن يحرك العدو عليه ليغلبهم بالجهاد أو يثير الأسد عليه

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 269 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 369

ليقتله ولعل العدو يغلبه والأسد يفترسه بل مثل من يريد أن يأكل السم ثم يشرب الترياق وهذا جهل بل إذا قدر من ابتلى بالعدو فغلبه كان أفضل ممن لم يكن كذلك وكذلك من صادفه الأسد وكذلك من اتفق أن شرب السم فسقى ترياقا فاروقا يمنع نفوذ سائر السموم فيه كان بدنه أصح من بدن من لم يشرب ذلك الترياق والذنوب إنما تضر أصحابها إذا لم يتوبوا منها والجمهور الذين يقولون بجواز الصغائر عليهم يقولون إنهم معصومون من الإقرار عليها وحينئذ فما وصفوهم إلا بما فيه كمالهم فإن الأعمال بالخواتيم مع أن القرآن والحديث وإجماع السلف معهم في تقرير هذا الأصل فالمنكرون لذلك يقولون في تحريف القرآن ما هو من جنس قول أهل البهتان ويحرفون الكلم عن مواضعه كقولهم في قوله تعالى {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} {الفتح} أي ذنب آدم وما تأخر من ذنب أمته فإن هذا ونحوه من تحريف الكلم عن مواضعه أما أولا فلأن آدم تاب وغفر له ذنبه قبل أن يولد نوح وإبراهيم فكيف يقول له إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله لك ذنب آدم وأما ثانيا فلأن الله يقول {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} {الإسراء} فكيف يضاف ذنب أحد إلى غيره وأما ثالثا فلأن في حديث الشفاعة الذي في الصحاح أنهم يأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته اشفع لنا إلى ربك فيذكر خطيئته ويأتون نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول لهم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكان سبب قبول شفاعته كما عبودتيه وكمال مغفرة الله له فلو كانت هذه لآدم لكان يشفع لأهل الموقف وأما رابعا فلأن هذه الآية لما نزلت قال أصحابه رضي الله عنهم يا رسول الله هذا لك فما لنا فأنزل الله تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} {الفتح} فلو كان ما تأخر ذنوبهم لقال هذه الآية لكم وأما خامسا فكيف يقول عاقل إن الله غفر ذنوب أمته كلها وقد علم أن منهم من يدخل النار وإن خرج منها بالشفاعة فهذا وأمثاله من خيار تأويلات المانعين لما دل عليه القرآن من توبة الأنبياء من ذنوبهم واستغفارهم وزعمهم أنه لم يكن هناك ما يوجب توبة ولا استغفار ولا تفضل الله عليه بمحبته وفرحه بتوبتهم ومغفرته ورحمته لهم فكيف بسائر تأويلاتهم التي فيها من تحريف القرآن وقول الباطل على الله ما ليس هذا موضع بسطه وأما قوله إن هذا ينفي الوثوق ويوجب التنفير فليس هذا بصحيح فيما قبل النبوة ولا فيما يقع خطأ ولكن غايته أن يقال هذا موجود فيما تعمد من الذنب فيقال بل إذا اعترف الرجل الجليل القدر بما هو عليه من الحاجة إلى توبته واستغفاره ومغفرة الله له ورحمته دل ذلك على صدقه وتواضعه وعبوديته لله وبعده عن الكبر والكذب بخلاف من يقول ما بي حاجة إلى شيء من هذا ولا يصدر مني ما يحوجني إلى مغفرة الله لي وتوبته علي ويصر على كل ما يقوله ويفعله بناء على أنه لا يصدر منه ما يرجع عنه فإن مثل هذا إذا عرف من رجل نسبه الناس إلى الكذب والكفر والجهل وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل فكان هذا من أعظم مبادئه وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا تطروني ما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله وكل من سمع هذا عظمه بمثل هذا الكلام وفي الصحيحين عنه أنه كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وهذا كما أنه لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا قبوري عيدا وصلوا على حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني رواه أبو داود وغيره وقال اللهم لا تجعل قبوري وثنا يعبد رواه مالك وغيره كان هذا التواضع مما زاده الله به رفعة وكذلك لما سجد له بعض أصحابه فنهاه عن ذلك وقال إنه لا يصلح السجود إلا لله وكذلك لما كان بعض الناس يقول ما شاء الله

و شاء محمد قال أ جعلتني ندا لله قل ما شاء الله ثم شاء محمد وقوله في دعائه أنا البائس الفقير
 المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف المقر بذنبه أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهاج
 المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف من خضعت له رقبته وذل جسده ورغم أنه لك ونحو هذه
 الأحوال التي رفع الله بها درجاته بما اعترف به من فقر العبودية وكمال الربوبية والغنى عن
 الحاجة من خصائص الربوبية فأما العبد فكماله في حاجته إلى ربه وعبوديته وفقره وفاقته فكلما
 كانت عبوديته أكمل كان أفضل وصدور ما يحوجه إلى التوبة والإستغفار مما يزيده عبودية وفقرا
 وتواضعا ومن المعلوم أن ذنوبهم ليست كذنوب غيرهم بل كما يقال حسنات الأبرار سيئات
 المقربين لكن كل يخاطب على قدر مرتبته وقد قال صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم خطاء وخير
 الخطائين التوابون وما ذكره من عدم الوثوق والتنفير قد يحصل مع الإصرار والإكثار ونحو ذلك
 وأما اللوم الذي يقترن به التوبة والإستغفار أو ما يقع بنوع من التأويل وما كان قبل النبوة فإنه مما
 يعظم به الإنسان عند أولى الأبصار وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد علم تعظيم رعيته
 له وطاعتهم مع كونه دائما كان يعترف بما يرجع عنه من خطأ وكان إذا اعترف بذلك وعاد إلى
 الصواب زاد في أعينهم وازدادوا له محبة وتعظيما ومن أعظم ما نقمه الخوارج على علي أنه لم
 يتب من تحكيم الحكيم وهم وإن كانوا جهالا في ذلك فهو يدل على أن التوبة لم تكن تنفرهم وإنما
 نفرهم الأصرار على ما ظنوه هم ذنبا والخوارج من أشد الناس تعظيما للذنوب ونفورا عن أهلها
 حتى أنهم يكفرون بالذنب ولا يحتملون لمقدمهم ذنبا ومع هذا فكل مقدم لهم تاب عظموه وأطاعوه
 ومن لم يتب عادوه فيما يظنونه ذنبا وإن لم يكن ذنبا فعلم أن التوبة والإستغفار لا توجب تنفيرا ولا
 تزيل وثوقا بخلاف دعوى البراءة مما يتاب منه ويستغفر ودعوى السلامة مما يحوج الرجوع إلى الله
 واللجأ إليه فإنه هو الذي ينفر القلوب ويزيل الثقة فإن هذا لم يعلم أنه صدر إلا عن كذاب أو جاهل
 وأما الأول فإنه يصدر عن الصادقين العالمين ومما يبين ذلك أنه لم يعلم أحد طعن في نبوة أحد
 من الأنبياء ولا قدح في الثقة به بما دلت عليه النصوص التي تيب منها ولا احتاج المسلمون إلى
 تأويل النصوص بما هو من جنس التحريف لها كما يفعله من يفعل ذلك والتوراة فيها قطعة من هذا
 وما أعلم أن بني إسرائيل قدحوا في نبي من الأنبياء بتوبته في أمر من الأمور وإنما كانوا يقدحون
 فيهم بالإفتراء عليهم كما كانوا يؤذون موسى عليه السلام وإلا فموسى قد قتل القبطي قبل النبوة وتاب
 من سؤال الرؤية وغير ذلك بعد النبوة وما أعلم أحدا من بني إسرائيل قدح فيه بمثل هذا وما جرى
 في سورة النجم من قوله تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتها لترتجى على المشهور عند السلف والخلف
 من أن ذلك جرى على لسانه ثم نسخه الله وأبطله هو من أعظم المفتريات على قول هؤلاء ولهذا كان
 كثير من الناس يكذب هذا وإن كان مجوزا عليهم غيره إما قبل وإما بعدها لظنه أن في ذلك خطأ في
 التبليغ وهو معصوم في التبليغ بالإتفاق والعصمة المتفق عليها أنه لا يقر على خطأ في التبليغ
 بالإجماع ومن هذا فلم يعلم أحد من المشركين نفر برجوعه عن هذا وقوله إن هذا مما ألقاه الشيطان
 ولكن روى أنهم نفروا لما رجع إلى ذم آلهتهم بعد ظنهم أنه مدحها فكان رجوعهم لدوامه على ذمها لا
 لأنه قال شيئا ثم قال إن الشيطان ألقاه وإذا كان هذا لم ينفر فغيره أولى أن لا ينفر وأيضا فقد ثبت
 أن النسخ نفر طائفة كما قال { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمَّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ اللَّهُ
 الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة 142 وقوله { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } { 101 } قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِن رَّبِّكَ
 بِالْحَقِّ لِيُنَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } { 102 } النحل 101 102 فالتبديل الذي صرحوا
 بأنه منفر ونفروا به عنه لم يكن مما يجب نفيه عنه فكيف بالرجوع إلى الحق الذي لم يعلم أنهم نفروا
 منه وهو أقل تنفيرا لأن النسخ فيه رجوع عن الحق إلى حق وهذا رجوع إلى حق من غير حق

ومعلوم أن الإنسان يحمد على ترك الباطل إلى الحق ما لا يحمد على ترك ما لم يزل يقول إنه حق وإذا كان جائزاً فهذا أولى وإذا كان في ذلك مصلحة ففي هذا أيضاً مصالح عظيمة ولولا أن فيها وفي العلم بها مصالح لعباده لم يقصها في غير موضع من كتابه وهو سبحانه وله الحمد لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر معه توبته لينزهه عن النقص والعيب ويبين أنه ارتفعت منزلته وعظمت درجته وعظمت حسناته وقربه إليه بما أنعم الله عليه من التوبة والإستغفار والأعمال الصالحة التي فعلها بعد ذلك وليكون ذلك أسوة لمن يتبع الأنبياء ويقتدي بهم إلى يوم القيامة ولهذا لما لم يذكر عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز دل على أن يوسف لم يذنب أصلاً في تلك القصة كما يذكر من يذكر أشياء نزهه الله منها بقول تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 وقد قال تعالى { وَاقْتَدِرْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } يوسف 24 والهم كما قال الإمام أحمد رضي الله عنه همان هم خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله تعالى يقول إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة كاملة فإن عملها فاكتبوها عشرا إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جراي فيوسف عليه الصلاة والسلام لما هم ترك همه لله فكتب الله به حسنة كاملة ولم يكتب عليه سيئة قط بخلاف امرأة العزيز فإنها همت وقالت وفعلت فراودته بفعلها وكذبت عليه عند سيدها واستعانت بالنسوة وحبسته لما اعتصم وامتنع عن الموافقة على الذنب ولهذا قالت { وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ إِنَّ رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } يوسف 53 وهذا من قولها كما دل عليه القرآن ليس من كلام يوسف عليه السلام بل لما قالت هذا كان يوسف غائبا في السجن لم يحضر عند الملك بل لما برأته هي والنسوة استدعاه الملك بعد هذا وقال { وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } يوسف 54 وأما من ذكر الله تعالى وتبارك عنه ذنبا كآدم عليه السلام فإنه لما قال { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } { 121 } ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } { 122 } طه 121- 122 وقال { فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة 37 وقال تعالى عن داود عليه السلام { وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ } { 24 } فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } { 25 } ص 24- 25 وقال لموسى عليه السلام والصلاة { إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ } { 10 } إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } { 11 } النمل 10- 11 ومن احتج على امتناع ذلك بأن الإقتداء بهم مشروع والإقتداء بالذنوب لا يجوز قيل له إنما يقتدى بهم فيما أقروا عليه لا فيما نهوا عنه كما أنه إنما يقتدى بهم فيما أقروا عليه ولم ينسخ ولم ينسه فيما نسخ وحينئذ فيكون التأسى بهم مشروعا مأمورا به لا يمنع وقوع ما ينهون عنه ولا يقرون عليه لا من هذا ولا من هذا وإن كان اتباعهم في المنسوخ لا يجوز بالإتفاق ومما يبين أن النسخ أشد تنفيرا أن الإنسان إذا رجع عن شيء إلى آخر وقال الأول الذي كنت عليه حق أمرني الله به ورجوعي عنه حق أمرني الله به كان هذا أقرب إلى النفور عنه من أن يقول رجعت عما لم يأمرني الله به فإن الناس كلهم يحمدون من قال هذا وأما من قال أمرني بهذا حق ونهيني عنه حق فهذا مما نفر عنه كثير من السفهاء وأنكره من أنكره من اليهود وغيرهم.¹

العبد منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور لله تعالى

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 397- 413

في قوله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى لما احتج عليه بالقدر وبيان ان ذلك في المصائب لا في الذنوب وان الله امر بالصبر والتقوى فهذا في الصبر لا في التقوى وقال {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 فامر بالصبر على المصائب والاستغفار من المعائب وذلك ان بنى آدم اضطربوا في هذا المقام مقام تعارض الامر والقدر وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع و المقصود هنا انه قد ثبت في الصحيحين حديث ابى هريرة عن النبي قال احتج ادم وموسى فقال موسى يا ادم انت ابو البشر الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكة فلماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له ادم انت موسى الذى كلمك الله تكليما وكتب لك التوراة فيكم تجد فيها مكتوبا { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } طه 121 قبل ان الخلق قال باربعين سنة قال فحج آدم موسى وهو مروى ايضا من طريق عمر بن الخطاب باسناد حسن وقد ظن كثير من الناس ان ادم احتج بالقدر السابق على نفي الملام على الذنب ثم صاروا الاجل هذا الظن ثلاثة احزاب فريق كذبوا بهذا الحديث كابى على الجبائى وغيره لانه من المعلوم بالاضطرار ان هذا خلاف ما جاءت به الرسل ولا ريب ان تمتنع ان يكون هذا مراد الحديث ويجب تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم بل وجميع الانبياء واتباع الانبياء ان يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله و فريق تاولوه بتاويلات معلومة الفساد كقول بعضهم انما حجة لانه كان اباه والابن لا يلوم اباه وقول بعضهم لان الذنب كان فى شريعة والملام فى اخرى وقول بعضهم لان الملام كان بعد التوبة وقول بعضهم لان هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة و فريق ثالث جعلوه عمدة فى سقوط الملام عن المخالفين لامر الله ورسوله ثم لم يمكنهم طرد ذلك فلا بد فى نفس معاشهم فى الدنيا ان يلام من فعل ما يضر نفسه وغيره لكن منهم من صار يحتج بهذا عند اهوائه واغراضه لا عند اهواء غيره لكن منهم من صار يحتج بهذا عند اهوائه واغراضه لا عند هواء غيره كما قيل فى مثل هؤلاء انت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى أى مذهب وافق مواك تمذهبت به فالواحد من هؤلاء ظالمون معتدون ومنهم من يقول هذا فى حق اهل الحقيقة الذين شهدوا توحيد الربوبية وفتوا عما سوى الله فيرون ان لا فاعل الا الله فهوؤلاء لا يستحسنون حسنة ولا يستقبحون سيئة فانهم لا يرون لمخلوق فعلا بل لا يروى فاعلا الا الله بخلاف من شهد لنفسه فعلا فانه يذم ويعاقب وهذا قول كثير من متأخرى الصوفية المدعين للحقيقة وقد يجعلون هذا نهاية التحقيق وغاية العرفان والتوحيد وهذا قول طائفة من اهل العلم قال ابو المظفر السمعانى واما الكلام فيما جرى بين ادم وموسى من المحاجة فى هذا الشأن فانما ساغ لهما الحجاج فى ذلك لانهما نبيان جليلان خصا بعلم الحقائق واذن لهما فى استكشاف السرائر وليس سبيل الخلق الذين امروا بالوقوف عندما حد لهم والسكوت عما طوى عنهم سبيلها وليس قوله فحج آدم موسى ابطال حكم الطاعة ولا اسقاط العمل الواجب ولكن معناه ترجيح احد الامرين وتقديم رتبة العلة على السبب فقد تقع الحكمة بترجيح معنى احد الامرين فسبيل قوله فحج ادم موسى هذا السبيل وقد ظهر هذا فى قضية ادم قال الله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } البقرة 30 الى ان قال فجاء من هذا ان ادم لم يتبها له ان يستديم سكنى الجنة الا بان لا يقرب الشجرة لسابق القضاء المكتوب عليه فى الخروج منها وبهذا صال على موسى عند المحاجة وبهذا المعنى قضى له على موسى فقال فحج ادم موسى قلت ولهذا يقول الشيخ عبد القادر قدس الله روحه كثير من الرجال اذا وصلوا الى القضاء والقدر امسكوا وانا انفتحت لى فيه روزنة فنازعت اقدار الحق بالحق للحق والرجل من يكون منازعا للقدر لا موافقا له وهو رضى الله عنه كان يعظم الامر والنهى ويوصى باتباع ذلك وينهى عن الاحتجاج بالقدر وكذلك شيخه حماد الدباس وذلك لما راوه فى كثير من الساكنين من الوقوف عند القدر المعارض للامر والنهى والعبد مامور بان يجاهد فى سبيل الله ويدفع ما قدر من المعاصى بما يقدر من الطاعة فهو منازع

للمقدور المحظور بالمقدور المأمور الله تعالى وهذا هو دين الله الذي بعث به الاولين والآخرين من الرسل صلوات الله عليهم اجمعين وممن يشبه هؤلاء كثير من الفلاسفة كقول ابن سينا بأن يشهد سر القدر والرازى يقرر ذلك لأنه كان جبريا محضا وفى الجملة فهذا المعنى دائر فى نفوس كثير من الخاصة من اهل العلم والعبادة فضلا عن العامة وهو مناقض لدين الاسلام ومن هؤلاء من يقول الخضر انما سقط عنه الملام لأنه كان مشاهدا لحقيقة القدر ومن شيوخ هؤلاء من كان قول لو قتلت سبعين نبيا لما كنت مخطئا ومنهم من يقول بطرد قوله بحسب الامكان فيقول كل من قدر على فعل شئ وفعله فلا ملام عليه فان قدر انه خالف غرض غيره ذلك بنازعه والاقوى منهما يقمر الآخر فأيهما اعانه القدر فهو المصيب باعتبار انه غالب والا فما ثم خطأ ومن هؤلاء الاتحاديه الذين يقولون الوجود واحد ثم يقولون بعضه افضل من بعض والافضل يستحق ان يكون ربا للمفضول ويقولون ان فرعون كان صادقا فى قوله { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } {النازعات 24} وهذا قول طائفة من ملاحدة المتصوفة المتفلسفة الاتحادية كالتلمسانى والقول بالاتحاد العام المسمى وحدة الوجود هو قول ابن عربى الطائى وصاحبه القونوى وابن سبعين وابن الفارض وأمثالهم لكن لهم فى المعاد والجزاء نزاع كما ان لهم نزاعا فى ان الوجود عل هو شئ غير الذوات ام لا وهؤلاء ضلوا من وجوه منها جهة عدم الفرق بين الوجود الخالق والمخلوق وأما شهود القدر فيقال لا ريب لأن الله تعالى خالق كل شئ وملكه والقدر هو قدرة الله كما قال الإمام احمد وهو المقدر لكل ما هو كائن لكن هذا لا ينفى حقيقة الامر والنهى والوعد والوعيد وأن من الافعال ما ينفع صاحبه فيحصل له به نعيم ومنها ما يضر صاحبه فيحصل له به عذاب فنحن لا نتكر اشتراك الجميع من جهة المشيئة والربوبية وابتداء الامور لكن نثبت فرقا آخر من جهة الحكمة والوامر الالهية ونهاية الامور فان العقاب للتعوى لا لغير المتقين وقد قال تعالى { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } {ص 28} وقال تعالى { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ } {القلم 35} وإذا كان كذلك فحقيقة الفرق ان من الامور ما هو ملائم للانسان نافع له فيحصل له به اللذة ومنها ما هو مضاد له ضار له يحصل به الالم فرجع الفرق الى الفرق بين اللذة والالم واسباب هذا وهذا وهذا الفرق معلوم بالحس والعقل والشرع مجمع عليه بين الاولين والآخرين بل هو معلوم عند البهائم بل هذا بل هذا موجود فى جميع المخلوقات واذا اثبتنا الفرق بين الحسنات والسيئات وهو الفرق بين الحسن والقبيح فالفرق يرجع الى هذا والعقلاء متفقون على ان كون بعض الافعال ملائما للانسان وبعضها منافيا له اذا قيل هذا حسن وهذا قبيح فهذا الحسن والقبح مما يعلم بالعقل باتفاق العقلاء وتنازعوا فى الحسن والقبح بمعنى كون الفعل سببا للذم والعقاب هل يعلم بالعقل ام لا يعلم الا بالشرع وكان من اسباب النزاع انهم ظنوا ان هذا القسم مغاير للاول وليس هذا خارجا عنه فليس فى الوجود حسن لا بمعنى الملائم ولا قبيح الا بمعنى المنافى والمدح والثواب ملائم والذم والعقاب منافع فهذا نوع من الملائم والمنافى¹

المؤمن مأمور بالصبر على المصائب والاستغفار من المعائب

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 304-309

الناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر وشهود الربوبية كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } {التغابن 11} قال ابن مسعود أو غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره بالحرص على ما ينفعه وهو طاعة الله ورسوله فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله وأمره إذا أصابته مصيبة مقدر أن لا ينظر إلى القدر ولا يتحسر بتقدير لا يفيد ويقول قدر الله وما شاء فعل ولا يقول لو أني فعلت لكان كذا فيقدر ما لم يقع يتمنى أن لو كان وقع فإن ذلك إنما يورث حسر و حزنا لا يفيد والتسليم للقدر هو الذي ينفعه كما قال بعضهم الأمر أمران أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه وما زال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل الأمور ويترك المحظور ويصبر على المقذور وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي فلو أن رجلا أنفق ماله في المعاصي حتى مات ولم يخلف لولده مالا أو ظلم الناس بظلم صاروا لأجله يبغضون أولاده ويحرمونهم ما يعطونه لأمثالهم لكان هذا مصيبة في حق الأولاد حصلت بسبب فعل الأب فإذا قال أحدهم لأبيه أنت فعلت بنا هذا قيل للإبن هذا كان مقدورا عليكم وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم والأب عاص لله فيما فعله من الظلم والتبذير ملوم على ذلك لا يرتفع عنه ذم الله وعقابه بالقدر السابق فإن كان الأب قد تاب توبة نصوحا وتاب الله عليه وغفر له لم يجز ذمه ولا لومه بحال لا من جهة حق الله فإن الله قد غفر له ولا من جهة المصيبة التي حصلت لغيره بفعله إذ لم يكن هو ظالما ولأنك فإن تلك كانت مقدره عليهم وهذا مثال قصة آدم فإن آدم لم يظلم أولاده بل إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة وإنما هبط آدم وحواء ولم يكن معهما ولد حتى يقال أن ذنبهما تعدى إلى ولدتهما ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد فلم يكن آدم قد ظلم أولاده ظلما يستحقون به ملامه وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمر كان مقدرا عليهم لا يستحقون به لوم آدم وذنوب آدم كان قد تاب منه قال الله تعالى { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } {121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } {122} طه 121-122 وقال { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } {البقرة 37} فلم يبق مستحقا لدم ولا عقاب وموسى كان أعلم من أن يلومه لحق الله على ذنب قد علم أنه تاب منه فموسى أيضا قد تاب من ذنب عمله وقد قال موسى { أَنْتَ وَلَيْتْنَا فَآغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } {الأعراف 155} و آدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن المذنب لا ملام عليه فكيف وقد علم أن إبليس لعنه الله بسبب ذنبه وهو أيضا كان مقدرا عليه و آدم قد تاب من الذنب واستغفر فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعا له عند ربه لإحتج ولم يتب ويستغفر وقد روى في الإسرائيليات أنه إحتج به وهذا مما لا يصدق به لو كان محتملا فكيف إذا خالف أصول الإسلام بل أصول الشرع والعقل نعم إن كان ذكر القدر مع التوبة فهذا ممكن لكن ليس فيما أخبر الله به عن آدم شيء من هذا ولا يجوز الإحتجاج في الدين بالإسرائيليات إلا ما ثبت نقله بكتاب الله أو سنة رسوله فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وأيضا فلو كان الإحتجاج بالقدر نافعا له فلماذا أخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض فإن قيل وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض قيل التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته قال الله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 89 في التائب من الردة وقال في كاتم العلم { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } {البقرة 160} وقال { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ { الأنعام 54 و قال في القذف {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {النور 5 و قال {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} {70} وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} {71} {الفرقان 70-71 و قال {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} {طه 82 و لما تاب كعب بن مالك و صاحباها أمر رسول اله صلى الله عليه و سلم المسلمين بهجرهم حتى نسايتهم ثمانين ليلة و قال النبي صلى الله عليه و سلم في الغامدية لما رجمها لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و هل و جدت أفضل من أن جادت بنفسها لله و قد أخبر الله عن توبته على بنى إسرائيل حيث قال لهم موسى { يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الَّذِينَ خَفَا بِأُنفُسِهِمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ } {البقرة 54 و إذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات و السيئات و السراء و الضراء بما يحصل معه شكره و صبره أم كفره و جزعه و طاعته أم معصيته فالتائب أحق بالإبتلاء فآدم أهبط إلى الأرض إبتلاء له و ووفقه الله في هبوطه لطاعته فكان حاله بعد الهبوط خيرا من حاله قبل الهبوط¹

إن لم يجد العريان للصلاة ألا حشيشا أو ورقا يربطه عليه لزمه الستر به

إن لم يجد العريان للصلاة ألا حشيشا أو ورقا يربطه عليه لزمه الستر به لأنه مغط للبشرة من غير ضرر فأشبهه الجلود و الثياب و قد أخبر الله تعالى عن آدم و حواء أنهما { **وَطَقْفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ** } طه 121 و امر النبي صلى الله عليه و سلم بمصعب بن عمير يوم أحد إن يجعل على رجليه شيء من الاذخر فإذا كان الاذخر كالثوب في ستر الميت فكذاك في ستر الحي²

الغى هو ضد الرشد

عامة الأسماء ينتوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الغى اذا أطلق تناول كل معصية لله كما في قوله عن الشيطان {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {82} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ} {83} ص 82-83 وقد يقرن بالضلال كما في قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} {النجم 2} و الغى في الاصل مصدر غوى يغوى غيا كما يقال لوى يلوى ليا وهو ضد الرشد كما قال تعالى {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} {الأعراف 146 و الرشد العمل الذي ينفع صاحبه والغى العمل الذي يضر صاحبه فعلم الخير رشد و عمل الشر

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 319-323

²شرح العمدة ج: 4 ص: 340

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

غى ولهذا قالت الجن { وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } الجن 10
 فقابلوا بين الشر وبين الرشد وقال في آخر السورة { قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا } الجن 21
 ومنه الرشيد الذي يسلم إليه ماله وهو الذي يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر وقال
 الشيطان { لِأَعْوِيْتَهُمْ أَجْمَعِينَ } { 82 } إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ { 83 } ص 82-83 وهو أن يأمرهم
 بالشر الذي يضرهم فيطيعونه كما قال تعالى { وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } إبراهيم 22 وقال { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } الشعراء 91 إلى أن قال { فَكُنُبُوا
 فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ } { 94 } وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ { 95 } الشعراء 94-95 وقال { قَالَ الَّذِينَ حَقَّ
 عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } القصص 63 وقال { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ
 وَمَا غَوَى } النجم 2 ثم إن الغي إذا كان إسما لعمل الشر الذي يضر صاحبه فإن عاقبة العمل
 أيضا تسمى غيا كما أن عاقبة الخير تسمى رشدا كما يسمى عاقبة الشر شرا وعاقبة الخير خيرا
 وعاقبة الحسنات حسنات وعاقبة السيئات سيئات¹

وإنما في الحديث ما يخاف على هذه الأمة من الغي وهو شهوات الغي في البطون والفروج فأما الغي الذي هو
 الإستكبار عن اتباع الحق فذاك أصل الكفر فصاحبه ليس من هذه الأمة كإبليس وفرعون وغيرها وأما غي شهوات
 البطون والفروج فذاك يكون لأهل الإيمان ثم يتوبون كما قال قال تعالى { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوَاتِنُهُمَا وَطَفِقَا
 يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } { 121 } ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } { 122 } طه 121 -
 122 وفي السنن والمسند من حديث ليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن عمرو عن أبي سعيد الخدري قال سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان إبليس قال لربه عز وجل بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بني آدم ما دامت
 الأرواح فيهم فقال له ربه عز وجل فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني الحديث الشريف وهو
 صلى الله عليه وسلم ذكر شهوات الغي في البطون والفروج كما في الصحيح أنه قال من تكفل لي بما بين لحييه وما
 بين رجليه تكفلت له بالجنة فإن هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب لكن يفعلونه اتباعا لشهواتهم²

ذكر الله هو الذكر الذي أنزله

وقال تعالى { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } { 122 } قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا
 يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } { 123 } وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً
 ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } { 124 } طه 122-124 إن الناس عليهم أن يؤمنوا بالله ورسوله
 فيصدقوه فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر فهذا أصل السعادة وجماعها والقرآن كله يقرر هذا الأصل
 قال تعالى { الم } { 1 } ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } { 2 } الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } { 3 } وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } { 4 }
 أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } { 5 } البقرة 1- 5 فقد وصف سبحانه بالهدى والفلاح
 المؤمنين الموصوفين في هذه الآيات وقال تعالى لما أهبط آدم من الجنة { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 570

²رسالة في التوبة ج: 1 ص: 229-230

فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} طه 123-126 فقد أخبر أن من اتبع الهدى الذي أتانا منه وهو ما جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكره وهو الذكر الذي أنزله وهو كتبه التي بعث بها رسله بدليل أنه قال بعد ذلك { كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } طه 126 والذكر مصدر يضاف تارة إلى الفاعل وتارة إلى المفعول كما يقال دق الثوب ودق القصار ويقال أكل زيد وأكل الطعام ويقال ذكر الله أي ذكر العبد ويقال ذكر الله أي ذكر الله الذي ذكره هو مثل ذكره عبده ومثل القرآن الذي هو ذكره وقد يضاف الذكر إضافة الأسماء المحضة فقوله ذكرى إن أضيف إضافة المصادر كان المعنى الذكر الذي ذكرته وهو كلامه الذي أنزله وإن أضيف إضافة الأسماء المحضة فذكره هو ما اختص به من الذكر والقرآن مما اختص به من الذكر قال تعالى { وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ } الأنبياء 50 وقال { مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٌ } الأنبياء 2 وقال { إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ } يس 69 وقال { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } النحل 44 وقال فيما يذكره من ضمان الهدى والفلاح لمن اتبع الكتاب والرسول { فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الأعراف 157 وقال { الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } إبراهيم 1 ونظائره في القرآن كثيرة¹

الناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي

وقال تعالى { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } {122} قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } طه 122-127 والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي فالطريق الشرعي هو النظر فيما جاء به الرسول والإستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية فإن الرسول بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه والرسول بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها كما ضرب الله في القرآن من كل مثل وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي فإن هذا فيه باطل كثير وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة والثاني طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقون في فساد من جهة العمل

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 155-156

فساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرى وينتحل كل منهم اتباع الرسول والرسول ليس ما جاء به موافقا لما قال هؤلاء ولا هؤلاء { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } آل عمران 67 وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرد حصول المعارف بلا تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث وكلا الفريقين غالط بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم إن لم يعرف ذلك من جهته وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به وإلا فقد قال الله تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } الصف 5 وقال { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } 109 { وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } 110 { الأنعام 109-110 } وقال { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 وكذلك لو جاع وسهر وخلا وصمت وفعل ماذا عسى أن يفعل لا يكون مهتديا إن لم يتعبد بالعبادات الشرعية وإن لم يتلق علم الغيب من جهة الرسول قال تعالى لأفضل الخلق الذي كان أزكى الناس نفسا وأكملهم عقلا قبل الوحي { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } الشورى 52 وقال { فَأَمَّا يَا تِئْتِكُمْ مَّئِي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَسْقَى } 123 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } 124 { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } 125 { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا } وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } 126 { طه 123-126 } وقال { وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } الزخرف 36 أي عن الذكر الذي أنزلته قال المفسرون يعيش عنه فلا يلتفت إلى كلامه ولا يخاف عقابه ومنه قوله { وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } الأنبياء 50 وقوله { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ } الأنبياء 2 وشاهده في الآية الأخرى { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ } الشعراء 5 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي } طه 124 ثم قال { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا } وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } طه 126 فكل من عشا عن القرآن فإنه يقيض له شيطان يضلّه ولو تعبد بما تعبد ويعش روى عن ابن عباس يعمى وكذلك قال عطاء وابن زيد ابن أسلم وكذلك أبو عبيدة قال تظلم عينه واختاره ابن قتيبة ورجحه على قول من قال يعرض والعشا ضعف في البصر ولهذا قيل فيه يعيش وقالت طائفة يعرض وهو رواية الضحاك عن ابن عباس وقاله قتادة واختاره الفراء والزجاج وهذا صحيح من جهة المعنى فإن قوله يعيش ضمن معنى يعرض ولهذا عدى بحرف الجار عن كما يقال أنت أعمى عن محاسن فلان إذا عرضت فلم تنظر إليها فقوله يعيش أي يكن أعشى عنها وهو دون العمى فلم ينظر إليها إلا نظرا ضعيفا وهذا حال أهل الضلال الذين لم ينتفعوا بالقرآن فإنهم لا ينظرون فيه كما ينظرون في كلام سلفهم لأنهم يحسبون أنه لا يحصل المقصود وهم الذين عشاوا عنه فقيضت لهم الشياطين تقترن بهم وتصدهم عن السبيل وهم يحسبون أنهم مهتدون ولهذا لا تجد في كلام من لم يتبع الكتاب والسنة بيان الحق علما وعملا أبدا لكثرة ما في كلامه من وساوس الشياطين وحدثني غير مرة رجل وكان من أهل الفضل والذكاء والمعرفة والدين أنه كان قد قرأ على شخص سماه لي وهو من أكابر أهل الكلام والنظر دروسا من المحصل لابن الخطيب وأشياء من إشارات

ابن سينا قال فرأيت حالي قد تغير وكان له نور وهدى ورؤيت له منامات سيئة فرآه صاحب النسخة بحال سيئة فقص عليه الرؤيا فقال هي من كتابك¹

ستكون فتنة والمخرج منها كتاب الله

لا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانا عاما مجملا ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه وعلم الكتاب والحكمة وحفظ الذكر والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهو واجب على الكفاية منهم وأما ما يجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم ومعرفتهم وحاجتهم وما أمر به أعيانهم فلا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها ويجب على المفتي والمحدث والمجادل ما لا يجب على من ليس كذلك وأما قول السائل هل يكفي في ذلك ما يصل إليه المجتهد من غلبة الظن أو لا بد من الوصول إلى القطع فيقال الصواب في ذلك التفصيل فإنه وإن كان طوائف من أهل الكلام يزعمون أن المسائل الخبرية التي قد يسمونها مسائل الأصول يجب القطع فيها جميعا ولا يجوز الاستدلال فيها بغير دليل يفيد اليقين وقد يوجبون القطع فيها كلها على كل أحد فهذا الذي قالوه على إطلاقه وعمومه خطأ مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ثم هم مع ذلك من أبعد الناس عما أوجبه فإنه كثيرا ما يحتجون فيها بالأدلة التي يزعمونها قطعيات وتكون في الحقيقة من الأغلوطات فضلا عن أن تكون من الظنيات حتى إن الشخص الواحد منهم كثيرا ما يقطع بصحة حجة في موضع ويقطع بطلانها في موضع آخر بل منهم من غاية كلامه كذلك وحتى قد يدعى كل من المتناظرين العلم الضروري بنقيض ما ادعاه الآخر وأما التفصيل فما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ما أوجبه الله من ذلك كقوله {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 98 وقوله {فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} محمد 19 وكذلك يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به وقد تقرر في الشريعة أن الوجوب معلق باستطاعة العبد كقوله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16 وقوله صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم أخرجاه في الصحيحين فإذا كان كثير مما تنازعت فيه الأمة من هذه المسائل الدقيقة قد يكون عند كثير من الناس مشتبهها لا يقدر فيه على دليل يفيد اليقين لا شرعي ولا غيره لم يجب على مثل هذا في ذلك ما لا يقدر عليه وليس عليه أن يترك ما يقدر عليه من اعتقاد قوي غالب على ظنه لعجزه عن تمام اليقين بل ذلك هو الذي يقدر عليه لا سيما إذا كان مطابقا للحق فالاعتقاد المطابق للحق ينفذ صاحبه ويثاب عليه ويسقط به الفرض إذا لم يقدر على أكثر منه لكن ينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 428-431

هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا كما قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِيبُكُم مَّتَّى هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} طه 123-

124 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وكما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ستكون فتن قلت فما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به لألسن ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تشبع منه العلماء وفي رواية ولا تختلف به الآراء وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا

عَجَبًا } {1} يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ } الجن 2 من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم قال تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } {الأنعام 153} وقال تعالى { المص } {1} كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ { الأعراف 1-2} إلى قوله { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } {الأعراف 3} وقال تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {155} { أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَعَافِيْنَ } {156} { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ } {157} { الأنعام 155-157

وقوله سبحانه أنه سيجزي الصادف عن آياته مطلقا سواء كان مكذبا أو لم يكن سوء العذاب بما كانوا يصدفون يبين ذلك أن كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه أو ارتاب فيما جاء به فكل مكذب بما جاء به فهو كافر وقد يكون كافرا من لا يكذبه إذا لم يؤمن به ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين قال تعالى { وَلَقَدْ مَكَنَّا هُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {الأحقاف 26} ¹

ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا

فإن الهداية وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدى الله إياهم كما قال سبحانه { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } {1} { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى } {2} { وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } {3} { الأعلى 1-3} وقال موسى { رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه 50 وقال تعالى { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } {البلد 10} وقال { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا } {الإنسان 3} ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام أحدها الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر و

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 456 و مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 330 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 313-315 و درء التعارض ج: 1 ص: 54

الثانى الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} فصلت 17 وقال تعالى { إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } الرعد 7 وقال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الشورى 52 فهذا مع قوله { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } القصص 56 يبين أن الهدى الذى أُنبتَه هو البيان والدعاء والأمر والنهى والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لا يقدر عليه إلا الله والقسم الثالث الهدى الذى هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذى يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة وأما من قال أنهما إستطاعتان إحداهما قبل الفعل وهى الإستطاعة المشروطة فى التكليف كما قال تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 وقال النبی لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وهذه الإستطاعة يفتقرن بها الفعل تارة والترك أخرى وهى الإستطاعة التى لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة وأما الذى عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فاثبات النوعين جميعا كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا والثانية المقارنة للفعل وهى الموجبة له وهى المنفية عن لم يفعل فى مثل قوله { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود 20 وفى قوله { لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف 101 وهذا الهدى الذى يكثر ذكره فى القرآن فى مثل قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 وقوله { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 وفى قوله { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } الكهف 17 وأمثال ذلك وهذا هو الذى تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذى يهدى نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فإستهدوني أهدكم فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك فى أم الكتاب فى قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 وعند القدرية إن الله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وإزاحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر فى باب الهدى وقد بين الإختصاص فى هذه بعد عموم الدعوة فى قوله { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } يونس 25 فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذى يجوزه عليه بعض المثبتة وبيان أنه هو الذى يهدى عباده ردا على القدرية فأخبر هناك بعدله الذى يذكره بعض المثبتة وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذى تنكره القدرية وإن كان كل منهما قصده تعظيما لا يعرف ما اشتمل عليه قوله والقسم الرابع فمن اقسام الهداية الهدى فى الآخرة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } 23 { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ } 24 { الْحَجَّ 23-24 } وقال { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } يونس 9 فقوله { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } يونس 9 كقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } الطور 21 على أحد القولين فى الآية وهذا الهدى ثواب الإهداء فى الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر فى الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى { احْسُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ } 22 { مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ

الْحَجِيمِ {23} الصافات 22-23 وقال { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } الإسراء 72 وقال { فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مَّيِّ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 123-126 وقال { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } الإسراء 97 الآية فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحم من في السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقد قال تعالى { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النور 22 وقال { إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا } النساء 149 وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة ولهذا أيضا يجزى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم¹

لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعا من قيام حجة الله تعالى عليهم

وقال تعالى { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } {122} قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مَّيِّ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } {127} طه 122-127 لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعا من قيام حجة الله تعالى عليهم وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار الماثورة عنهم لا يمنع الحجة إذ المكنة حاصلة فلذلك قال تعالى { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَآلَى مُسْتَكْبِرًا كَانُوا لَمْ يَسْمَعُهَا كَأَنَّ فِي أُنْفُسِهِمْ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ } لقمان 7 وقال تعالى { فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مَّيِّ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 123-126 ومن هذا الباب إنكار كثير من أهل البدع والكلام والفلسفة لما يعلمه أهل الحديث والسنة من الآثار النبوية والسلفية المعلومة عندهم بل المتواترة عندهم عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعين لهم باحسان فان هؤلاء يقولون هذه غير معلومة لنا كما يقول من يقول من الكفار إن معجزات الأنبياء غير معلومة لهم وهذا لكونهم لم يطلبوا السبب الموجب للعلم بذلك وإلا فلو سمعوا ما سمع اولئك وقرأوا الكتب المصنفة

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 424-425 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 171-176

التي قرأها أولئك تحصل لهم من العلم ما حصل لأولئك وعدم العلم ليس علما بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود فهم إذا لم يعلموا ذلك لم يكن هذا علما منهم بعدم ذلك ولا بعدم علم غيرهم به بل هم كما قال الله تعالى {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} {يونس 39} وتكذيب من كذب بالجن هو هذا الباب وإلا فليس عند المتطيب والمتفلسف دليل عقلي ينفي وجودهم لكن غايته أنه ليس في صناعته ما يدل على وجودهم وهذا إنما يفيد عدم العلم لا العلم بالعدم وقد اعترف بهذا حذاق الأطباء والفلاسفة كأبقراط وغيره¹

من خرج عن النبوات وقع في الشرك وغيره

وكل أمة مشركة أصل شركها عدم كتاب منزل من السماء وكل أمة مخلصه أصل اخلاصها كتاب منزل من السماء فان بنى آدم محتاجون الى شرع يكمل فطرهم فافتتح الله الجنس بنبوته آدم كما قال تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} {البقرة 31} وهلم جرا فمن خرج عن النبوات وقع في الشرك وغيره وهذا عام في كل كافر غير كتابي فانه مشرك وشركه لعدم إيمانه بالرسول الذين قال الله فيهم {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل 36} ولم يكن الشرك أصلا في الأدميين بل كان آدم ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله لا اتباعهم النبوة قال تعالى {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} {يونس 19} قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام فبتركهم اتباع شريعة الانبياء وقعوا في الشرك لا بوقوعهم في الشرك خرجوا عن شريعة الاسلام فان أمرهم بما أمره الله به حيث قال له {فَأَمَّا يَا تَيْبُوكُم مَّئِي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {38} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {39} {البقرة 38-39} وقال في الآية الأخرى {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} طه 123-126 فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم وغيره لما اهبطهم قد تضمن أنه اوجب عليهم اتباع هداه المنزل وهو الوحي الوارد على أنبيائه وتضمن ان من اعرض عنه وان لم يكذب به فانه يكون يوم القيامة في العذاب المهين وان معيشته تكون ضنكا في هذه الحياة وفي البرزخ والآخرة وهو المضنوكه النكدة المحشوة بأنواع الهموم والغموم والاحزان كما أن الحياة الطيبة هي لمن آمن وعمل صالحا فمن تمسك به فانه لا يشرك بربه فان الرسول جميعهم أمروا بالتوحيد وأمروا به قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} {الأنبياء 25} فبين انه لا بد ان يوحى بالتوحيد الى كل رسول وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} {الزخرف 45} فبين انه لم يشرع الشرك قط فهذان النصان قد دلا على أنه امر بالتوحيد لكل رسول ولم يأمر بالاشراك قط وقد أمر آدم وبنية من حين اهبط باتباع هداه الذي يوحى الى الأنبياء فثبت ان علة الشرك كان من ترك اتباع الانبياء والمرسلين فيما أمروا به من التوحيد

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 99-100

والدين لا أن الشرك كان علة للكفر بالرسول فان الاشرار والكفر بالرسول متلازمان في الواقع فهذا في الكفار بالنبوات المشركين¹

في القرآن في مواضع يبين أن الرسول امروا بعبادة الله وحده لا شريك له ونهوا عن عبادة شيء من المخلوقات سواه وأن أهل السعادة هم أهل التوحيد وان المشركين هم اهل الشقاوة ويبين أن الذين لم يؤمنوا بالرسول مشركون فعلم أن التوحيد والإيمان بالرسول متلازمان وكذلك الإيمان باليوم الآخر فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينهما في مثل قوله { وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } الأنعام 150 واخبر في غير موضع أن الرسالة عمت جميع بنى آدم فهذه الأصول الثلاثة توحيد الله والإيمان برسله وباليوم الآخر أمور متلازمة ولهذا قال سبحانه { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } {112} وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْتَضُوا مَا مُكْتَرَفُونَ } {113} الأنعام 112-113 فأخبر أن جميع الأنبياء لهم أعداء وهم شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض القول المزخرف وهو المزين المحسن يغزون به والغرور التلبيس والتمويه وهذا شأن كل كلام وكل عمل يخالف ما جاءت به الرسل من أمر المتكلمة وغيرهم من الأولين والآخرين ثم قال { وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } الأنعام 113 فعلم أن مخالفة الرسل وترك الإيمان بالآخرة متلازمان فمن لم يؤمن بالآخرة أصغى إلى زخرف أعدائهم فخالف الرسل كما هو موجود في أصناف الكفار والمنافقين في هذه الأمة وغيرها ولهذا قال تعالى { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } الأعراف 52 إلى قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ } الأعراف 53 فأخبر أن الذين تركوا الكتاب وهو الرسالة يقولون إذا جاء تأويله وهو ما اخبر به جاءت رسل ربنا بالحق وهذا كما قال تعالى { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 124-126 أخبر أن الذين تركوا إتباع آياته يصيبهم ما ذكر فقد تبين أن أصل السعادة والنجاة من العذاب هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله واليوم الآخر والعمل الصالح²

أعلم الناس من كان رأيه وقياسه موافقا للنصوص

وقد قال تعالى { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } الجاثية 23 فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه فما هو به هوية إلهه فهو لا يتأله من يستحق التأله بل يتأله ما يهواه وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لألهتهم و محبة عباد العجل له وهذه محبة مع الله لا

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 106-107

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 55-57

محبة لله و هذه محبة أهل الشرك و النفوس قد تدعي محبة الله و تكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه و قد أشركته في الحب مع الله و قد يخفى الهوى على النفس فإن حبك الشيء يعمى و يصم و هكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله و في نفسه شرك قد خفي عليه و هو يعملها إما لحب رياسة و إما لحب مال و إما لحب صورة و لهذا قالوا يارسول الله الرجل يقاتل شجاعة و حمية و رياء فأى ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله فلما صار كثير من الصوفية النساك المتأخرين يدعون المحبة و لم يزنوها بميزان العلم و الكتاب و السنة دخل فيها نوع من الشرك و إتباع الأهواء و الله تعالى قد جعل محبته موجبة لإتباع رسوله فقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 و هذا لأن الرسول هو الذي يدعو الى ما يحبه الله و ليس شيء يحبه الله إلا و الرسول يدعو إليه و ليس شيء يدعو إليه الرسول إلا و الله يحبه فصار محبوب الرب و مدعو الرسول متلازمين بل هذا هو ذاته و إن تنوعت الصفات فكل من ادعى أنه يحب الله و لم يتبع الرسول فقد كذب ليست محبته لله و حده بل إن كان يحبه فهي محبة شرك فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود و النصارى محبة الله فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين و هكذا أهل البدع فمن قال أنه من المريدين لله المحبين له و هو لا يقصد إتباع الرسول و العمل بما أمر به و ترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين و اليهود و النصارى بحسب ما فيه من البدعة فإن البدع التي ليست مشروعة و ليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله فأمر بكل معروف و نهى عن كل منكر و أيضا فمن تمام محبة الله و رسوله بغض من حاد الله و رسوله و الجهاد في سبيله لقوله تعالى {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ} المجادلة 22 و قال تعالى {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِيسٌ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} 80 {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} 81 {المائدة 80-81} و قال تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} {الممتحنة 4} فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم و من معه حيث أبدوا العداوة و البغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله و حده فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة و لا يستقبح سيئة و هؤلاء سلكوا طريق الإرادة و المحبة مجملًا من غير إعتصام بالكتاب و السنة كما سلك أهل الكلام والرأي طريق النظر و البحث من غير إعتصام بالكتاب و السنة فوقع هؤلاء في ضلالات و هؤلاء في ضلالات كما قال تعالى {فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} {طه 123-126} و قال {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} {الأنعام 153} و قال {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} {الإسراء 9} و قال {قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} {يونس 108} و مثل هذا كثير في القرآن و قد بسط الكلام على هذا الأصل في غير هذا الموضع¹

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 359-362

أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص كما قال مجاهد أفضل العبادة الرأي الحسن وهو اتباع السنة ولهذا قال تعالى {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} سبأ6 ولهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة والشريعة في مسائل الاعتقاد الخيرية ومسائل الأحكام العملية أهل الأهواء لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم فصاحبه ممن اتبع هواه بغير علم ولهذا يذكر الله في القرآن من يتبع هواه بغير علم ويذم من يتبع هواه بغير هدي من الله كما قال تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } القصص50 وقال تعالى { وَإِنْ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } الأنعام119 وكل من اتبع هواه اتبعه بغير علم إذ لا علم بذلك إلا بهدي الله الذي بعث الله به رسله كما قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِئْتِيَكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} طه123-124** ولهذا ذم الله الهوى في مواضع من كتابه واتباع الهوى يكون في الحب والبغض كقوله تعالى {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ص26 فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحق في الحكم قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} النساء135 فهنا يكون اتباع الهوى فيما يخالف القسط من الشهادة وغيرها والحق هو العدل واتباع الهوى في خلاف ذلك هو من الظلم وقد نهى رسول الله عن اتباع أهواء الخلق وقال تعالى {وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} البقرة120 فنهاه عن اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم وكذلك قال تعالى في الآية الأخرى { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } البقرة145 وقال تعالى {وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ } المائدة49 وقال تعالى {قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } الأنعام150 فقد نهاه عن اتباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب وحثه أن يفتنوه عما أنزل الله إليه من الحق وذلك يتضمن النهي عن اتباع أهواء أحد في خلاف شريعته وسنته وكذا أهل الأهواء من هذه الأمة¹

وهذا أصل شريف من اعتنى به علم منشأ الضلال والغي لكثير من الناس ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهي كثيرا ما يوصون أتباعهم باتباع العلم والشرع لأنه كثيرا ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله وليس معهم إلا الظن والذوق والوجد الذي يرجع إلى محبة النفس وإرادتها فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 19

والحرص وهم متبعون أهواءهم في الحقيقة فإذا اتبعوا العلم وهو ماجاء به الشارع صلى الله عليه وسلم خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس واتبعوا ما ماجاءهم من ربهم وهو الهدى كما قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِيبُكُمْ مَّنِي هُدَى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123¹

تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة

وإنما دين الله ما بعث به رسله وأنزل به كتبه وهو الصراط المستقيم وهو طريقة أصحاب رسول الله خير القرون وأفضل الأمة وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين قال تعالى { وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } التوبة 100 فرضى عن السابقين الأولين رضا مطلقا ورضى عن التابعين لهم بإحسان وقد قال النبي في الأحاديث الصحيحة خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول من كان منكم مستنسا فليستن بمن قد مات فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب رسول الله أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيدا ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتكم ضلالا بعيدا وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه خط لنا رسول الله خطا وخط حوله خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } الأنعام 153 وقد أمرنا سبحانه أن نقول في صلاتنا { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } 6 { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } 7 { الفاتحة 6-7 وقال النبي اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبدوا الله بغير علم ولهذا كان يقال تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون وقال تعالى { فَأَمَّا يَا تِيبُكُمْ مَّنِي هُدَى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } 123 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } 124 طه 123-124 قال ابن عباس رضى الله عنهما تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وقرأ هذه الآية وكذلك قوله تعالى { الم } 1 { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } 2 { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } 3 { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } 4 { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 5 { البقرة 1-5 فأخبر أن هؤلاء مهتدون مفلحون وذلك خلاف المغضوب عليهم والضالين فنسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا صراطه المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 59

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا¹

أن العمل إما بمعرفة الحق وإتباعه في العلم والعمل جميعا صلاح القول والعمل العلم والإرادة والعلم أصل العمل و أصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له مالم يحصل معارض مانع فالعلم بالحق يوجب إتباعه إلا لمعارض راجح مثل إتباع الهوى بالإستكبار ونحوه كحال الذين قال الله فيهم {سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} الأعراف 146 وقال {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل 14 وقال {فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} الأنعام 33 ولهذا قال {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} ص 26 ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التي فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق إتبعته وأحبته إذ الحق نوعان حق موجود فالواجب

معرفته والصدق في الإخبار عنه وضد ذلك الجهل والكذب وحق مقصود وهو النافع للإنسان فالواجب إرادته والعمل به وضد ذلك إرادة الباطل وإتباعه ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهل ومحبة الصدق دون الكذب ومحبة النافع دون الضار وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك كما انه في صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار فإذا إشتهى ما يضره أن كره ما ينفعه فلمرض في الجسد وكذلك أيضا إذا إندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح كما أن الجسد إذا إندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع سبب للآخر وذلك سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لصد ذلك فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب وإذا كان كذلك فصلاح بنى آدم الإيمان والعمل الصالح ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيان أحدهما الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالا والثاني إتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس فيكونون غواة مغضوبا عليهم ولهذا قال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} {1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} {2} النجم 1-2 وقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي وبالهدى الذي هو خلاف الضلال وبهما يصلح العلم والعمل جميعا ويصير الإنسان عالما عادلا لا جاهلا ولا ظالما وهم في الصلاح على ضربين تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له إتبعه وعمل به فهذا هو الذي يدعى الحكمة وهو الذي يتذكر وهو الذي يحدث له القرآن ذكرا والثاني ان يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة وهذا هو القسم الثاني المذكور في قوله {أَوْ يَخْشَى} طه 44 وفي قوله {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} طه 113 وقد قال في السورة في قصة فرعون {أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} {17} فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} {18} وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} {19} النازعات 17-19 فجمع بين التزكى والهدى والخشية كما جمع بين العلم والخشية في قوله {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} فاطر 28 وفي قوله {وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} الأعراف 154 وفي قوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 127

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا {66} وَإِذَا لَا تَأْتِيَانَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا {67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا {68} النساء 66-68 وذلك لما ذكرنا من أن كل واحد من العلم بالحق الذى يتضمنه التذکر والذکر الذى يحدثه القرآن ومن الخشية المانعة من إتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان وهو مستلزم للآخر إذا قوى على ضده فإذا قوى العلم والتذکر دفع الهوى وإذا إندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا ولهذا كان فسادہ بانتفاء كل منهما فإذا إنتفى العلم الحق كان ضالا غير مهتد وإذا إنتفى إتباعه كان غاويا مغضوبا عليه ولهذا قال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ} {1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ} {2} وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ} {3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} {4} النجم 1-4 وقال فى ضد ذلك {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} النجم 23 وقال {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} القصص 50 وقال {وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} الأنعام 119 وقال {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 وقال فى ضده {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} طه 124 وقال {أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} لقمان 5 وقال فى ضده {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} القمر 47 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وإتبع ما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة وبين الضلال والشقاوة بين حسنة الدنيا والآخرة وسيئة الدنيا والآخرة ويقرن بين النافع والعمل الصالح بين العلم الطيب والعمل الصالح كما يقرن بين ضديهما وهو الضلال والغى إتباع الظن وما تهوى الأنفس والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح¹

فإن حال الكافر لا تخلو من أن يتصور الرسالة أولا فإن لم يتصورها فهو فى غفلة عنها وعدم إيمان بها كما قال {فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي النَّيْمِ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} الأعراف 136 لكن الغفلة المحضة لا تكون إلا لمن لم تبلغه الرسالة والكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة فلماذا قرن التكذيب بالغفلة وإن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه كما قال تعالى {فَأَمَّا يَا تَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} طه 123-124²

وبيان ذلك أن الشخص إما أن يبين له أن ما بعث الله به رسوله حق ويعدل عن ذلك إلى إتباع هواه أو يحسب أن ما هو عليه من ترك ذلك هو الحق فهذا متبع للظن والأول متبع لهواه اجتماع الأمرين قال تعالى فى صفة الاولين {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} الأنعام 33 وقال تعالى فى صفة الآخسرين {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} {103} الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} {104} الكهف 103-104 فالأول حال المغضوب

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 240-247

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 78

عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه كما هو موجود في اليهود والثاني حال الذين يعملون بغير علم¹

النعيم التام هو في الدين الحق

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى { قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَيْنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} طه 123-126 } قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وفي السورة الأخرى {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {38} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {39} البقرة 38-39²

بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين مبشرين بنعمة الله التامة في جنته لمن أطاعهم فاتبع الذكر الذي أنزل عليهم واستعمل القسط الذي بعثوا به ومنذرين بتعظيمهم عقاب الله لمن أعرض عن ذلك وعصاهم فكان من الظالمين³

أن الواجب على المسلمين الإعتصام بالكتاب والسنة كما أمرهم الله تعالى بذلك في قوله {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103 وقوله تعالى {المص {1} كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} {2} اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} {3} الأعراف 1-3 ومثل هذا كثير من الكتاب والسنة وهذا مما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها⁴

أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذونها ديناً أو لا يتخذونها ديناً والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق أو دين باطل فنقول النعيم التام هو في الدين الحق فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع كقوله {الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ} {6} صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 وقوله عن المتقين المهتدين {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} البقرة 5 وقوله تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً {125} }

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 200

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 77

³قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 64

⁴منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 554

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} طه 123-126 وقوله تعالى { فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 38 وقوله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ {14} } الانفطار 13-14 ووعده أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعده الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام¹

فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم وهذا كما قال على الا فهما يؤتية الله عبدا في كتابه وفي الأثر من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع كقوله { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا } {66} وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا } {67} وَأَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } {68} النساء 66-68 فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطا مستقيما وقال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16 وقال تعالى { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } محمد 17 وقال { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } الكهف 13 وقال تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 وقال تعالى { هَذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } الجاثية 20 وقال تعالى { هَذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } الأعراف 203 وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى كقوله { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } الصف 5 وقوله { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَنَّهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } {109} وَنَقَلْبُ أَفْنَدْتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } {110} الأنعام 109-110 أى وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون بها ونقلب أفندتهم أى يتركون الايمان ونحن نقلب أفندتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة أى ما يدريكم أنه لا يكون هذا وهذا حينئذ ومن فهم معنى الآية عرف خطأ من قال أن بمعنى لعل واستشكل قراءة الفتح بل يعلم حينئذ أنها أحسن من قراءة الكسر وهذا باب واسع والناس فى هذا الباب على ثلاثة أقسام طرفان ووسط فقوم يزعمون أن مجرد الزهد وتصفية القلب ورياضة النفس توجب حصول العلم بلا سبب آخر وقوم يقولون لا أثر لذلك بل الموجب للعلم العلم بالأدلة الشرعية أو العقلية وأما الوسط فهو أن ذلك من أعظم الأسباب معاونة على نيل العلم بل هو شرط فى حصول كثير من العلم وليس هو وحده كافيا بل لابد من أمر آخر اما العلم بالدليل فيما لا يعلم الا به وأما التصور الصحيح لطرفى القضية فى العلوم الضرورية وأما العلم النافع الذى تحصل به النجاة من النار ويسعد به العباد فلا يحصل الا باتباع الكتب التى جاءت بها الرسل قال تعالى { فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } {127} طه 123-127 الخ وقال تعالى { وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } الزخرف 36 فمن ظن أن الهدى والايمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقد ضل وأضل منهما من سلك فى العلم والمعرفة طريق أهل

¹قاعدة فى المحبة ج: 1 ص: 138

الفلسفة والكلام بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا العمل بموجب العلم أو سلك في العمل والزهد طريق أهل الفلسفة والتصوف بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا اعتبار العمل بالعلم فأعرض هؤلاء عن العلم والشرع وأعرض أولئك عن العمل والشرع فضل كل منهما من هذين الوجهين وتباينوا تباينا عظيما حتى أشبه هؤلاء اليهود المغضوب عليهم وأشبه هؤلاء النصارى الضالين بل صار منهما من هو شر من اليهود والنصارى كالقرامطة والاتحادية وامثالهم من الملاحدة الفلاسفة¹

من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل

فإن الله تبارك وتعالى جعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأكمل له ولأمته الدين وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل فأحيا به ما درس من معالم الإيمان وقمع به أهل الشرك من عباد الأوثان والنيران والصلبان وأذل به كفار أهل الكتاب أهل الشرك والأرتياب وأقام به منار دينه الذي ارتضاه وشاد به ذكر من اجتباها من عباده واصطفاه وأظهر به ما كان مخفيا عند أهل الكتاب وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب وحقق به صدق التوراة الزبور والإنجيل وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف والتبديل وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم بحيث يبعث في كل أمة رسولا ليقيم هداه وحجته ولما أهبط آدم إلى الأرض قال تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } {127} سورة طه الآيات 123 127²

والقرآن بين أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل ولا يكون الكامل إلا سعيدا وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل فإنما يعذب الله في الآخرة من يخالف الرسل فبين أن من اتبع الهدى الذي جاء من عنده وهو ما جاءت به الرسل فإنه لا يضل ولا يشقى بل يكون من المهتدين المفلحين³

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنی وصفاته العلیا التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله الى عباده فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة وأما

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 246

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 80

³الصفدية ج: 2 ص: 246

المخالفون للرسول فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة¹

أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول

فصل في أن الرسول لا بد أن يبين أصول الدين وهي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق من الخبر والأمر فلا بد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر ومن أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج فإن المعرضين عن هذا إما أن يصدقوه ويقبلوا قوله ويؤمنوا به بلا دليل أصلا ولا علم وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته فان لم يكونوا عالمين بصدقهم ممن يقال له في قبره ما قولك في هذا الرجل الذي بعث فيكم فأما المؤمن أو الموقن فيقول هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فأما من اتبعناه وأما المنافق أو المرتاب فيقول هاء هاء لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلتة فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين وان استدل على ذلك بغير الآيات والأدلة التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعا لا بد أن يخطئ ويضل فان ظن الظان أنه بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به تدل على ما جاء به فهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل الى مقصوده وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين أصحاب الاستدلال والاعتبار والنظر كما وقع في الظن الاول طوائف من العباد الغالطين أصحاب الارادة والمحبة والزهد وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة يتناول هذا وهذا وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الأفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله هو حق فان أرباب العبادة والمحبة والارادة والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به ضلوا كما ضلت النصارى ومبتدعة هذه الأمة من العباد وأرباب النظر والاستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانه أيضا ضلوا قال تعالى {ثُمَّ اجْتَبَا رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} {122} قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} {127} طه 122-127²

ان الهدى ضد الضلال والفلاح ضد الشقاء

فان الكفر عدم الايمان بالله ورسله سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب أو إعراض عن هذا كله حسدا أو كبرا أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة وإن كان

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 122

²النبوات ج: 1 ص: 41

الكافر المكذب أعظم كفرا وكذلك الجاحد المكذب حسدا مع استيقان صدق الرسل والسور المكية كلها خطاب مع هؤلاء ولهذا يقول سبحانه { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ { الشعراء 105 لأنهم كذبوا جميع الرسل ولم يؤمنوا بأصل الرسالة وقد قال تعالى لما أهبط أباهم آدم { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى {127} طه 123-127 فأخبر أنه إذا أتاهم هدى منه وهو ما أنزله على رسله من الذكر فمن اتبعه اهتدى وسعد في الدنيا والآخرة ومن أعرض عنه شقى وعمى ولهذا قال في أوائل البقرة في نعت المؤمنين { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } البقرة 5 كما قال هنا { فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 فان الهدى ضد الضلال والفلاح ضد الشقاء وقال تعالى { يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {35} وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {36} الأعراف 35-36¹

قال تعالى { بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ } البقرة 112 اخلاص الدين لله وهو عبادته وحده لا شريك له وهو حقيقة قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 { وَهُوَ مُحْسِنٌ } البقرة 112 ف الأول وهو إسلام الوجه هو النية وهذا الثاني وهو الاحسان هو العمل وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الايمان العام والاسلام العام الذي أوجبه الله على جميع عباده من الأولين والآخرين وهو دين الله العام الذي لا يقبل من احد سواه وبه بعث جميع الرسل كما قال تعالى { وَوَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36²

من اتبع الهدى فلا يضل ولا يشقى

قال الامام أحمد في خطبته في الرد على الجهمية و الزنادقة الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى و يصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد احيوه و كم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين و إنتحال المبطلين و تأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة و أطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله و في الله و في الكتاب بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام و يخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعود بالله من فتن المضلين و الثانية طريقة هشام و أتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من إتصافه بالنقائص و مماثلته للمخلوقات فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء و اتباعهم و هو الإعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {102}

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 335

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 470

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا {103} آل عمران 102-103 وقال {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة 213 وقال تعالى {المص {1} كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} {2} أَنْتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} {3} الاعراف 1-3 وقال تعالى { فَأَمَّا يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَاتَّبِعُوا هُدًى فَتَتَّبِعُوا هُدًى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى} {126} طه 123-126 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء 59 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {1} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} {2} الحجرات 1-2 وقال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} {60} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ عَنكَ صُدُودًا} {61} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تَمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} {62} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} {63} وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَعَفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} {65} النساء 60-65 و قوله تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} {الأنعام 153} و قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} {الأنعام 159} و قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 30-32 و قوله {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} {الشورى 13} فهذه النصوص و غيرها تبين أن الله أرسل الرسل و أنزل الكتب لبيان الحق من الباطل و بيان ما اختلف فيه الناس و ان من لم يتبع ذلك كان منافقا و ان من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل و لا يشقى و من أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقياً معذبا و أن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله و رسوله منهم فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة و الجماعة المعتصمين بالكتاب و السنة المتبعين ما أنزل الله اليهم من ربهم و ذلك أن نظر فما وجدنا الرب قد أثبتته لنفسه في كتابه أثبتناه و ما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناها و كل لفظ و جد في الكتاب و السنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ و كل لفظ و جد من نفي نفي ذلك اللفظ و أما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب و السنة بل و لا في كلام الصحابة و التابعين لهم باحسان و سائر أئمة المسلمين لا إثباتها و لا نفيها و قد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت و لا تنفى إلا بعد الإستفسار عن معانيها فان وجدت معانيها مما أثبتته الرب لنفسه أثبتت و ان و

جدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت و ان و جدنا اللفظ أثبتت به حق و باطل أو نفي به حق و باطل أو كان مجملا يراد به حق و باطل و صاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد و غير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها و لا نفيها كلفظ الجوهر و الجسم و التحيز و الجهة و نحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى فقل من تكلم بها نفيًا أو إثباتًا إلا و أدخل فيها باطلاً و أن أراد بها حقا و السلف و الأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل و كذب و قول على الله بلا علم و كذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه و يقولون عليه بغير علم و كل ذلك مما حرمه الله و رسوله و لم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية و لا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب و السنة و لا يخالف الكتاب و السنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل و لا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين و قال و أما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر و الأعراض و إنما بعث الله النبي صلى الله عليه و سلم بانكار ذلك و لم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه و إنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة فإن أول من أحدثهما الجهمية و المعتزلة و قصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به و أنكرت الجهمية أسماءه أيضا و أول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط و قال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا و لم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه و كلام السلف و الأئمة في ذم هذا الكلام و أهله مبسوط في غير هذا الموضوع¹

فالشيطان الذي يريد أن يغويكم و أتباعه هم أهل الشهوات فلا تتخذوه و ذريته أولياء من دوني بل اسلكوا طرق الهدى و الرشاد و إياكم و طرق الغي و الفساد كما قال تعالى { **فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** } طه 123²

و الكفار بالرسول من قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و شعيب و قوم ابراهيم و موسى و مشركي العرب و الهند و الروم و البربر و الترك و اليونان و الكشديين و سائر الأمم المتقدمين و المستأخرين يتبعون ظنونهم و أهواءهم و يعرضون عن ذكر الله الذي آتاهم من عنده كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة { **فَأَمَّا يَا تَبِيتُكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** } 38 { **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } 39 البقرة 38-39 و في موضع آخر { **فَأَمَّا يَا تَبِيتُكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** } 123 { **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** } 124 طه 123-124 الآية و في أخرى { **إِنَّمَا يَا تَبِيتُكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي** } الأعراف 35 ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان إن يتبعون إلا الظن و ما تهوى الانفس يزعمون أن لهم العقل و الرأي و القياس العقلي و الأمثال المضروبة و يسمون أنفسهم الحكماء و الفلاسفة و يدعون الجدل و الكلام و القوة و السلطان و المال

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 300-305

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 24

وَيَصِفُونَ إِتِّبَاعَ الْمُرْسَلِينَ بِأَنَّهُمْ سَفَهَاءٌ وَارَاذِلٌ وَضَلَالٌ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { فَلَمَّا جَاءَهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } غافر 83¹

أهل الهدى و الفلاح هم المتبعون للأنبياء

قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها و لا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل و الحس الا و في القرآن بيان معناه فان القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور و بيانا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة و الأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم إما أن لا يعرفوا اللفظ و إما أن يعرفوا اللفظ و لا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة و من ههنا يقع الشرك و تقريق الدين شيعا كالفتن التي تحدث السيف فالفتن القولية و العملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال مالك بن أنس اذا قل العلم ظهر الجفاء و اذا قلت الآثار ظهرت الأهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم و لهذا قال أحمد في خطبته الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقاءيا من أهل العلم فالهدي الحاصل لأهل الأرض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 فأهل الهدى و الفلاح هم المتبعون للأنبياء و هم المسلمون المؤمنون في كل زمان و مكان و أهل العذاب و الضلال هم المكذبون للأنبياء يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل اليهم ما جاءت به الأنبياء فهؤلاء في ضلال و جهل و شرك و شر لكن الله يقول { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 و قال { رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165 و قال { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } القصص 59 فهؤلاء لا يهلكهم الله و يعذبهم حتى يرسل اليهم رسولا و قد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث اليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة و قد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين فإن الآخرة لا تكليف فيها و ليس كما قال انما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار و الافهم في قبورهم ممتحنون و مفتونون يقال لأحدهم من ربك و ما دينك و من نبيك و كذلك في عرصات القيامة يقال ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس و من كان يعبد القمر القمر و من كان يعبد الطواغيت الطواغيت و تبقى هذه الأمة فيها مناققوها فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة و يقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا و في رواية فيسألهم و يثبتهم و ذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم في فتنة القبر فاذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون أتاهم حينئذ في الصورة التي يعرفون فيكشف عن ساق فاذا رأوه خروا له سجدا الا من كان مناققا فإنه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق و هذا المعنى مستفيض عن النبي صلى الله عليه و سلم في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة و أبي سعيد و قد أخرجاهما في الصحيحين و من حديث جابر و قد رواه مسلم من حديث ابن مسعود و أبي موسى و

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 11-10

هو معروف من رواية أحمد و غيره فدل ذلك على أن المحنة انما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء و أما قبل دار الجزاء امتحان و ابتلاء فاذا انقطع عن الناس نور النبوة و قعوا في ظلمة الفتن و حدثت البدع و الفجور و وقع الشر بينهم كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين و منعى الثالثة سألته ان لا يهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها و سألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها و البأس مشتق من اليأس قال الله تعالى { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } الأنعام 65 و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه لما نزل قوله تعالى { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ } الأنعام 65 قال أعود بوجهك { أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ } الأنعام 65 قال أعود بوجهك { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } الأنعام 65 قال هاتان اهون فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعا و يذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال و هم فيها في جاهلية و لهذا قال الزهري و قعت الفتنة و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر انزلوهم منزلة الجاهلية و قد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية تعنى قوله تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } الحجرات 9 فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة و جاهلية وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول و الفروع اذا لم ترد إلى الله و الرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا و لم يبيع بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر و عثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضا و لا يعتدى عليه و ان لم يرحموا و وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره و تفسيقه و إما بالفعل مثل حبسه و ضربه و قتله و هذه حال أهل البدع و الظلم كالخوارج و أمثالهم يظلمون الأمة و يعتدون عليهم اذا نازعوا في بعض مسائل الدين و كذلك سائر أهل الأهواء فانه يبتدعون بدعة و يكفرون من خالفهم فيها كما تفعل الرافضة و المعتزلة و الجهمية و غيرهم و الذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء إبتدعوا بدعة و كفروا من خالفهم فيها و استحلوا منع حقه و عقوبته فالناس اذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول صلى الله عليه و سلم إما عادلون و اما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما و صل إليه من آثار الأنبياء و لا يظلم غيره و الظالم الذي يعتدي على غيره و هؤلاء ظالمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ } آل عمران 19 و الا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله و رسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول و قالوا هذه غاية ما قدرنا عليه فالعادل منهم لا يظلم الآخر و لا يعتدى عليه بقول و لا فعل مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبيديها و يذم من يخالفه مع أنه معذور¹

اصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 307- 312

قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {2} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } {3} { الأنفال 2-3 } فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه واقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا وكذلك الانفاق من المال والمنافع فكان هذا مستلزما للباقي فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته والخوف منه وقد فسروا { وَجِلَّتْ } { الأنفال 2 } بفرقت وفى قراءة ابن مسعود اذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح فان الوجل فى اللغة هو الخوف يقال حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } { المؤمنون 60 } قالت عائشة يا رسول الله هل الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال السدى فى قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ } { الأنفال 2 } هو الرجل يريد أن يظلم او يهيم بمعصية فينزح عنه وهذا كقوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ } {40} { فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ } {41} { النازعات 40-41 } وقوله { وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ } { الرحمن 46 } قال مجاهد وغيره من المفسرين هو الرجل يهيم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدى الله فيتركها خوفا من الله واذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور وترك المحذور قال سهل بن عبد الله ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى ولا طريق اليه اقرب من الافتقار واصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله وبذل على ذلك قوله تعالى { وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْعِصْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ } { الأعراف 154 } فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله قال مجاهد وابراهيم هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب رواه ابن ابي الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما فى قوله تعالى { وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ } { الرحمن 46 } وهؤلاء هم اهل الفلاح المذكورون فى قوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } { البقرة 5 } وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون فى قوله تعالى { الم } {1} { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {2} { البقرة 1-2 } كما قال فى آية البر { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } { البقرة 177 } وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما فى قوله تعالى { **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** } { طه 123 } واذا لم يضل فهو متبع مهتد واذا لم يشق فهو مرحوم وهؤلاء هم اهل الصراط المستقيم الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين فان اهل الرحمة ليسوا مغضوبا عليهم واهل الهدى ليسوا ضالين فتبين ان اهل رغبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب وهؤلاء هم الذين اتوا بالايمان الواجب¹

المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض عنه ضال شقى

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون وهذا هو السماع الذى كان النبى يشهده مع أصحابه ويستدعيه منهم كما فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال النبى إقرأ على القرآن قلت أقرأه عليك وعليك أنزل فقال إني أحب أن أسمع من

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 19-20

غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً} النساء 41 قال حسبك فنظرت فاذا عيناه تدرقان وهذا هو الذى كان النبى يسمعه هو وأصحابه كما قال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران 164 و الحكمة هي السنة وقال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } {91} وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ } {92} النمل 91-92 وكذلك غيره من الرسل قال تعالى {يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} الأعراف 35 وبذلك يحتج عليهم يوم القيامة كما قال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} الأنعام 130 وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} الزمر 71 وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض عنه ضال شقى قال تعالى { قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى } {126} طه 123-126 وقال تعالى {وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} الزخرف 36 و ذكر الله يراد به تارة ذكر العبد ربه ويراد به الذكر الذى أنزله الله كما قال تعالى {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ} الأنبياء 50 وقال نوح {أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ} الأعراف 63 وقال {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} الحجر 6 وقال {مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثِ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ} الأنبياء 2 وقال {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} الزخرف 44 وقال {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} {27} لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} {28} التكوير 27-28

وقال {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ} يس 69¹

ومثل هذا فى القرآن كثير يأمر الناس باتباع ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة ويأمرهم بسماع ذلك وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين فى المغرب والعشاء والفجر قال تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} الإسراء 78 وبهذا مدح عبد الله بن رواحة النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال وفيما رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذ استنقلت بالكافرين المضاجع أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات²

ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 557-561

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 628

وعطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذى ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزأه ولا يعرف لزومه له كقوله { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } الفرقان 59 ونحو ذلك وقوله { وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 وقوله { وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ } 3}

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } آل عمران 3-4 وهذا هو الغالب ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } البقرة 42 وقوله { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ } النساء 115 وقوله { وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } النساء 136 فان من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه وفى الآية التى قبلها المعطوف عليه لازم فانه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفى الثانى نزاع قوله { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } البقرة 42 هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا وهكذا أهل البدع لا تجد أحدا ترك بعض السنة التى يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى بدعة ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئا من السنة كما جاء فى الحديث ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها رواه الامام أحمد وقد قال تعالى { فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ } المائدة 14 فلما تركوا حظا مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوقعت بينهم العداوة والبغضاء وقال تعالى { وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } الزخرف 36 أى عن الذكر الذى أنزله الرحمن وقال تعالى { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } 123 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } 124 { طه 123-124 } وقال { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } الأعراف 3 فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يصاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه فمن لم يتبع احدهما اتبع الآخر ولهذا قال { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ } النساء 115 قال العلماء من لم يكن متبعا سبيلهم كان متبعا غير سبيلهم فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه وكذلك من لم يفعل المأمور فعل بعض المحظور ومن فعل المحظور لم يفعل جميع المأمور فلا يمكن الانسان أن يفعل جميع ما أمر به مع فعله لبعض ما حظر ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر فان ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم وكل ما لا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله¹

فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق فى الدنيا والآخرة والزكاة حق الخلق فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان الى عباده كما قال تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى } النساء 36 وهذا أمر بمعالى الأخلاق وهو سبحانه يحب معالى

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 173-174

الأخلاق ويكره سفاسفها وقد روى عنه أنه قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق رواه الحاكم في صحيحه وقد ثبت عنه في الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال اليد العليا خير من اليد السفلى وقال اليد العليا هي المعطية واليد السفلى السائلة وهذا ثابت عنه في الصحيح فأين الإحسان الى عباد الله من إيدائهم بالسؤال والشحاذة لهم وأين التوحيد للخالق بالرغبة اليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراف به بالرغبة الى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح أمور أصحابها في الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التي تفسد أمور أصحابها ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول قال تعالى { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } {36} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ } {37} حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } {38} الزخرف 36-38 وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزل الله على رسوله الذي قال فيه { فَأَمَّا يَا تِئْتِيكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } {127} طه 123-127¹

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَا هُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } الأعراف 3 وقوله { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 وقوله { وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 وقد يقرن به غيره كقوله { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } الأنعام 155 وقوله { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 106 وقوله { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يونس 109 ولفظ الضلال اذا أطلق

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 196

تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمداً أو جهلاً ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} {70} وَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} {71} الصافات 69-71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} الأحزاب 67-68 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} النجم 2 وفى قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} القمر 47 وكذلك لفظ الغى اذا أطلق تناول كل معصية لله كما فى قوله عن الشيطان {لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} ص 82-83 وقد يقرن بالضلال كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} النجم 2¹

كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا

والحق المبين أن كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا كما امره ربه وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم اولياء الله المتقون وحزب الله المفلحون وجدد الله الغالبون وهم اهل العلم النافع والعمل الصالح وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الارادية العملية كما قال تعالى {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123²

إن الله إنما أرسل الرسل ليأمروا بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه³

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وتقرير الحجة فى القرآن بالرسول كثير كقوله {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التى هى القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا كقوله {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} طه 123-124⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166-169

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 97

³جواب الصحيح ج: 5 ص: 70

⁴مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 4

الانسان ان لم يعتصم بالذكر المنزل والا اقترن به الشيطان

والانسان قد يصفي نفسه ويلقى الشيطان في نفسه اشياء فان لم يعتصم بالذكر المنزل والا اقترن به الشيطان كما قال تعالى { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } الزخرف 36 وقوله { فَأَيُّمًا يَاتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَسْقَى } طه 123¹

وفي اصناف المشركين من مشركى العرب ومشركى الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد فى العلم والزهد والعبادة ولكن ليس بمتبع للرسول ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بما اخبروا به ولا يطيعهم فيما امروا فهو لاء ليسوا بمؤمنين ولا اولياء الله وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين قال تعالى { هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ } {221} تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ {222} يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَاذِبُونَ {223} الشعراء 221-223 وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون الى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسول فلا بد ان يكذبوا وتكذبهم شياطينهم ولا بد ان يكون فى أعمالهم ما هو اثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع فى العبادة ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من اولياء الشيطان لا من اولياء الرحمن قال الله تعالى { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } الزخرف 36 وذكر الرحمن هو الذكر الذى بعث به رسوله مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب امره فقد اعرض عنه فيقيض له الشيطان فيقترن به قال تعالى { وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } الأنبياء 50 وقال تعالى { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } طه 124-126 فدل ذلك على ان ذكره هو آياته التى انزلها ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائما ليلا ونهارا مع غاية الزهد وعبدته مجتهدا فى عبادته ولم يكن متبعا لذكره الذى انزله وهو القرآن كان من اولياء الشيطان ولو طار فى الهواء او مشى على الماء فان الشيطان يحمله فى الهواء وهذا مبسوط فى غير هذا الموضوع²

التوحيد رأس الأمر

وقال تعالى { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } طه 124 ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفة الله والى محبته والإخلاص له فيذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر اليه ولا شىء

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 511

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 173

يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به وحاجتهم اليه في عبادتهم إياه تألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم وبذلك يصيرون عاملين متحركين ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال بل {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} طه 124 ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات وكان التوحيد بقول لا إله إلا الله رأس الأمر¹

ذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله

قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِيبُكُم مَّنِّي هُدَىٰ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَسْقَىٰ } {123} { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 124-126 فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ وقد قال تعالى { وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } {36} { وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ } {37} حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } {38} { الزخرف 36-38 } وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله قال تعالى { وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } {الأنبياء 50} وقال تعالى { وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } {القلم 52}²

فما أنزله يسمى هدي الله وروح الله ووحى الله ونور الله³

والفرقان إنما هو الفرقان الذى بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فهو { الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } {الفرقان 1} وهو الذى فرق الله به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين الرشاد والغي وبين طريق الجنة وطريق النار وبين سبيل أولياء الرحمن وسبيل أولياء الشيطان⁴

و أسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب وأمثال ذلك فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأى اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم وقد يكون الاسم علما وقد يكون صفة كمن يسأل عن قوله { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي } طه 124 ما ذكره فيقال له هو القرآن مثلا أو هو ما أنزله من الكتب فان الذكر مصدر والمصدر تارة يضاف الى الفاعل وتارة الى المفعول فإذا قيل ذكر الله بالمعنى الثانى كان ما يذكر به مثل قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه وهذا هو المراد فى قوله

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 23

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 414

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 410

⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 415

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} طه 124 لأنه قال قبل ذلك {فَالَمَّا يَاْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 وهداه هو ما أنزله من الذكر وقال بعد ذلك {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا {126} طه 125-126 والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل أو هو نكر العبد له فسواء قيل ذكرى كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك كان المسمى واحدا¹

القرآن أفضل الذكر

القرآن أفضل الذكر كما قال تعالى {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ} الأنبياء 50 وقال تعالى {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْرًا} طه 99 وقال تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} طه 124 وقال {وَمَا يَاْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ} الشعراء 5²

فان الله تعالى قال {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} البقرة 152 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا وان اتانى يمشى أتيته هرولة فهذا الذكر يختص بمن ذكره فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ومن اعرض عن الذكر الذى أنزله أعرض عنه كما قال تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} {127} طه 124-127 ومثله قوله {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} التوبة 67 وقد فسروا هذا النسيان بأنه وهذا النسيان ضد ذلك الذكر وفي الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال أفظننت أنك ملاقى قال لا قال فاليوم أنساك كما نسيتنى فهذا يقتضى أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته هو متعلق بمشيتته وقدرته ايضا وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا جماع الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك ان يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذى يجب اتباعه³

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 334-335

²مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 284

³مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 134

الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر الله وفي شرعه

الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر الله وفي شرعه فان هذا من العدل الذي تقوم به السماء والأرض كما قال الله تعالى {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا} النساء 149 وقال {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} النور 22 وقال النبي من لا يرحم لا يرحم وقال ان الله وتر يحب الوتر وقال ان الله جميل يحب الجمال وقال ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وقال ان الله نظيف يحب النظافة ولهذا شرع قطع يد السارق وشرع قطع يد المحارب ورجله وشرع القصاص في الدماء والأموال والأبشار فاذا أمكن ان تكون العقوبة من جنس المعصية كان ذلك هو المشروع بحسب الامكان مثل ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه في شاهد الزور انه أمر باركابه دابة مقلوبا وتسويد وجهه فانه لما قلب الحديث قلب وجهه ولما سود وجهه بالكذب سود وجهه وهذا قد ذكره في تعزيز شاهد الزور طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم ولهذا قال الله تعالى {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} الإسراء 72 وقال تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} طه 124-126 وفى الحديث يحشر الجبارون والمتكبرون على صور الذر يطأهم الناس بارحلمهم فانهم لما أذلوا عباد الله أذلهم الله لعباده كما أن من تواضع لله رفعه الله فجعل العباد متواضعين له¹

الكافر يضيق عليه قبره الى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك

في الصحيحين والسنن عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله قال المسلم اذا سئل في قبره شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قول الله تعالى {يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} إبراهيم 27 وفى لفظ نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك فيقول ربي الله ودينى الاسلام ونبيى محمد وذلك قول الله تعالى {يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} إبراهيم 27 وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولا كما فى سنن أبى دواد وغيره عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال خرجنا مع رسول الله فى جنازة رجل من الانصار فانتبهنا الى القبر ولما يلحد فجلس النبي وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير وفى يده عود ينكت به الارض فرفع رأسه فقال استعيزوا بالله من عذاب القبر مرتين او ثلاثا وذكر صفة قبض الروح وعر وجهها الى السماء ثم عودها اليه الى أن قال وإنه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك وفى لفظ فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك فيقول دينى الاسلام فيقولان ما هذا الرجل الذى أرسل فيكم قال فيقول هو رسول الله فيقولان وما يدريك فيقول قرأت

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 134

كتاب الله وأمنت به وصدقت به فذلك قول الله {يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} إبراهيم 27 قال فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوا له فى الجنة والبسوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها قال ويفسح له مدبصره قال وان الكافر فذكر موته وقال وتعاد روحه الى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدى فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فافرشوا له من النار والبسوه من النار وافتحوا له بابا الى النار قال ويأتيه من حرها وسمومها قال ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه قال ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا قال فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب الا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح فقد صرح الحديث باعادة الروح الى الجسد وباختلاف أضلاعه وهذا بين فى أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين وقد روى مثل حديث البراء فى قبض الروح والمسألة والنعيم والعذاب رواه أبو هريرة وحديثه فى المسند وغيره ورواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى قال ان الميت اذا وضع فى قبره يسمع خفق نعالهم اذا ولوا عنه مدبرين فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الصدقة عن شماله وكان فعل الخير من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان عند رجليه فيأتيه الملكان من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى عن يمينه ويقول الصيام ما قبلى مدخل ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان ما قبلى مدخل فيقول له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أصغت للغروب فيقول دعونى حتى أصلى فيقولون إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه أريئتك هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقولون فيه وماذا تشهد به عليه فيقول محمد نشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله فيقال له على ذلك حبيبت وعلى ذلك تبعث ان شاء الله ثم يفتح له باب الى الجنة فيقال هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدىء منه وتجعل روحه نسمة طير يعلق فى شجر الجنة قال فذلك قوله تعالى {يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} إبراهيم 27 وذكر فى الكافر ضد ذلك أنه قال يضيق عليه قبره الى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى {لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنكًا وَنَحْسُورُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} طه 124 هذا الحديث أخصر وحديث البراء المتقدم أطول ما فى السنن فإنهم اختصروه لذكر ما فيه من عذاب القبر وهو فى المسند وغيره بطوله وهو حديث حسن ثابت يقول النبى فيه ان العبد المؤمن اذا كان فى اقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجى الى مغفرة ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين حتى يأخذونها فيجعلونها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط فيخرج منها كأطيب نعمة مسك وجدت على وجه الارض قال فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه فى الدنيا فينتهون به الى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له قال فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التى تليها حتى ينتهوا بها الى السماء السابعة فيقول اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه الى الارض فانى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه وذكر المسألة كما تقدم قال

ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح فيقول له أبشر بالذي يسرك فهذا يومك الذي قد كنت توعده فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول أنا عمك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي قال وإن العبد الكافر إذا كان في اقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط الله وغضبه فتفرق في أعضائه كلها فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فتقطع معها العروق والعصب قال فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلونها في تلك المسوح قال فيخرج منها كأنتن ما يكون من جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا فيستفتحون لها فلا يفتح لها ثم قرأ رسول الله { لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } الأعراف 40 ثم يقول الله تعالى اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السلفى قال فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } الحج 31 قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري وساق الحديث كما تقدم إلى أن قال ويأتيه رجل قبيح الوجه منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوؤك هذا عمك الذي قد كنت توعده فيقول من أنت فوجهك الوجه الذي لا يأتي بالخير قال أنا عمك السوء فيقول رب لا تقم الساعة ثلاث مرات ففي هذا الحديث أنواع من العلم منها أن الروح تبقى بعد مفارقة البدن خلافاً لضلال المتكلمين وأنها تصعد وتنزل خلافاً لضلال الفلاسفة وأنها تعاد إلى البدن وأن الميت يسأل فينعم أو يعذب كما سأل عنه أهل السؤال وفيه أن عمله الصالح أو السيئ يأتيه في صورة حسنة أو قبيحة¹

اصل السعادة واصل النجاة من العذاب هو توحيد الله والعمل الصالح

قال تعالى { حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ } الأعراف 38 كذلك قال { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } غافر 82 إلى قوله { وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } {85} غافر 85 فأخبر هنا بمثل ما أخبر به في الأعراف أن هؤلاء المعرضين عما جاءت به الرسل لما رأوا بأس الله وحدوا الله وتركوا الشرك فلم ينفعهم ذلك وكذلك أخبر عن فرعون وهو كافر بالتوحيد وبالرسالة انه لما ادركه الغرق قال { قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } يونس 90 قال الله { الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } يونس 91 وقال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } {172} أو تقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } {173} الأعراف 172-173 وقال تعالى { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 287-292

كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ {9} قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {10} إبراهيم 9-10 وهذا في القرآن في مواضع أخر يبين فيها أن الرسل كلهم امرؤا بالتوحيد بعبادة الله وحده لا شريك له ونهوا عن عبادة شيء من المخلوقات سواه أو اتخاذه لها ويخبر ان اهل السعادة هم اهل التوحيد وأن المشركين هم اهل الشقاوة وذكر هذا عن عامة الرسل ويبين أن الذين لم يؤمنوا بالرسل مشركون فعلم أن التوحيد والايمان بالرسل متلازمان وكذلك الايمان باليوم الآخر هو والايمان بالرسل متلازمان فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينها في مثل قوله {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} الأنعام 150 ولهذا أخبر ان الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون فقال تعالى {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} الزمر 45 وأخبر عن جميع الأشقياء ان الرسل انذرتهم باليوم الآخر كما قال تعالى {كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} {8} قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} {9} وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} {10} فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} {11} الملك 8-11 فأخبر ان الرسل انذرتهم وانهم كذبوا بالرسالة وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ} {71} فأخبر عن اهل النار انهم قد جاءتهم الرسالة وانذروا باليوم الآخر وقال تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْمِعْ بَعْضَنَا بَعْضًا وَّبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} {128} وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} {129} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَفْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} {130} الأنعام 128-130 فأخبر عن جميع الجن والانس ان الرسل بلغتهم رسالة الله وهي آياته وأنهم انذروهم اليوم الآخر وكذلك قال {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} {103} الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} {104} الكهف 103-104 الى قوله {وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} {105} الكهف 105 فأخبر انهم كفروا بآياته وهي رسالته وبلقائه وهو اليوم الآخر وقد اخبر ايضا في غير موضع بأن الرسالة عمت بنى آدم وان الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين كما قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} فاطر 24 وقال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} النساء 163 الى قوله {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {165} النساء 165 وقال تعالى {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {48} وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} {49} الانعام 48-49 فأخبر ان من آمن بالرسل واصلح من الأولين والآخرين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال تعالى {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 38 ومثل ذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 62 فنذكر ان المؤمنين بالله وباليوم الآخر من هؤلاء هم اهل النجاة والسعادة وذكر في تلك الآية الايمان بالرسل وفي هذه الايمان باليوم الآخر لأنهما متلازمان وكذلك الايمان بالرسل كلهم متلازم فمن آمن بواحد منهم فقد آمن بهم كلهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} {150} النساء 150 الى قوله {وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْكَافِرُونَ حَقًّا {النساء 151} الآية والتي بعدها فأخبر ان المؤمنين بجميع الرسل هم اهل السعادة وان المفرقين بينهم بالايمان ببعضهم دون بعض هم الكافرون حقا وقال تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا {13} أَفْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا {14} مَّن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا {15} الإسراء 13-15 فهذه الأصول الثلاثة توحيد الله والايمان برسله وباليوم الآخر هي امور متلازمة والحاصل ان توحيد الله والايمان برسله وباليوم الآخر هي امور متلازمة مع العمل الصالح فأهل هذا الايمان والعمل الصالح هم اهل السعادة من الأولين والآخرين والخارجون عن هذا الايمان مشركون اشقياء فكل من كذب الرسل فلن يكون الا مشركا وكل مشرك مكذب للرسل وكل مشرك وكافر بالرسل فهو كافر باليوم الآخر وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافر بالرسل وهو مشرك ولهذا قال سبحانه وتعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ {112} وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ {113} الأنعام 112-113 فأخبر ان جميع الأنبياء لهم اعداء وهم شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض القول المزخرف وهو المزين المحسن يغررون به والغرور هو التلبيس والتمويه وهذا شأن كل كلام وكل عمل يخالف ما جاءت به الرسل من امر المتفلسفه والمتكلمه وغيرهم من الأولين والآخرين ثم قال { وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ {113} الأنعام 113 فأخبر ان كلام اعداء الرسل تصغى اليه افئدة الذين لا يؤمنوا بالآخرة فعلم ان مخالفة الرسل وترك الايمان بالآخرة متلازمان فمن لم يؤمن بالآخرة اصغى الى زخرف اعدائهم فخالف الرسل كما هو موجود في اصناف الكفار والمنافقين في هذه الأمة وقال تعالى { وَلَقَدْ جَنَّبْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {52} هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شَفْعَاءَ فَنَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {53} الأعراف 52-53 فأخبر ان الذين تركوا اتباع الكتاب وهو الرساله يقولون اذا جاء تأويله وهو ما اخبر به جاءت رسل ربنا بالحق وهذا كقوله { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى {127} طه 124-127 اخبر ان الذين تركوا اتباع آياته يصيبهم ما ذكرنا فقد تبين ان اصل السعادة واصل النجاة من العذاب هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والايمان برسله واليوم الآخر والعمل الصالح¹

أصول الاسلام أربعة دال ودليل ومبين ومستدل

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 28-34

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد أصول الاسلام أربعة دال ودليل ومبين ومستدل فالدال هو الله والدليل هو القرآن والمبين هو الرسول قال الله تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم والمستدل هم أولو العلم وأولو الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرابيتهم وقد ذكره ابن المنى عن أحمد وهو مذكور في العدة للقاضي أبي يعلى وغيرها إما أن أحمد قال له أو قيل له فاستحسنه ولهذا صار كثير من النظائر يوجبون العلم والنظر والاستدلال وينهون عن التقليد ويقول كثير منهم إن إيمان المقلد لا يصح أو أنه وإن صح لكنه عاص بترك الاستدلال ثم النظر والاستدلال الذي يدعون إليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعه ليس هو المشروع لا خبرا ولا أمرا وهو استدلال فاسد لا يوصل الى العلم فانهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام بأنها مستلزما للأعراض لا تخلو عنا ولا تنفك منها ثم استدلوا على حدوث الاعراض قالوا فثبت أن الأجسام مستلزما للحوادث لا تخلو عنها فلا تكون مثلها ثم كثير منهم قالوا وما لم يخل من الحوادث أو ما لم يسبق الحوادث فهو حادث وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بان لها ابتداء كالحادث المعين والحوادث المحدودة ولو قدرت ألف ألف حادث فإن الحوادث اذا جعلت مقدره محدودة فلا بد أن يكون لها ابتداء فإن مالا ابتداء له ليس له حد معين ابتداء منه اذ قد قيل لا ابتداء له بل هو قديم أزلي دائم ومعلوم أن هذه الحوادث مالم يسبقها فهو حادث فإنه يكون إما معها وإما بعدها وكثير منهم يفتن للفرق بين جنس الحوادث وبين الحوادث المحدودة فالجنس مثل أن يقال ما زالت الحوادث توجد شيئا بعد شيء أو ما زال جنسها موجودا أو ما زال الله متكلمًا اذا شاء أو ما زال الله فاعلا لما يشاء أو ما زال قادرا على أن يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدر بالقدرة لا تكون قدرة يمتنع معها المقدر فان هذه في الحقيقة ليست قدرة ومثل أن يقال في المستقبل لا بد أن الله يخلق شيئا بعد شيء ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول ولا ينفد وقد يقال في النوعين كلمات الله لا تنفذ ولا نهاية لها لا في الماضي ولا في المستقبل ونحو ذلك فالكلام في دوام الجنس وبقائه وأنه لا ينفذ ولا ينقضي ولا يزول ولا ابتداء له غير الكلام فيما يقدر محدودا له ابتداء أوله ابتداء وانتهاء فإن كثيرا من النظائر من يقول جنس الحوادث إذا قدر له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء لأنه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر مما وجد ومالا يتناهي لا يدخله التفاضل فإنه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها بخلاف مالا ابتداء له ولا انتهاء فإن هذا لا يكون شيء فوفاة فلا يفضي الى التفاضل فيما لا يتناهي وبسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل فاما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافرا على قول طائفة منهم وإما أن يكون عاصيا على قول آخرين وأما إن يكون مقلدا لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمنا غير عاص والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان هو هذا النظر في هذا الدليل فان علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطا في الإيمان والعلم وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وأنهم عالمون بصدق الرسول وبما جاء به وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} سبأ6 وقال {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران18 وقال {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ} الرعد19 وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} البقرة4

وقوله {أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ} البقرة 5 وقوله {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} يوسف 108 وأمثال ذلك فتبين أن هذا النظر والاستدلال الذي أوجبه هؤلاء وجعلوه أصل الدين ليس مما أوجبه الله ورسوله ولو قدر أنه صحيح في نفسه وأن الرسول أخبر بصحته لم يلزم من ذلك وجوبه إذ قد يكون المطلوب أدلة كثيرة ولهذا طعن الرازي وأمثاله على أبي المعالي في قوله إنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق وقالوا هب أنه يدل على حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر وسلوكوا هم طرقا آخر فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلا وقد شهد لها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم تتعين مع إمكان سلوك طرق أخرى كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والاجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى ومع هذا فإذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم يعلم بها ولم يتمكن من سماعها لم يضره كالأيات المكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل سائر القرآن فالدليل يجب طرده ولا يجب عكسه ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء إيجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم والأشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضا في رسالته إلى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللمع في الرد على أهل البدع وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحا كثيرة والقاضي أبو بكر شرحه ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنفه في نقضه وسماه نقض اللمع وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول مع مخالفة صريح المعقول كما أصاب من سلكتها من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية ومن تبعهم من الطوائف وان لم يعرفوا غورها وحققتها فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازما ليطردها فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه ويلتزم هو لوازم آخر لطردها فيقع أيضا في مخالفة الشرع والعقل فالجهمية التزموا لأجلها نفي أسماء الله وصفاته إذ كانت الصفات أعراضا تقوم بالموصوف ولا يعقل موصوف بصفة إلا الجسم فإذا اعتقدوا حدوثه اعتقدوا حدوث كل موصوف بصفة والرب تعالى قديم فالتزموا نفي صفاته وأسمائه مستلزما لصفاته فنفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى والمعتزلة استعظموا نفي الاسماء لما فيه من تكذيب القرآن تكديبا ظاهر الخروج عن العقل والتناقض فإنه لا بد من التمييز بين الرب وغيره بالقلب واللسان فما لا يميز من غيره لا حقيقة له ولا إثبات وهو حقيقة قول الجهمية فانهم لم يثبتوا في نفس الامر شيئا قديما البتة كما أن المتفلسفة الذين سلخوا مسلك الامكان والوجوب وجعلوا ذلك بدل الحادث والقديم لم يثبتوا واجبا بنفسه البتة وظهر بهذا فساد عقلهم وعظيم جهلهم مع الكفر وذلك أنه يشهد وجود السماوات وغيرها فهذه الأفلاك إن كانت قديمة واجبة فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب وان كانت ممكنة أو محدثة فلا بد لها من واجب قديم فإن وجود الممكن بدون الواجب والمحدث بدون القديم ممتنع في بدائه العقول فثبت وجود موجود قديم واجب بنفسه على كل تقدير فإذا كان ما ذكره من نفي الصفات عن القديم والواجب يستلزم نفي القديم مطلقا ونفي الواجب علم أنه باطل وقد بسط هذا في مواضع وبين أن كل من نفى صفة مما أخبر به الرسول لزمه نفي جميع الصفات فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول إلا مع القول بصدق الرسول فأدلة العقول مستلزمة لصدق الرسول فلا يمكن مع عدم تصديقه القول بموجب العقول بل من كذبه فليس معه لا عقل ولا سمع كما أخبر الله تعالى عن أهل النار قال تعالى {كَلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُهَا خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} {8} قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ {9}

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ {10} فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ {11} الملك 8-11 وهذا مبسوط في غير هذا الموضع والمقصود هنا أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنى استعظموا ذلك وأقروا بالأسماء ولما رأوا هذه الطريق توجب نفي الصفات نفوا الصفات فصاروا متناقضين فان اثبات حي عليم قدير سميع بصير بلا حياة ولا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا سمع ولا بصر مكابرة للعقل كإثبات مصل بلا صلاة وصائم بلا صيام وقائم بلا قيام ونحو ذلك من الاسماء المشتقة كاسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها ولهذا ذكروا في أصول الفقه أن صدق الاسم المشتق كالحي والعليم لا ينفك عن صدق المشتق منه كالحياة والعلم وذكروا النزاع مع من ذكروه من المعتزلة كأبي علي وأبي هاشم فجاء ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري والقلانسي فقررروا أنه لا بد من إثبات الصفات متابعة للدليل السمعي والعقلي مع إثبات الاسماء وقالوا ليست أعراضا لان العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية سلكوا في هذا الفرق وهو أن العرض لا يبقى زمانين مسلكا أنكره عليهم جمهور العقلاء وقالوا إنهم خالفوا الحس وضرورة العقل وهم موافقون لأولئك على صحة هذه الطريقة طريقة الإعراض قالوا وهذه تنفي عن الله أن يقوم به حادث وكل حادث فانما يكون بمشيئته وقدرته قالوا فلا يتصف بشيء من هذه الأمور لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يقوم به فعل اختياري يحصل بمشيئته وقدرته كخلق العالم وغيره بل منهم من قال لا يقوم به فعل بل الخلق هو المخلوق كالأشعري ومن وافقه ومنهم من قال بل فعل الرب قديم أزلي وهو من صفاته الأزلية وهو قول قدماء الكلابية وهو الذي ذكره أصحاب ابن خزيمة لما وقع بينه وبينهم بسبب هذا الأصل فكتبوا عقيدة اصطلاحوا عليها وفيها إثبات الفعل القديم الأزلي وكان سبب ذلك أنهم كانوا كلابية يقولون إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل كلامه المعين لازم لذاته أزلا وأبدا وكان ابن خزيمة وغيره على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته وكان قد بلغه عن الإمام أحمد أنه كان يذم الكلابية وأنه أمر بهجر الحارث المحاسبي لما بلغه أنه على قول ابن كلاب وكان يقول حذروا عن حارث الفقير فإنه جهمي واشتهر هذا عن أحمد وكان بنيسابور طائفة من الجهمية والمعتزلة ممن يقولون إن القرآن وغيره من كلام الله مخلوق ويطلقون القول بأنه متكلم بمشيئته وقدرته لكن مرادهم بذلك أنه يخلق كلاما بائنا عنه قائما بغيره كسائر المخلوقات وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب فاراد التفريق بين ابن خزيمة وبين طائفة من أصحابه فأطلعه على حقيقة قولهم فنفر منه وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب واعتقدوا أنه لا تقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة طريقة الإعراض وابن خزيمة شيخهم وهو الملقب بإمام الأئمة وأكثر الناس معه ولكن لا يفهمون حقيقة النزاع فاحتاجوا لذلك الى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلابية وبين أهل الحديث والسنة فذكروا فيها أن كلام الله غير مخلوق وأنه لم يزل متكلما وأن فعله أيضا غير مخلوق فالمفعول مخلوق ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق وهذا قول الحنفية وكثير من الحنبلية والشافعية والمالكية وهو اختيار القاضي أبي يعلى وغيره في آخر عمره وبسط هذا له موضع آخر والمقصود التنبيه على افتراق الامة بسبب هذه الطريقة ولما عرف كثير من الناس باطن قول ابن كلاب وأنه يقول أن الله لم يتكلم بالقرآن العربي وأن كلامه شيء واحد هو معنى آية الكرسي وآية الدين عرفوا ما فيه من مخالفة الشرع والعقل فنفروا عنه وعرفوا أن هؤلاء يقولون أنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته فأنكروه وكان ممن أنكر ذلك الكرامية وغير الكرامية كاصحاب أبي معاذ التومني وزهير البابي وداود بن علي وطوائف فصار كثير من هؤلاء يقولون أنه يتكلم بمشيئته وقدرته فأنكروه لكن يراعى تلك الطريقة لا اعتقاده صحتها فيقول إنه لن يكن في الأزل متكلما لأنه إذا كان لم يزل متكلما بمشيئته لزم وجود حوادث لا تنتهى وأصل الطريقة أن هذا ممتنع فصار حقيقة قول هؤلاء إنه صار متكلم بعد أن لم يكن متكلم فخالفوا قول السلف والأئمة انه لم يزل متكلما اذا

شاء وبسط هذه الأمور له موضع آخر والمقصود هنا أن كثيرا من أهل النظر صار ما يوجبونه من النظر والاستدلال ويجعلونه أصل الدين والايمان هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع المخالفة للعقل التي انفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أولا متواتر مشهور قد صنف فيه مصنفات وذمهم للكلام والمتكلمين مما عني به أهل هذه الطريقة كذم الشافعي لحفص الفرد الذي كان على قول ضرار بن عمرو وذم أحمد بن حنبل لأبي عيسى محمد بن عيسى برغوث الذي كان على قول حسين النجار وذمهم ما لم يوافقهم في ذلك من غيرهم لأمثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة وقد صنف في ذم الكلام وأهله مصنفات أيضا وهو متناول لأهل هذه الطريقة قطعا فكان إيجاب النظر بهذا التفسير باطلا قطعاً بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والايمان ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة من حذاق الطوائف يتبين لهم فسادها كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالي وأبو عبد الله الرازي وأمثالهما ثم الذي يتبين له فسادها إذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها بقي حائرا مضطربا والقائلون بقدوم العالم من الفلاسفة والملاحدة وغيرهم تبين لهم فسادها فصار ذلك من أعظم حججهم على قولهم الباطل فيبطلون قول هؤلاء إنه صار فاعلا أو فاعلا ومتكلما بمشيتته بعد أن لم يكن ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث ويظنون أنهم إذا أبطلوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم وهم أضل وأجهل من أولئك فإن أدلتهم لا توجب قدم شيء بعينه من العالم بل كل ما سوى الله فهو محدث مخلوق كائن بعد أن لم يكن ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة وأن كان الفاعل لم يزل فاعلا لما يشاء ومتكلما بما يشاء وصار كثير من أولئك إذا ظهر له فساد أصل أولئك المتكلمين المبتدعين وليس عنده إلا قولهم وقول هؤلاء يميل إلى قول هؤلاء الملاحدة ثم قد يبطن ذلك وقد يظهره لمن يأمنه وابتلى بهذا كثير من أهل النظر والعبادة والتصوف وصاروا يظهرون هذا في قالب المكاشفة ويزعمون أنهم أهل التحقيق والتوحيد والعرفان فأخذوا من نفي الصفات أن صانع العالم لا داخل العالم ولا خارجه ومن قول هؤلاء أن العالم قديم ولم يروا موجودا سوى العالم فقالوا إنه هو الله وقالوا هو الوجود المطلق والوجود واحد وتكلموا في وحدة الوجود وأنه الله بكلام ليس هذا موضع بسطه ثم لما ظهر أن كلامهم يخالف الشرع والعقل صاروا يقولون يثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ويقولون القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا ومن أراد أن يحصل له هذا العلم اللدني الأعلى فليترك العقل والنقل وصار حقيقة قولهم الكفر بالله وبكتبه ورسله وباليوم الآخر من جنس قول الملاحدة الذين يظهرون التشيع لكن أولئك لما كان ظاهر قولهم هو ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان صارت وصمة الرافض تنفر عنهم خلقا كثيرا لم يعرفوا باطن أمرهم وهؤلاء صاروا ينتسبون إلى المعرفة والتوحيد وأتباع شيوخ الطريق كالفضيل وإبراهيم بن أدهم والتستري والجنيد وسهل بن عبد الله وأمثال هؤلاء ممن له في الأمة لسان صدق فاغتر بهؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم وهم في الحقيقة من أعظم خلق الله خلقا لهؤلاء المشايخ السادة ولمن هو أفضل منهم من السابقين الأولين والأنبياء المرسلين وكان من أسباب ذلك أن العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف أمر معظم في القلوب والرسول إنما بعثوا بدعاء الخلق إلى أن يعرفوا الله ويكون أحب إليهم من كل ما سواه فيعبدوه ويألهوه ولا يكون لهم معبود مألوه غيره وقد أنكر جمهور أولئك المتكلمين أن يكون الله محبوبا أو أنه يحب شيئا أو يحبه أحد وهذا في الحقيقة إنكار لكونه إليها معبودا فإن الآله هو المألوه الذي يستحق أن يؤله ويعبد والتأله والتعبد يتضمن غاية الحب بغاية الذل ولكن غلط كثير من أولئك فظنوا أن الألوية هي القدرة على الخلق وإن الآله بمعنى الآله وإن العباد يألههم الله لا أنهم هم يألهون الله كما ذكر ذلك طائفة منهم الأشعري وغيره وطائفة ثالثة لما رأت ما دل على أن الله يحب أن يكون محبوبا من أدلة الكتاب والسنة وكلام السلف وشيوخ أهل المعرفة صاروا يقولون بأنه محبوب لكنه هو نفسه لا يحب

شيئا إلا بمعنى المشيئة وجميع الاشياء مرادة له فهي محبوبة له وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث كأبي إسماعيل الأنصاري وأبي حامد الغزالي وأبي بكر بن العربي وحقيقة هذا القول أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضاه وهذا هو المشهور من قول الأشعري وأصحابه وقد ذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك وكذلك ذكر ابن عقيل أن أول من قال إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الأشعري وأصحابه وهم قد يقولون لا يحبه ديننا ولا يرضاه ديننا كما يقولون لا يريد أن يكون فاعله مأجورا وأما هو نفسه فهو محبوب له كسائر المخلوقات فإنها عندهم محبوبة له إذ كان ليس عندهم إلا إرادة واحدة شاملة لكل مخلوق فهو عندهم محبوب مرضي وجماهير المسلمين يعرفون أن هذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل وان المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن الله لا يحب الشرك ولا تكذيب الرسل ولا يرضى ذلك بل هو يبغض ذلك ويمقتة ويكرهه كما ذكر الله في سورة بني إسرائيل ما ذكره من المحرمات ثم قال كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها وبسط هذه الأمور له مواضع أخر والمقصود هنا أن الذين اعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدئوه صارت فروعه فاسدة إذ قالوا ان من لم يسلكها كفر أو عصى فقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام أن الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يسلكوا طريقهم وهم خير الامة وإن قالوا ان من قاله ليس عنده علم ولا بصيرة بالايمان بل قاله تقليدا محضا من غير معرفة يكون مؤمنا فالكتاب والسنة يخالف ذلك ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا التناقض فان ما جاء به الرسول جاء من عند الله وما ابتدئوه جاءوا به من عند غير الله وقد قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وهؤلاء بنوا دينهم على النظر والصوفية بنوا دينهم على الارادة وكلاهما لفظ مجمل يدخل فيه الحق والباطل فالحق هو النظر الشرعي والارادة الشرعية فالنظر الشرعي هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى كما قال شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان والارادة الشرعية إرادة ما أمر الله به ورسوله والسماع الشرعي سماع ما أحب الله سماعه كالقرآن والدليل الذي يستدل به هو الدليل الشرعي وهو لذي دل الله به عباده وهداهم به الى صراط مستقيم فانه لما ظهرت البدع والتبس الحق بالباطل صار اسم النظر والدليل والسماع والارادة يطلق على ثلاثة أمور منهم من يريد به البدعي دون الشرعي فيريدون بالدليل ما ابتدئوه من الأدلة الفاسدة والنظر فيها ومن السماع والارادة ما ابتدئوه من اتباع ذوقهم ووجدتهم وما تهواه أنفسهم وسماع الشعر والغناء الذي يحرك هذا الوجد التابع لهذه الارادة النفسانية التي مضمونها اتباع ما تهوى الأنفس بغير هدى من الله ومنهم من يريد مطلق الدليل والنظر ومطلق السماع والارادة من غير تقييدها لا بشرعي ولا بدعي فهؤلاء يفسرون قوله الذين يستمعون القول بمطلق القول الذي يدخل فيه القرآن والغناء ويستمعون الى هذا وهذا وأولئك يفسرون الارادة بمطلق المحبة للاله من غير تقييدها بشرعي ولا بدعي ويجعلون الجميع من أهل الارادة سواء عبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول أو كان عابدا للشيطان مشركا عابدا بالبدع وهؤلاء أوسطهم وهم أحسن حالا من الذين قيدوا ذلك بالبدعي وأما القسم الثالث فهم صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول علما وعملا يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون إلى المحبة والارادة الشرعية وهي محبة الله وحده وارادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله فهم لا يعبدون إلا الله ويعبدونه بما شرع وأمر ويستمعون ما أحب استماعه وهو قوله الذي قال فيه { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } {المؤمنون 68} وهو الذي قال فيه فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه { فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ } {17}

الزمر 17-18 كما قال {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} الزمر 55 وقال {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأَرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} الأعراف 145 سبحانه بين القدرة على الابتداء كقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتَّقَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُدْ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلًا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} الحج 5 الآية ومثل قوله {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْدَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا} 66 {أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} 67 {مريم 66-67} ومثل قوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} 78 {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} 79 {يس 78-79} وغير ذلك فالاستدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس اليها وبينها وأرشد اليها وهي عقلية فان نفس كون الانسان حادثا بعد أن لم يكن ومولودا ومخلوقا من نطفة ثم من علقه هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي لان الشارع استدل به وأمر أن يستدل به وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته وكثير من المتنازعين في المعرفة هل تحصل بالشرع أو بالعقل لا يسلكونه وهو عقلي شرعي وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن مثل الاستدلال بالسحاب والمطر هو مذكور في القرآن في غير موضع وهو عقلي شرعي كما قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} السجدة 27 فهذا مرئي بالعيون وقال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبْيُتِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} فصلت 53 ثم قال {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} فصلت 53 فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق وهي شرعية دل الشرع عليها وأمر بها والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل وهي شرعية لان الشرع دل عليها وأرشد اليها ولكن كثيرا من الناس لا يسمي دليلا شرعيا إلا ما دل بمجرد خبر الرسول وهو اصطلاح قاصر ولهذا يجعلون أصول الفقه هو لبيان الأدلة الشرعية الكتاب والسنة والاجماع والكتاب يريدون به أن يعلم مراد الرسول فقط والمقصود من أصول الفقه هو معرفة الأحكام الشرعية العملية فيجعلون الأدلة الشرعية ما دلت على الاحكام العملية فقط ويخرجون ما دل باخبار الرسول عن أن يكون شرعيا فضلا عما دل بارشاده وتعليمه ولكن قد يسمون هذا دليلا سمعيا ولا يسمونه شرعيا وهو اصطلاح قاصر والأحكام العملية أكثر الناس يقولون إنها تعلم بالعقل أيضا وأن العقل قد يعرف الحسن والقبح فتكون الأدلة العقلية دالة على الأحكام العملية أيضا ويجوز أن تسمى شرعية لأن الشرع قررها أو وافقها أو دل عليها وأرشد اليها كما قيل مثل ذلك في المطالب الخيرية كاثبات الرب ووحدانيته وصدق رسله وقدرته على المعاد ان الشرع دل عليها وأرشد اليها وبسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن الاشعري بنى أصول الدين في اللمع ورسالة النغر على كون الانسان مخلوقا محدثا فلا بد له من محدث لكون هذا الدليل مذكورا في القرآن فيكون شرعيا عقليا لكنه في نفس الامر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها وهو الاستدلال على حدوث الانسان بأنه مركب من الجواهر الفردة فلم يخل من الحوادث وما لم يخل من الحوادث فهو حادث فجعل العلم بكون الانسان محدثا وبكون غيره من الأجسام المشهودة محدثا انما يعلم بهذه الطريقة وهو أنه مؤلف من الجواهر الفردة وهي لا تخلو من اجتماع وافتراق وتلك أعراض حادثه وما لم ينفك من الحوادث فهو محدث وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء فانهم أنكروا المعلوم بالحس

حدوث الشيء من الشيء كحدوث الانسان من المنى فهؤلاء ظنوا أنه لا يحدث إلا الأعراض ولهذا لما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في كتبه الكبار والصغار الطرق الدالة على إثبات الصانع لم يذكر طريقاً صحيحاً وليس في كتبه وكتب أمثاله طريق صحيح لإثبات الصانع بل عدلوا عن الطرق العقلية التي يعلمها العقلاء بفطرتهم وهي التي دلتهم عليها الرسل الى طرق سلكوها مخالفة للشرع والعقل لا سيما من سلك طريقة الوجوب والامكان متابعة لابن سينا كالرازي فان هؤلاء من أفسد الناس استدلالاً كما قد ذكرنا طرق عامة النظار في غير هذا الموضوع مثل كتاب منع تعارض العقل والنقل وغير ذلك والمقصود هنا أن الرازي ذكر أن ما يستدل به على إثبات الصانع إما حدوث الأجسام وإما حدوث صفاتها وإما إمكانها وإما إمكان صفاتها وذكر في بعض المواضع وإما الأحكام والإتقان لكن الإحكام والإتقان يدل على العلم ابتداءً والاستدلال بحدوث الاجسام وإمكانها وإمكان صفاتها طرق فاسدة فان دلالة حدوثها مبنية على امتناع حوادث لا أول لها ودلالة إمكانها مبنية على ما قامت به الصفات يمتنع أن يكون واجباً بنفسه لأنه مركب ودلالة صفاتها مبنية على تماثلها فلا بد لتخصيص بعضها بالصفات من مخصص وهذه كلها طرق باطلة قال وأما الاستدلال بحدوث الصفات فهو الاستدلال بحدوث الأعراض وهذه الطريق أجود ما سلوه من الطرق مع أنها قاصرة فان مدارها على أنهم لم يعرفوا حدوث شيء من الأعيان وإنما علموا حدوث بعض الصفات وهذا يدل على أنه لا بد لها من محدث قال وهذا لا ينفى كون المحدث جسماً بخلاف تلك الطرق وهذه الطريق تدل على أن الأعراض كتركيب الانسان لا بد له من مركب ولا ينفى بها شيء من قدم الأجسام والجواهر بل يجوز أن يكون جميع جواهر الانسان وغيره قديمة أزلية لكن حدثت فيها الأعراض ويجوز أن يكون المحدث للأعراض بعض أجسام العالم فهذه الطريق لا تنفي أن يكون الرب بعض أجسام العالم وتلك باطلة مع أن مضمونها أن الرب لا يتصف بشيء من الصفات فهي لا تدل على صانع وإن دلت على صانع فليس بموجود بل معدوم أو متصف بالوجود والعدم كما قد بسط في غير موضع ولهذا يقول الرازي في آخر مصنفاته لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الإثبات { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر 10 { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 وقرأ في النفي { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } طه 110 قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ولما ذكر الرازي الاستدلال بحدوث الصفات كالحیوان والنبات والمطر ذكر أن هذه طريقة القرآن ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الاستدلال بآيات الله كقوله { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } البقرة 164 وهذا مذکور بعد قوله { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } البقرة 163 وقبل قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } البقرة 165 لكن القرآن لم يذكر أن هذه صفات حادثة وأنه ليس فيها أحداث عين قائمة بنفسها بل القرآن يبين أن في خلق الأعيان القائمة بنفسها آيات ويذكر الآيات في خلق الأعيان والأعراض كقوله { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ } البقرة 164 وهي أعيان ثم قال { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ } البقرة 164 والماء عين قائمة بنفسها وقوله { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } البقرة 164 فأحيا به الأرض بعد موتها هو بما يخلقه فيها من النبات وهو أعيان وكذلك قوله { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ }

دَابَّةٌ { وَقَوْلُهُ { وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ } فالرياح أعيان وتصريفها أعراض وقوله { وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } والسحاب أعيان { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } وقد تقدم أن أصل الاشتباه في هذا أن خلق الشيء من مادة هل هو خلق عين أم إحداث اجتماع وافتراق وأعراض فقط والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال فالقائلون بالجواهر الفردة من أهل الكلام القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر الصغار التي قد بلغت من الصغر إلى حد لا يتميز منها جانب عن جانب يقولون تلك الجواهر باقية تنقلت في الحوادث ولكن تعتقب عليها الأعراض الحادثة والاستدلال بالأعراض على حدوث ما يلزمه من الجواهر ثم الاستدلال بذلك على المحدث غير الاستدلال بحدوث هذه الأعراض على المحدث لها فتلك هي طريقة الجهمية المشهورة وهي التي سلكها الأشعري في كتبه كلها متابعة للمعتزلة ولهذا قيل الأشعرية مخانيت المعتزلة وأما الاستدلال بالحوادث على المحدث فهي الطريقة المعروفة لكل أحد لكن تسمية هذه أعراضا هو تسمية القائلين بالجواهر الفرد مع أن الرازي توقف في آخر أمره فيه كما ذكر ذلك في نهاية العقول وذكر أيضا عن أبي الحسين البصري وأبي المعالي أنهما توقفا فيه والمقصود أن القائلين بالجواهر الفرد يقولون إنما أحدث أعراضا كجمع الجواهر وتفريقها فالمادة التي هي الجواهر المنفردة باقية عندهم بأعيانها ولكن أحدث صوراً هي أعراض قائمة بهذه الجواهر وأما المتفلسفة فيقولون أحدث صوراً في مواد باقية كما يقول هؤلاء لكن يقولون أحدث صوراً هي جواهر في مادة هي جوهر وعندهم ثم مادة باقية بعينها والصور الجوهرية كصورة الماء والهواء والتراب والمولدات تعتقب عليها وهذه المادة عندهم جوهر عقلي وكذلك الصورة المجردة جوهر عقلي ولكن الجسم مركب من المادة والصورة ولهذا قسموا الموجودات فقالوا إما أن يكون الموجود حالاً بغيره أو محلاً أو مركباً من الحال والمحل أو لا هذا ولا هذا فالحال في غيره هو الصورة والمحل هو المادة والمركب منهما هو الجسم وما ليس كذلك إن كان متعلقاً بالجسم فهو النفس والاف هو العقل وهذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه ليس هذا موضعها إذ المقصود أنهم يقولون أيضاً انه لم يحدث جسماً قائماً بنفسه بل إنما أحدث صورة في مادة باقية ولا ريب ان الأجسام بينها قدر مشترك في الطول والعرض والعمق وهو المقدار المجرد الذي لا يختص بجسم بعينه ولكن هذا المقدار المجرد هو في الذهن لا في الخارج كالعقد المجرد والسطح المجرد والنقطة المجردة وكالجسم التعليمي وهو الطويل العريض العميق الذي لا يختص بمادة بعينها فهذه المادة المشتركة التي أثبتوها هي في الذهن وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه فهؤلاء جعلوا الأجسام مشتركة في جوهر عقلي وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية وهؤلاء قالوا اذا خلق كل شيء من شيء فانما أحدثت صورة مع أن المادة باقية بعينها لكن أفسدت صورة وكونت صورة ولهذا يقولون عما تحت الفلك عالم الكون والفساد ولهذا قال ابن رشد إن الأجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد بخلاف الفلك فانه ليس مركباً من مادة وصورة عند الفلاسفة قال وإنما ذكر أنه مركب من هذا وهذا ابن سينا وهؤلاء وهؤلاء تحيروا في خلق الشيء من مادة كخلق الانسان من النطفة والحب من الحب والشجرة من النواة وظنوا أن هذا لا يكون إلا مع بقاء اصل تلك المادة إما الجواهر عند قوم وإما المادة المشتركة عند قوم وهم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء فانه عندهم لا يحدث إلا الصورة التي هي عرض عند قوم أو جوهر عقلي عند قوم وكلاهما لم يخلق من مادة والمادة عندهم باقية بعينها لم يخلق ولن يخلق منها شيء وقد ذكروا في قوله { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ } الطور 35 ثلاثة أمور قال ابن عباس والاكثر من أم خلقوا من غير خالق وهو الذي ذكره الخطابي وقال الزجاج وابن كيسان أم خلقوا عبثاً وسدى فلا يبعثون ولا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينيهون كما يقول فعلت هذا من غير شيء أي لغير علة وقيل أم خلقوا من غير مادة أي من غير أب وأم ثم من هؤلاء من قال فهم كالجماد ومنهم من قال

كالسموات ظنا منه أنها خلقت من غير مادة ذكر الأربعة أبو الفرج وذكر البغوي الوجهين الأولين والذي ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر وهو أن من قال المادة الباقية بعينها وإنما حدث عرض أو صورة وذلك لم يخلق من غيره ولكن أحدث في المادة الباقية فلا يكون الله خلق شيئا من شيء لأن المادة عندهم لم تخلق أما المتفلسفة فعندهم المادة قديما أزلية باقية بعينها وأما المتكلمون فالجواهر عندهم موجودة وما زالت موجودة لكن من قال إنها حادثة من أهل الملل وغيرهم قالوا يستدل على حدوثها بالدليل لا أن خلقها معلوم للناس فهو عندهم مما يستدل عليه بالأدلة الدقيقة الخفية مع أن ما يذكرونه منتهاه إلى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهو دليل باطل فلا دليل عندهم على حدوثها وإذا كانت لم تخلق إذ خلق الإنسان بل هي باقية في الإنسان والاعراض الحادثة لم تخلق من مادة فإذا خلق الإنسان لم يخلق من شيء لا جواهره ولا أعراضه وعلى قولهم ما جعل الله من الماء كل شيء حي ولا خلق كل دابة من ماء ولا خلق آدم من تراب ولا ذريته من نطفة بل نفس الجواهر الترابية باقية بعينها لم تخلق حينئذ ولكن أحدث فيها أعراض أو صورة حادثة وتلك الأعراض ليست من التراب فلما خلق آدم لم يخلق شيء من تراب وكذلك النطفة جواهرها باقية إما الجواهر المنفردة وإما المادة والحادثة هو عرض أو صورة في مادة ولا هذا ولا هذا خلق من نطفة وليس قولهم إنه لم يخلق من مادة معناه أن الخالق أبدعه لا من شيء وأنهم قصدوا بها تعظيم الخالق بل الإنسان لا ريب أنه جوهر قائم بنفسه وعندهم ذلك القائم بنفسه ما زال موجودا لم يخلق¹

لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم

كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها و تقويته وإمداده و نفي المغير للفطرة فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة و تكميلها لا بتغيير الفطرة و تحويلها والكمال يحصل بنسيان لربه و لما أنزله قال تعالى { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } الحشر 19 و قال تعالى في حق المنافقين { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } التوبة 67 و قال { كَذَلِكَ أَنْتَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } طه 126 و قوله { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ } الحشر 19 يقتضي أن نسيان الله كان سببا لنسيانهم أنفسهم و أنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم و نسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم و غفلتهم و عدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكرا ينفعها و يصلحها و أنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم²

نسيان آيات الله هو ترك الإيمان والعمل بها وإن حفظ حروفها

1 النبوات ج: 1 ص: 42-59 (تكملة الموضوع في النبوات ج: 1 ص: 60)

2 مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 348-349

قال تعالى {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} {122} قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَمَا نَسَى الْيَوْمَ نَسْيًا} {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} {127} طه 127-122 وقال تعالى " فإما يأتينكم مني هدى" الى قوله " كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى" طه 126-122 ونسيانها هو ترك الإيمان والعمل بها وإن حفظ حروفها قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وقرأ هذه الآية فمن إتبع ما بعث الله به رسوله محمدا من الكتاب والحكمة هداه الله وأسعده ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى وأضله الشيطان وأشفاه فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببه الإيمان فإن هذه حال أوليائه قال تعالى¹

الكفر اذا ذكر مفردا في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون

لفظ الكفر و النفاق فالكفر اذا ذكر مفردا في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} {127} طه 127-124 وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم في الباطن كفار ليس معهم من الإيمان شيء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر بل المنافقون في الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله بذلك في كتابه ثم قد يقرب الكفر بالنفاق في مواضع ففي أول البقرة ذكر أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين فقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } النساء 140²

العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه

قال تعالى { أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } طه 128 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 84 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 302

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 53

وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي
الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون¹

ومن كان مسلوب العقل أو مجنونا فغايبته أن يكون القلم قد رفع عنه فليس عليه عقاب ولا يصح
إيمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شيء من أعماله فإن الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل فمن لا عقل
له لا يصح شيء من عبادته لا فرائضه ولا نوافله ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من أولياء الله
ولهذا قال تعالى { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** } طه 128 أي العقول وقال تعالى { هل في
ذَلِكَ فَسَمَّ لَّذِي جَبَّرَ } الفجر 5 أي لذي عقل وقال تعالى { **وَأَتَقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** } البقرة 197
وقال { **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ** } الأنفال 22 وقال تعالى { **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ**
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فاما من لا يعقل فإن الله
لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ**
مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ**
قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف 179 وقال { **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يُعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا**
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44 فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفعه²

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى { **أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**
لِّأُولِي النُّهَى } طه 128 قال تعالى { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** } طه 54 أي العقول وقال
تعالى { **هَلْ فِي ذَلِكَ فَسَمَّ لَّذِي جَبَّرَ** } الفجر 5 أي لذي عقل وقال تعالى { **وَأَتَقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**
} البقرة 197 وقال { **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ** } الأنفال 22 وقال تعالى
{ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فاما من لا
يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا**
نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ**
وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف 179 وقال { **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يُعْقِلُونَ**
إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44³

آثار القوم المعذبين للمشاهدة ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

² الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 264-265

³ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

ومن الطريق الطرق الواضحة القاطعة المعلومة إلى قيام الساعة بالتواتر من أحوال إتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم وكفر بهم حال نوح وقومه وهود وقومه وصالح وقومه وحال إبراهيم وقومه وحال موسى وفرعون وحال محمد وقومه وهذا الطريق قد بينها الله في غير موضع من كتابه كقوله {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ} غافر5 إلى قوله {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} غافر5 وقال {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ} 42 { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ} 43 { وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى } الحج42-44 إلى قوله {44} {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ} 45 { الحج45 إلى قوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } الحج46 وقوله { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ } 137 { وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } 138 { الصافات137-138 وقال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْتَوَسَّمِينَ } الحجر75 فبين أنه تارك آثار القوم المعذبين للمشاهدة ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم وقال تعالى { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } طه128 فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك أحدهما ما يعاين ويعقل بالقلوب والثاني ما يسمع فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء ومصداقهم ومكذبهم وعابوا من آثارهم ما دل على أنه سبحانه عاقب مكذبكم وانتقم منهم وأنهم كانوا على الحق الذي يحبه ويرضاه وأن من كذبهم كان على الباطل الذي يغضب الله على أهله وإن طاعة الرسل طاعة الله ومعصيتهم معصية الله¹

القرآن و السنة تثبت القدر

قال تعالى { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى } طه129 تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة والقدر تضمن علمه بما سيكون و مشيئته لوجود ما قدره و علم أن سيخلقه و القول قد يكون خبراً و قد يكون فيه معنى الطلب الحض و المنع بالقسم و إما لكتابتها على نفسه كقوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام54 و قوله { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } الروم47 و قوله يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم محرماً فلا تظالموا و أما قوله { وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } الزمر71 فهذا مختص بالكفار و هو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال كما قال تعالى لإبليس { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص85 و قوله { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى } طه129 أي إن عذابهم له أجل مسمى إما يوم القيامة و إما في الدنيا كيوم بدر و إما عقب الموت و قد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لزماً أي لازماً لهم فإن المقتضي له قائم تام وهو كفرهم²

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 214

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 595

قال تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} القمر 49 وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وعلمه وإرادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} طه 129¹

و القرآن و السنة تثبت القدر و تقدير الأمور قبل أن يخلقها و أن ذلك في كتاب و هذا أصل عظيم يثبت العلم و الإرادة لكل ما سيكون و يزيل إشكالات كثيرة ضل بسببها طوائف في هذا المكان في مسائل العلم و الإرادة فالإيمان بالقدر من أصول الإيمان كما ذكره النبي صلى الله عليه و سلم في حديث جبريل قال الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و بالبعث بعد الموت و تؤمن بالقدر خيره و شره و قد تبرأ ابن عمر و غيره من الصحابة من المكذبين بالقدر و مع هذا فطائفة من أهل الكلام و غيرهم لا تثبت القدر إلا علما أزليا و إرادة أزلية فقط و إذا أثبتوا الكتابة قالوا إنها كتابة لبعض ذلك و أما من يقول إنه قدرها حينئذ كما في صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و كان عرشه على الماء فقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع و هو كقوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} الأعراف 167 و قوله {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص 85 و قوله {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} طه 129 و قوله {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {172} {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ} {173} الصافات 171- 173 و قوله {لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} الأنفال 68 و الكتاب في نفسه لا يكون أزليا و في حديث رواه حماد بن سلمة عن الأشعث بن عبدالرحمن الجرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات و الأرض بالفى سنة أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة رواه الترمذي و قال غريب و هو سبحانه أنزل القرآن ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا و كثير من الكتب المصنفة في أصول الدين و الكلام يوجد فيها الأقوال المبتدعة دون القول الذي جاء به الكتاب و السنة²

الحق الذي على الله هو أحقه على نفسه

قال تعالى {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} طه 129 فسبق منه كلمته بما سيكون من نصر المرسلين و ملء جهنم من الجنة و الناس أجمعين و نحو ذلك³

أن الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله و تركه إذ العلم يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هذا و انه لا يفعل هذا ليس فيه تعرض لأنه كتب هذا على نفسه و حرم هذا على نفسه كما لو أخبر عن

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 382

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 306- 316

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 269

كائن من كان أنه يفعل كذا ولا يفعل كذا لم يكن في هذا بيان لكونه محمودا ومدوحا على فعل هذا وترك هذا ولا في ذلك ما يبين قيام المقتضى لهذا والمانع من هذا فإن الخبر المحض كاشف عن المخبر عنه ليس فيه بيان ما يدعو إلى الفعل ولا إلى الترك بخلاف قوله { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ { الأنعام12 } وحرم على نفسه الظلم فإن التحريم مانع من الفعل وكتابتته على نفسه داعية إلى الفعل وهذا بين واضح إذ ليس المراد بذلك مجرد كتابته انه يفعل وهو كتابة التقدير كما قد ثبت في الصحيح انه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء فإنه قال { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ { الأنعام12 } ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون ولكان قد حرم على نفسه كل ما لم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم وكما أن الفرق ثابت في حقنا بين قوله { كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ { البقرة178 } وبين قوله { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ { القمر52 } وقوله { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا { الحديد22 } وقوله فيبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فهكذا الفرق أيضا ثابت في حق الله ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ { الروم47 } وقول النبي في الحديث الصحيح يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله اعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه ألا يعذبهم ومنه قوله في غير حديث كان حقا على الله أن يفعل به كذا فهذا الحق الذي عليه هو أحقه على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن وكلمته السابقة كقوله { **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ { طه129 } وقوله { لِأَمَلَانٍ جَهَنَّمَ { السجدة13 } و { لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ { إبراهيم13 } { فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ { آل عمران195 } { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ { الأعراف6 } ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب والمعنى بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء اليمين إما أن توجب حقا أو منعا أو تصديقا أو تكديبا¹**

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَحَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى { 121 } ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى { 122 } طه 121- 122** ان كل نهى فيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي فهو أمر فالأمر يتناول هذا وهذا ومنه قوله تعالى { **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى { طه121 } وإنما كان فعلا منهيها عنه²**

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 148- 155

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 677

2-والغى في الأصل مصدر غوى يغوى غيا كما يقال لوى يلوى ليا وهو ضد الرشد كما قال تعالى { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ العُغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } الأعراف146 و الرشد العمل الذى ينفع صاحبه والغى العمل الذى يضر صاحبه فعمل الخير رشد وعمل الشر غى ولهذا قالت الجن { وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } الجن10 فقابلوا بين الشر وبين الرشد وقال فى آخر السورة { قُلْ إِنِّي لَا أملكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا } الجن21 ومنه الرشيد الذى يسلم إليه ماله وهو الذى يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر وقال الشيطان { لأَعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } {83} ص82-83 وهو أن يأمرهم بالشر الذى يضرهم فيطيعونه كما قال تعالى { وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } إبراهيم22 وقال { وَبُرِّزَتِ الأَجْحِيمُ لِلْغَاوِينَ } الشعراء91 إلى أن قال { فَكُكِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ } {94} وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ } {95} الشعراء94-95 وقال { قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } القصص63 وقال { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم2 ثم إن الغى إذا كان إسما لعمل الشر الذى يضر صاحبه فإن عاقبة العمل أيضا تسمى غيا كما أن عاقبة الخير تسمى رشدا كما يسمى عاقبة الشر شرا وعاقبة الخير خيرا وعاقبة الحسنات حسنات وعاقبة السيئات سيئات¹

3-قوله تعالى { كَذَلِكَ أَنْتَ آيَاتُنَا فَنَسِيئَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسى } طه126 أي تركت العمل بها²

4-قال تعالى { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ آيَاتُنَا فَنَسِيئَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسى } {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الأَخْرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } {127} طه124-127 فالاسراف مجاوزة الحد تعدى الحد ومجاوزة القصد³

5-قال تعالى { أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } طه128 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ } الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما فى قوله { وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام87 وكما فى قوله { شَاكِرًا لِأَنعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ } النحل121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 570

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 353

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 695

وَدِينِ الْحَقِّ { التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

طه 130-135

{ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ } {130} وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } {131} وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ } {132} وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمَ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ } {133} وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ } {134} قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ } {135}

الصبر واجب على أداء الواجبات وترك المحظورات

قال تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ } طه 130 وينبغي ان الانسان اذا ابتلى فعليه ان يصبر ويثبت ولا يكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه وقد ذكر الله الصبر في كتابه في اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة في قوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } البقرة 45 { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } البقرة 153 وقوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ } هود 114 الى قوله { وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } هود 115 { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه 130 { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 الآية وجعل الامامة في الدين موروثه عن الصبر واليقين بقوله { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } السجدة 24 فان الدين كله علم بالحق وعمل به والعمل به لا بد فيه من الصبر بل وطلب علمه يحتاج الى الصبر كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالعلم فان طلبه الله عبادة ومعرفة خشية والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ومذاكرته تسبيح به يعرف الله ويعبد وبه يمجده الله ويوحد يرفع الله بالعلم اقواما يجعلهم للناس قادة وائمة يهتدون بهم وينتهون الى رأيهم فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولا بد في الجهاد من الصبر ولهذا قال تعالى { وَالْعَصْرِ } {1} { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } {2} { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ } {3} { العصر 1-3 }¹

¹ أمراض القلوب ج: 1 ص: 54 ومجموع الفتاوى ج: 10 ص: 39 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 54

أعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة

أعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الاخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثانى الاحسان الى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} البقرة 45 وكقوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } 114 { وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 115 { هود 114-115 } وقوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 وكذلك فى سورة ق { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ } ق 39 وقال تعالى { وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنفُسَنَا بِمَا يَبْغُونَ } 97 { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ } 98 { الحجر 97-98 } وأما قرنه بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جدا فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية إذا عرف الانسان ما يدخل فى هذه الاسماء الجامعة يدخل فى الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوه كتابه واخلاص الدين له والتوكل عليه وفى الزكاة الاحسان الى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج فى الصحيحين عن النبى انه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة فى الصحيحين عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم ما منكم من احد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم ان يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل فان لم يجد فبكلمة طيبة وفى السنن عن النبى قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو ان تلقى أخاك ووجهك اليه منبسط ولو ان تفرغ من دلوك فى إناء المستقى وفى السنن عن النبى ان أتل ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن وروى عنه انه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر كما قال تعالى { وَلَئِن أَدْفَنَّا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ } 9 { وَلَئِن أَدْفَنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْتَهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } 10 { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } 11 { هود 9-11 } وقال لنبيه { خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين } الأعراف 199 وقال تعالى { وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } 133 { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } 134 { آل عمران 133-134 } وقال تعالى { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } 34 { وَمَا يُقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } 35 { وَإِذَا يَنزَعْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 36 { فصلت 34-36 } وقال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ

فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ { الشورى 40 قال الحسن البصرى رحمة الله عليه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقم من وجب أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح¹

النصر والعاقبة بالصبر والتقوى

قال تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ } طه 130 وفى الصحيح عن النبى أنه كان يقول فى خطبه خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق والكمال هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه اصبر فكلما كان اتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا فى غير موضع من كتابه وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين والمعاهدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى { بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُدْخِلْكُمْ فِيهِم بَخْمِثَةً آتِيَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 وقال أخوة يوسف له { قَالُوا أَلَيْسَ لَكَ لِأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا فقال تعالى { وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يونس 109 وفى اتباع ما أوحى إليه التقوى كلها تصديقا لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ } طه 130²

العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب فيها

قال تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ } طه 130 عن عقبه بن عامر رضى الله عنه قال لما نزلت { فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } الواقعة 74 قال رسول الله إجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ } الأعلى 1 قال إجعلوها فى سجودكم رواه أبو داود وابن ماجه فأمر النبى صلى الله عليه وسلم يجعل هذين التسبيحين فى الركوع والسجود وأمره على الوجوب وذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 361-364

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 35 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 109

يقتضى وجوب ركوع وسجود تبعا لهذا التسبيح وذلك هو الطمأنينة ثم إن من الفقهاء من قد يقول التسبيح ليس بواجب وهذا القول يخالف ظاهر الكتاب والسنة فإن ظاهرهما يدل على وجوب الفعل والقول جميعا فإذا دل دليل على عدم وجوب القول لم يمنع وجوب الفعل وأما من يقول بوجوب التسبيح فيستدل لذلك بقوله تعالى **{ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه130** وهذا أمر بالصلاة كلها كما ثبت في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال كنا جلوسا عند النبي إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ **{ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه130** وإذا كان الله عز وجل قد سمى الصلاة تسبيحا فقد دل ذلك على وجوب التسبيح كما أنه لما سماها قياما في قوله تعالى **{ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا }** {المزمل2} دل على وجوب القيام وكذلك لما سماها قرآنا في قوله تعالى **{ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ }** {الإسراء78} دل على وجوب القرآن فيها ولما سما وسجودا في مواضع دل على وجوب الركوع والسجود فيها وذلك أن تسميتها بهذه الأفعال دليل على أن هذه الأفعال لازمة لها فإذا وجدت هذه الأفعال فتكون من الأبعاض اللازمة كما أنهم يسمون الإنسان بإبعاضه اللازمة له فيسمونه رقبة ورأسا ووجها ونحو ذلك كما في قوله تعالى **{ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }** {النساء92} ولو جاز وجود الصلاة بدون التسبيح لكان الأمر بالتسبيح لا يصلح أن يكون أمرا بالصلاة فإن اللفظ حينئذ لا يكون دالا على معناه ولا على ما يستلزم معناه¹

أن العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب فيها كقوله **{ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ }** {الإسراء78} و **{ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ }** {الحجر98} **{ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } طه130²**

والصلاة أعظم التسبيح كما في قوله تعالى **{ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى }** طه130 وقوله **{ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } {17}** ولله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تُظهِرُونَ {18} {الروم17-18} وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال كنا جلوسا عند رسول الله إذ نظر القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ قوله تعالى **{ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى }** طه130 وهذا معنى قول داود سبوا الله تسبيحا جديدا والتسبيح التي شرعها الله جديدا كالصلوات الخمس التي شرعها للمسلمين جديدا ولما أقامها جبريل للنبي قال هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات³

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 551-550

²شرح العمدة ج: 3 ص: 543

³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 234-235

سبحان الله وبحمده اثبات تنزيهه وتعظيمه والهيته وحمده

وقد ثبت في الصحيح عن النبي انه قال افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له وفي الصحيح عن النبي انه سئل اي الكلام افضل قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده وفي الصحيحين عن النبي انه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفي القرآن {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} الحجر 98 وقالت الملائكة {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} البقرة 30 وهاتان الكلمتان احدهما مقرونة بالتحميد والاخرى بالتعظيم فانا قد ذكرنا ان التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن اثبات المحاسن والكمال والحمد انما يكون على المحاسن وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والاكرام اذ ليس كل معظم محبوبا محمودا ولا كل محبوب محمودا معظما وقد تقدم ان العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن وفيها الذل له الناشيء عن عظمته وكبريائه ففيها اجلاله واکرامه وهو سبحانه المستحق للجلال والاكرام فهو مستحق غاية الاجلال وغاية الاكرام ومن الناس من يحسب ان الجلال هو الصفات السلبيه و الاكرام الصفات الثبوتية كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق ان كليهما صفات ثبوتية واثبات الكمال يستلزم نفي النقائص لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق ان يجب وما يستحق ان يعظم كقوله { اِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ } لقمان 26 وقول سليمان عليه السلام { فَاِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ } النمل 40 وكذلك قوله { لَهٗ المُلْكُ وَلَهٗ الحَمْدُ } التغابن 1 فان كثيرا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما اذ الحمد يتضمن الاخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة فيتضمن اخبارا بمحاسن المحبوب محبة له وكثيرا ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك فالاول يهاب ويخاف ولا يحب وهذا يحب ويحمد ولا يهاب ولا يخاف والكمال اجتماع الوصفين كما ورد في الاثر ان المؤمن رزق حلاوة ومهابة وفي نعت النبي كان من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة احبه فقرن التسبيح بالتحميد وقرن التهليل بالتكبير كما في كلمات الاذان ثم ان كل واحد من النوعين يتضمن الاخر اذا افرد فان التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ويتضمن اثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الالهية فان الالهية تتضمن كونه محبوبا بل تتضمن انه لا يستحق كمال الحب الا هو والحمد هو الاخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق ان يحب فالالهية تتضمن كمال الحمد ولهذا كان الحمد لله مفتاح الخطاب وكل امر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو اجزم وسبحان الله فيها اثبات عظمته كما قدمناه ولهذا قال {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ} الحاقه 52 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم رواه اهل السنن وقال اما الركوع فعظموا فيه الرب واما السجود فاجتهد فيه بالدعاء فقم ان يستجاب لكم رواه مسلم فجعل التعظيم في الركوع اخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم ففي قوله سبحان الله وبحمده اثبات تنزيهه وتعظيمه والهيته وحمده¹

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 251-253

والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا ابن نفيال الحراني ثنا النضر ابن عربي قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال إسم يعظم الله به و يحاشي به من السوء و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال سبحان قال تنزيه الله نفسه من السوء و عن الضحاك عن ابن عباس في قوله {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} {الإسراء} 1 قال عجب و عن أبي الأشهب عن الحسن قال سبحان إسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه و قد جاء عن غير و احد من السلف مثل قول ابن عباس أنه تنزيه نفسه من السوء و روي في ذلك حديث مرسل و هو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة و نفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال و فيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران إسم يعظم الله به و يحاشي به من السوء و روى عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عثمان بن عبدالله بن موهب عن موسى بن طلحة قال سئل النبي صلى الله عليه و سلم عن التسبيح فقال إنزاهه عن السوء و قال حدثنا الضحاك ابن مخلد عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس سبحان الله قال تنزيهه حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره و الحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه و هو المحمود عليها و الله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه فما سبحان الله فقال ابن عباس و ما ينكر منها هي كلمة رضيها الله لنفسه و أمر بها ملائكته و فرغ إليها الأخيار من خلقه¹

" كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن "

قال تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع و هن من القرآن سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و التحميد مقرون بالتسبيح و تابع له و التكبير مقرون بالتهليل و تابع له وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله و بحمده و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله و بحمده سبحان الله العظيم و في القرآن { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } الحجر 98 و قالت الملائكة { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } البقرة 30 و هاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد و الأخرى بالتعظيم فإننا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء و النقائص المتضمن إثبات المحاسن و الكمال و الحمد إنما يكون على المحاسن و قرن بين الحمد و التعظيم كما قرن بين الجلال و الإكرام إذ ليس كل معظم محبوبا محمودا و لا كل محبوب محمودا معظما و قد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد و تتضمن كمال الذل له المتضمن معنى التعظيم ففي العبادة حبه و حمده على المحاسن و فيها الذل

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 125-126

الناشئ عن عظمته وكبريائه ففيها إجلاله وإكرامه وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام ومن الناس من يحسب أن الجلال هو الصفات السلبية والإكرام الصفات الثبوتية كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية وإثبات الكمال يستلزم نفي النقص لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظم كقوله { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } الحج 64 وقول سليمان عليه السلام { فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ } النمل 40 وكذلك قوله { لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ } التغابن 1 فإن كثيرا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة فيتضمن إخبار المحاسن المحبوبة محبة له وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك فالأول يهاب ويخاف ولا يحب وهذا يحب ويحمد ولا يهاب ولا يخاف والكمال اجتماع الوصفين كما ورد في الأثر أن المؤمن رزق حلاوة ومهابة وفي نعت النبي صلى الله عليه وسلم كان من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه فقرن التسبيح بالتحميد وقرن التهليل بالتكبير كما في كلمات الأذان ثم أن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا افرد فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوبا بل تتضمن أنه لا يستحق أن يحب كمال الحب إلا هو والحمد لله هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق فالإلهية تتضمن كمال الحمد ولهذا كان الحمد مفتاح الخطاب وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجزم وسبحان الله فيها إثبات عظمتها كما قدمناه ولهذا قال { فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } الواقعة 74 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم رواه أهل السنن وقال أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقم أن يستجاب لكم رواه مسلم فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم ففي قوله سبحان الله وبحمده إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده وأما قوله لا إله إلا الله و الله أكبر ففي لا إله إلا الله إثبات محامده فإنها كلها داخلة في إثبات إلهيته¹

"انكم سترون ربكم فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا "

مما خرجاه في الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلي قال كنا جلوسا عند رسول الله إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال انكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ { **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** } طه 130 وهذا الحديث من أصح الأحاديث على وجه الأرض المتلقاة بالقبول المجمع عليها عند العلماء بالحديث وسائر أهل السنة ورأيت ان النبي أخبر المؤمنين بأنهم يرون ربهم وعقبه بقوله فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ومعلوم أن تعقيب الحكم للوصف أو الوصف للحكم بحرف الفاء يدل على أن الوصف علة للحكم لا سيما ومجرد التعقيب هنا محال فان الرؤية في الحديث قبل التحضيض

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 312-314

على الصلاتين وهي موجودة في الآخرة والتحضيض موجود قبلها في الدنيا والتعقيب الذي يقوله النحويون لا يعنون به أن اللفظ بالثاني يكون بعد الاول فان هذا موجود بالفاء وبدونها وبسائر حروف العطف وانما يعنون به معنى أن التلطف الثاني يكون عقب الاول فاذا قلت قام زيد فعمر وأفاد أن قيام عمرو موجود في نفسه عقب قيام زيد لا أن مجرد تكلم المتكلم بالثاني عقب الاول وهذا مما هو مستقر عند الفقهاء في أصول الفقه وهو مفهوم من اللغة العربية اذا قيل هذا رجل صالح فأكرمه فهم من ذلك أن الصلاح سبب للأمر باكرامه حتى لو رأينا بعد ذلك رجلا صالحا لقيل كذلك الأمر وهذا أيضا رجل صالح أفلا تكرمه فان لم يفعل فلا بد أن يخلف الحكم لمعارض والا عد تناقضا وكذلك لما قال النبي ما منكم من أحد الا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى الا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى الا شيئا قدمه وينظر امامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم ان يتق النار ولو بشق تمره فليفعل فان لم يستطع فبكلمة طيبة فهم منه أن تحضيضه على اتقاء النار هنا لأجل كونهم يستقبلونها وقت ملاقات الرب وان كان لها سبب آخر وكذلك لما قال ابن مسعود سار عوا الى الجمعة فان الله يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كتيب من كتيب الكافور فيكونون في القرب منه على قدر تسارعهم في الدنيا الى الجمعة فهم الناس من هذا أن طلب هذا الثواب سبب للأمر بالمسارعة الى الجنة وكذلك لو قيل ان الأمير غدا يحكم بين الناس أو يقسم بينهم فمن أحب فاليحضر فهم منه ان الأمر بالحضور لأخذ النصيب من حكمه أو قسمه وهذا ظاهر ثم أن هذا الوصف المقتضى للحكم تارة يكون سببا متقدما على الحكم في العقل وفي الوجود كما في قوله {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} المائدة 38 وتارة يكون حكمه متقدما على الحكم في العلم والارادة متأخرة عنه في الوجود كما في قولك الأمير يحضر غدا فان حضر كان حضور الامير يتصور ويقصد قبل الأمر تسمى العلة الغائية وتسميها الفقهاء حكمة الحكم وهي سبب في الارادة بحكمها وحكمها سبب في الوجود لها و التعليل تارة يقع في اللفظ بنفس الحكمة الموجودة فيكون ظاهره أن العلة متأخرة عن المعلول وفي الحقيقة انما العلة طلب تلك الحكمة وارانيتها وطلب العافية وارانيتها متقدم على طلب اسبابها المفعولة واسبابها المفعولة متقدمة عليها في الوجود ونظائره كثير كما قيل {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ} النحل 98 { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا } المائدة 6 ويقال اذا حجت فتزود فقوله صلى الله عليه وسلم انكم سترون ربكم فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاتين الى فافعلوا يقتضى أن المحافظة عليها هنا لأجل ابتغاء هذه الرؤية ويقتضى أن المحافظة سبب لهذه الرؤية ولا يمنع أن تكون المحافظة توجب ثوابا آخر ويؤمر بها لأجله وان المحافظة عليها سبب لذلك الثواب وان للرؤية سببا آخر لان تعليل الحكم الواحد بعلة واقتضاء العلة الواحدة لاحكام جائز وهكذا غالب أحاديث الوعد كما في قوله من صلى ركعتين لا يحدث فيها نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه ومن حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه وقوله لا تتكح المرأة على عمتها ولا على خالتها فانكم اذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ونحو ذلك فانه يقتضى أن صلاة هاتين الركعتين سبب للمغفرة وكذلك الحج المبرور وان كان للمغفرة أسباب أخرى وأيد هذا المعنى أن الله تعالى قال {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} الأنعام 52 وقد فسر هذا الدعاء بصلاتي الفجر والعصر ولما أخبر أنهم يريدون وجهه بها تين الصلاتين وأخبر في هذا الحديث أنهم ينظرون اليه فتحضيضهم على هاتين يناسب ذلك أن من أراد وجهه نظر الى وجهه تبارك وتعالى ثم لما انضم الى ذلك ما تقدم من أن صلاة الجمعة سبب للرؤية في وقتها وكذلك صلاة العيد ناسب ذلك أن تكون هاتان الصلاتان اللتان هما أفضل الصلوات وأوقاتها أفضل الأوقات فناسب أن تكون الصلاة التي هي أفضل الأعمال ثم ما كان منها أفضل الصلوات في أفضل الأوقات سببا لأفضل الثوابات في أفضل

الأوقات لا سيما وقد جاء في حديث ابن عمر الذي رواه الترمذي عن اسرائيل عن ثوير بن أبي فاخنة سمعت ابن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وازواجه ونعيمه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا ثم قرأ رسول الله { وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ } {22} إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ } {23} القيامة
123-22¹

فعل الصلاة في الوقت المضروب لها ففرض و تأخيرها عنه عمدا من الكبائر

قوله تعالى { أقم الصلاة لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } الإسراء 78 فالمراد جنس الدلوك فهو مأمور باقامة الصلاة له وكذلك قوله { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه 130 فهو متناول لكل طلوع وغروب وليس المراد طلوعا واحدا فكأنه قال قبل كل طلوع لها وقبل كل غروب وأقم الصلاة عند كل دلوك²

ولا يحل تأخيرها عن وقتها إلا لناو جمعها أو مشتغل عنها بشرطها أما فعلها في الوقت المضروب لها ففرض و تأخيرها عنه عمدا من الكبائر لقوله تعالى { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى } البقرة 238 و المحافظة عليها فعلها في الوقت لأن سبب نزول الآية تأخير الصلاة يوم الخندق دون تركها لأن السلف فسروها بذلك و لأن المحافظة خلاف الإهمال و الإضاعة و من أخرها عن وقتها فقد أهملها و لم يحافظ عليها و قوله تعالى { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا } مريم 59 و أضاعتها تأخيرها عن وقتها كذلك فسرها ابن مسعود و إبراهيم و القاسم بن محمد و الضحاک و غيرهم من غير مخالف لهم قال ابن مسعود إضاعتها صلاتها لغير وقتها لأن الشيء الضائع ليس هو معدوما إنما هو مهمل غير محفوظ و قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ } {4} الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } {5} الماعون 4-5 والمشهور منها إضاعة الوقت كذلك فسرها هذه المواضع جماهير الصحابة و التابعين و هو معقول من الكلام و قال تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا } النساء 103 و أمر سبحانه الخائف إن يصلي مع الإخلال بكثير من الأركان و كذلك المتيمم و نحوه و لو جاز التأخير لما احتاج ذلك إلى شيء من ذلك و سائر الآيات الموجبة فعلها في الوقت المحدود مثل قوله { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 و قوله تعالى { أقم الصلاة لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } الإسراء 78 دليل مفصل على ذلك وكذلك الأحاديث عن أبي ذر رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا ذر إنها ستكون عليكم أئمة يميئون الصلاة فإن ادركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم نافلة رواه احمد و مسلم

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 421-424

²مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 380

وعن أبي قتادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة إن يؤخر صلاة إلى وقت الصلاة الأخرى رواه مسلم والنصوص في ذلك كثيرة وهو مجمع عليه¹

الظهر أربع ركعات بالنقل العام المستفيض والإجماع المستيقن في حق المقيم فأما المسافر فيذكر إن شاء الله في موضعه وتسمى الظهر والهجير والأولى وأول وقتها هو زوال الشمس عن كبد السماء وهذا مما أجمعت عليه الأمة وجاءت به السنة المستفيضة من ذلك ما روى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فقال قم فصله فصلى الظهر حين زالت الشمس ثم جاءه العصر فقال قم فصله فصلى العصر حين صار كل ظل شيء مثله ثم جاء المغرب فقال قم فصله فصلى المغرب حين وجبت الشمس ثم جاءه العشاء فقال قم فصله فصلى العشاء حين غاب الشفق ثم جاء الفجر فقال قم فصله فصلى الفجر حين برق الفجر أو قال سطع ثم جاءه من الغد للظهر فقال قم فصله فصلى الظهر حين صار ظل كل شيء مثليه ثم جاءه المغرب وقتا واحدا لم يزل عنه ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل أو قال ثلث الليل فصلى العشاء ثم جاءه حين أسفر جدا فقال قم فصله فصلى الفجر ثم قال ما بين هذين وقت رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال البخاري هو اصح شيء في المواقيت وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أمي جبريل عند البيت مرتين فصلى الظهر في الأولى منهما حين كان الفيء مثل الشراك ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وافتقر الصائم ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم وصلى المرة الثانية الظهر حين صار ظل كل شيء مثل لوقت العصر بالأمس ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه ثم صلى المغرب لوقته الأول ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض ثم التفت إلى جبريل فقال يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك الوقت فيما بين هذين الوقتين رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن وقد دل على ذلك قوله تعالى {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ} الإسراء 78 وقوله {وَحِينَ تَضَاهُونَ} الروم 18 وقوله تعالى {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ} طه 130 ومعنى زوال الشمس أن تحاذي رأس المصلي ثم تميل عنه يقال زالت وزاغت ودلكت ودحضت ويعرف ذلك بازدياد الظل بعد كمال نقصانه²

وأما وقت الإدراك والضرورة فيمتد إلى طلوع الفجر الثاني لما روى يحيى بن آدم عن ابن عباس قال لا يفوت وقت الظهر حتى يدخل وقت العصر ولا يفوت وقت العصر حتى يدخل وقت المغرب ولا يفوت وقت المغرب إلى العشاء ولا يفوت وقت العشاء إلى الفجر وروى الخليل أيضا عن ابن عباس لا يفوت وقت العشاء إلى الفجر وسنذكر إن شاء الله عن عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة و ابن عباس انهم قالوا في الحائض إذا طهرت قبل طلوع الفجر صلت المغرب والعشاء ولم ينقل عن صحابي خلافه بل وافقهم التابعون على إن العشاء تجب بالطهر قبل الفجر مع قوله في

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 53-54

² شرح العمدة ج: 4 ص: 151

حديث أبي قتادة لما ناموا أما أنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى رواه احمد و مسلم و أبو داود فانه يقتضي امتداد كل صلاة إلى وقت التي تليها و إنما استثنى منه الفجر لظهور وقتها و ظاهر القرآن في قوله تعالى { وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ } هود 114 و قوله سبحانه { أَلَيْ غَسَقَ اللَّيْلِ } الإسراء 78 و قوله تعالى { وَمِنَ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ } طه 130 يعم ذلك الجملة و تأخير الصلاة إلى هذا الوقت لغير عذر لا يجوز كما تقدم في صلاة العصر¹

و أول وقتها من طلوع الفجر الثاني كما تقدم في أحاديث المواقيت كلها مع قوله { طَرَفِي النَّهَارِ } هود 114 و قوله { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } الإسراء 78 و قوله { وَحِينَ تُصْبِحُونَ } الروم 17 و قوله { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه 130 و غير ذلك و هما فجران فالأول المستدق المستطيل في طول السماء كذنب السرحان و هو الذئب و يسمى الفجر الأول و لا عبرة به في شيء من الأحكام ثم يسود الأفق بعده ثم يطلع الفجر الصادق بعده معترضا في الأفق منتشرا لا ظلمة بعده و لذلك قال صلى الله عليه و سلم لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال و لا الفجر المستطيل و لكن الفجر المستطير في الأفق و قد تقدم و قد روى أبو حفص و الدارقطني عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال الفجر فجران فجر تحل فيه الصلاة و يحرم فيه الطعام و فجر تحرم فيه الصلاة و يحل فيه الطعام أما الذي يكون كذنب السرحان فلا تحل الصلاة فيه و لا يحرم فيه الطعام و أما الذي يذهب مستطيلا في الأفق فانه يحل الصلاة و يحرم الطعام و يمتد وقتها في حال الاختيار و الاضطرار إلى طلوع الشمس فإذا بدا حاجب الشمس خرج وقتها هذا ظاهر المذهب و هو المنصوص عنه²

وان الله سبحانه امر بالمحافظة عليها خصوصا و كذلك امر رسوله بذلك و كمال المحافظة إن يصلي في أول الوقت و لا يعرض للفوات و دخول وقت الكراهة و كذلك وكد التبكير بها مع الغيم كما قد نص عليه احمد فروى عن بريدة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في غزوة فقال بكروا بالصلاة في اليوم الغيم فان من فاتته صلاة العصر حبط عمله رواه أحمد و ابن ماجة و روى أحمد و البخاري و النسائي من حديث أبي المليح بن أسامة قال كنا مع بريدة في غزوة في يوم ذي غيم فقال بكروا بصلاة العصر فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من ترك صلاة العصر حبط عمله فإن قيل فقد قال تعالى { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه 130 و إنما يقال قبل الغروب لما كان قريبا منه و في تأخيرها توسعة لوقت النفل قلنا الصلاة المفعولة في أول الوقت هي قبل الطلوع و هي مرادة من الآية بالسنة الصحيحة و بالإجماع كصلاة الفجر المؤداة في أول وقتها هي قبل الطلوع و قربها من غروب الشمس ليس فيه فضيلة لوجهين أحدهما إن تأخيرها إلى حين الاضطرار لا يجوز مع أنه اقرب إلى غروبها الثاني إن الأمر بالتسبيح قبل الغروب و كلما بعد عن الغروب كان أتم تقدما على الغروب و اقرب إلى تحقيق القبلية و أما اتساع وقت النفل فيعارضه خشية التفويت و ما فيه من المخاطرة بالفرض ثم ما حصل له بالصلاة في أول الوقت احب إليه من جميع النوافل فإن حدود الفرائض المسنونة و تكميل أدائها أولى بالرعاية من أصل النوافل و لهذا كان إدراك تكبيرة الإفتتاح مع الإمام أولى من الاشتغال عنها بالسنن الرواتب

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 180

² شرح العمدة ج: 4 ص: 183

و في تعجيلها اتساع وقت ذكر الله المشروع آخر النهار ثم إنا لا نسلم إن توسيع وقت النافلة مقصود بل إذا كان مقصود الشارع في ترك النافلة بعد العصر كان مقصودا مع سعة وقت الترك و كان ذلك احب إلى الله تعالى¹

اكثر آيات القرآن بدأت بالفجر

أن اكثر آيات القرآن بدأت بالفجر مثل قوله {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ} {هود 114} وقوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} {طه 130} وقوله {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} {ق 39} وإنما بدأ بالظهر تارة كما بدأ في المغرب في قوله تعالى {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} {الروم 17} الآية فتارة يبدأ أول النهار وتارة بأوسطه وتارة بأول الليل ولأن النائم إذا استيقظ بأول النهار كان بمنزلة الخلق الجديد فإن الانتباه حياة بعد الموت ونشور بعد السكون فما فعله حينئذ كان أول أعماله وبهذا يتبين أن أعمال النهار سابقة لأعمال الليل وان أعمال النهار فواتيح وأعمال الليل خواتيم وان كان الليل هو المتقدم على النهار خلقا وإبداعا²

جمع الله بين الصلاة والصبر

قال تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ} {طه 130} وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته يقول اللهم منك ولك وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر كقوله تعالى في موضعين {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ} {طه 130}³

الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوعان

قال تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ} {طه 130} وأما الوقت فالأصل في ذلك ان الوقت في كتاب

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 208

² شرح العمدة ج: 4 ص: 149

³ السياسة الشرعية ج: 1 ص: 111

الله وسنة رسول الله نوعان وقت إختيار ورفاهية ووقت حاجة وضرورة أما الأول فالأوقات خمسة وأما الثاني فالأوقات ثلاثة فصلاتا الليل وصلاتا النهار وهما اللتان فيهما الجمع والقصر بخلاف صلاة الفجر فإنه ليس فيها جمع ولا قصر لكل منهما وقت مختص وقت الرفاهية والإختيار والوقت مشترك بينهما عند الحاجة والإضطرار لكن لا تؤخر صلاة نهار إلى ليل ولا صلاة ليل إلى نهار ولهذا وقع الأمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى صلاة العصر وقال النبي فيها من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله وقال فكأنما وتر أهله وماله وقد دل على هذا الأصل ان الله في كتابه ذكر الوقوت تارة ثلاثة وتارة خمسة أما الثلاثة ففي قوله {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ} {هود 114} وفي قوله {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} {الإسراء 78} وقوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} {48} {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} {49} {الطور 48-49} وأما الخمس فقد ذكرها أربعة في قوله {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} {17} {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} {18} {الروم 17-18} وقوله {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ} {طه 130} وقوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} {39} {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} {40} {ق 39-40} والسنة هي التي فسرت ذلك وبينته وأحكمته وذلك أنه قد ثبت بالنقل المتواتر عن النبي أنه كان يصلي الصلوات الخمس في خمس مواقيت في حال مقامه بالمدينة وفي غالب أسفاره حتى أنه في حجة الوداع آخر أسفاره كان يصلي كل صلاة في وقتها ركعتين وإنما جمع بين الظهر والعصر بعرفة وبين العشاءين بمزدلفة ولهذا قال ابن مسعود ما رأيت رسول الله صلى صلاة لغير وقتها إلا المغرب ليلة جمع والفجر بمزدلفة وإنما قال ذلك لأنه غلس بها تغليسا شديدا وقد بين جابر في حديثه انه صلاها حين طلع الفجر ولهذا إتفق المسلمون على الجمع بين الصلاتين بعرفة ومزدلفة لأن جمع هاتين الصلاتين في حجة الوداع دون غيرهما مما صلاه بالمسلمين بمنى أو بمكة هو من المنقول نقلا عاما متواترا مستقيضا وثبت عنه أنه بين مواقيت الصلاة بفعله لمن سأله عن المواقيت بالمدينة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى وحديث بريدة بن الحصيب وبين له جبريل المواقيت بمكة كما رواه جابر وابن عباس وروى مسلم في صحيحه المواقيت من كلام النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبدالله بن عمر وهو أحسن أحاديث المواقيت لأنه بيان بكلام النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال وقت الفجر مالم تطلع الشمس ووقت الظهر مالم يصر ظل كل شيء مثله ووقت العصر مالم تصفر الشمس ووقت المغرب مالم يسقط نور الشفق ووقت العشاء إلى نصف الليل وقد روى نحو ذلك من حديث أبي هريرة مرفوعا وفيه نظر وعلى هذه الأحاديث إعتد الإمام أحمد لكثرة إطلاعه على السنن وأما غيره من الأئمة فبلغه بعض هذه الأحاديث دون بعض فاتبع ما بلغه ومن إتبع ما بلغه فقد أحسن وما على المحسنين من سبيل¹

"إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 84- 86

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال فكيف يفضل الشخص بما لم يفضله الله به وقد قال تعالى { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } طه 131 وقال في المنافقين { وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمْ خُشِبُ مُسَنَّدَةٍ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِخْرَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } المنافقون 4 هؤلاء المنافقون تعجب الناظر أجسامهم لما فيهم من البهاء والرواء والزينة الظاهرة¹

وقال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئِيًّا } مريم 74 والأثاث المال من اللباس ونحوه والرئى المنظر فأخبر أن الذين أهلكتهم قبلهم كانوا أحسن صوراً وأحسن أثاثاً وأموالاً ليبين أن ذلك لا ينفع عنده ولا يعاب به وقال النبي لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى وفي السنن عنه أنه قال البذاذة من الإيمان وأيضا فقد حرم علينا من لباس الحرير والذهب وأنية الذهب والفضة ما هو من أعظم الجمال في الدنيا وحرم الله الفخر والخيلاء واللباس الذي فيه الفخر والخيلاء كإطالة الثياب حتى ثبت في الصحيح عنه أنه قال من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ومثل ذلك ما في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا وفي الصحيح عن ابن عمر أن النبي قال بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة وقال تعالى { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ } الأعراف 26 فأخبر أن لباس التقوى خير من ذلك وقال تعالى { أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } الزخرف 18 وقال تعالى في حق قارون { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ } القصص 79 قالوا بثياب الأرجوان ولهذا ثبت عن عبدالله بن عمرو قال رأى رسول الله على ثوبين معصفرين فقال إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسهما قلت أغسلهما قال أحرقهما ولهذا كره العلماء الأحمر المشبع حمرة كما جاء النهى عن الميثرة الحمراء وقال عمر بن الخطاب دعوا هذه البراقات للنساء والآثار في هذا ونحوه كثيرة وقال تعالى { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ } النور 30 إلى قوله { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } النور 31 وقال النبي في الحديث الصحيح عن جرير بن عبدالله قال سألت رسول الله عن نظرة الفجأة فقال أصرف بصرك وفي السنن أنه قال لعلى يا على لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة وقد قال تعالى { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْرَنَ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } الحجر 88 وقال { زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ } آل عمران 14 إلى قوله { قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } آل عمران 15 وقد قال تعالى مع ذمه لما ذمه من هذه الزينة { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } الأعراف 32 فنقول اعلم أن ما يصفه النبي من محبته للأجناس المحبوبة وما يبغضه من ذلك هو مثل ما يأمر به من الأفعال وينهى عنه

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 60

من ذلك فإن الحب والبغض هما اصل الأمر والنهي وذلك نظير ما يعده على الأعمال الحسنة من الثواب ويتوعد به على الأعمال السيئة من العقاب فأمره ونهيه ووعدته ووعدته ووعده ووعده وحبه وبغضه وثوابه وعقابه كل ذلك من ((ملاحظة الموضوع غير مكتمل يرجع الى نفس المرجع من مصدر اخر)) وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذه القاعدة في غير موضع لتعلقها بأصول الدين وفروعه فإن من أكبر شعبها¹

الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

قال تعالى { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } طه 131 والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنتهي عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } الأعراف 145 وقال { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } الزمر 55 فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ } الزمر 18 فافتضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ } الإسراء 53 وقد يقال هذا نظير قوله تعالى { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } طه 131 ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن الأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن الأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسيء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } الزمر 55 هو أمر بالأحسن من فعل الأمور أو ترك المحظور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر بالإحسان في قوله تعالى { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } البقرة 195 والإحسان منه واجب ومنه مستحب²

النظر إلى زينة الحياة فتنة

فمن نظر على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم لقوله تعالى { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } طه 131³

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 128-129

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 17-19

³مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 249

ومن هنا يظهر الفرق في السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر والفاجر وكذلك النظر إلى زينة الحياة فتنة فقال تعالى { **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** } طه 131 وفي التوبة { **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ** } التوبة 55 الآية وقال { **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** } النور 30 الآية وقال { **وَلَا تَعُدَّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } الكهف 28 وقال { **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** } الغاشية 17 الآيات وقال { **قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } يونس 101 وقال { **أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } سبأ 9 الآية وكذلك قال الشيطان { **إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ** } الأنفال 48 وقال { **فَلَمَّا تَرَأَىٰ الْجَمْعَانَ** } الشعراء 61 الآيات وقال { **إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا** } الأنفال 43 الآية فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها منهي عنه والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكير والإعتبار مأمور به مندوب إليه وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدفع شر أولئك وإزالته فمأمور به وكذلك رؤية الإعتبار شرعا في الجملة فالعين الواحدة ينظر إليها نظرا مأمورا به إما للإعتبار وإما لبغض ذلك والنظر إليه لبغض الجهاد منهي عنه وكذلك الموالاة والمعادة وقد تحصل للعبد فتنة بنظر منهي عنه وهو يظن أنه نظر عبرة وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة كالذين قال الله تعالى فيهم { **وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْتِنِّي وَلَا تَقْتَتِي** } التوبة 49 الآية فإنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي أن يتجهز لغزو الروم فقال إني مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم فائذن لي في القعود قال تعالى { **أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } التوبة 49¹

وقوله سبحانه { **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** } طه 131 يتناول النظر إلى الأموال واللباس والصور وغير ذلك من متاع الدنيا أما اللباس والصور فهما اللذان لا ينظر الله إليهما كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي قال إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وقد قال تعالى { **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا** } مريم 74 وذلك أن الله يمتع الصور كما يمتع بالأموال وكلاهما من زهرة الحياة الدنيا وكلاهما يفتن أهله واصحابه وربما أفضى به إلى الهلاك دنيا وأخرى والهلكتي رجلان فمستطيع وعاجز فالعاجز مفتون بالنظر ومد العين إليه والمستطيع مفتون فيما أوتى منه غارق قد أحاط به مالا يستطيع إنقاذ نفسه منه وهذا المنظور قد يعجب المؤمن وإن كان المنظور منافقا أو فاسقا كما يعجبه المسموع منهم قال تعالى { **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** } المنافقون 4 فهذا تحذير من الله تعالى من النظر إليهم وإستماع قولهم فلا ينظر إليهم ولا يسمع قولهم فإن الله سبحانه قد أخبر أن رؤياهم تعجب الناظرين إليهم وأن قولهم يعجب السامعين ثم أخبر عن فساد قلوبهم وأعمالهم بقوله { **كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُّسْنَدَةٌ** } المنافقون 4 فهذا مثل قلوبهم وأعمالهم وقال تعالى { **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } البقرة 204 الآية وقد قال تعالى في قصة قوم لوط { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** } الحجر 75 والتوسم من السمة وهي العلامة فأخبر سبحانه أنه جعل عقوبات المعتدين آيات للمتوسمين وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنقوا فراصة

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 342- 344

المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } الحجر 75 فدل ذلك على أن من إعتبر بما عاقب الله به غيره من أهل الفواحش كان من المتوسمين¹

وقال النبي ص في الحديث الصحيح عن ابي هريرة العينان تزينا وزناهما النظر وفي الصحيح عن جرير بن عبد الله قال سألت النبي ص عن نظر الفجأة فقال اصرف بصرك وفي السنن أنه قال لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة²

" فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه "

قال الله تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } طه 132

فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال و تبين ذلك من وجوه نذكر بعضها مما انتزعه الإمام احمد وغيره منها أن الله أمر نبيه إن يأمر أهله بالصلاة فقال { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا } طه 132 مع أنه مأمور بالاصطبار على جميع العبادات لقوله { وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } مريم 65 و بإذارهم بجميع الأشياء لقوله { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } الشعراء 214³

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة⁴

أن أهم أمر الدين الصلاة والجهاد ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبي في الصلاة والجهاد وكان إذا عاد مريضاً يقول اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة وينكأ لك عدوا ولما بعث النبي معاذ إلى اليمن قال يا معاذ إن أهم أموركم عندي الصلاة وكذلك كان عمر بن الخطاب رضي

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 400

²الاستقامة ج: 1 ص: 429

³شرح العمدة ج: 4 ص: 90

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

الله عنه يكتب الى عماله ان أهم أموركم عندي الصلاة فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وذلك لأن النبي قال الصلاة عماد الدين فاذا اقام المتولى عماد الدين فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهي التي تعين الناس على ما سواها من الطاعات كما قال الله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة 45 وقال سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} البقرة 153 وقال لنبي {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} طه 132 وقال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } {56} مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ {57} إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ {58} الذاريات 56-58¹

من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين

قال الله تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } طه 132

قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ {14} الانفطار 13-14 ووعده أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعده الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ولكن تذكر هنا نكتة نافعة وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما ينتعمون به إلا قليلا وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين علي المؤمنين وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين وأن العاقبة للتقوى وقول الله تعالى {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} الصافات 173 وهو ممن يصدق بالقرآن حمل هذه الآيات علي الدار الآخرة فقط وقال أما الدنيا فما نري بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ولهم العزة والنصرة والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ويعتمد علي هذا فيما إذا أدل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا علي صاحب الحق فيقول أنا علي الحق وأنا مغلوب وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين قال هذا في الآخرة فقط وإذا قيل له كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور قال يفعل ما يشاء وربما قال بقلبه أو لسانه أو كان حاله يقتضي أن هذا نوع من الظلم وربما ذكر قول بعضهم ما علي الخلق أضر من الخالق لكن يقول يفعل الله ما يشاء وإذا ذكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور مؤيد بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء وهذه الأقوال مبنية علي مقدمتين إحداها حسن ظنه بدين نفسه نوعا أو شخصا واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه وتارك ما نهى عنه في الدين الحق واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك أن دينه باطل نوعا أو شخصا لأنه ترك المأمور وفعل المحظور والمقدمة الثانية أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا فلا

¹ السياسة الشرعية ج: 1 ص: 22 و مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 261

ينبغي الاغترار بهذا المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر وجلب المنفعة وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق وفي حال السابقين والمقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدین أصحاب اليمين فيدخل مع الظالمين بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه كما قال النبي يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة وهذه الفتنة التي صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعم فهناك عمل يطلب به النعيم ولا بد أن يكون المرء عارفاً بالعمل الذي يعمل به وبالنعيم الذي يطلبه ثم إذا علم هذين الأصلين فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة علي العمل بذلك وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ولهذا قال سبحانه وتعالى { وَالْعَصْرُ {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ {3} العصر 1-3 وقال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ {السجدة 24} فاليقين هو العلم الثابت المستقر والصبر لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة والمقدمتان اللتان التي بنيت عليهما هذه البلية مبناهما علي الجهل بأمر الله ونهيه وبوعده ووعيده فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحظور وهو على العكس من ذلك وهذا يكون من جهله بالدين الحق وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ولأهل الفجور علي أهل البر فهذا من جهله بوعده الله تعالى من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين أما الأول فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه وأنه خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ولا يكون الأمر كذلك بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدل وحبك الشيء يعمي ويصم والإنسان مجبول على محبة نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فلا يرى إلا مساوئها وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم فإن الإنسان ظلوم جهول وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالاة والمعاداة كما قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ {لقمان 21} وقال تعالى { يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ {66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا {67} الأحزاب 66-67 وقال تعالى { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُّرِيبٍ {الشورى 14} وأما الثاني فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه بخلاف من فارقهم إلي طاعة أخري وسبيل آخر ويكذب بوعده الله بنصرهم والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ { غافر 51} وقال تعالى في كتابه { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ {171} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ {172} وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ {173} الصافات 171-173 وقال تعالى في

كتابه {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} {المجادلة5} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} {20} كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} {21} {المجادلة20-21} وقال تعالى في كتابه {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} {55} وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} {56} {المائدة55-56} ودم من يطلب النصره بولاء غير هؤلاء فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {51} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} {52} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} {53} {المائدة51-53} وقال تعالى في كتابه {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {138} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} {139} {النساء138-139} وقال تعالى في كتابه {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِلَّهِ السُّلْطَانُ وَلَئِن مَّرَدَدْتُمُوهُمْ إِلَى الْبَحْرِ مَنَعَتِ الْبِحَارُ الْبِحَارَ} وقال تعالى في كتابه {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} {فاطر10} وقال في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى اللَّهُ شَهِيدًا} {الفتح28} وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} {9} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} {10} تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {11} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {12} وَأُخْرَىٰ نُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} {13} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا نَاطِقَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} {14} {الصف9-14} وقال تعالى في كتابه {يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمَطَهْرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} {آل عمران55} وقال تعالى في كتابه {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} {22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} {23} {الفتح22-23} وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} {الحشر2} إلي قوله تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {آل عمران139} وقال تعالى لما قص قصة نوح وهي نصرته علي قومه في الدنيا فقال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} {هود49} وقال تعالى {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} {طه132} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيْطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} {آل عمران118} إلي قوله {وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} {آل عمران120} وقال تعالى {بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {آل عمران125} وقال يوسف وقد نصره الله في الدنيا لما دخل عليه إخوته {قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {يوسف90} وقال تعالى في كتابه {يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
 {الأنفال 29} وقال تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ
 يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} {3} {الطلاق 2-3} وقد روي
 عن أبي ذر عن النبي أنه قال لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لو سعتهم¹

وسئل رحمه الله عن له زوجة لا تصلي هل يجب عليه أن يأمرها بالصلاة وإذا لم تفعل هل يجب عليه أن يفارقها أم لا

فأجاب نعم عليه أن يأمرها بالصلاة ويجب عليه ذلك بل يجب عليه أن يأمر بذلك كل من يقدر على
 أمره به إذا لم يقدّم غيره بذلك وقد قال تعالى {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} طه 132 الآية
 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُؤَادُوا نَفْسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} {التحریم 6} الآية
 وقال عليه الصلاة والسلام علموهم وأدبوهم وينبغي مع ذلك الأمر أن يحضها على ذلك بالرغبة
 كما يحضها على ما يحتاج إليها فإن أصرت على ترك الصلاة فعليه أن يطلقها وذلك واجب في
 الصحيح وتارك الصلاة مستحق للعقوبة حتى يصلي باتفاق المسلمين بل إذا لم يصل قتل وهو يقتل
 كافرًا مرتدًا على قولين مشهورين والله أعلم²

العاقبة للمتقين وأما غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة

قال الله تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى }
 طه 132

العاقبة للمتقين وأما غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة والعاقبة وان كانت في الآخرة فتكون في
 الدنيا أيضا كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح ونجاته بالسفينة {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ
 عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} {هود 48} الى قوله {فَاصْبِرْ إِنَّ
 الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} {هود 49} وقال {فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} {البقرة 194} ³

قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى

1 قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 138-147 (تكملة الموضوع موجود في تفسير غافر 51 وتفسير الصافات 171-

173 نفس المرجع)

²مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 277

³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 164

قال الله تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى }
طه 132

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله ان اكثر بنى آدم قد يفعل بعض المأمور به ولا يترك المنهى عنه الا الصديقون كما قال سهل لان المأمور به له مقتضى في النفس واما ترك المنهى عنه الى خلاف الهوى ومجاهدة النفس فهو أصعب وأشق فقل أهله ولا يمكن أحدا أن يفعله الا مع فعل المأمور به لا تتصور تقوى وهى فعل ترك قط فان من ترك الشرك واتباع الهوى المضل واتباع الشهوات المحرمات فلا بد أن يفعل من المأمور به أموراً كثيرة تصده عن ذلك فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التى امروا بها وتمنعهم من السيئات التى تضرهم بخلاف من فعل ما أمر به وما نهى عنه مثلاً فان وجود المنهى عنه يفسد عليه من المأمور به ما يفسد فلا يسلم له ولهذا كانت العاقبة للتقوى كما قال تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } طه 132 { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف 128 { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } آل عمران 120 وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الاطعمة المؤذية فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة وغير المتقى بمنزلة من خلط من الاطعمة فانه وان اغتذى بها لكن تلك التخاليط قد تورثه أمراضاً مؤذية واما مهلكة¹

أن الشارع لم ينقل الأسماء لم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة

قال الله تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى }
طه 132

وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الأسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيداً بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقاً وهو إنما قال { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفاً الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 135

انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} العلق 9-10 وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتني يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} العلق 9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قيل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسامه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد¹

إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته

قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } طه 133 فإنه إذا أتاهم ببيان ما في الصحف الأولى مع علمهم بأنه لم يعاشر أحدا من أهل الصحف الأولى ولا استفاد منهم علما كان هذا من أعظم الآيات من الله وكما أن إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته فإنه يدل على أن النبوة إنباء من الله²

فإنه أتاهم بجلية ما في الصحف الأولى كالنوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئا فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبي وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولا بالتواتر وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك وقد أخبر بالغيوب المستقبلية وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر³

إذا جادل القران يسأل ويستفهم عن المقدمات البرهانية

إذا جادل القران يسأل ويستفهم عن المقدمات البرهانية التي لا يمكن أحد ان يجندهما لتقرير المخاطب بالحق ولا عترافه بانكار الباطل كما فى مثل قوله { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 344

³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 407-408

{الطور 35} {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} {يس 81} وقوله { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ } {58} {أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} {59} الواقعة 58-59 وقوله { وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ } طه 133 وقوله { أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ } العنكبوت 51 وقوله { أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ } الشعراء 197 وقوله { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ } {8} {وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } {9} { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } {10} {البلد 8-10} إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير المتضمن اقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التي تدل على المطلوب فهو من أحسن جدل بالبرهان فان الجدل انما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات وان لم تكن بينة معروفة فاذا كانت بينة معروفة كانت برهانية والقرآن لا يحتج في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هي الطريقة الجدلية عند اهل المنطق وغيرهم بل بالقضايا والمقدمات التي تسلمها الناس وهي برهانية وان كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها كقوله { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } الأنعام 91 فان الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ } الأنعام 91 وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى في غير موضع وعلى قراءة من قرأ يبدونها كابن كثير وابي عمرو جعلوا الخطاب مع المشركين وجعلوا قوله { وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا } الأنعام 91 احتجاجا على المشركين بما جاء به محمد فالحجة على اولئك نبوة موسى وعلى هؤلاء نبوة محمد ولكل منهما من البراهين ما قد بعضه في غير موضع وعلى قراءة الأكثرين بالتاء هو خطاب لأهل الكتاب وقوله { وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا } الأنعام 91 بيان لما جاءت به الأنبياء مما انكروه فعلمهم الأنبياء ما لم يقبلوه ولم يعلموه فاستدل بما عرفوه من أخبار الأنبياء وما لم يعرفوه¹

أصل العلم الإلهي ومبدأه

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له { قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ } سبأ 50 وتقرير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله تعالى { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 165-166

أَرْسَلْتِ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعِ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي {134} قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ
مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى {135} طه 134- 135¹

أحكام الكفر و التآديب لا تثبت إلا بعد بلوغ الرسالة

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي أنه قال إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقيا والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا فقال { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 وقال تعالى { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعِ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي } طه 134 فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة ولهذا قال { لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وفي رواية من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين وما أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وما أحد أغبر من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن²

قال تعالى { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعِ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي } طه 134 فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولا وبين أنهم قبل الرسول كانوا قد اكتسبوا الأعمال التي توجب المقت والذم وهي سبب للعذاب لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة³

فمن جحد وجوب الصلاة بجهله عرف ذلك و إن جردها عنادا كفر هذا اصل مضطرد في مباني الإسلام الخمسة و في الأحكام الظاهرة المجمع عليها من مكلف إن كان الجاحد لذلك معذورا مثل إن يكون حديث عهد بالإسلام أو قد نشأ ببادية هي مظنة الجهل بذلك لم يكفر حتى يعرف إن هذا دين الإسلام لأن أحكام الكفر و التآديب لا تثبت إلا بعد بلوغ الرسالة لا سيما فيما لا يعلم بمجرد العقل قال الله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 و قال تعالى { لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165 و قال تعالى { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا } طه 134 و قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَأْتُوا عَلَيْهِنَّ آيَاتِنَا } القصص 59 و قال تعالى { لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } الأنعام 19

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 4

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 306

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 314

فالإنذار لمن بلغه القرآن بلفظه أو معناه فإذا بلغته الرسالة بواسطة أو بغير واسطة قامت عليه الحجة و انقطع عذره¹

فإن الكتاب والسنة قد دل على ان الله لا يعذب أحدا إلا بعد إبلاغ الرسالة فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسا ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية وذلك مثل قوله تعالى { لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165²

خص الله طريقه باسم الصراط

الصراط في لغة العرب هو الطريق يقال هو الطريق الواضح ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه ومنه الصراط المنصوب على جهنم وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم ويقال فيه معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه وفيه ثلاث لغات هي ثلاث قراءات الصراط والسرط والزرط وهي لغة عربية عرياء ليست من المعرب ويقال أصله من قولهم سرطت الشيء أسرطه سرطا إذا ابتلغته واسترطته ابتلغته فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود ومن أمثال العرب لا تكن حلوا فتسترط ولا مرا فتعفى من قولهم أعفيت الشيء إذا أزلته من فيك لمرارته ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين وحكى يعقوب بن السكيت الأخذ سريط والقضاء صريط والسرطاط الفالودج لأنه يسترط استراطا وسيف سراطي أي قاطع فإنه ماض سريع المذهب في مضربه فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلى مطلبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع ولم يسم الله سبيل الشيطان سراطا بل سماها سبلا وخص طريقه باسم الصراط كقوله تعالى { قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى } طه 135 وفي السنن عن عبد الله بن مسعود قال خط لنا رسول الله خطأ وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قاله هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه من أجابه قذفه في النار ثم قرأ { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 فسمى سبحانه طريقه صراطا وسمى تلك سبلا ولم يسمها صراطا كما سماها سبيلا وطريقه يسميه سبيلا كما يسميه صراطا³

لطائف لغوية

¹درء التعارض ج: 4 ص: 51

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 494

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 181

1- قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ } طه 133 البينة من البيان و البينة هي السبيل البينة وهي الطريق البينة الواضحة وهي أيضا ما تبين بها الحق فهي بينة في نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد فتكون كالهدى كما يقال فلان على هدى وعلى علم فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل ومنه قوله { أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ } طه 133 أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها أو الأمر البين فيها وقد سمي الرسول بينة كما قال { حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } {1} { رَسُوْلٌ مِّنَ اللّٰهِ } {2} البينة 1- 2 فإنه يبين الحق والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه¹

2- قال تعالى { قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ الْأَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ } طه 135 الصراط في لغة العرب هو الطريق يقال هو الطريق الواضح ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه ومنه الصراط المنسوب على جهنم وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم ويقال فيه معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه وفيه ثلاث لغات هي ثلاث قراءات الصراط والسرط والزراط وهي لغة عربية عرباء ليست من المعرب ويقال أصله من قولهم سرطت الشيء أسرطه سرطا إذا ابتلغته واسترطته ابتلغته فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود ومن أمثال العرب لا تكن حلوا فتسترط ولا مرا فتعفى من قولهم أعفيت الشيء إذا أزلته من فيك لمرارته ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين وحكى يعقوب بن السكيت الأخذ سريط والقضاء صريط والسرطاط الفالودج لأنه يسترط استراطا وسيف سراطي أي قاطع فإنه ماض سريع المذهب في مضربه فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلى مطلبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع ولم يسم الله سبيل الشيطان سراطا بل سماها سبلا وخص طريقه باسم الصراط كقوله تعالى { قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ الْأَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ } طه 135 وفي السنن عن عبد الله بن مسعود قال خط لنا رسول الله خطأ وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قاله هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه من أجابه قذفه في النار ثم قرأ { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 فسمى سبحانه طريقه صراطا وسمى تلك سبلا ولم يسمها صراطا كما سماها سبيلا وطريقه يسميه سبيلا كما يسميه صراطا²

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 181

{ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي }
لِيَبْلُؤَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ {
{ رَبِّ أَوْزِغْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }
{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###